محمد يونس هاشم

حقيقة اليهود والصهيونية وأوهام الامة العربية

دراسة في التاريخ اليهودي والمخطط الصهيوني والواقع العربي

الناشر
دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع

الكتاب : اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية .

المؤلف : محمد يونس هاشم .

رقم الإيداع : ٢٤٨٠٠ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولي : 977-6121-77-2

الناشر : دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع

العنوان : ٩٥٣ كورنيش النيل / مصر القديمة .

البريد الالكتروني : darelebdaa@hotmai.com

تليفون : ٢٥٣٢٦٧٤٤- ٢٥٣١٢٣٢١ – ٠١٠٦٦٣١٥٨٤- ٠١٠٢٥٩٢٨٧١

رئيس مجلس الإدارة : د/ هدى الكومي .

نائب رئيس مجلس الإدارة : محمد عبد الرحمن بدوي

المدير العام : منى عثمان

مدير التحرير : غادة منصور

مدير التسويق : أحمد محمد السيد

مدير المبيعات : عبد العزيز محمد عبد الرحمن

مدير العلاقات العامة : داليا محمود عبد الحميد

مدير قسم التجهيزات الفنية : محمد أحمد

الـــنـــاشـــر

تهدف التفسيرات العربية عامة والدينية خاصة في كثير من الكتب إلى رد كل مصيبة حلت بالعرب والمسلمين إلى اليهود وراح كثير من العرب والمسلمين يصفون اليهود بعدة صفات خارقة منها : أن اليهود هم المتحكمون في العالم بما لهم من قوى خارقة في التأثير على صانعي القرار الغربي عامة والأمريكي خاصة ، كما أنهم هم المتحكمون في الاقتصاد العالمي بما يملكون من كبرى الشركات والبنوك ، وهم المهيمنون على الإعلام الغربي بل الإعلام العالمي كله ... وبهذا صنع هؤلاء الكتاب - دون أن يدروا - من اليهود أسطورة خارقة وقوة لا تقهر حتى من القوى العظمى وترتب على ذلك أن عُدَّت أي محاولة لمحاربة اليهود من قبَل العرب محكوم عليها بالفشل الذريع ، وهم بهذه الأوهام إنما يثبطون الهمم وينشرون اليأس ويحبطون الآمال .

وفي هذا الكتاب اجتهد المؤلف في كشف حقيقة اليهود عن طريق ذكر قصة اليهود في الكتب السماوية وفي التاريخ الإنساني العام ، وعلاقة الغرب باليهود ، وأصل الصهيونية ، واستراتيجيتها ، وتاريخها وهل حقا أن اليهود هم الذي يتحكمون في السياسة الأمريكية أم أن ساسة الغرب المسيحي هم الذين يسخرون اليهود لتحقيق مخططاتهم الاستعمارية ؟

وكشف المؤلف عن حقيقة الفهم الخاطئ لدي كثير من العرب لحقيقة الصراع ، وبين في جلاء الأسباب الحقيقية وراء نجاح المخطط الصهيوني ، وكشف عن المسئول الحقيقي عن تنفيذه .

رئيس مجلس الادارة

د/ هدى الكومى



المقدمة

تهدف التفسيرات العربية عامة والدينية خاصة في كثير من الكتب التي ظهرت في السنوات الأخيرة إلى رد كل مصيبة حلت بالعرب والمسلمين إلى اليهود وراح كثير من العرب والمسلمين يصفون اليهود بعدة صفات خارقة منها :

أن اليهود هم المتحكمون في العالم بما لهم من قوى خارقة في التأثير على صانعي القرار الغربي عامة والأمريكي خاصة ، كما أنهم هم المتحكمون في الاقتصاد العالمي بما يملكون من كبرى الشركات والبنوك ، وهم المهيمنون على الإعلام الغربي بل الإعلام العالمي كله ، وأن دولة إسرائيل تمتلك من القوة النووية والقوى العسكرية ما تستطيع أن تفني به أي قوى معادية لها ، وأن جميع ما ينزل بنا من محن ومصائب مصدره الحقيقي هو اليهود ، وأي عمل إيجابي يهدف إلى خدمة الإسلام والعروبة فإن الذي يحبطه ويجهضه هم اليهود ، علاوة على أن جميع الشركات والمؤسسات الاقتصادية في الوطن العربي ملك لليهود يديرونها من الباطن ، وأن أي رئيس عربي لا يمكن أن يتخذ قرارا مهما إلا بعد أن يجيزه اليهود ، وأن أي كتاب أو فلم أو حتى مقال في جريدة أو مجلة فيه إدانة لليهود فإنه يصادر وإن صدر يجرم صاحبه ، وربما يصفي جسديا .

ويستشهد هؤلاء الكتاب على صحة رأيهم بالنصوص الدينية كالتوراة والتلمود وبالكتب الصهيونية مثل : كتاب " بروتوكولات حكماء صهيون " المنتحل .

وبهذا صنع هؤلاء الكتاب – دون أن يدروا – من اليهود أسطورة خارقة وقوة لا تقهر حتى من القوى العظمى وترتب على ذلك أن عُدَّت أي محاولة لمحاربة اليهود من قِبَل العرب محكوم عليها بالفشل الذريع ، وهم بهذه الأوهام إنما يثبطون الهمم وينشرون اليأس ويحبطون الآمال .

وما على المسلمين إلا الإذعان لليهود إلى حين يجيء المهدي المنتظر – الذي حان مجيئه في زعمهم – لكي يخلصهم منهم !!

إن بعض الكتاب مُصِرٌ على أن اليهود : قدماء ومحدثين هم السبب فيما صرنا إليه [1]. لقد دمروا حضارتنا واغتالوا ثقافتنا ، والحقيقة أن الحضارة لا تقتل بل تنتحر ، والعاجز من لا يأخذ في أسباب النصر ، ويُرجِع لعدوّه أسباب الهزيمة .

ما دخل اليهود من حدودنا * وإنما تسربوا كالنمل من عيوبنا [2]

نعم هناك من يتربص بنا الدوائر ولكن ألم يكن لأجدادنا العظماء أعداء ؟

ألم يكن هناك مشركون في مكة ويهود ومنافقون في المدينة ، وفرس وروم خارجها ؟

ألم يكن يكيدون لهم ليل نهار ؟

فلم تقدموا وتخلف غيرهم ؟

ولم رُدَّ الكيد إلى نحر أعدائهم ؟

---

(1) فيزعم أصحاب هذا الرأي أن قدماء اليهود هم الذين أفسدوا علينا ديننا بوضع الأحاديث المفتراة ونشرها ، وملء كتب التفاسير بالإسرائيليات وتأكيدها ، وتفتيت وحدة المسلمين وإضعافها ، هذا بالإضافة لقيامهم بمحاولات لقتل النبي ، أما المحدثون من اليهود فهم الذين احتلوا أرضنا وشردوا أهلنا ، ودنسوا مقدساتنا ، وروجوا لكل مفسدة وانحراف ، وحولوا أسود العرب إلى خراف .

(2) من قصيدة " هوامش على دفتر النكسة " لنزار قباني .

لأنهم كانوا أقوى وأعلم وأتقى من كل كيد ومكر ، ولما ضعفنا { فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا } (مريم : ٥٩)

وإذا كان العرب المحدثون في حربهم ضد أعدائهم يكتفون بالدعاء على أعدائهم والتغني بأمجادهم دون الأخذ في أسباب النصر ، فإن أعداءهم اليهود الصهاينة والصليبيين الجدد لا يكتفون باحتلال أرضنا عسكريا بل يروجون لمزاعم دينية تبرر عدوانهم السافر وتجعل لهم حقا أبدياً في أرضنا المقدسة !!

{ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ } (محمد : ٤)

ولما وجدت أن الأمر جد خطير ، وأن السكوت عن بيان الحق كالنطق بالباطل وكلاهما شر مستطير استعنت بالله وشرعت في كتابة سلسلة كتب تحت عنوان " نحو فهم صحيح لحقيقة الصراع العربي الصهيوني " وهذا هو الكتاب الثاني من هذه السلسلة بعد كتاب " الدين والسياسة والنبوءة بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية " الذي رددت فيه على أساطير الصهيونية الدينية مثل : أسطورة شعب الله المختار ، وأسطورة أرض الميعاد ، وأسطورة الخلاص الإلهي لليهود في آخر الزمان ... والأساطير السياسية التي أضافتها الصهيونية وجعلتها من المقدسات يحرم المساس بها وهي أساطير : عداء الأغيار الأزلي لليهود ، أرض بلا شعب لشعب بلا أرض ، أسطورة الملايين الستة (الهولوكوست) ، وأسطورة بناء اليهود لأهرام مصر ...

وإذا كان من أوَّلِيَّات الصراع أن تَعْرِف الأمة عدُوَّها، فنحن أجهل قوم بعدوهم الرابض على صدورهم، في حين أن العدو أدرى منَّا بما يدور في دُورنا !!

وإذا كان من بَديهات الصراع معرفة جذوره فنحن أزهد الناس في معرفة ما يتصل بقصته، ونحن نتصرف تربويًّا، وكأنَّنا نخشى على أبنائنا أن يعرفوا شيئًا من هموم الماضي، التي تصنع من خاماتها مَصائب المستقبل! أي: أن التربية غائبة !(١)

ومن أجل هذا شرعت في تأليف هذا الكتاب " حقيقة اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية ".

يتكون الكتاب من تسعة فصول :

في الفصل الأول : اجتهدت في كشف أصل الأساطير الصهيونية عن طريق ذكر قصة بني إسرائيل كما جاءت في توراة اليهود والتي تؤكد بجلاء أن كل ما حاق بهم من عذاب إنما كان جزاء خروجهم عن الشريعة وعصيانهم لوصايا الرب وعبادتهم العجل ، وأن انتصارهم على الكنعانيين لم يكن بسبب إيمانهم لكن بسبب عصيان الكنعانيين لله ، وأن العهد الإلهي بملك أرض كنعان قد تحقق بإقامة داود وسليمان – عيهما السلام – المملكة العبرانية الموحدة ، أما النصوص الخاصة بعودة اليهود إلى أرض الميعاد بعد الشتات فقد تحققت في عهد قورش الأكبر ، كما بينت بشيء من التفصيل علاقة اليهود بأنبيائهم التي اتسمت دائما بالعناد والعصيان والمخالفة في غالب الأحيان .

الفصل الثاني : وتناولت فيه علاقة اليهود بيسوع المسيح كما جاءت في الأناجيل ابتداءً من تكذيبه ورميه بأبشع التهم ، ونهاية بتسليمه لحاكم الرومان بيلاطس ليصلبه ورأي يسوع في اليهود . ثم بينت موقف المذاهب المسيحية من اليهود ودللت على أن

---

(١) د. عبد الصبور شاهين مقدمة كتابة " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " تأليف رجاء جارودي ترجمة وتقديم د. عبد الصبور شاهين .

المذهب البروتستانتي (الذي يدين به معظم الأمريكان والإنجليز) قراءة مغلوطة للإنجيل ، كما بينت اختلاف مسيحيي العرب مع هذا المذهب الذي هوَّد المسيحية .

الفصل الثالث : يتناول قصة بني إسرائيل واليهود في القرآن الكريم وأهم الصفات التي وصف الله تعالى بها اليهود ، ورد القرآن الكريم على أساطير اليهود (شعب الله المختار ، والأرض الموعودة ، والخلاص في آخر الزمان ..)

في الفصل الرابع : يتناول علاقة اليهود بسيدنا محمد ﷺ ابتداء من التبشير بمجيئه ، وانتهاء بتكذيبه ومحاولة قتله وخيانة عهده وتأليب الأحزاب عليه ، كما تناول الفصل علاقة الرسول ﷺ باليهود وكيف عاملهم بإحسان وكيف قابلوا إحسانه هذا بالإساءة ، ثم ذكرت إلام انتهت العلاقة بينه ﷺ وبينهم .

الفصل الخامس : يتناول قصة اليهود في التاريخ الإنساني العام وفق أحدث الآثار والمكتشفات الحديثة والنقوش والحفريات التي وصلتنا من الحضارات القديمة ، ورأي علماء التاريخ في روايات التوراة ، وأساطير الصهيونية ، كما يتناول هذا الفصل تاريخ فلسطين وعروبتها ، وكيف احتل بنو إسرائيل أجزاء منها ؟ وكم دام هذا الاحتلال ؟ وكيف انتهى ؟ وكيف كانت حياة اليهود في مصر ، وفي بابل وآشور ، وأثناء الحكم الروماني ، والإسلامي وفي الشتات ؟ .

الفصل السادس : ويتناول حياة اليهود في الجيتو ، وأهم سماتهم ، وأثر النهضة الأوربية عليهم .

الفصل السابع : يتناول ، التعريف بالصهيونية ، أصلها ، وأنواعها ، وأهدافها الاستراتيجية ، وآليات تنفيذها ، وعلاقتها بكل من : الإمبريالية الغربية ، واللاسامية ، والفاشية ، والنازية ، والمسيحية .

الفصل الثامن : يحاول الإجابة عن سؤالين أساسيين : كيف تأسست دولة إسرائيل ؟ وهل كان تأسيس اليهود لها معجزة يهودية أم خيبة غربية ومؤامرة غربية ؟

الفصل التاسع : يتناول موقف كل من الدولة العثمانية ، والمشرق العربي ، ومصر إبان إقامة المشروع الصهيوني ، وكيف تواطأ بعض الحكام العرب مع الإنجليز والصهيونية ، والأسباب الحقيقية وراء هزيمة العرب في صراعهم مع الصهيونية .

وأخيرا ما سطرته في هذا الكتاب مبلغ علمي وطاقة جهدي واجتهادي داعيا الله تعالى أن يرزقنا الفهم الدقيق والعمل الصالح وأن يجنبنا الزلل ، وأن ينفع الله الناس بما فيه من حق ، وأن يعفو عني ويسامحني عما قد يكون فيه من خطأ في الفهم أو تقصير في الجهد .

{ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} (هود : ٨٨)

محمد يونس هاشم

القاهرة

١٨ /٨/ ٢٠٠٨

أما قبل

جماعات يهودية وليسوا يهودا :

بداية يجب التأكيد على أن اليهود ليسوا سواء عبر الزمان والمكان فهناك سمات مميزة عرقيا وثقافيا ودينيا لكل جماعة ، فبنو إسرائيل العبرانيون غير يهود السبي البابلي غير يهود السبي الروماني غير يهود المدينة على عهد النبي ﷺ غير اليهود الصهاينة في العصر الحديث فاليهود على اختلاف الزمان لم يمثلوا جماعة واحدة موحدة دينيا ، وثقافيا وعرقيا

نقول هذا لأن كثيرا من الكتابات العربية والإسلامية تخلط خلطا فاضحا بين اليهودية كديانة والصهيونية كسياسة ، فالصهيونية قراءة مغلوطة ومتعصبة لليهودية ومن الخطأ الفاضح وسم الجماعات اليهودية كافة بميسم واحد ، ووصفها جميعا بصفات واحدة تميزهم عن سائر البشر فهناك جماعات يهودية ملحدة لا دين لها ولولا خوفهم من الطرد من إسرائيل لتنصروا أو أسلموا ، وهناك جماعات يهودية غربية تؤمن بالعلمانية الغربية الشاملة ، وهناك جماعات يهودية شرقية رجعية متخلفة ، وجماعات يهودية دينية متطرفة تريد أن تبيد كل الأغيار من غير اليهود ، وجماعات صهيونية تنادي بعودة اليهود إلى أرض الميعاد تحت لواء القوى الإمبريالية أو الصهيونية العالمية ... وشأن اليهود شأن كل المجمعات البشرية ليس كل أفرادها على قلب رجل واحد فالعالم العربي فيه من التنوع والاختلاف ما لا يقل عن الجماعات اليهودية فمن سلفية إلى علمانية إلى صوفية إلى جهادية إلى رجعية إلى انحلالية إلى نفعية استغلالية ...

كذلك ليس كل الغرب صهيونيا معاديا للعرب ومناصرا لدولة إسرائيل بل هناك كثير من الغرب المحب للسلام الداعي للحق والعدل يرفض الأساطير الصهيونية ، وإذا كانت هناك مباركة من كثير من الدول الغربية للممارسات الصهيونية فإن هذا يرجع لأسباب كثيرة : منها الدعاية الصهيونية الجبارة التي تزيف الحقائق وتبرر الجرائم ، ومنها حجب المعلومات الصحيحة عن الشعوب ، وتضخيم الممارسات غير المسئولة من بعض المسلمين التي لا يستبعد أن تكون الصهيونية ضالعة فيها ، ومن المؤكد أن كثيرا من هذه الممارسات كان لها أثرها البالغ في تغاضي المجتمع الغربي عن جرائم الحكومات الإسرائيلية في حق الشعب الفلسطيني ، ومن هذه الممارسات غير المسئولة ذبح المدنيين الأجانب ، وقتل المدنين العزل ، وخطف الأبرياء والتهديد بقتلهم ، واحتجاز الرهائن ...

تلك الجرائم التي ترتكب باسم الإسلام والإسلام منها براء فالله تعالى لا يحب المعتدين ولا يجيز العدوان إلا على الظالمين .

{ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ } (البقرة : ١٩٣) .

***

الفصل الأول

بنو إسرائيل في توراة اليهود

نظرة بني إسرائيل لتاريخهم

إن تاريخ بني إسرائيل التوراتي هو القصص التاريخي الذي يرد في العهد القديم ، وهو يختلف عن التاريخ الفعلي ويتناقض معه أحيانا. ويصلح هذا التاريخ مصدراً للمعلومات والفرضيات، ولكن اليهود يجعلون هذا التاريخ مقدسا تماما كالشريعة الدينية بل إنهم يتخذون من ممارسات الجماعات اليهودية التي ورد ذكرها في التوراة مصدرا للتشريع ، فعندما يبيد يشوع سكان أريحا من الكنعانيين عن آخرهم فإن اليهود لا يعتبرون هذا العمل عملا بشرياً يخضع للنقد بل يعتبرونه تشريعا دينيا يجب أن ينتهجوه في كل بلد يحتلونه .

وبالفعل فقد نهج السفاح بيجين في دير ياسين نهج يشوع في أريحا .

ونحن نقرر وجوب التفرقة بين العقيدة الدينية وتاريخ الجماعة المنتسبة إليها ، فليس بالضرورة أن تاريخ جماعة دينية ما يكون تطبيقا صحيحا لتعاليم الدين الذي تنتسب إليه بحيث يكون تاريخ هذه الجماعة حجة على الشريعة الدينية ، فغالبا ما تخرج الجماعات الدينية عن نهج دينها وهذا مشاهد عبر تاريخ الأديان ، فهل ما يفعله الأمريكان في العراق وأفغانستان هو ما جاءت به تعاليم المسيحية أم انتهاك صارخ لدعوة الحب والتسامح التي نادى بها يسوع ، وهل التخلف والضعف والفساد وسائر الموبقات التي فشت في المسلمين المعاصرين هي من تعاليم الدين الإسلامي أم أنها تتناقض تماما مع أمر الإسلام بالعلم النافع والقوة الحارسة للحق ونهيه عن الفحشاء والمنكر والبغي !!

إن التاريخ نتاج تفاعل عدة عناصر من بينها الدين . والتاريخ التوراتي المقدَّس الذي ورد في العهد القديم هو تاريخ ذو مغزى أخلاقي تستخلص منه العِبَر. بل إن

العبرة قد تكون، في كثير من الأحيان، أهم من الحدث نفسه. وهو تاريخ يتبع نسقاً دينياً محدداً؛ يختار من الحدث ما يخدم الهدف، ويلجأ إلى الصور المجازية والرموز والمبالغة ليوصل الحكمة إلى المتلقي . وبالتالي ، كثيراً ما تتناقض وقائع هذا التاريخ ووقائع التاريخ الإنساني العام وإن كانت تتفق معها أحياناً. ولكن كثيراً من القصص التي وردت في العهد القديم، والتي تدَّعي لنفسها صفة التاريخية، لا يمكن إثباتها بالعودة إلى التاريخ الإنساني العام .

فبعض المدوَّنات الآشورية والبابلية والمصرية تعطينا أحياناً صورة مختلفة تماماً. فوقائع هجرة العبرانيين من مصر، كما وردت في سفر الخروج، تختلف في كثير من النواحي عن الشذرات المتناثرة التي وصلتنا عن هذا الخروج، إن لم تكن متناقضة معها. كما يأتي ذكر سليمان في التاريخ التوراتي المقدَّس كملك عظيم مهيب، وأن المملكة المتحدة قد ازدهرت تحت حكمه حقاً. ولكننا نعرف أيضًا أن هذا الازدهار كان مؤقتاً وناتجاً عن الفراغ السياسي المؤقت في الشرق الأدنى القديم، كما نعرف أن مملكته لم تكن تختلف كثيراً عن الدويلات الأخرى التي ازدهرت في تلك المنطقة بسبب غياب الإمبراطوريات العظمى التي اكتسحتها فيما بعد، وتقاسمتها فيما بينها بعد ظهورها.

وهذه كلها جوانب يُسقطها التاريخ المقدَّس ولا يُعنى بها. كما نعلم أن سليمان، حتى في أوج عظمته، لم يصل إلى تلك الأبعاد الأسطورية التي تتحدث عنها الرواية التوراتية .

والفكر الغربي واليهودي والصهيوني يتجه دائماً نحو محاولة اكتشاف الأنماط المتكررة في التاريخ المقدَّس كما تتبدَّى في تاريخ الجماعات اليهودية في العالم وعبر التاريخ، بحيث تصبح حادثة مثل الإبادة النازية تكراراً للعبودية في مصر وتكراراً للتهجير البابلي، كما أن إعلان دولة إسرائيل يشبه الخروج من مصر، والاستيطان في فلسطين يشبه التغلغل في كنعان، وهكذا .

وهجرة اليهود السوفييت هي خروج اليهود من الاتحاد السوفيتي بعد عبوديتهم في روسيا القيصرية والسوفيتية. بل إنهم يرون هذا التاريخ باعتباره تاريخاً له بداية ونهاية (وكأنه مسرحية إلهية لها حبكة واضحة) وبالتالي يشكل إعلان دولة إسرائيل نهاية التاريخ . (١)

---

(١)د. عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م٤ " إشكالية التاريخ اليهودي." بيت العرب للتوثيق العصري والنظم .

إن التفكير العنصري الذي تبنته الصهيونية الحديثة إنما يعود بأصوله إلي بعض مصادر التوراة دون غيرها ولهذا فالتفكير العنصري الصهيوني ما هو إلا نتيجة من نتائج التحريف والتبديل الذي تعرضت له التوراة فالمصدر اليهوي (١) يعد بحق المنبع الأول للتفكير العنصري في اليهودية ومنه استمدت الصهيونية الحديثة أيديولوجيتها العنصرية .

فقد طور أصحاب المصدر اليهوي كثيرا من المفاهيم القومية ذات الطابع العنصري ومنه على سبيل المثال : " ثالوث الشعب و الأرض و الإله " ، ومفهوم " أرض إسرائيل " وهم الذين أضافوا المعاني العنصرية التي اكتسبتها مفاهيم " العهد " أو الميثاق " و " الاختيار الإلهي لإسرائيل " وكذلك " الخلاص الإلهي " وكانت كلها مفاهيم دينية خالصة قبل أن تكتسب هذه المعاني العنصرية التي ألصقها بها المسئولون عن المصدر اليهوي في التوراة وتصبح فيما بعد سندا للعنصرية التي تبنتها الصهيونية الحديثة " (٢)

تاريخ بني إسرائيل

إن تاريخ بني إسرائيل يبدو دائمًا لُغزًا حقيقيًا، ولا ريب أن قراءة الكتاب المقدّس تُقَدِّم إلينا ملحمة غريبة، هي تاريخ بني إسرائيل؛ فقد بدأ هذا التاريخ مع تاريخ العالَم، منذ خلْق السماوات والأرض، ثم خلق الإنسان الأول، ثم يأتي بعد ذلك دمار هذا الخلْق، بسبب خطايا البشر، وذلك بالطوفان الذي نجا منه نوح وحده، فتولى إعمار الدنيا .

ثم جاء أحد ذراريه، إبراهيم فرسم بسلوكه المثالي اتجاه التاريخ اللاحق كله، أنجب ولده إسحاق، الذي نجَّاه الرب ذاته، كفاءَ ما خضع لإرادة الرب خضوعًا مُطلقًا، ثم جاء ابن إسحاق الصغير يعقوب، الذي سُمِّي بإسرائيل، والذي سوف يكون له اثنا عشر ولدًا، هم أصول الاثنتي عشرة قبيلة، أسباط بني إسرائيل، وبذلك يُصبح إسرائيل أصل "التاريخ المقدس".

وقد انعقد بين إسرائيل وبين الرب "عهد"، وسوف يَحتَرِم إسرائيل شريعة الرب، وسوف يعده الرب بأرض كنعان.

---

(١) أحد مصادر التوراة وسمي بهذا الاسم لأنه يستخدم لفظ " يهوه " للدلالة على الألوهية .

(٢) د. محمد خليفة حسن " علاقة الإسلام باليهودية . رؤية إسلامية في مصادر التوراة الحالية " ص ٧١

وبعد أحداث هائلة كثيرة، ناشئة عن خطايا إسرائيل، مما أنزل الرب به من عقوبات، تحقق الوعد الذي أعطى للأحبار، وبعد هجرة طويلة، من العراق إلى مصر، وعبودية طويلة تحت نير الفراعنة، أخرب الرب شعبه من مصر، ووجَّه هجرته، بأن أعطاه موسى قائدًا، وأوحى إلى موسى الشريعة التي يتعيَّن على بني إسرائيل الالتزام بها منذ ذلك الحين، حتى يكونوا مخلصين للرب، ثم اتحد بعد ذلك الأسباط الاثنا عشر تحت إمرة يشوع، في حرب خاطفة تستولي على كنعان، وطرد الرب أمامهم المُحتلِّين، أو أباد الشعوب بجنود يشوع.

ثم آلَ مُلْك البلاد إلى داود وابنه سليمان، بعد عِدَّة انقلابات قمَعَها القُضاة، زعماء الأسباط، وقد كان حكم سليمان تاريخًا رائعًا، ظل إلى وقت طويل يُتَناقَل أجزاء من خلال الروايات الشفهية، ثم بدأ يُكتَب ويُؤلَّف في تصنيف مُتَناسِق.

هذا التأليف الأول الذي تمَّ على يد فريق يُطلق عليه المُفَسِّرون: اليهوي – في القرن العاشر ــ سوف يتولى إكماله في النصف الأول من القرن الثامن فريق آخر من جامعي الروايات، يُوصَف بأنه الإيلوهي ، وهو الذي سوف يُخَفِّف من نزعة التجسيم في الرواية الأولى .

ثم يَحدُث تأليف من الروايتين، بين سنَتَي ٧١٦ــ٦٨٧، هو تأليف سفر التثنية، وهو الذي ركَّز على فكرة "العهد"، وفكرة "الشعب المختار"، كما ركز على جميع نتائج الوفاء بهذا العهد .

ويأتي أخيرًا المصدر الكهَنُوتي "كما يُسَمَّى بسبب تشديده على مُراعاة الشعائر، وكان ذلك لدى السبي البابلي، في القرن السادس ق.م . (١)

مراحل تاريخ الديانة اليهودية

يمكن تلخيص التاريخ العبري في ارتباطه بالدين والعقيدة إلى مراحل خمس ويجب هنا أن نلاحظ وضع هذه الرؤية الدينية للتاريخ قد تم في مرحلة متأخرة ربما بعد عصر موسى بكثير :

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الأول : الحضارة الكنعانية . الهندسية لتطوير نظم الحاسبات . RDI .

أولا : مرحلة الآباء ، وهي أقدم مراحل التاريخ والديانة اليهودية ، وخلاصة مضمونها أن الآباء الإسرائيليين ، ابتداء من آدم إلى نوح وإبراهيم وإسحق قد تلقوا وعودا إلهية ، وأن التاريخ الإسرائيلي اللاحق يعتبر المسرح الذي تحققت عليه هذه الوعود ، وكان من الضروري ربط التاريخ الموسوي بتاريخ الآباء السابقين عليه بما أن الإله الإسرائيلي إله يسيطر على التاريخ و حركته من البداية إلى النهاية إذ لا يمكن بداية هذا العصر الموسوي بل يجب العودة إلى بداية الخلق لأن من أول وأهم صفات الإله الجديد إنه الإله الخالق للكون والتاريخ وقد تمت عملية الربط هذه بتكرار العهد للموسى مع عدد من الآباء السابقين ومن أهمهم إبراهيم وإسحق ويعقوب بل والعودة بفكرة العهد إلى نوح وآدم حتى يصبح التاريخ وحدة واحدة لا تتجزأ ويصبح الإله الإسرائيلي خالقا لكل التاريخ .

ثانيا : مرحلة الخروج من مصر ، وفيها توضع الأسس الأساسية للعقيدة اليهودية فهي المرحلة التي شاهدت أول لحظة تاريخية يتحقق فيها الوعد الإلهي المعطى للآباء الإسرائيليين والمعطى لموسى فالخروج يعتبر تحقيقا للوعد الإلهي وهو أيضا رمز للخلاص الإلهي وبهذا الشكل يتم لدينا تطوير مفهومي : الوعد والخلاص اللذان أصبحا من أسس الديانة اليهودية ، وحادثة الخروج تعتبر أيضا بداية الشعور القومي الحقيقي لدى الإسرائيليين فخروجهم من مصر في شكل جماعة تحت قيادة موسى أعطاهم صفة القومية وكانت في نفس الوقت بداية للإحساس بالشعور التاريخي ولأن حادثة الخروج معجزة إلهية فقد أضافت بعدا دينيا إلى الإحساس القومي التاريخي لهذه الأسباب كانت حادثة الخروج أهم أحداث التاريخ الإسرائيلي القديم نظرا لما لها من تأثير على الفهم التاريخي الديني لدى الإسرائيليين وعلى أساس هذه الحادثة يفسر بقية التاريخ الإسرائيلي .

ثالثا : المرحلة الثالثة هي مرحلة الوحي في سيناء ، وإعطاء التوراة وبناء الحياة الاجتماعية لليهود وهذه المرحلة مكملة لمرحلة الخروج وامتداد لأحداثها وتأكيدا للجانب الديني في الأحداث السابقة .

وهكذا نجد أن هذه المرحلة تتميز بامتزاج الأبعاد الدينية والتاريخية والاجتماعية لتعطي للجماعة اليهودية شكلا جديدا في هيئة جماعة منظمة تنظيما دينيا اجتماعيا

قوّى الشعور القومي لدى هذه الجماعة فاستطاعوا تمييز أنفسهم كشعب أو جماعة يختلفون عن المصريين ويؤهلهم هذا في نفس الوقت للدخول في المرحلة التالية من تاريخهم السياسي الديني وهي مرحلة دخول كنعان والاستقرار فيها .

رابعا : المرحلة الرابعة مرحلة دخول كنعان ، وهي تأتي بعد أن انتظمت الجماعة الخارجة من مصر في تنظيم ديني اجتماعي دعامته الوحي في سيناء الذي ميز هذه الجماعة دينيا عن الشعوب المجاورة وفي نفس الوقت بدأت تكتسب هذه الجماعة صفة الجماعة المحاربة نتيجة الصراع الذي بدأ يدور بين الجماعة العبرية وبين القبائل الأخرى في سيناء ومع دخول كنعان اكتسبت صفة عسكرية وجدت تأييدا لها من الناحية الدينية .

وعملية ربط التفكير الديني بالتفكير العسكري عملية تعود أصولها الأولى إلى فكرة الإله المحارب المدافع عن شعبه وقد كان يهوه أحد هؤلاء الآلهة حيث تصفه التوراة كثيرا " بإله الجنود " وقد أخذت الجماعة العبرية صفة الجماعة الغازية تحت قيادة موسى ويشوع وتبلورت الخدمة الدينية والخدمة العسكرية في عقلية الإنسان العبري وأصبحت من صفاته المميزة ، وأصبحت العسكرية لها أصولها الدينية ولذلك فأصدق تعبير عن دخول كنعان أنه كان غزوا عقائديا امتزجت فيه العسكرية بالعقيدة فالأرض المَغْزُوّة وهي أرض كنعان ووصفت بأنها أرض الميعاد ، والغزو فُسر بأنه ضرورة لتحقيق الإرادة الإلهية التي تمثلت في الوعد المعطى للآباء الإسرائيليين وفُسرت كل الأحداث السابقة ابتداء من الخروج من مصر وأحداث سيناء والوحي على أنها خطوات في طريق تحقيق الوعد المقطوع بين الإله والشعب .

خامسا : تحقق الوعد الإلهي وإقامة مملكة إسرائيل ، تبلورت كل العناصر السابقة الذكر خلال الصراع الكنعاني العبري إلى أن تمت السيطرة السياسية للغزاة العبريين وإن وقعوا هم أنفسهم تحت التأثير الديني الحضاري للكنعانيين ويستمر ازدياد النفوذ السياسي العبري في كنعان إلى أن يتمكن العبريون من إنشاء أول مملكة عبرية في التاريخ الإسرائيلي وهي المملكة الداودية حيث توحدت كل القبائل الإسرائيلية وتم الاستيطان الإسرائيلي الكامل ، كما تمت أيضا السيطرة الدينية

العبرية بالقضاء التام على آلهة الكنعانيين وجمعت صفاتهم ووظائفهم في شخصية الإله الواحد " يهوه " وكان في هذا نهاية الصراع الكنعاني العبري بوجهيه : الديني والسياسي .

ويعتبر المؤرخون اليهود مملكة داوود التحقيق النهائي لعقيدة العهد بين الإله والشعب وهو العهد المعطى للآباء الإسرائيليين بالأرض أولا ثم الخلاص ثانيا ، وفي عصر داود يكتمل الوعد بالأرض والخلاص ودولته نموذجا للمملكة في التفكير في تاريخهم ويصبح داود نموذجا للملك ودولته نموذجا للمملكة في التفكير التاريخي الإسرائيلي فبعد سقوط هذه المملكة أصبحت فكرة غيبية دينية حشرية نظرا لعدم إمكانية تحقيقها تاريخيا وارتبطت بهذه المملكة الغيبية (مملكة الله) فكرة المسيح المخلص وهي أيضا عقيدة غيبية حشرية تقوم على أساس أن الخلاص الإسرائيلي سيتم على يد مسيح منتظر من نسل داود وارتباط المسيح المنتظر بشخص داود معناه تحقيق خلاصهم من العبودية وجمع شتاتهم ووضعهم في مملكة الله . إن هذا المخلص له دور سياسي حيث يقوم بأعباء تحرير اليهود وإلى هذا الحد كانت الفكرة دينية بحتة إلى أن استغلها الصهاينة في العصر الحديث وحولوها إلى واقع سياسي وربطوها أيضا تاريخيا بداود ولا عجب إذن أن تكون نجمة داود رمزا لهذا الارتباط بالتاريخ القديم .

هذه هي المراحل المهمة في التاريخ الديني السياسي الإسرائيلي ومن الملاحظ أنه في هذه المراحل لا يمكن الفصل بين ما هو دين وما هو تاريخ بالمعنى العلماني فقد تطور الدين والتاريخ داخل إطار واحد فسرت فيه أحداث التاريخ تفسيرا دينيا مناسبا وقد أعطى هذا التاريخ الإسرائيلي بعض الخصائص التي انفرد بها منها : أن التاريخ أصبح وسيلة أو أداة تستغل لتحقيق وعود الإله لشعبه وهذه الوعود لا يمكن تحقيقها إلا باستغلال التاريخ وتوجيه أحداثه لخدمة هذا الهدف الديني ،وأحيانا وضع الأحداث أو اختلاقها لتوائم فكرة دينية [1]

---

(١) انظر د. محمد خليفة حسن " دراسات في تاريخ حضارة الشعوب السامية القديمة " دار الثقافة للنشر المبحث الثاني " التاريخ العبري القديم " .

وبعد ذكر هذه المراحل الخمس بإيجاز نقوم الآن باستعراض هذه المراحل كما تبدت في توراة اليهود مؤيدة بالنصوص التي تؤكدها :

مرحلة الآباء :

وتشير كلمة " الآباء " في الكتب اليهودية إلى آباء اليهود : إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهم الذين تلقوا وعوداً إلهية بأن تكون أرض فلسطين من نصيبهم .

وتبدأ فترة الآباء مع ظهور أول شخص يُوصَف بأنه عبراني، وهو إبراهيم. الذي تلقى أول وعد من إله إسرائيل بتملك أرض كنعان ملكا أبديا .

" ٧ وَأُقِيمُ عَهْدِي الأَبَدِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، فَأَكُونُ إِلَهاً لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. ٨وَأَهَبُكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ جَمِيعَ أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي نَزَلْتَ فِيهَا غَرِيباً، مُلْكاً أَبَدِيّاً. وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً»." . (التكوين : ١٧)

وتحدد التوراة الأرض التي هي ملك وحق أبدي لنسل إبراهيم فتقول : " سَأُعْطِي نَسْلَكَ هَذِهِ الأَرْضَ مِنْ وَادِي الْعَرِيشِ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ. ١٩أَرْضَ الْقَيْنِيِّينَ وَالْقَنِزِّيِّينَ، وَالْقَدْمُونِيِّينَ ٢٠وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ ٢١وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ»." (التكوين : ١٥)

ويجدد يهوه العهد لإسحاق بعد موت إبراهيم .

" فَارْتَحَلَ إِسْحقُ إِلَى مَدِينَةِ جِرَارَ حَيْثُ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. ٢فَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ قَائِلاً: «لاَ تَمْضِ إِلَى مِصْرَ، بَلِ امْكُثْ فِي الأَرْضِ الَّتِي أُعَيِّنُهَا لَكَ. ٣أَقِمْ فِي هَذِهِ الأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لأَنَّنِي **أُعْطِي لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ جَمِيعَ هَذِهِ الأَرْضِ وَفَاءً بِقَسَمِي الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ.** ٤وَأُكَثِّرُ ذُرِّيَّتَكَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَأَهَبُهَا جَمِيعَ هَذِهِ الْبِلاَدِ. وَتَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ. " (التكوين : ٢٦)

ويُوَرِّث إسحقُ العهودَ الإلهيةَ لابنه يعقوب " إسرائيل " .

" فَاسْتَدْعَى إِسْحقُ يَعْقُوبَ وَبَارَكَهُ وَأَوْصَاهُ قَائِلاً: «لاَ تَتَزَوَّجْ مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ. ٢قُمِ انْطَلِقْ إِلَى سَهْلِ أَرَامَ، إِلَى بَيْتِ بَتُوئِيلَ أَبِي أُمِّكَ، وَتَزَوَّجْ إِحْدَى بَنَاتِ خَالِكَ لاَبَانَ. ٣وَلْيُبَارِكْكَ اللهُ الْقَدِيرُ وَيُنَمِّكَ وَيُكَثِّرْكَ لِتَكُونَ أُمَّةً تَتَفَرَّعُ مِنْهَا شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ، ٤وَلْيُعْطِكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مَعَكَ بَرَكَةَ إِبْرَاهِيمَ **لِتَرِثَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ الَّتِي تُقِيمُ فِيهَا الآنَ؛ هَذِهِ الأَرْضَ الَّتِي وَهَبَهَا اللهُ لإِبْرَاهِيمَ».** " (التكوين : ٢٨)

ولقب " آباء " ليس لقباً دينيا عند بني إسرائيل فإبراهيم وإسحاق ويعقوب ليسوا أنبياء بل رؤساء وشيوخ لقبائلهم وعشائرهم يرتبطون بها برباط الدم والنسب والعرق. ويُعَدُّ يعقوب أهمهم في التراث اليهودي، ذلك أن إبراهيم وإسحق قد أنجبا ابنين شريرين هما إسماعيل وعيسو، أما يعقوب (إسرائيل) فلم ينجب سوى الأخيار.

كان العبرانيون شعباً رعوياً متجولاً من مكان إلى آخر، يضرب خيامه على حواف المدن الكنعانية ويتمتع برعاية الملوك الكنعانيين .

ولأنهم شعب متجول، لم تكن لهم هُويَّة حضارية محدَّدة بعد، إذ لم يكونوا يخضعون لأطر سياسية أو كهنوتية ثابتة، ولا ينتمون لتراث حضاري مركب كما كان الحال مع شعوب المنطقة .

فالتوراة لا تُصوِّر الآباء كأنبياء يدعون الناس إلى عبادة الله وحده وترك الشرك وعبادة الأصنام ، بل تصورهم بعدم المبالاة بالوثنية فهم لا يشنون أية حرب على الوثنية ولا على عبادة الأصنام التي تصبح موضوعاً أساسياً في الفترة الموسوية. بل تضم قصص الآباء أحداثاً تتنافى والقيم الأخلاقية التي وردت بعد ذلك في كتب العهد القديم الأخرى.

فقد تزوَّج يعقوب من أختين في وقت واحد (لاويين ١٨/١٨١)، و قام إبراهيم ومن بعده إسحق بادعاء أن زوجته الحسناء هي أخته حتى يَتَكَسَّب من ورائها. ويستغل يعقوب حاجة أخيه عيسو إلى الطعام في الحصول على بكورته، أي أسبقيته في الولادة، ويغتصب التركة من أخيه غشاً وخداعاً. وزرع إبراهيم شجرة مقدَّسة (تكوين٢١/٣٣، وتثنية ١٦/٢١)، وأقام يعقوب أعمدة حجرية مقدَّسة (تكوين ٢٨/١٨ و٢٢، و٣١/١٣ و٤٥ ــ ٥٢، و٣٥/١٤، وخروج ٢٣ / ٢٤) الأمر الذي يدل على وجود عناصر وثنية في عبادتهم. ويُلاحَظ أن عبادة الآباء لا تدور في الإطار القومي الإقليمي الذي اتسمت به اليهودية بعد ذلك، فالآباء ينتقلون بحرية من مكان إلى آخر يعبدون الإله في أي مكان. ولا يُشار إلى الخالق باعتباره يهوه وإنما يشار إليه بأسماء أعلام بعضها لا يرد ذكره إلا بالإشارة إلى فترة الآباء مثل: «إيل عليون» أو «الإله العلي» (تكوين ١٤/١٨، ٢٢) و«إيل عولام» أي «الإله السرمدي» (تكوين ٢١/٣٣)، وأكثر هذه الأسماء شيوعاً هو «شدَّاي» أي «الإله القدير» (تكوين ١٧/١، ٢٨/٣، ٣٥/١١)

يُلاحَظ أن ثمة موضوعين أساسيين يؤكدهما محررو الأسفار بإلحاح، وهما أن هذا الشعب المنحدر من هؤلاء الآباء سيصبح شعباً عظيماً (الشعب المختار)، وأن أرض كنعان (فلسطين ــ إرتس يسرائيل) هي أرضه (الأرض المقدَّسة). ويمكن تصوُّر أن هذه المفاهيم الدينية قد تطوَّرت في فترة لاحقة ولكن محرري التوراة نسبوها إلى الآباء لفرض نوع من الوحدة الفكرية على العهد القديم، وحتى يصبح التاريخ وحدة متكاملة يرعاه إله يسرائيل . (١)

قصة بني إسرائيل في مصر

كان بنو إسرائيل قبل لجوئهم إلى مصر بدواً لا أرض لهم ولا وطن فقد كان الرعي – حرفتهم – يضطرهم إلى الترحال حيث يوجد الماء والكلأ .

" وَمَثَلَ يُوسُفُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَقَالَ لَهُ: «لَقَدْ جَاءَ أَبِي وَإِخْوَتِي مَعَ قُطْعَانِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَكُلِّ مَا لَهُمْ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ، وَهَا هُمُ الآنَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ». ٢وَأَخَذَ خَمْسَةً مِنْ إِخْوَتِهِ وَقَدَّمَهُمْ إِلَى فِرْعَوْنَ. ٣ فَسَأَلَهُمْ فِرْعَوْنُ: **«مَا هِيَ حِرْفَتُكُمْ؟» فَأَجَابُوهُ: «عَبِيدُكَ وَآبَاؤُهُمْ رُعَاةُ غَنَمٍ. ٤وَلَقَدْ جِئْنَا لِنَتَغَرَّبَ فِي الأَرْضِ إِذْ لَيْسَ لِغَنَمِ عَبِيدِكَ مَرْعًى مِنْ جَرَّاءِ وَطْأَةِ الْجُوعِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، فَدَعْ عَبِيدَكَ يُقِيمُونَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ»**.(التكوين : ٤٧)

وكانت مصر هي أول وطن يستقرون فيه ويتعلمون فيه الزراعة والصناعة إذ أنهم قبل ذلك لم يكن لهم تاريخ يُذكر ولا وطن يُعرف .

تبدأ قصة بني إسرائيل في مصر بدعوة يوسف أباه وأخوته إلى العيش في مصر ، بترحيب ملك مصر بهم وأمره بإسكانهم في أفضل مكان فيها وكانت مصر في ذلك الوقت واقعة تحت حكم الهكسوس (٢)

قال فرعون ليوسف: «لَقَدْ جَاءَ إِلَيْكَ أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ، ٦وَأَرْضُ مِصْرَ أَمَامَكَ، فَأَنْزِلْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ فِي أَفْضَلِ الأَرْضِ. دَعْهُمْ يُقِيمُونَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَإِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ بَيْنَهُمْ ذَوِي خِبْرَةٍ فَاعْهَدْ إِلَيْهِمْ فِي الإِشْرَافِ عَلَى مَوَاشِيَّ».(التكوين : ٤٧)

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م٤ / ج ١ " عصر الآباء " . مرجع سابق .

(٢) هناك شبه إجماع من المؤرخين على أن دخول بني إسرائيل مصر كان إبان احتلال الهكسوس لمصر

" وَأَنْزَلَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ فِي مِصْرَ وَمَلَّكَهُمْ فِي رَعَمْسِيسَ أَجْوَدَ الأَرْضِ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنُ. ١٢وَأَمَدَّ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَهْلَ بَيْتِ أَبِيهِ بِالطَّعَامِ عَلَى حَسَبِ عِيَالِهِمْ." (التكوين : ٤٧)

عاش بنو إسرائيل في مصر عيشة كريمة ، وامتلكوا فيها أملاكا وزاد عددهم .

" وأقام بنو إسرائيل في مصر في أرض جاسان واقتنوا فيها أملاكا وأثمروا وتكاثروا " (التكوين : ٤٧)

أقام بنو إسرائيل في مصر نحو مائة عام في كنف يوسف في أمن وسلام وفي نعمة وإحسان

" وأقام يوسف في مصر هو وأهل بيت أبيه . وعاش يوسف مئة وعشر سنين حتى شهد الجيل الثالث من ذرية أفرايم وكذلك أولاد ماكير بن منسى" (التكوين:٥٠)

واستمرت الحياة هنيئة لبني إسرائيل في مصر حتى بعد موت يوسف وجميع أخوته لسنين طويلة ، وتعاظم عددهم .

" مات يوسف وإخوته جميعا وكذلك سائر ذلك الجيل . ونما بنو إسرائيل ، وتوالدوا وتكاثروا وعظموا جدا حتى اكتظت بهم الأرض " (الخروج : ١)

محنة بني إسرائيل في مصر

وبعد سنوات طويلة من عيش بني إسرائيل في مصر قام ملك جديد على مصر فسخرهم في الأعمال الشاقة ، ولم تذكر توراة اليهود – على غير العادة – سبب انقلاب ملك مصر عليهم إنما أشارت إلى تخوف ملك مصر الجديد من كثرة عددهم ، وخوفه من انضمامهم إلى أعداء مصر ، وهذا التخوف ربما كان لدى ملك مصر شواهد تؤكده ، فجميع ما حاق ببني إسرائيل من عقاب – كما سيأتي بيانه – كان بسبب فسادهم ونبذهم لشريعة الله ، وما العقاب إلا تطهير من هذه الآثام ليعودوا إلى شريعة الله ويكفوا عن المعاصي .

" وما لبث أن قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه : " **فلنتآمر عليهم لكيلا يتكاثرون وينضمون إلى أعدائنا إذا نشب قتال ويحاربونا ثم يخرجون من الأرض** " . فعهد بهم إلى مشرفين عتاة ليسخروهم بالأعمال الشاقة . فبنوا مدينتي فيثوم ورعمسيس لتكون مخازن لفرعون " (الخروج : ١)

ثم تذكر توراة اليهود أمر فرعون بقتل أطفال بني إسرائيل الذكور حتى لا يزيد عددهم ويتعاظم خطرهم .

"غير أن القابلتين كانتا تخافان الله فلم تنفذا أمر الملك فاستحيتا الأطفال الذكور .. ثم أصدر فرعون أمره لجميع شعبه قائلا : " اطرحوا كل ابن (عبراني) يولد في النهر أما البنات فاستحيوهن " (الخروج : ١)

ثم تبدأ توراة اليهود في سرد قصة موسى منذ ولادته وتربيته في بيت فرعون حتى أرسله الله إلى فرعون ليخرج شعب بني إسرائيل من مصر . وإليك أمر التكليف من الرب لموسى بهذه المأمورية .

" فقال موسى لله من أنا حتى أمضي إلى فرعون وأخرج بني إسرائيل من مصر ؟ . فأجاب : " أنا معك ومتى أخرجت الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل فتكون هذه لك العلامة أنني أرسلتك .. وأنا عالم أن ملك مصر لن يطلقكم ما لم ترغمه يد قوية . فأمد يدي وأضرب مصر بجميع ويلاتي التي أصنع فيها وبعد ذلك يطلقكم . وأجعل هذا الشعب يحظى برضى المصريين فلا تخرجون فارغين حين تمضون بل تطلب كل امرأة من جارتها أو نزيلة بيتها جواهر فضة وذهب وثيابا تُلبسونَها بنيكم وبناتكم فتغنمون ذلك من المصريين " (الخروج : ٣)

ويذهب موسى وأخوه هارون إلى فرعون ليطلبا منه إطلاق بني إسرائيل .

" فقال لهما ملك مصر : " يا موسى وهارون ، لماذا تعطلان الشعب عن أعماله ؟ ارجعوا إلى أعمالكم الشاقة " (الخروج : ٥)

ورغم رؤية الفرعون لمعجزة موسى – العصا – إلا أن " قلب فرعون ازداد تَصلّباً فلم يستمع لهما تماما كما قال الرب " (الخروج : ٧)

وبدأ الرب يوجه ضرباته لفرعون وشعبه : ضربة الدم ، صعود الضفادع ، غزو البعوض ، أسراب الذباب ، إهلاك المواشي ، الدمامل المتقيحة ، سقوط البَرَد ، غزو الجراد ، الظلام الكثيف ، موت كل بكر في مصر .

" فاستيقظ فرعون وحاشيته وجميع المصريين وإذا عويل في أرض مصر ، لأنه لم يوجد بيت ليس فيه ميت . فاستدعى موسى وهارون ليلا قائلا : " قوموا

واخرجوا من بين الشعب أنتما و بنو إسرائيل ، وانطلقوا واعبدوا الرب كما طلبتم وخذوا معكم غنمكم وبقركم كما سألتم وامضوا وباركوني أيضا " وألحَّ المصريون على الشعب ليسرعوا في الارتحال عن البلاد قائلين : " لئلا نموت جميعا "

(الخروج : ١٢)

لم ينس بنو إسرائيل أن يستولوا على أواني الفضة والذهب عملا بقول موسى بل عملا بقول إلههم "يهوه " نفسه .

" وطلبوا من المصريين آنية فضة وذهبا وثيابا بحسب قول موسى . وجعل الرب الشعب يحظى برضى المصريين ، فأعطوهم كل ما طلبوه ، فغنموا من المصريين

وارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سُكُوت فكانوا نحو ست مئة ألف من الرجال المشاة ما عدا النساء والأولاد " (الخروج : ١٢)

والعجيب أن تذكر توراة اليهود أن الرب هو الذي قَسَّى قلب فرعون على بني إسرائيل عندما علم بخروجهم .

" تحوَّل قلب فرعون وقلوب حاشيته ضدهم وقالوا : " ماذا دهانا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا ؟ " فأعد مركبته واصطحب جيشه معه .. وقسَّى الرب قلب فرعون ملك مصر فطارد بني إسرائيل الذين غادروا مصر بقدرة ظاهرة . وسعى المصريون وراءهم بجميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه وجيوشه "

(الخروج : ١٤)

كيف يتحول قلب فرعون فجأة بين عشية وضحاها على بني إسرائيل الذين سمح لهم بالأمس القريب بالخروج ، بل طلب منهم أن يباركوه أيضا ؟!

والتفسير المنطقي المستساغ لتحوُّل قلب فرعون هو معرفته بما فعله اليهود من استعارتهم الحلي والزينة من المصريين وهربهم بها .

ندم بني إسرائيل على خروجهم من مصر

والعجيب أن بني إسرائيل لم يشكروا لموسى إنقاذه لهم من فرعون الذي كان يسومهم سوء العذاب فكان إذا ما حدث لهم مشكلة أو تعرضوا لابتلاء أو حتى بلا سبب حقيقي فإنهم كانوا يلومون على موسى إخراجهم من أرض مصر ، فحياتهم في مصر رغم ما لاقوا فيها أفضل من حياتهم في الصحراء أو ملاقاتهم للأعداء .

" ولما اقترب فرعون ، نظر بنو إسرائيل ، وإذا بالمصريين يندفعون نحوهم فارتعبوا واستغاثوا بالرب ، ثم قالوا لموسى : " هل لافتقار مصر للقبور أخرجتنا إلى الصحراء لنموت فيها ؟ ماذا فعلت بنا حتى أخرجتنا من مصر ؟ ألم نقل لك في مصر : دعنا وشأننا فنخدم المصريين إذ كان خيرا لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في الصحراء " (الخروج : ١٤)

" وفي اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من أرض مصر وهناك في الصحراء تذمر بنو إسرائيل على موسى وهارون ، وقالوا لهما : " ليت الرب أماتنا في أرض مصر ، فهناك كنّا نجلس حول قدور اللحم نأكل خبزا حتى الشبع . وها أنتما قد أخرجتمانا إلى هذه الصحراء لتُميتا كل هذه الجماعات جوعا "

(الخروج : ١٦)

" فتذمروا على موسى وقالوا : " لماذا أخرجتنا من مصر لتُميتَنا وأولادنا ومواشينا عطشا ؟ " فصرخ موسى إلى الرب : " ماذا أصنع بهذا الشعب ؟ إنهم يكادون أن يرجموني " (الخروج : ١٧)

" لماذا أخرجتمانا من مصر لتأتيا بنا إلى هذا المكان القاحل ، حيث لا زرع فيه ولا تين ولا كرم ولا رمان ولا ماء للشرب ؟ " (العدد : ٢٠)

نجاة بني إسرائيل من فرعون

وينجي الله بني إسرائيل من فرعون وجنوده بمعجزة شق البحر .

" وهكذا أنقذ الرب في ذلك اليوم الإسرائيليين من يد المصريين ، وشاهدوا جثث المصريين مطروحة على شاطئ البحر . وعندما شهد الإسرائيليون القوة العظيمة التي عامل الرب بها المصريين ، خاف الشعب من الرب وآمنوا به وبموسى عبده "

(الخروج : ١٤)

وبعد أن نجّى الله بني إسرائيل من فرعون استسقوه ففجّر لهم العيون ، واستطعموه فأنزل عليهم الخبز والمنَّ والسلوى ، ومع ذلك كانوا دائما متذمرين على موسى وكانوا يلومونه على إخراجهم من أرض مصر .

ويصعد موسى إلى قمة جبل سيناء لملاقاة الرب .

" ونزل الرب على قمة جبل سيناء ونادى موسى ليصعد إلى قمة الجبل فصعد إليه .. ثم نطق الله بجميع هذه الأقوال : " أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر ديار عبوديتك . لا يكن لك آلهة أخرى سواي . لا تنحت تمثالا ، لا تصنع صورة ما مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من أسفل الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن ، لأني أنا الرب إلهك إله غيور .. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا اذكر يوم السبت لتقدسه .. أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يهبك إياها الرب إلهك ، لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد زورا على جارك . لا تَشْتَهِ بيت جارك ، ولا زوجته ، ولا عبده ، ولا أمَتَه ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئا مما له " (الخروج : ١٩، ٢٠)

وبالإضافة للوصايا العشر السابقة أمرهم بأحكام أخرى : أحكام خاصة بالعبيد ، وأحكام مختصة بالقاتل والمعتدي ، وأحكام خاصة بالمواشي ، وأحكام مختصة بالسرقة والأملاك ، وأحكام مختصة بالعلاقات الخاصة ، أحكام العدل والرحمة ، شرائع السبت والاحتفالات السنوية .

ميثاق الرب مع بني إسرائيل

وتعهد " يهوه " بحماية شعب إسرائيل ومساعدته في حربه ضد أعدائه " وأجعل هيبتي تتقدمك ، أزعج كل أمة تقف في وجهك ، وأجعل أعداءك يولون الأدبار أمامك ، وأبعث الزنابير أمامك ، فتطرد الحوِّيِّين والكنعانيين والحِثِّيِّين من قدامك .. وأجعل تخومك تمتد من البحر الأحمر إلى ساحل فلسطين ، ومن البرية حتى نهر الفرات ، وأخضع لك سكان الأرض فتطرهم أمامك . **لا تبرم معهم ولا مع آلهتهم ميثاقا . ولا تسكنهم في أرضك لئلا يجعلوك تخطئ إليَّ** " (الخروج : ٢٣)

ولا يكتفي إله بني إسرائيل بأن يساعدهم على احتلال أرض غيرهم بل ينهاهم عن معاهدتهم ويأمرهم بأن يطردوهم من أرضهم !!

هذه هي تعاليم توراة اليهود فلا عجب أن نرى ما يفعله الإسرائيليون من جرائم في حق الفلسطينيين فهذه تعاليم توراتهم المقدسة !!

ويوافق الشعب على تعاليم إلههم ويتعهدون بتنفيذها .

" فجاء موسى وبلغ الشعب بكل كلام الرب وأحكامه ، فأجاب الشعب بصوت واحد : " كل ما أمرنا به الرب نفعل " (الخروج : ٢٤)

ويأمر " يهوه " موسى بأن يصعد إلى الجبل ليكتب وصايا وشرائع الإله .

" وقال الرب لموسى : " اصعد إلى الجبل وامكث هناك لأعطيك الوصايا والشرائع التي تكتبها على لوحي الحجر لتلقنها لهم " . فقام موسى وأخذ خادمه يشوع وصعد إلى جبل الله .. حيث مكث هناك أربعين نهارا وأربعين ليلة "

(الخروج : ٢٤)

وفي خلال هذه المدة كان الرب يصف لموسى الهيكل المُقَدَّس الذي سيقيم فيه " يهوه " بين بني إسرائيل ، وقد وصف له بكل دقة تابوت العهد ، وأثاث المَقْدِس ، ومائدة الخبز المُقَدَّس ، والمنارة ، وسقف المسكن ، وجدران المسكن ، والستار ، ومذبح المحرقات ، وزيت الإنارة ، وأردية الكهنة ، وصُدْرَة القضاة ، والجُبَّة ، وذبيحة الخطيئة ، وقربان المحرقة ...

عبادة بني إسرائيل للعجل

وبينما كان موسى يتلقى هذه التعليمات من الرب إذا بشعب إسرائيل يطلب من هارون أن يصنع لهم إلها ليتقدمهم في المسير بسبب تأخر موسى في لقائه مع الرب

" ولما رأى الشعب أن موسى قد طالت إقامته على الجبل ، اجتمعوا حول هارون ، وقالوا له " هيا ، اصنع لنا إلها يتقدمنا في مسيرنا ، لأننا لا ندري ماذا أصاب موسى الذي أخرجنا من ديار مصر " (الخروج : ٣٢)

والعجيب أن يستجيب هارون – التوراتي – ويوافقهم على هذا الكفر رغم أن " يهوه " الذي يريدون أن يعبدوا غيره هو الذي أنقذهم من استعباد الفرعون لهم ، وأنزل عليهم الخبز والمن والسلوى ، ووعدهم بأن ينصرهم على أعدائهم ويمكن لهم في الأرض بشرط أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً لكنهم – ويا للعجب – وهم بَعْدُ حديثو عهد بمعجزات الله ، ونبيهم مازال حيا فقط ذهب ليكتب الوصايا والتشريعات ، وترك معهم أخاه هارون ليقضي بينهم ، رغم كل هذا ها هم يطلبون

من هارون أن يصنع لهم إلهاً لأن موسى قد طالت إقامته في الجبل !! ومن العجيب أن هارون يجيبهم إلى طلبهم !!

" فأجابهم هارون : " انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وبنيكم ، وأعطوني إياها " فنزعوها من آذانهم وجاءوا بها إليه فأخذها منهم وصهرها وصاغ عجلا . عندئذ قالوا : " هذه آلهتُكَ يا إسرائيل التي أخرجتْك من ديار مصر " . وعندما شاهد هارون ذلك شيَّد مذبحا أمام العجل وأعلن : " غدا هو عيد للرب . فبكَّر الشعب في اليوم الثاني وأصْعَدوا محرقات وقدَّموا قرابين سلام . ثم احتفلوا فأكلوا وشربوا ومن ثم قاموا للهو والمجون " (الخروج : ٣٢)

كيف يدعي بنو إسرائيل – بعد هذا– أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ؟! نعم هم شعب الله المختار لمعصيته ، وهم أبناء الشيطان وأحباؤه .

ويشتد غضب " يهوه " على بني إسرائيل بسبب كفرهم به واتخاذهم العجل إلها من دونه فيقرر إفناءهم .

" فأمر الرب موسى : " قم وانزل فإن الشعب الذي أخرجته من ديار مصر ، قد فسد . إذ انحرفوا سريعا عن الطريق الذي أمرتهم به ، فصاغوا لهم عجلا وعبدوه وذبحوا له الذبائح هاتفين : هذا هو إلهُك يا إسرائيل الذي أخرجك من مصر " . وقال الرب لموسى : " تأملت في هذا الشعب ، وإذا به شعب عنيد مُتَصلِّب القلب . والآن دعني وغضبي المُحْتَدِم فأفنيهم ، ثم أجعلك أنت شعبا عظيما "
(الخروج : ٣٢)

هذا هو رأي " يهوه " في بني إسرائيل " شعب عنيد مُتَصلِّب القلب " وسيظل هذا دأب كثير ممن ينتسب لهذا الدين . ويأخذ موسى في الابتهال إلى الرب ليعفوا عن شعبه العنيد حتى لا يَشْمت به المصريون " فتراءف الرب ولم يوقع بشعبه العقاب الذي توعد به " (الخروج : ٣٢)

ولكن موسى ما إن اقترب من المخيم " وشاهد العجل والرقص حتى احتدم غضبه وألقى باللوحين (المكتوب عليهما وصايا الرب) من يده وكسرهما عند سفح الجبل . ثم أخذ العجل الذهبي وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما ، وذَرَّاه على وجه الماء وأرغمهم على الشرب منه " (الخروج : ٣٢)

ولم يكتف موسى بهذا فقرر تمحيصهم ومعرفة من يتبع الرب ممن تولى عنه واتبع هواه فوقف " في باب المخيم وصاح " كل من يتبع الرب فليقبل إليَّ هنا " فاجتمع حوله اللاويون . فهتف بهم " هذا ما يعلنه الرب إله بني إسرائيل : ليتقلد كل واحد سيفه ، وجولوا في المخيم ذهابا وإيابا من مدخل إلى مدخل ، واقتلوا كل داعر سواء أكان أخا أو صاحبا أم قريبا " . فأطاع اللاويون أمر موسى فقُتِل من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل " (الخروج : ٣٢)

والسؤال هنا من الضحية ومن الجزار في هذه الحادثة التي تعد أول حادثة يُقْتَل فيها هذا الخلق الكثير من بني إسرائيل ؟ هل يعد الكافرون بالله العابدون للعجل هم الضحية ؟! "ويهوه" هو الجزار ؟!!

إن المتتبع لكل عقاب سينزل ببني إسرائيل بعد ذلك يجده يسير على هذا المنوال فساد من بني إسرائيل ، وعصيان لله يكون جزاؤه عقاب من الرب ينزله بهم ليس بأيديهم كما حدث في هذه المرة إنما بأيدي أعدائهم .

فتوراة اليهود توضح بجلاء المسئول عن كل بلاء حاق ببني إسرائيل ، إنه كفرهم وفسادهم ، وما العقاب الذي ينزله بهم الله إلا جزاء وفاقا .

عقوبات العصيان

فمن بين الميثاق المبرم بين " يهوه " وشعبه عقوبات العصيان التي يقول الرب فيها لبني إسرائيل :

" إن عصيتموني ولم تعملوا بكل هذه الوصايا ، وإن تنكرتم لفرائضي وكرهتم أحكامي ولم تعملوا بكل وصاياي ، بل نكثتم ميثاقي ، فإني أبتليكم بالرعب المفاجئ وداء السل والحُمَّى التي تُفْني العينين وتتلف النفس ، وتزرعون على غير طائل ، وينهب أعداؤكم زرعكم . وأنقلب عليكم فتنهزمون أمام أعدائكم ، ويتحكم بكم مبغضوكم وتهربون من غير طارد لكم .

وإن أمعنتم في عصيانكم أزيد من عقابكم سبع مرات وفقاً لخطاياكم . أُذِلُّ غطرستكم ، وأجعل سماءكم كالحديد لا تمطر وأرضكم كالنحاس لا تُغِل فيذهب جهدكم باطلا ... وإن لم تتعظوا ، وتماديتم في عصيانكم أنقلب عليكم وأزيد في بلائكم سبع مرات وفقا لخطاياكم . أسلط عليكم سيف العدو . فينتقم منكم لنقضكم

ميثاقي .. وأجعل الأرض قفرا فيرتاع من وحشتها أعداؤكم الساكنون فيها ، وأشتتكم بين الشعوب ، وأجرد عليكم سيف ، وألاحقكم ، وأحول أرضكم إلى قفر ومدنكم إلى خرائب . عندئذ تستوفي الأرض راحة سبتها طوال سنين وحشتها وأنتم مشتتون في ديار أعدائكم . حينئذ ترتاح الأرض وتستوفي سنين سُبُوتِها فتُعَوِّض في أيام وحشتها عن راحتها التي لم تنعم بها في سنوات سُبُوتكم عندما كنتم تقيمون عليها . أما الباقون منكم في أرض أعدائكم ، فإني ألقي الرعب في قلوبهم فيهربون من حفيف ورقة تسوقها الريح ، وكأنهم يهربون من السيف . ويسقطون وليس ثمة مطارد لهم . ويعثر بعضهم ببعض كمن يفر من أمام سيف من غير مطارد لهم ، ولا تثبتون أمام أعدائكم فتهلكون بين الشعوب وتبتلعكم أرض أعدائكم . أما بقيتكم فتفنى بذنوبها وذنوب آبائها في أرض أعدائكم كما فني آباؤهم من قبلهم "
(اللاويين : ٢٦)

كل هذه البلايا من خراب لبيت بني إسرائيل ، وأوبئة ، وقتل ، وشتات ، وقهر وذل من أعدائهم جزاء المعصية والفساد ونقض الميثاق مع الله فإن تابوا وأصلحوا فإن " يهوه " يجدد لهم العهد .

" إن اعترفوا بخطاياهم وخطايا آبائهم وبخيانتهم لي وعداوتهم ، التي جعلتني انقلب عليهم وأنفيهم إلى أرض أعدائهم وإن خضعت قلوبهم النجسة بعد أن استوفوا عقاب خطاياهم فإني أذكر ميثاقي مع إسحق وميثاقي مع إبراهيم "(اللاويين : ٢٦)

وبناء على هذا الميثاق ، وأحداث التاريخ التوراتي ، بل والتاريخ الإنساني العام ، فإن كل اضطهاد نزل ببني إسرائيل ، أو بالجماعات اليهودية في كل زمان ومكان كان بسبب فسادهم ونقضهم للعهد .

خوف بني إسرائيل من قتال الكنعانيين

قال الرب لموسى " أرسل جواسيس إلى أرض كنعان التي أنا واهبها لبني إسرائيل أرسل رئيسا من كل سبط ممثلا له " فأرسل موسى ممثلي الشعب الرؤساء من صحراء فاران طبقا لأمر الرب " (العدد : ١٣)

وبعد أربعين يوما رجعوا من اكتشاف أرض كنعان وقالوا : " قد انطلقنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها ، فوجدناها تفيض حقا لبنا وعسلا ، وهذه هي ثمارها غير أن الشعب المستوطن فيها بالغ القوة ومدنه منيعة وعظيمة جدا " (العدد " ١٣)

وأشاع بعض الجواسيس الذعر بين الإسرائيليين من البلاد التي تجسسوها قائلين " ستفترسنا الأرض التي تجسسناها وجميع من شاهدناهم من سكان عمالقة فقد رأينـا هناك الجبابرة بني عناق ، فبدونا في أعين أنفسنا كالجراد ، وكذلك كنا في عيونهم" (العدد : ١٣)

وكعادة أبناء إسرائيل التمرد على موسى ، والتبرم بأحكام الرب ، والجزع من ملاقاة الأعداء " رفع الشعب كله صوته وبكى في تلك الليلة ، وتذمر على موسى وهارون وقالوا : " ليتنا متنا في ديار مصر أو ليتنا متنا في الصحراء . لماذا أحضرنا الرب إلى هذه الأرض لنهلك بحد السيف ، وتؤخذ نساؤنا وأطفالنا سبايا ؟ أليس من الأفضل لنا أن نرجع إلى مصر ؟ " وقال بعضهم لبعض : " لننتخب لنا قائدا ونرجع إلى مصر " .

فخرَّ موسى وهارون على وجهيهما أمام جميع شعب إسرائيل ومزَّق يوشع بن نون وكالب بن يفنة ثيابهما وقالا لكل الشعب : " .. لا تتمردوا على الرب ولا تجزعوا من شعب الأرض ، لأننا سنبتلعهم كالخبز ، فقد تلاشى ظل الحماية عنهم ، والرب معنا فلا ترهبوهم " .

ولكن الشعب طالب برجمهما بالحجارة غير أن مجد الرب ظهر في خيمة الاجتماع على مرأى منهم جميعا ، وقال الرب لموسى : " إلى متى يُمْعِن هذا الشعب في إهانتي ، وإلى متى لا يصدقوني على الرغم من معجزاتي التي أجريتها في وسطهم ؟ سأبيدهم بالوباء ، وأجعلك شعبا أكبر وأعظم منهم " لكن موسى تشفَّع لهم للرب قائلا : " إن أهلكت هذا الشعب دفعة واحدة ، فإن الأمم التي سمعت بخبرك تقول إنك قد عجزت عن أن تدخل هذا الشعب إلى هذه الأرض التي وعدتهم بها فأهلكتهم في الصحراء " (العدد : ١٤)

ويعفو الرب عن بني إسرائيل لكنه يحرم على العصاة منهم دخول الأرض التي وعد الرب بها آباءهم .

" فأجاب الرب : " قد صفحت بحسب قولك ولكن كما أنا حقا حيٌّ وكما أن مجد الرب حقا يملأ الأرض فإن جميع الرجال الذين عاينوا مجدي ومعجزاتي التي أجريتها في مصر وفي الصحراء وجربوني عشرات المرات من غير أن يصيعوا

قولي ، لن يروا الأرض التي وعدت بها آباءهم . جميع من استخفوا بها لن يشاهدوها " (العدد : ١٤)

عقاب الرب لبني إسرائيل بالتيه

لذا عاقبهم الرب أن يتيهوا في سيناء أربعين سنة حتى يفنى هذا الجيل من العصاة .
" لن تدخلوا الأرض التي وعدت رافعا يدي بقسم أن أسكنكم فيها ، ما عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون . غير أني سأدخل أولادكم الذين ادعيتم أنهم يصبحون أسرى فيتمتعون بالأرض التي احتقرتموها . أما أنتم فجثثكم تتساقط في هذا القفر ، ويبقى بنوكم في الصحراء أربعين سنة تعانون من فجوركم حتى تبلى جثثكم فيها "
(العدد : ١٤)

وتآمر مائتان وخمسون من رؤساء بني إسرائيل على موسى " هؤلاء تألبوا على موسى وهارون وقالوا : " حسبكما ! إن كل الجماعة بأسرها مقدسة ، وفي وسطها الرب . فما بالكما تترفعان على جماعة الرب " (العدد : ١٦)

وعاقبهم الرب بأن " انشقت الأرض تحتهم وفتحت فاها وابتلعتهم مع بيوتهم "

ولم يرض بنو إسرائيل عن هذا العقاب الإلهي وتذمروا من موسى وهارون رغم أنهما لا دخل لهما بما جرى .

" وفي اليوم الثاني تذمر جميع بني إسرائيل على موسى وهارون قائلين : " لقد قتلتم شعب الله " وقد عاقبهم الرب على ذلك بتفشي الوباء فيهم " فكان الذين هلكوا بالوباء أربعة عشر ألفا وسبع مئة ، عدا الذين ماتوا بسبب القروح "

والسؤال هنا من المسئول عن موت هذه الأربعة عشر ألفا وسبعمائة (١٤٧٠٠) هل المسئول عنهم أعداء السامية كما يدعي اليهود دائما ؟!! ليتهم يقرءون توراتهم قبل أن يتهموا غيرهم .

فساد شعب بني إسرائيل وعقاب الرب لهم

ولم يتضرع بنو إسرائيل إلى الله ليرفع عنهم البلاء بل راحوا يرتكبون مزيدا من الموبقات التي وصلت إلى عبادة آلهة أخرى من دون الله !!

" وأقام الإسرائيليون في شطيم فشرع الرجال يرتكبون الزنى مع الموآبيات اللواتي أغوين الشعب لحضور ذبائح آلهتهن والأكل منها والسجود لها . فاشترك الإسرائيليون في عبادة بَعْل فغور . فاحتدم غضب الرب عليهم . فقال الرب لموسى

: " خذ جميع قادة عبدة البعل واصلبهم ، وعلقهم تحت وطأة حرارة الشمس أمام الرب ، فترتد شدة غضبه عن بني إسرائيل " . فقال موسى لقضاة إسرائيل : " اقتلوا كل واحد من قومكم من المتعلقين بعبادة بعل فغور " (العدد : ٢٥)

ومع ذلك فإن " يهوه " ربهم قرر أن يحقق لهم الوعد الذي وعد به آباءهم من امتلاك أرض كنعان على الرغم من عبادتهم لغيره ، وارتكابهم الفواحش والمنكرات في عينيه !! فقط يحذرهم من إهمال وصاياه وفرائضه ، كأنه لا يعلم طبيعة شعبه ، ولم يجربهم من قبل !!

" إياكم من نسيان الرب إلهكم وإهمال وصاياه وأحكامه وفرائضه .. اذكروا أن الرب إلهكم هو الذي يمنحكم القوة لإحراز الثروة وفاء بوعده الذي أقسم عليه لآبائكم كما في هذا اليوم أما إن نسيتم الرب إلهكم ، وغويتم وراء آلهة أخرى وعبدتموها وسجدتم لها ، فإنني أشهد عليكم أنكم لا محالة هالكون كالأمم التي يبيدها الرب من أمامكم هكذا أنتم أيضا تبيدون ، لأنكم لم تطيعوا أمر الرب إلهكم " (التثنية : ٨)

تحقق الوعد الإلهي بدخول بني إسرائيل أرض كنعان

وعلى الرغم مما فعله بنو إسرائيل مع الرب ونقضهم لعهده وعبادتهم سواه إلا أنه وفى لهم بوعده لآبائهم بدخول أرض كنعان تفضلا منه لا جزاء لهم ، فما فعلوه يستحق العقاب لا المكافأة .

" استمعوا يا بني إسرائيل : أنتم على وشك عبور نهر الأردن لتدخلوا لطرد شعوب أكبر وأعظم منكم وللاستيلاء على مدن عظيمة محصنة بأسوار تبلغ عنان السماء يقيم فيها الجبابرة والعمالقة الذين عرفتم عنهم وسمعتم من يقول : " من يستطيع أن يتحدى العناقيين ؟ " اعلموا اليوم أن الرب إلهكم يتقدمكم كنار آكلة وهو الذي يستأصلهم ويذلهم أمامكم ، فتطردونهم وتبيدونهم سريعا كما كلمكم الرب . **لا تقولوا لأنفسكم بعد أن ينفيهم الرب من أمامكم : " لقد أدخلنا الرب لامتلاك هذه الأرض بفضل صلاحنا " . إنما من أجل كثرة إثمهم يطردهم الرب إلهكم من أمامكم . إذ ليس بفضل صلاحكم واستقامتكم تدخلون لامتلاك أرضهم ، إنما من أجل إثمهم يطردهم الرب من أمامكم وفاء بوعده الذي أقسم عليه لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب . فاعلموا انه ليس بفضل صلاحكم يهبكم الرب إلهكم هذه الأرض الخصيبة لامتلاكها ، لأنكم شعب عنيد** " (التثنية : ٩)

فتغلب الإسرائيليين على الكنعانيين العرب وقهرهم لهم لم يكن بسبب صلاحهم وإقامتهم للتوراة إنما كان بسبب فساد العرب وتخليهم عن دينهم وعن السعي المخلص لدنياهم فابتلاهم الله تعالى باليهود عبدة العجل ، كما سيبتلي أحفادهم باليهود الصهاينة الذين أحسنوا الأخذ في أسباب التقدم ، والاستفادة من المشروع الغربي .

هذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيها اليهود والعرب جميعا ، وهي أن انتصار اليهود لم يكن مرجعه طاعة الله وإنما أخذهم في أسباب التقدم ، وتخلي العرب – أكثرهم – عن الدين الصحيح ، وإهمالهم لأسباب التقدم والعدل والحرية .

سقوط أريحا

وبعد أن أعانهم الرب على دخول أرض كنعان ليس بفضل صلاحهم إنما بسبب إثم أعدائهم اندفع شعب إسرائيل نحو مدينة أريحا " واستولوا عليها . ودمروا المدينة وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير .. ثم أحرق الإسرائيليون المدينة بالنار بكل ما فيها . أما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد فقد حفظوها في خزانة بيت الرب .. في ذلك الوقت أنذر يشوع الشعب قائلا : " ملعون أمام الرب كل من يحاول أن يعيد بناء أريحا ، فإن بِكْرَهُ يموت وهو يضع أساساتها ،وصغيره يَهلك وهو يقيم بواباتها "
(يشوع : ٦)

أعرفتم الآن لماذا تخلت إسرائيل في اتفاقية أسلو عن أريحا ؛ الرب لعن كل من يحاول بناء أريحا ، وتوعده بموت أبنائه : البكر والصغير . أما غزة فلأنها مركز المقاومة ، ومقر المناضلة الباسلة .

ومع أن الرب بدأ يحقق لبني إسرائيل وعوده إلا أن بعض الإسرائيليين ارتكبوا خيانة فأخذوا " مما هو مخصص للرب فاحتدم غضب الرب على بني إسرائيل "
(يشوع : ٧)

فعاقبهم الرب بهزيمتهم " أمام أهل عايَ وقتل منهم أهل عايَ نحو ستة وثلاثين رجلا .. فقال الرب ليشوع : " قُمْ لماذا أنت ساقط على وجهك ؟ لقد ارتكب إسرائيل خطيئة ، بل تعدّوا على عهدي الذي أمرتهم به ، بل أخذوا مما حرّمته

عليهم وسرقوا وأنكروا ، بل خبأوا في أمتعتهم لهذا عجز بنو إسرائيل عن الثبات أمام أعدائهم ، فولّوا الأدبار ، لأنهم هالكون إذ لن أعود أكون معكم ما لم تستأصلوا الحرام من وسطكم " (يشوع : ٧)

ولما رجم بنو إسرائيل من ارتكبوا الخطيئة وأحرقوهم بالنار عفا الرب عنهم وأقدرهم على هزيمة أهل مدينة عايَ " وعندما تم القضاء على جيش عايَ في الصحراء حيث تعقبوا الإسرائيليين وفنوا جميعهم بحد السيف ، رجع المحاربون الإسرائيليون إلى عايَ وقتلوا كل من فيها فكان جميع من قتل في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفا وهم جميع أهل عايَ .. وهكذا أحرق يشوع عايَ وحوّلها إلى تل خراب أبدي إلى هذا اليوم " (يشوع : ٨)

لماذا لا يحذو - والحال هذه - أي يهودي متدين ومتطرف (أي متمسك بالقراءة الحرفية للتوراة) حذو هذه الشخصيات المتمثلة في يشوع ؟!!

ألم يذكر سفر العدد وعندما بدأ غزو فلسطين (كنعان) " فسمع الرب صوت إسرائيل ودفع إليهم الكنعانيين فأبسلوهم (أي أهلكهم) هم ومدنهم " (العدد : ٢١)

ثم بخصوص الأموريين وملكهم " فضربه إسرائيل بحد السيف هو وقومه حتى لم يبق منهم أحداً واستولوا على بلاده " (العدد : ٢١)

ويكرر سفر التثنية " وإذا أدخلك الرب إلهك الأرض التي أنت صائر إليها لترثها واستأصل أمما كثيرة .. فأبسلهم إبسالا (أي أهلكهم إهلاكا) .. فلا يقف أحد بين يديك حتى تفنيهم " (التثنية : ٧)

ألم تكن مسيرة يشوع هي مسيرة مناحم بيجين عندما قضى في ٩ أبريل عام ١٩٤٨ على سكان دير ياسين من الرجال والنساء والأطفال البالغ عددهم ٢٥٤ نسمة ، قتلهم هو وجنوده " الأرجون " لكي يفر العرب العُزّل مذعورين (١)

ألم يكن طريق يشوع هي التي أشار إليها موشى ديان " إذا كنا نمتلك التوراة ، فينبغي لنا أن نملك كذلك أراضي التوراة " (١)

---

(١) مناحم بيجين " العصيان ، تاريخ الأرجون " ص٢٠٠ نقلا عن " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " دار الغد العربي ص٦١

ألم يكن طريق يشوع هو الطريق الذي وضعه يورام بن بورات في الجريدة الإسرائيلية الكبرى أديعوت أحرونوت الصادرة في ١٤ يوليو ١٩٧٢ " لا صهيونية واستعمار للدولة اليهودية بدون إبعاد العرب وطرده والاستيلاء على أراضيهم "

أما وسائل وأساليب هذا الاستيلاء على الأرض فقد حددها " رابين " عندما كان جنرالا على الأراضي المحتلة : تكسير عظام ملقي الأحجار من أطفال الانتفاضة .

وبنفس هذا اليقين اندفع الدكتور " باروخ جولدشتين " وهو مستوطن من أصل أمريكي من قرية أربه " الضفة الغربية " وقتل أكثر من ١٧ فلسطينيا ، وجرح أكثر من ٥٠ وهم يصلون في الحرم الإبراهيمي كان جولدشتين عضوا بارزا في جماعة متطرفة تأسست برعاية أريل شارون (٢) وهو الآن موضع تبجيل المتطرفين الذين يأتون إلى قبره بالزهور وينحنون لتقبيله ، فهو الأمين على تقاليد يشوع الرامية إلى القضاء على شعوب كنعان من أجل الاستيلاء على أراضيهم .

إن التطهير العرقي الذي يمارس بشكل منتظم في دولة إسرائيل الرامي إلى تنقية دماء اليهود المقدسة من أية دماء دنسة من دماء الآخرين .

وما لا يستطيعون إبادته يقصوه خارج أرضه ويحصروه خلف جدار الفصل العنصري ، وهذا الفصل العنصري هو الطريقة الوحيدة لمنع تدنيس العنصر المختار من الرب والدين الذي يربطه به (٣)

إن سفر يشوع، وهو سفر المذابح، لا يُؤْخَذ على أنه نص كلاسيكي عندما يُدَرَّس في المدارس الإسرائيلية، وإنما هو كذلك وسيلة إلى الإعْدَاد النفسي للمُجندين في الجيش.

ذلك أن الوُعَّاظ العسكريين الربانيين، منذ غزو لبنان، يدعون إلى الحرب المقدسة، وقد حدد لهم الموضوع الأساسي أحد الكهنة الربانيين "برتبة كابتن" بقوله:

---

(١) جيروزاليم بوست ١٠ أغسطس ١٩٧٧ نقلا " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص٦١

(٢) شارون هو الذي قاد مذبحة صابرا وشاتيلا والذي كوفئ على جريمته بتعيينه وزيرا للإسكان ، ومكلفا بتنمية المستوطنات في الأراضي المحتلة ، والذي اختير رئيسا للوزراء ليرتكب المجازر المتوحشة ويقيم جدار الفصل لعنصري .

(٣) رجاء جارودي " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص٦٢ ، ٦٣

"إننا لا ينبغي أن ننسى المنابع الكِتابية التِي تبرر هذِهِ الحرب، وتبرر وجودنا هنا: إننا نؤدي واجبنا الديني اليهودي بوجودنا هنا، لقد كُتب علينا أداء هذا الواجب الديني التعبويُّ، وهو أن نغزو الأرض، ونحارب العدو".

ويشيع هذا التلاعب العقائدي، إبتِداء من مجال علِم الآثار حتى الكتب المدرسية، حتى ليُمكن القول: "إن سِفْر يشوع هو النص الأساسِيّ، فِي المدرسة وفِي الجيش، ويعتبر تفسيره إجباريا فِي المدارس، وهو أمر بدأ الأخذ بهِ منذ عهد زعيم حزب العمل اِبن جوريون"، بل إن هذا الاستِغلال العقائدي بلغ الأجهزة الإعلامية، والملصقات الشعبية.

ففِي المستوِي الأثري: "شرعت بعثة إسرائيلية يرأسها ي. يادين عام: ١٩٥٥ بالحفر فِي تل القضاة، فِي أعلى وادِي الأردن، وهو الموقِع المُفترض لمدينة حاصور الكِتابية، وذلك لتحديد تواريخ غزو يشوع لكنعان .

وفِي مستوِي العامة: فِي المدرسة، وفِي الجيش: تبرز دِراسة سِفر يشوع فِي برامج المدارس الإسرائيلية، من الصف الرابع حتى الصف الثامن، وقد وزع الأستاذ " تمران " مِن تل أبيب، الاستِبيان التالِي على ألف تِلميذ:

" أنت تعرف الاقتباس مِن سفر "يشوع: "٦/٢٠": "وصعد الشعب إلى المدينة "أريحا" كل رجلٍ مع وَجْهه وأخذوا المدينة، وَحَرَّمُوا (قتلوا) كل ما فِي المدينة من رجل وامرأة، مِنْ طِفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف.

أجب عن الأسئلة الآتية :

أ- ما رأيك فِي تَصَرُّف يشوع والإسرائيليين، أكان سليمًا أم لا ؟

ب- لنفترض أن الجيش الإسرائيلي اِحتل مدينة عربية أثناء الحرب، أيجب عليهِ — أم لا — أن يُنَزِّل بِسكانِها المصير الذِي أنزله يشوع بسكان أريحا؟..."

ولمَّا نشر الأستاذ ج. تمران النتائِج الرهيبة لِتَحقِيقِهِ عن هذا الإعْدَاد لِلأطفالِ كان جزاؤه أن طُرِدَ من جامِعة تل أبيب .

وفِي مستوِي الأجهزة الإعلامية، والملصقات الشعبية:

قامت دولة إسرائيل فِي يناير عام: ١٩٨٣، وبعد مذابح لبنان، بإصدار مجموعة مِن ثلاثِ طوابِع "لتخليد ذكرى يشوع"، أولها مخصص لعبور الأر-ن، ويُفسِّر سيجمسوند جورن كاتِب المقال الخاص بِهذا الطابع، فِي تل أبيب، بقوله: "هذا أمر

يُذكرنا بمنهج العمل غير المباشر"، الذي قامت بهِ القوات الإسرائيلية المعاصرة، ضمن ما قامت بهِ في سيناء عام: ١٩٥٦، وعلى ثلاث جبهات عام: ١٩٦٧، ولكنه حدث لأول مرة منذ: ٣٣٠٠ عام على يدِ أسلافنا الكتابيين، حين حاصر العبرانيون بلاد كنعان، ليهاجموها من الشرق..."

وثاني هذهِ الطوابع كان عن "الاستيلاء على أريحا" وقد قال جورن بشأنهِ: إنه يذكر بالإبادة المقدسة، للسكان باستثناء راحاب الزانية؛ لأنها استقبلتِ المُرْسلِين وخبَّأتهما.

وعن الطابع الثالث، وقد كان يمثل يشوع وهو يُوقف الشمس حتى ينهي معركة جبعون ضدّ خمسة الملوك الكنعانيين، الذين قال عنهم السِّفْر: ملوك أورشليم وحبرون ــ وجدنا المؤلف يُذَكِّر بأن "الملوك الخمسة قد أُسِرُوا.. ثُمَّ قتلهم يشوع وعلَّقَ أجسادهم على خمسة أشجار" ويختم السيد جورن بقوله: "إن إسرائيل اليوم تواجه عدوا ليس بأقلّ خطرًا من ملوك الكنعانيين في الماضي".

ليس هذا سوى قليلٍ من كثير من الأمثلة البشعة الدالة على إستخدام الكِتاب المقدس باعتباره "تاريخًا" من ناحية، وباعتباره تبْرِيرًا "مُقدَّسًا" لسياسةٍ من ناحية أخرى. (١)

يشوع يستولي على كل أرض كنعان

واستطاع يشوع بمساعدة الرب أن يستولي على كل أرض كنعان (٢) وأن يبيد أهلها ويحرق مدنها وبهذا تحقق الوعد الإلهي لبني إسرائيل .

" وهكذا وهب الرب إسرائيل جميع الأراضي التي حلف أن يعطيها لآبائهم فورثوها وأقاموا فيها ، فأراحهم الرب من كل ناحية كما أقسم للآبائهم ، ولم يستطع أحد من جميع أعدائهم أن يقاوموا ، بل أسلمهم الرب لهم جميعا **فتحقق كل ما وعد الرب به بني إسرائيل من وعود صالحة** " (يشوع : ٢١)

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الأول : العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية . مرجع سابق .

(٢) هذا ما تدعيه توراة اليهود والذي يخالف التاريخ فلم يحتل بنو إسرائيل سوى بعض المناطق الجبلية كما سنبين في الفصل الخاص بتاريخ بني إسرائيل في التاريخ الإنساني العام .

وبهذا تم الوعد ولم يعد هناك وعود إلهية أخرى لبني إسرائيل ، لم يبق إلا أن يشكر بنو إسرائيل الرب على وقوفه معهم ضد أعدائهم ومباركته لهم وألا يعصوه حتى لا تحل بهم لعناته التي هددهم بها .

لكن هيهات أن يداوم بنو إسرائيل على الطاعة إنهم جُبِلوا على المعصية ولقد ضاق كل أنبيائهم بهم ذرعا بسبب فسادهم واعتراضهم على الرب وعصيانهم لأوامره .

" وعبد الإسرائيليون الرب طوال حياة يشوع ، وفي أثناء أيام الشيوخ الذين عمروا طويلا بعد يشوع ممن شهدوا كل معاملة الرب التي أجراها مع إسرائيل "

(يشوع : ٢٤)

بنو إسرائيل ينكثون العهد مع الله..

وبعد أن وفَّى الله لهم بوعده مع آبائهم لم يَفُوا هم بوعدهم مع الرب وراحوا كالعادة يعبدون غيره ! فاشتد غضب الرب عليهم وأسلمهم لأعدائهم فانهزموا واعتراهم ضيق شديد

" واقترف بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البَعْلِيم ، ونبذوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من ديار مصر وغووا وراء آلهة أخرى من أوثان الشعوب المحيطة بهم ، وسجدوا لها ، فأغاظوا الرب . وتركوا الرب وعبدوا البَعْل وعَشْتَارُوث . فاحتدم غضب الرب على إسرائيل وتركهم تحت رحمة الناهبين الغزاة . وأسلمهم إلى أعدائهم المحيطين بهم فعجزوا عن مقاومتهم . وحيثما خرجوا لخوض الحرب كان الرب ضدَّهم فينكسرون ، تماما كما سبق وحذرهم فاعتراهم ضيق عظيم جدا " (القضاة : ٢)

وتستمر الدراما التوراتية على هذا المنوال ولا تكاد تخرج عنه ، يقترف بنو إسرائيل الشر بعدما ينعم الرب عليهم بالنصر ، فيسلط الرب عليهم من يسومهم سوء العذاب ثم يعفو الرب عنهم ثم لا يلبثون أن يعودوا للفساد فيعود الرب للعقاب وهكذا دواليك .

" ارتكب بنو إسرائيل الشر في عيني الرب ونسوا إلههم وعبدوا البَعْلِيم وعَشْتَارُوث فاحتدم غضب الرب عليهم ، فسلط عليهم كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين ، فاستعبد كوشان رشعتايم بني إسرائيل ثماني سنوات .

واستغاث بنو إسرائيل بالرب فأقام لهم مخلصا أنقذهم هو عُثْنِيئِيل بن قَناز أخو كالب الأصغر فحلّ عليه روح الرب وصار قاضيا لإسرائيل . وحين خَرَج لمحاربة كوشان رشعتايم ملك أرام تغلب عليه ، وأظفره الرب به .

وعم السلام البلاد حِقبة أربعين سنة ، إلى أن مات عُثْنِيئِيل بن قَناز . فعاد بنو إسرائيل يقترفون الشر في عيني الرب فسلط عليهم الرب عِجْلون ملك موآب عقابا لهم على شرهم فألّب عليهم بني عَمُّون وعماليق ، وهاجَمَهم واحتلّ أريحا مدينة النخل واستعبد عجلون ملك موآب بني إسرائيل ثماني عشرة سنة فاستغاث بنو إسرائيل بالرب فأرسل لهم منقذا إهود بن جيرا البنياميني .. وهاجموا الموآبين وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف من المحاربين الأشداء في ذلك اليوم خضع الموآبيون لبني إسرائيل وعمّ السلام البلاد ثمانين سنة ..

وبعد موت إهود عاد بنو إسرائيل يرتكبون الشر في عيني الرب فأخضعهم الرب ليابين ملك كنعان " (القضاة : ٣،٤)

الفلسطينيون يهزمون بني إسرائيل

ولم تتوقف الحرب بين بني إسرائيل وبين الفلسطينيين أصحاب أرض كنعان الذين عاقبهم الرب لأثمهم بأن مكّن بني إسرائيل من احتلال بعض أرضهم ، وبسبب آثام بني إسرائيل ونبذهم شريعة الرب سلط عليهم الفلسطينيون فهزموهم واستولوا حتى على التابوت، "صموئيل الأول ٤/١٠ـ١١، هنالك ذاق شعب إسرائيل مرارة البؤس والشقاء" .

في ذلك الوقت اعتقد بنو إسرائيل أنهم واجدون الرجل الإلهي : "فحل روح الله على شاول عندما سمع هذا الكلام، وحمي غضبُه جدًّا"، "صموئيل الأول ١١/٦"، فأحرز انتصارًا على العمونيين، وبذلك ظهر باعتباره المُنْقِذ، "وقال صموئيل للشعب: هَلُمُّوا نذهب إلى الجلجال"، "وهو المعبد القديم، أمام يهوه"، الرب، فذهب كل الشعب "١١/١٥"، "وملّكوا هنالك شاول".

لم يكن اختيار شاول باعتباره أكثر الناس إلهامًا، كما كان الأمر بالنسبة إلى "القضاة" الذين اختارتهم الرابطة المقدّسة؛ فالشعب هو الذي اختاره، وهكذا كان

الانتقال من المُقدَّس إلى السياسي، ويبدو أن واضع القصة كان ضائقًا بأن إسرائيل التي كانت ــ طبقًا للرواية ــ دينية الاتجاه، قد صارت قوة سياسية . فقد كان صموئيل الأول نبي بني إسرائيل يعتبر شاول رجلا فاسدا ومع ذلك ملكه الإسرائيليون ملكا عليهم بقرار سياسي لا ديني .

"وقد كان صموئيل الأول يُعامل شاول على أنه فاسد"، وأخبر صموئيل "١٠/٢٧"، "وأما بنو بليعال فقالوا: كيف يُخلّصنا هذا؟ فاحتقروه".

إلا أن النص يُؤكّد أن المُبادرة تأتي من قِبَل الرب، الذي ألهم صموئيل أن يمنح شاول تنصيبًا مقدَّسًا " فأخذ صموئيل قِنينة الدهن، وصبَّ على رأسه وقبَّله، وقال: أليس لأن الرب قد مسَّحك على ميراثه رئيسًا". " "صموئيل الأول ١٠/١"

صعود داود ورجحان كفة بني إسرائيل

بدأ الصعود الرهيب لداود، الذي جعل من إسرائيل قوة سياسية ، ومع ظهور داود تأخذ الحروب منحى آخر فبدأت كفة بني إسرائيل في الرجحان ؛ فقد استطاع داود أن يقتل جليات جبار الفلسطينيين وهاك مشهد قتله .

قال داود لجُليات جبار الفلسطينيين وكان عملاقا يصل طوله إلى ثلاثة أمتار وكان داود بعدُ صغيرا : " اليوم يوقعك الرب في يدي فأقتلك وأقطع رأسك وأقدم جثث جيش الفلسطينيين هذا اليوم لتكون طعاما لطيور السماء وحيوانات الأرض ، فتعلم المَسْكونة كلها أن هناك إلها في إسرائيل . وتدرك الجموع المحتشدة هنا أنه ليس بسيف ولا برُمح يُخلِّص الرب ، لأن الحرب للرب وهو ينصرنا عليكم " وعندما شاهد داود الفلسطينيَّ يَهُبُّ متقدما نحوه ، أسرع للقائه . ومدَّ يده بمقلاعه ورماه ، فأصاب جبهة الفلسطيني فغاص الحجر في جبهته وسقط جُليات على وجهه إلى الأرض .

وهكذا قضى داود على الفلسطيني بالمقلاع والحجر وقتله . وإذ لم يكن بيده سيف ركض نحو جليات واخترط سيفه من غمده وقتله وقطع به رأسه . فلما رأى جبَّارهم قد قُتِل هربوا " (صموئيل الأول : ١٧)

ويبدأ نجم داود في البزوغ ، ويبدأ قلب الملك شاول يمتلأ حقدا عليه لذا حاول أكثر من مرة قتله ولكنه في كل مرة كان يفشل ويعفو داود عنه .

كان داود في بداية أمره حامل سلاح لشاول، "صموئيل الأول ١٦/٢١"، ثم أبعده شاول؛ لأنه كان يَغار من انتصاراته ضد الفلسطينيين "٨/٢٨"، بل حاول قتله "١٨/١١،١٩/١٠"، فهرب داود في جبال الصفة الغربية لنهر الأردن .

حيث كوَّن عِصابة مُسلَّحة قوية للغزو "صموئيل الأول ١٣/٢٥"، وعمل داود مع مُرْتَزَقَته في خدمة الفلسطينيين، الذين كانوا في حرب عنيفة ضد إسرائيل، وقد ضاعف داود غاراته لحساب أخيش، ملك جت الفلسطيني: "وضرب داود الأرض، ولم يستَبْقِ رجلاً ولا امرأة، وأخذ غنمًا وبقرًا وحميرًا . وجمالا، وثيابًا، ورجع إلى أخيش، "صموئيل الأول ٢٧/٩".

لم يكن الأمر في هذه الغارات أمر "تحريم" و"إبادة مقدَّسة"، أمر بها يهوه الرب، كما كانت الحال على عهد يشوع، وإنما كانت مجرد عمليات سطو مسلّح، دنيوية محضة، وسياسية، قامت بها المملكة التي سوف يُشَيِّدها داود، لا مع الفِرَق المُجَنَدة في الأسباط، بل مع جُنْده المُحتَرِفين من كل جنس، والذين كان لهم تأثير هائل متفوق.

لم يتردَّد داود في أن تكون له ـــ أيضًا ـــ علاقات مع أسباط الجنوب، ومع سبط يهوذا؛ ولهذا فعلى الرغم من أن داود كان مستعدًّا للقتال ضد إسرائيل "صموئيل الأول ٢٩/٨"، فإن الأمراء الفلسطينيين لم يكونوا يرغبون في أن يتحمَّلوا مغامرة أن يَرَوْه خائنًا أثناء معركة إسرائيل " صموئيل الأول ٢٩/٤".

داود يصبح ملكا على بني إسرائيل

وحين علم داود بموت شاول، ذهب بعد الحداد مع مُرْتَزَقَتِه إلى حبرون، وهي المركز الديني التقليدي لأسباط الجنوب، ولما كان داود قد تزوَّج من ميكال، ابنة شاول؛ فقد كان صهرًا للملك القديم "صموئيل الأول ١٨/٢٢ـــ٢٧".

وهو ما جعله خليفته الشرعي: "وأتى رجال يهوذا، ومسحوا هناك داود مَلِكًا على بيت يهوذا" "صموئيل ٢/٤".

إن استيلاء داود على السلطة قد تمَّ دون أن تكون هناك علاقات بتقاليد إسرائيل المُسالِمة . (١)

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الثاني العبرانيون " من الرابطة المقدسة إلى المَلَكيَّة ". مرجع سابق .

" وتوافد جميع رؤساء أسباط إسرائيل إلى داود في حبرون قائلين : " إننا لحمك وعظمك . وفي الأيام الغابرة عندما كان شاول ملكا علينا كنت أنت قائدنا في المعارك ، وقد قال الرب لك : " أنت ترعى شعبي إسرائيل وتتولى حكمه " . وفي حضور شيوخ إسرائيل في حبرون قطع الملك داود معهم عهدا أمام الرب ، فنصبوه ملكا على إسرائيل " (صموئيل الثاني : ٥)

عند ذلك تدخَّل الفلسطينيون للمرة الأخيرة، فهزمهم داود، لا بوساطة جيش الأسباط، بل بالمُرْتَزَقة المُحارِبة، "داود ورجاله" "صموئيل الثاني ٥ /٢١".

وقد استطاع داود منذ ذلك الحين أن يبني دولته، واختار أولاً أورشليم مركزًا لها، وهي التي أُنْشِئت في بداية الألف الثانية قبل الميلاد، ولكنها منذ بُنِيَت لم تكن غزاها الإسرائيليون حتى عهد داود، وقد دخل بمُرْتَزقة تلك المدينة الكنعانية القديمة التي كان يسكنها اليبوسيون، "صموئيل الثاني ٥/٦ ــ٩".

وهكذا أُنْشِئت مملكة تتجاوز حدود دولة إسرائيل، لقد كانت إمبراطورية فلسطينية ترتبط مُكَوِّناتها المتنافرة بشخص الملك وحده . (1)

خطيئة داود وغضب الرب عليه

ولكن داود التوراتي لم يقنع بما مَنَّ الله عليه من نعم – وهي كثيرة – فتطلع إلى ما ليس له مما في أيدي غيره ففي إحدى الأمسيات نهض داود من سريره وأخذ يتمشى على سطح قصره ، فشاهد امرأة ذات جمال أخَّاذ تستحم . فأرسل داود من يتحرى عنها فأبلغه أحدهم : " هذه بَتْشَبَع بنت أليعام زوجة أوريا الحِثِّيِّ ، فبعث داود يستدعيها . فأقبلت إليه وضاجعها إذ كانت قد تطهرت من طمثها ، ثم رجعت إلى بيتها . وحملت المرأة فأرسلت تبلغ داود بذلك فوجه داود إلى يوآب قائلا : " أرسل إليَّ أوريا الحِثِّيِّ .. قال داود لأوريا امكث هنا اليوم وغدا أطلقك " .. وفي الصباح كتب داود رسالة إلى يوآب ، بعث بها مع أوريا ، جاء فيها : اجعلوا أوريا في الخطوط الأولى حيث ينشب القتال الشرس ، ثم تراجعوا من ورائه ليلقى حتفه " . فعيَّن يوآب أوريا في أثناء محاصرة المدينة ، في أشد جبهات القتال ضراوة ، حيث احتشد أبطال الأعداء . فاندفع رجال المدينة لمحاربة يوآب فمات بعض رجال

---

(1) نفسه .

داود ومنهم أُوريا الحِثِّيّ .. وعندما علمت زوجة أوريا أن زوجها قد قتل ناحت عليه وحين انقضت فترة الحداد ، أرسل داود وأحضرها إلى القصر وتزوجها وولدت له ابنا ولكن الرب استاء من هذا الأمر الذي ارتكبه داود "
(صموئيل الثاني : ١١)

عقاب الرب لداود

ويغضب الرب على داود بسبب فعلته هذه ، وينذره بالعقاب " لن يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتني واغتصبت امرأة أُوريا الحِثِّيّ . واستطرد : هذا ما يقوله الرب : سأثير عليك من أهل بيتك من ينزل بك البلايا ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك ، فيضاجعهن في وضح النهار . أنت ارتكبت خطيئتك في السِّر ن وأنا أفعل هذا الأمر على مرأى جميع بني إسرائيل "
(صموئيل الثاني : ١٢)

ويموت الولد الذي حملت به بتشبع سفاحا من داود " ثم توجه داود إلى بتشبع وواساها وضاجعها ، فولدت له ابنا دعاه سليمان وأحب الرب الولد "
(صموئيل الثاني : ١٢)

ويتآمر أبشالوم على أبيه داود ويستولي على ملكه ويضاجع نساء أبيه " ودخل لمضاجعة محظيات أبيه على مرأى جميع الإسرائيليين " (صموئيل الثاني : ١٦)

واستطاع داود أن يعيد تنظم قواته ويحارب ابنه أبشالوم وانتهت المعركة " بهزيمة جيش إسرائيل أمام قوات داود ، وقُتِلَ منهم عشرون ألفا في مجزرة ذلك اليوم ، واتسعت رقعة القتال وافترست الغابة من الجيش أكثر من الذين افترسهم السيف في ذلك اليوم " (صموئيل الثاني : ١٨)

وفي هذه المعركة قُتِلَ أبشالوم ابن داود وناح داود على ابنه " يا ابني أبشالوم ، يا ليتني مت عوضا عنك يا أبشالوم يا ابني . آه يا ابني "(صموئيل الثاني : ١٨)

غضب الرب على بني إسرائيل

وعاد الرب فاحتدم غضبه على إسرائيل بسبب قيام داود – بإغواء من الشيطان – بإحصاء الشعب من بئر سبع إلى دان " وتآمر الشيطان ضد إسرائيل فــأغرى داود بإحصاء الشعب فأمر داود يوآب ورؤساء إسرائيل قائلا : " اذهبوا وعِدُّوا الشعب ،

من بئر سبع إلى دان ، وارفعوا إليّ تقريريكم فأعلم كم عـدده .. وإذ كـان هـذا الإحصاء ممقوتا في عيني الله ، عاقب الله الإسرائيليين " (الأيام الأول : ٢١)

وكان العقاب الذي اختاره داود من بين ثلاثة عقوبات هو تفشي الوباء ثلاثة أيام " فأفشى الرب وبَاء في إسرائيل من الصباح حتى نهاية ثلاثة أيام ، فمات الشعب من دان إلى بئر سبع سبعون ألف رجل .. فقال داود للرب عندما شاهد الملاك المُهلِك " أنا هو المخطئ والمذنب ، وأما هؤلاء الخِرَاف فماذا جنوا ؟ ليحلَّ عقابك عليّ وعلى بيت أبي " (صموئيل الثاني : ٢٤)

سليمان يصبح ملكا على إسرائيل بعد موت داود

عندما أحس داود بدنو أجله أوصى سليمان ابنه قائلا : " أنا ماضٍ إلى مصير كل أهل الأرض فتشجع وكن رجلا . احفظ شرائع إلهك . سر في سبيله وأطع فرائضه ووصاياه وأحكامه وشهاداته كما هي مدونة في شريعة موسى ليحالفك النجاح في كُل ما تفعل وحيثما تتوجه .. ثم مات داود ودفن في أورشليم " (ملوك الأول : ٢)

نظّم سليمان لحسابه الخاص تجارة بحرية مُربِحة، عن طريق خليج العقبة، بالتعاون مع البحّارة الذين أرسلهم إليه الملك الفينيقي حيرام، ملك صور.

(سفر الملوك الأول : ٩، ١٠)

وقد استطاع سليمان بهذه العائدات الهائلة، "وكذلك بالضرائب التي فرَضها على رعاياه" أن يتبع سياسة بذَخ في بناء المُدن، ولا سيما في أورشليم .

وامتدَّ سلطان سليمان " على جميع الممالك الواقعة ما بين نهر الفرات إلى أرض الفلسطينيين وحتى تخوم مصر .. ووهب الله سليمان حكمة وفهما فائقين ، ورحابة صدر غير متناهية وتفوقت حكمة سليمان على جميع أبناء المشرق وكل المصريين فكان أكثر حكمة من جميع الناس " (ملوك الأول : ٤) .

سليمان يبني بيت الرب (الهيكل)

وبعد أن وطّد سليمان ملكه واستقر حكمه بدأ في بناء الهيكل الذي لم يستطع أن يبنيه أبوه داود بسبب حروبه التي خاضها " أن أبي داود لم يستطع أن يبني بيتا لاسم الرب إلهه من جرَّاء الحروب التي خاضها ، حتى أظفره الرب بأعدائه

وأخضعهم له أما الآن وقد أراحني الرب من كل جانب ، فليس من ثائر او حادثة شر . ها أنا قد نويت أن أبني بيتا لاسم الرب إلهي كما قال الرب لداود أبي : إن ابنك الذي يخلفك على عرشك هو يبني بيتا لاسمي العظيم " (ملوك الأول : ٥)

وسخَّر الملك سليمان مائة وثلاثة وثمانين ألفا وثلاثمائة رجل (١٨٣٣٠٠) من أرجاء إسرائيل لبناء الهيكل وهم على النحو التالي : ثلاثون ألف رجل لإحضار الخشب من لبنان ، و " سبعون ألفا من حمّالي الخشب وثمانون ألفا من قاطعي الحجارة في الجبل ما عدا ثلاثة آلف وثلاث مئة من المشرفين على هؤلاء العمال "

(ملوك الأول : ٥)

ولما كان الأسباط البدو لا ماضي لهم في العمارة، وقد اختلطوا بشعوب كنعان، وتَلَقَّوا عنها الحضارة المَدَنِيَّة ــ فقد استخدم في بناء المعبد فينيقيون "الملوك الأول ١٣/٥ و٣٢/٧". وجاء تصميمه على طريقة المعابد الأشورية الفلسطينية في كنعان؛ فقد كان سليمان يحلم بعظمة الفراعنة، وبتَرف الأشوريين، مع لمَسات مُقْتَبَسة من مصر ومن العراق.

وبعد أن أتمَّ سليمان بناء الهيكل أوحى الرب إليه " بشأن الهيكل قائلا : " أما ما يتعلق بهذا الهيكل الذي شيدته ، إن سلكت في فرائضي وطبقت أحكامي وأطعت وصاياي ، ومارستها فإنني أحقق وعودي التي وعدت بها داود أباك وأقيم وسط شعبي إسرائيل ولا أتخلى عنه " (ملوك الأول : ٦)

" وبنى سليمان قصره في ثلاثة عشر سنة ، وشيد قصرا عاما دعاه قصر غابة لبنان " (ملوك الأول : ٧)

وبعد أن جهز سليمان الهيكل الرب وقصر الملك وأتم زخرفتهما على الوجه الأكمل في عشرين عاما " أخذ سليمان مدخرات أبيه داود من فضة وذهب وأوان ، التي كرَّسها لهيكل الرب ، ووضعها في خزائن الهيكل " (ملوك الأول : ٨)

نقل تابوت العهد من صهيون إلى الهيكل

جمع سليمان جميع رؤساء بني إسرائيل وكل الأسباط والعشائر في أورشليم ، لنقل تابوت عهد الرب من صهيون مدينة داود إلى الهيكل .. وأخل الكهنة تابوت

عهد الرب إلى مكانه في محراب الهيكل في قدس الأقداس .. ولم يكن في التابوت سوى لوحي الحجر اللذين وضعهما موسى في حُوريب حين عاهد الرب أبناء إسرائيل بعد خروجهم من ديار مصر وما إن خرج الكهنة من قدس الأقداس حتى ملأ السحاب هيكل الرب فلم يستطع الكهنة القيام بالخدمة من جرَّاء السحاب ، لأن مجد الرب ملأ الهيكل . (ملوك الأول : ٨)

وأخذ يبتهل سليمان للرب قائلا : " .. استمع إلى ابتهال عبدك وشعبك إسـرائيل الذين يُصلّون في هذا المكان .. إذا انهزم شعبك أمام عدوهم من جرَّاء خطيئـتهم ، ثم تابوا معترفين باسمك وصلّوا متضرعين إليك في هذا الهيكل فاستجب أنت مـن السماء واصفح عن خطيئة شعبك إسرائيل ، وأرجعهم إلى الأرض التـي وهبتهـا لآبائهم .. " (ملوك الأول : ٨)

عهد الرب مع سليمان

" إن سلكت أنت أمامي كما سلك أبوك داود بكمال القلب والاستقامة وطبقت كل ما أمرتك به ، وأطعت فرائضي وأحكامي ، فإني أثبّت كرسيّ ملكك على إسرائيل إلى الأبد ، كما وعدت أباك داود قائلا : " لا ينقرض من نسلك من يملك على عرش إسرائيل . إما إن انحرفتم أنتم أو أبناؤكم عن اتّباعي ، ولم تطيعوا وصاياي وفرائضي التي سننتها لكم ، وغويتم عابدين آلهة أخرى وسجدتم لها ، فإني أُبيد إسرائيل عن وجه الأرض التي وهبتها لهم ، **وأنبذ الهيكل الذي قدّسته لاسمي ، فيصبح إسرائيل مثلا ومَثار هُزء لجميع الأمم** . ويصبح هذا الهيكل عبرة يثير عَجَب كل مَن يمر به ، فيَصفّر ويتساءل : " لماذا صنع الرب هكذا بهذه الأرض وبهذا الهيكل ؟ " فيأتيهم الجواب : " لأنهم تركوا الرّب إلههم الذي أخرج آباءهم من ديار مصر ، وتشبثوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها ، لذلك جلَب الرب عليهم كل هذا البلاء " (ملوك الأول : ٩)

والسؤال هنا من المسئول عما جرى لبني إسرائيل بعد ذلك من هلاك ، ونبذ للهيكل ، واستهزاء جميع الأمم بهم ؟

أليسوا هم أنفسهم المسئولين عن كل ما جرى ويجري لهم بسبب فسادهم وارتكابهم الشر في عيني الرب ؟

تسخير سليمان للأمم من غير بني إسرائيل

بعد أن أتمَّ سليمان بناء " كل ما رغب فيه في أورشليم وفي لبنان وفي جميع أرجاء سلطنته . أما من تبقى من الأموريين والحثّيين والفرزّيين و الحوّيين واليَبُوسيين الذين لا ينتمون إلى بيني إسرائيل ، من ذَرَاري الأمم التي عجز الإسرائيليون عن إفنائهم ، فقد فرض عليهم سليمان خدمة التسخير كالعبيد إلى هذا اليوم . أما أبناء إسرائيل فلم يُسخّر سليمان منهم أحداً ، لأن منهم كان يتالف جنوده ورجال حاشيته وأمراؤه وضباطه قادة مركباته وفرسانه ن وكان عدد المُوكّلين على الإشراف على خدمة العُمال المُسخّرين لتنفيذ أعمال سليمان خمس مئة وخمسين رجلا " (ملوك الأول : ٩)

ما الفرق بين ما صنعه سليمان – التوراتي – بغير بني جنسه من الأمم الأخرى ، وما صنعه فرعون مصر الذي اضطهد غير المصريين من بني إسرائيل ؟!!

وكيف يلوم بنو إسرائيل المصريين على ما فعلوه بهم من تسخير – ترحموا عليه بعد ذلك – بعدما صنع ملكهم سليمان ذلك ؟!

العجيب أن توراة اليهود تقول أن الإسرائيليين عندما عجزوا عن إفناء غيرهم من الأمم الأخرى سخّروهم ، أي كان بود الإسرائيليين إفناء غيرهم من الأمم عندما تمكنوا منهم لكنهم عندما عجزوا عن إفنائهم سخروهم ! وبعد ذلك يقولون لك أنهم هم ضحية الأمم الأخرى وهذا قانون إلههم في الحرب !!

تعاليم الرب لبني إسرائيل في الحرب

لم تكن الحرب لدى بني إسرائيل حربا مقدسة لنشر عبادة الله الواحد الأحد ، ولا لنشر مبادئ الحق والخير والجمال ، إنما كانت حربا تترية وحشية وهاك تعاليم نبيهم صموئيل لملكهم شاول .

" قال صموئيل لشاول (١) :

---

(١) كان صموئيل هو الزعيم الروحي لبني إسرائيل في ذلك الوقت ، أما شاول فكان مسئول الشئون المدنية والإدارية والعسكرية .

" أنا الذي أرسلني لأنصّبنك ملكا على إسرائيل ، فاسمع الآن كلام الرب . هذا ما يقوله رب الجنود : إني مزمع أن أعاقب عماليق جزاء ما ارتكبه في حق الإسرائيليين حين تصدى لهم في الطريق عند خروجهم من مصر . فاذهب الآن وهاجم عماليق واقض على كل ماله . ولا تعفُ عن أحد منهم بل اقتُلْهم جميعا رجالا ونساء ، وأطفالا ورُضّعا ، بقرا وغنما ، جمالا وحميرا "

(صموئيل الأول : ١٥)

وليست هذه التعاليم قاصرة على شاول فحسب بل هي شريعة التزم بها كل ملوك بني إسرائيل فقد رأينا ما فعله يشوع بسكان مدينة أريحا ، وما فعله سليمان بالأممين من غير بني إسرائيل ، وإليك ما فعله داود بعد أن انتصر على ربَّة عَمُّون واستولى على عاصمة المملكة " استعبد أهلها وفرض عليهم العمل بالمعاول والمناشير والفؤوس وأفران الطوب . وعامل جميع أهل مدن العَمُّونيين بمثل هذه المعاملة " (صموئيل الثاني : ١٢)

وقلَّد سليمان كذلك الإمبراطوريات، التي كان للمركبات فيها دَوْر كبير، في فنون الحرب، على الرغم من أنه لم يُحارب فقد بنى إصطبلات واسعة "الملوك الأول ١٩/٩" لخيول مركباته الحربية، بناها في مجدو، لمجرد الأبهة .

وأخيرًا، فلكي يُضفِي على بلاطة مزيدًا من البريق، تزوَّج سليمان بمجموعة من النساء اللامعات .

زوجات سليمان

كان سليمان - التوراتي - مِزْواجا لدرجة أنه كان تحته ألف امرأة من مختلف الجنسيات " وأولع سليمان بنساء غريبات كثيرات ، فضلا عن ابنة فرعون ، فتزوج نساء موآبيات وعَمُّونِيَّات وأدُومِيَّات و صيدُونِيَّات وحِثِّيَّات ، وكلهن من أبناء الأمم التي نهى الرب بني إسرائيل عن الزواج منهن قائلا لهم : " لا تتزوجوا منهم ولا هم منكم ، لأنهم يُغْوُون قلوبكم وراء آلهتهم " ولكن سليمان التصق بهن لفرط محبته لهن . فكانت له سبع مئة (٧٠٠) زوجة ، وثلاث مئة (٣٠٠) مَحْظِية "

(ملوك الأول : ١١)

إذن لا كلام يسمع بعد ذلك عن نقاء عنصر بني إسرائيل بعدما تزوج موسى من ابنة كاهن مديان " صفورة وإنجابه منها " وقَبِل موسى أن يقيم مع الرجل

(كاهن مديان) الذي زوجه من ابنته صفُورة فأنجبت له ابنا دعاه جرشوم (ومعناه غريب) إذ قال كنت نزيلاً في أرض غريبة " (الخروج : ٢)

كما تزوج داود من بثشبع بنت أليعام الحثية زوج أُوريا الحثيّ .

" وعندما علمت زوجة أوريا أن زوجها قد قتل ناحت عليه وحين انقضت فترة الحداد ، أرسل داود وأحضرها إلى القصر وتزوجها وولدت له ابنا ولكن الرب استاء من هذا الأمر الذي ارتكبه داود " (صموئيل الثاني : ١١)

" ثم توجه داود إلى بثشبع وواساها وضاجعها ، فولدت له ابنا دعاه سليمان وأحب الرب الولد " (صموئيل الثاني : ١٢)

وكان للملك داود جدة موآبية، هي راعوث، "راعوث ٢٢/٤"، وقد أنجب من زوجه الحثية بتشبُع ابنة سليمان، "صموئيل الثاني ٢٧/١١" .

واضح – إذن – أن الزواج المُختلَط، كان مُمارسة دائمة .

وكون العبرانيين فرعًا من الهجرة الآرامية أمر يشهد له حتى ما يَجْهَر به الإيمان اليهودي: "آراميا تائهًا كان أبي"، "التثنية ٥/٢٦"، وقد جعل سِفر التكوين من "لابان الآرامي" عم يعقوب وحماه، "التكوين ١٥/٢٩" وما بعدها".

كما يشهد النبي حزقيال، أوائل القرن السادس، على أن التلاقح الثقافي والعنصري كان أساس استمرار شخصية فلسطين، وأساسها هُويَّتها: "هكذا قال السيد الرب لأورشليم : مخرجك ومولدك من أرض كنعان، أبوك أموري، وأمك حثية" "حزقيال ٣/١٦ و٤٥" .

هذا هو التاريخ الذي أدانَه حزقيال القرن السادس، باعتباره شكلاً من أشكال "الفساد"، ولكنه يُلخص خمسة قرون من الواقع التاريخي . (١)

معصية سليمان وغضب الرب عليه

استطاعت الألف امرأة اللاتي تزوجهن سليمان من غير الإسرائيليات " في زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهة أخرى ، فلم يكن قلبه مستقيما مع الرب إلهه

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول : تاريخ أرض ، الفصل الأول : الحضارة الكنعانية .مرجع سابق .

كقلب داود أبيه وما لبث أن عبد عشتاروث آلهة الصِّيْدُونيِّين ، ومَلْكُوم إله العَمُّونيين البغيض ، وارتكب الشر في عين الرب ، ولم يتبع سبل الرب بكمال كما فعل أبوه داود . وأقام على تل شرقي أورشليم مرتفعا لكَمُوش إله المُوآبيين الفاسق ، ولمُولَك إله بني عَمُّون البغيض . وشيد مرتفعات لجميع نسائه الغريبات ، اللواتي رحن يوقدن البخور ويقربن المحرقات لآلهتهن " (ملوك الأول : ١١) .

هل يعقل هذا ؟! سليمان الذي بنى بيت الله الوحيد " الهيكل " وسخر لبنائه أكثر من مائة وثلاثة وثمانين ألف رجل ، وانفق عليه ما إن أنفق على جميع البشر ما بقي فقير على وجه البسيطة يعبد الأصنام : عشتاروث ، وملكوم ، وكموش ، ومولك من دون الله !!

سليمان الذي وصلت مملكة إسرائيل في عهده – بحسب رواية التوراة المخالفة للحقيقة والتاريخ – إلى أقصى امتداد لها " جميع الممالك الواقعة ما بين نهر الفرات إلى أرض الفلسطينيين وحتى تخوم مصر . " يعبد آلهة هذه البلاد ويكفر بإلهه الذي ساعده على امتلاكها !!

سليمان الذي وهبه الرب الحكمة والفهم يعبد الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنه شيئا " ووهب الله سليمان حكمة وفهما فائقين ، ورحابة صدر غير متناهية وتفوقت حكمة سليمان على جميع أبناء المشرق وكل المصريين فكان أكثر حكمة من جميع الناس " (ملوك الأول : ٤) .

وعيد الرب لسليمان

وكان أن غضب الرب على سليمان بسبب عبادته للأصنام " لهذا قال الله لسليمان : " لأنك انحرفت عني ونكثت عهدي ، ولم تطع فرائضي التي أوصيتك بها ، فإني حتما أمزق أوصال مملكتك ، وأعطيها لأحد عبيدك " (ملوك الأول : ١١)

انقسام مملكة سليمان

إذا كان سليمان قد نجح في مراقبة وإبعاد قوى التمزيق عن مملكته فإن رحبعام ابنه قد فشل في إبقاء المملكة موحدة (الملوك الأول : ١٢) وفي النهايـــة تمـــردت القبائل الشمالية العشر وكونت مملكتها المستقلة بعاصمتها في السامرة .

وبهذا انقسمت مملكة سليمان إلى مملكتين : إسرائيل مملكـــة الـــشمال ، ويهـــودا مملكة الجنوب .

حكم مملكة الشمال، التي تعد الأكبر والأقوى تسعة عشر ملكاً يمثلون عددا من الأسر الحاكمة. وإن كانت هذه المملكة قوية على الصعيد الخارجي، فإنها كانت ضعيفة داخليا بسبب كثرة الصراعات الداخلية والانحرافات الأخلاقية. وأدت زيادة الفروقات بين الطبقات الاجتماعية إلى الظلم والفساد، وتخلى كثير من الناس عن واجباتهم الدينية بالتعبد في الأضرحة المحلية. وكانت هذه الفترة هي التي ظهر فيها كبار أنبياء إسرائيل ليطالبوا بالعبادة الصحيحة والعدالة الاجتماعية، ولكن بالرغم من استقامة عدد من الأفراد، فإن الأمة ككل وصفت في كتب التوراة (الملوك الأول والملوك الثاني) بأنها مستمرة في إصرارها على ارتكاب الشر. وفي الأخير دمرت الملكة الشمالية سنة ٧٢١ على يد الجيوش الآشورية.

كانت مملكة يهودا الجنوبية تحكم من قبل أسرة الملك داود. بالرغم من أنها أيضا عرفت الثورة والصراع، إلا أنها تمتعت بقدر أكبر من السلام الداخلي عند مقارنتها بالمملكة الشمالية. ولكن، بالرغم من اتحادها القوي حول مؤسسات بيت داود وهيكل القدس، إلا أنها أيضا عانت من الفساد الاجتماعي والديني. فلذلك قام أيضا في يهودا أنبياؤها فشجبوا التصرفات السيئة، وأنذروا بانتقام الله القادم .(١)

السبي الآشوري (سنة ٧٢٢ ق.م)

بعد موت سليمان نفذ الرب تهديده بتمزيق مملكة سليمان بسبب خروجه على شريعته فتنازع بنو إسرائيل أمر الحكم بينهم وانقسموا شيعا كل فريق بما لديهم فرحون . وبسبب عنادهم ، وكفرهم ، وعصيانهم أوامر الرب سلط الله عليهم من ينتقم منهم .

" إن شعب إسرائيل شعب عنيد كعجلة جامحة ، فكيف يرعاهم الرب كحمل في مرج رحب ؟ إن أفرايم مكبل بعبادة الأصنام ، فاتركوه وحيدا .

وحالما ينضب خمرهم ينغمسون في فسادهم مفضلين العار على الشرف ، قد صرتم الريح في أجنحتها ، وأنزلتْ بهم ذبائحُهُم الوثنيةُ العارَ .

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " ترجمة عبد الغني بن إبراهيم من منشورات: معهد هاريت و روبرت للتفاهم الدولي بين الأديان اللجنة اليهودية الأمريكية نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية . ص ٣٠ .

اسمعوا هذا أيها الكهنة وأنصتوا يا شعب إسرائيل ــ وأصغوا يا أهل بيت الملك . لأن القضاء حالٌ بكم إذ كنتم فخا في المصفاة وشبكة منصوبة على جبل تابور ... أرض أفرايم ستصبح خرابا في يوم القضاء ، وبين أسباط إسرائيل أظهرت ما هو يقين .

قد صار رؤساء يهوذا مُتَعَدّين كالذين ينقلون تُخُومَ الأرض ليسلبوا سواهم لهذا سأصب عليهم سخطي كالماء لقد لحق الضيق بإسرائيل ، وسحقه القضاء لأنه وطد العزم على الغواية وراء الأوثان لهذا سأكون كالعُثّ لإسرائيل وكالسوس الناخر لشعب يهوذا ... إني سأكون كالأسد المفترس لإسرائيل ، وكالشبل لأبناء يهوذا أفترس وأمضي . أخطف ولا من منقِذ " (هوشع : ٤ ، ٥)

ويعاقبهم الله على فسادهم ، ورفضهم التوبة إلى الله فيرسل ملك أشور عليهم ويعمل فيهم السيف ومن بقي حيا سباه إلى مملكة أشور .

" رفضوا أن يتحولوا إلى تائبين لذلك لن يرجعوا إلى مصر بل يصبح أشور ملكا عليهم يهجم السيف على مدنهم ويلتهم أرتاج بواباتها ، ويهلكهم لمشوراتهم الخاطئة قد وطد شعبي العزم على الارتداد عني لهذا ولو استعانوا بالعليّ فإنهم لا يجدون من يرفع النير عنهم " (هوشع : ١١)

وينفذ الرب تهديده ويرسل إليهم من يفتك بالسامرة ومن فيها .

" اعتلى هوشع بن أيْلة عرش إسرائيل في السامرة تسع سنوات . وارتكب الشر في عيني الرب ، إلا أنه كان أفضل قليلا من أسلافه ملوك إسرائيل . وزحف عليه شَلْمَنْأسَر ملك أشور . فصار هوشع له تابعا يدفع له الجزية .

وما لبث أن اكتشف ملك آشور خيانة هوشع ، الذي أرسل وفدا يستغيث بسَوَا ملك مصر ، ولم يؤد جزية لملك أشور كعهده في كل سنة فقبض عليه ملك أشور وزَجَّه موثقا في السجن . واجتاح ملك أشور أرض إسرائيل وحاصر السامرة ثلاث سنوات وفي السنة التاسعة من حكم هوشع سقطت السامرة ، فسبى ملك أشور الإسرائيليين إلى أشور .. وقد حلت هذه النكبة ببني إسرائيل لأنهم أثموا في حق الرب إلههم الذي أخرجهم من ديار مصر من تحت نير فرعون وعبدوا آلهة أخرى .. وأقاموا لأنفسهم أنصابا وتماثيل لعشتاروث على كل مرتفع .. واقترفوا الموبقات

لإغاظة الرب ، عابدين الأصنام التي حذرهم ونهاهم الرب عنها .. ولكنهم أصموا أذانهم وأغلظوا قلوبهم كآبائهم الذين لم يثقوا بالرب إلههم وتنكروا لفرائضه وعهده الذي أبرمه مع آبائهم وتجاهلوا تحذيراته ونواهيه لهم وضلوا وراء أصنام باطلة فأصبحوا هم أنفسهم باطلين ..

فاحتدم غضب الرب على إسرائيل ، وطرهم من حضرته ، ولم يبق سوى سبط يهوذا . ولكن حتى سبط يهوذا لم يحفظ وصايا الرب إلهه بل نهج في طُرُق إسرائيل التي سلكتها . فنبذ الرب كل ذرية إسرائيل وأذلهم وأسلمهم ليد آسريهم وطرهم من حضرته .. فَسُبِيَ الإسرائيليون من أرضهم إلى أشور إلى هذا اليوم .. ونقل ملك أشور أقواما من بابل وكوث وعوّا وحماة وسفروايم ، وأسكنهم مدن السامرة محل بني إسرائيل فستولوا على السامرة وأقاموا مدنها "(ملوك الثاني:١٧)

السبي البابلي (سنة ٥٨٦ ق.م)

وبدلا من اتعاظ بقية مدن إسرائيل بما أحدثه ملك أشور بالسامرة وأهلها راحوا يتمادون في غيهم وفسادهم فأوحى الرب إلى نبيهم ميخا أن أنذر كل من مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل (١) بخراب أورشليم بسبب فساد شعب إسرائيل

" استمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة شعب إسرائيل الذين يكرهون العدل ويحرفون الحق . الذين يبنون صهيون بالدم وأورشليم بالظلم . إذ يحكم رؤساءكم بالرشوة ، وكهنتها يعلمون بالأجرة ويتعاطى أنبياؤهم العَرّافة لقاء المال ، ومع ذلك يدعون الاتكال على الله قائلين : أليس الرب في وسطنا ؟ لذلك لن يصيبنا مكروه . لهذا من جرّاء أعمالكم ستحرث صهيون كالحقل وتصبح أورشليم كومة من الخرائب ، وجبل الهيكل مرتفعا تنمو عليه أشجار الغاب " (ميخا : ٣)

" ثم قال الرب على لسان عبيده الأنبياء : " لأن منسى ملك يهوذا اقترف جميع هذه الموبقات ، وارتكب شرورا أشد من فظاعة شرور الأموريين الذين كانوا قبله ، وأضل يهوذا فجعله يأثم بعبادة أصنامه ، لذلك يقول الرب إله إسرائيل : " ها أنا أجلب شراً على أورشليم ويهوذا فتَطِنُّ أذنا كل من يسمع به . وسأوقع على أورشليم العقاب الذي أوقعته بالسامرة وبأخآب ونسله . وأمسح أورشليم من الوجود كما يمسح الطبق من بقايا الطعام ثم يقلب على وجهه ليجف . وأنبذ بقية شعبي وأسلمهم

---

(١) بعد موت سليمان نفذ الرب تهديده لسليمان بأن مزق مملكته إلى مملكتين هما : مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم ، ومملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة .

إلى أيدي أعدائهم فيصبحوا غنيمة وأسرى لهم ، لأنهم ارتكبوا الشر في عينيّ واثاروا غضبي منذ خروج آبائهم من مصر إلى هذا اليوم . وزاد منسى فسفك دم أبرياء كثيرين حتى ملأ أورشليم من قصاها إلى أقصاها " (ملوك الثاني : ٢١)

ونفذ رب إسرائيل تهديده لشعب إسرائيل ويهوذا فبعث عليهم رجلا ذا بأس شديد فاحتل أورشليم وأحرق الهيكل وقصر الملك وسائر بيوت أورشليم " وفي اليوم السابع من الشهر الخامس من السنة التاسعة عشرة من حكم الملك نَبُوخَذْنَاصَّر ملك بابل ، قدم نبوزرادان قائد الحرس الملكي من بابل إلى أورشليم ن وأحرق الهيكل وقصر المَلك وسائر بيوت أورشليم ، وكل منازل والعظماء وهدمت جيوش الكلدانيين التي تحت إمرة رئيس الحرس الملكي جميعَ أسوار أورشليم ، وسبى نبوزرادان بقية الشعب الذي بقي في المدينة ن والهاربين الذين لجأوا إلى ملك بابل وسواهم من السكان ولكنه ترك فيها فقراء الأرض المساكين ليزرعوها ويفلحوها .. وسبى رئيس الحرس الملكي سريا رئيس الكهنة وصفنيا مساعده وحرَّاس الباب الثلاثة وقبض على خصيّ واحد من أهل المدينة ، كان قائدا للجيش وعلى خمسة رجال من ندماء الملك الذين تم العثور عليهم في المدينة وكاتب قائد الجيش المسئول عن التجنيد وستين رجلا من الفلاحين أهل المدينة واقتادهم نبوزرادان رئيس الحرس إلى ملك بابل المُعَسكِر في رَبْلة فقتلهم ملك بابل في ربلة في أرض حماة وهكذا سبي شعب يهوذا من أرضه أما بقية الشعب الذين تركهم نبوخذناصر ملك بابل في أرض يهوذا .. فهب جميع الشعب ، صغيرهم وكبيرهم ، ورؤساء الجيوش ، وهربوا إلى مصر خوفا من انتقام الكلدانيين " (ملوك الثاني : ٢٥)

وتصف لنا توراة اليهود في موضع آخر أسباب السبي البابلي فتذكر أن بني إسرائيل قبل السبي البابلي " ازدادوا تورطا في خيانة الرب ، مقترفين كل رَجَاسات الأمم ، حتى إنهم نجَّسوا بيت الرب الذي قدَّسه في أورشليم .

وأرسل الرب إله آبائهم إليهم رسلا بصورة متوالية محذرا إياهم لأنه أشفق على شعبه وعلى مسكنه .

فكانوا يهزئون برسل الله ، ورفضوا كلامه واستهانوا بأنبيائه ، حتى ثار الرب على شعبه وامتنع كل شفاء .فأرسل إليهم ملك الكلدانيين فقتل نُخبَتَهم بالسيف في عُقر الهيكل المقدس ، ولم يرحم الرب فتى أو عذراء أو شيخا أو أشيب بل أسلمهم جميعا ليد الكلدانيين الذين استولوا على آنية بيت الله كبيرها وصغيرها ، وخزائن قادته ونقلوها كلها إلى بابل .

وأحرقوا الهيكل وهدموا سور أورشليم وأشعلوا النار في جميع قصورها ، ودمروا تحفها الثمينة .

وسبى نبوخذناصَّر الذين نجوا من السيف إلى بابل فأصبحوا عبيدا له ولأبنائه إلى أن قامت ملكة فارس " (أخبار الأيام الثاني : ٣٦)

" قال الرب لزكريا : " هذا ما يقوله الرب القدير ، اقضوا بالعدل ولْيُبْدِ كل منكم إحسانا ورحمة لأخيه . ولا تجورا على الأرملة واليتيم والغريب والمسكين ولا يضمر أحدكم شرا في قلبه لأخيه . ولكنهم أبوا أن يصغوا ، واعتصموا بعنادهم غير عابئين ، وأصموا آذانهم لئلا يسمعوا . وقسُّوا قلوبهم كالصوَّان لئلا يسمعوا الشريعة التي أرسلها الرب القدير بروحه على أنبيائه السابقين . فانصب غضب عظيم من لدن الرب القدير . وكما ناديت فلم يسمعوا فإني أنا أيضا لا أسمع ، يقول الرب القدير . فبددتهم بالزوبعة بين الأمم التي لم يعرفوها من قبل فصارت الأرض التي نفوا منها خرابا لا يجتازها ذاهب أو راجع ، وأضحت الأرض المبهجة قفرا "

(زكريا : ٧)

ورأي المؤرخين الأكاديميين اليهود في رؤية التوراة للتاريخ ودور بني إسرائيل في هذا التاريخ هو : " إن الله يتدخل بشكل فعلي في الشؤون الإنسانية بحسب التوراة ويمثل القوة التي تحدد مجرى كل التاريخ. فالقوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في التاريخ هي مصطلحات حديثة لم تكن معروفة في التوراة ، ولهذا السبب فسر كتاب التوراة كل الأحداث على ضوء ردة الفعل الإلهية على سلوك إسرائيل. فإن أي كارثة، سواء كانت وبائية، أم جفافا، أم هجوما عسكريا أم ضعفا إداريا، فإنها تفسر على أنها عقاب إلهي مباشر على فعل شرير. وبالنسبة للنجاحات الكبرى مثل الانتصارات العسكرية والسياسات الحكومية الرائعة فإنها تمثل المكافآت الربانية في الفهم التوراتي ." (١)

وعليه فإذا كان اليهود يفسرون تاريخهم تفسيرا دينيا توراتيا فإن المؤرخين الأكاديميين يفسرونه تفسيرا علمانيا فانتصار بنو إسرائيل ليس مكافأة إلهية إنما نتيجة القوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وكذلك الهزيمة ليست بسبب عقاب الرب لبني إسرائيل الذين عصوه وأشركوا به وإنما بسبب الانقسام والصراعات

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٣٠

الداخلية ، وبهذا فإن هؤلاء المؤرخين الجدد يرفضون بالكلية تفسير التاريخ اليهودي وفق الرواية التوراتية .

"إن المؤرخين الأكاديميين يقرءون التاريخ التوراتي بوسائل تحليل مختلفة عن الوسائل التي يستعملها المؤمنون المتدينون. فمن وجهة نظر المؤرخ الأكاديمي سواءً أكان يهوديا أم مسلما أم مسيحيا فإن انحطاط مملكة إسرائيل المتحدة كان نتيجة التغيرات الاقتصادية والتطورات الثقافية والأوضاع السياسية والسياسات المتبعة داخل المملكة وفي الشرق الأوسط على العموم .

إن إمبراطورية داود، على سبيل المثال تأسست، فعلا، في الوقت الذي كانت فيه مصر وبابل القوتان العالميتان العظيمتان في الشرق الأوسط ضعيفتين. وقد أخذت في الانحطاط في الوقت نفسه الذي تعافت فيه هاتان القوتان الكبريان وسيطرت على المنطقة مرة أخرى. كانت هناك، بكل تأكيد، فترات فساد فاحش وفترات فساد أقل، وكان هناك ظلم اجتماعي وانحراف ديني داخل كيان إسرائيل ويهودا، لكن الأنبياء نظروا إلى كل تاريخ العالم على أنه ناتج من سلوك بني إسرائيل. فلهذا السبب تنبئوا بخراب المملكتين إذا لم يستقم الناس في سلوكهم ويطيعوا القانون الإلهي كاملا، ويلتزموا بالقيام بالشعائر ومناسك الديانة اليهودية الموحدة بإخلاص. ولقد اقترن انحطاط إسرائيل بالسلوك السيئ واقترن التحسن في وضعها بالسلوك المستقيم. فعندما دمر الآشوريون مملكة الشمال سنة ٧٢١ قبل الميلاد اعتبر هذا التدمير عقابا إلهيا. واعتبرت نجاة المملكة الجنوبية ناتجة عن طاعتها للقانون إلهي وإرادته .

لكن يهودا سقطت في النهاية عام ٥٨٦ قبل الميلاد . وكانت بابل القوة المسيطرة في الشرق الأوسط آنذاك، ورأى أنبياء يهودا في بابل أداة إلهية. كان الأنبياء مصلحين ورعين حاولوا إبقاء إسرائيل في الطريق المستقيم. وبالرغم من شجبهم كثيرا السلوك الإسرائيلي، إلا أنهم كذلك أعلنوا بشارة الأمل التي بقيت بعد تدمير القدس والهيكل .بالإمكان تدمير المملكة لكن لب الشعب الموعود سينجو وسيرده الله إلى القدس وإلى الأرض (إشعياء ٣٧: ٣ـ٣٢، إرميا ٣١ : ٧ـ٩، ميخا ٢: ١٢ـ٤، إلخ) إن اعتماد الأنبياء وثقتهم في الوعد الأزلي منحتهم الثقة للم شمل الناجين للاستمرار في العيش على ضوء تعاليم التوراة ، حتى وهم في المنفى خارج أرض إسرائيل . (١)

---

(١) نفسه ص ٣١

وبهذا ينزع المؤرخون الأكاديميون القداسة عن بني إسرائيل ، وعن تاريخهم ، فبنو إسرائيل بشر كسائر البشر – وليسوا شعب الله المختار – يجري عليهم ما يجري على غيرهم من سنن النصر والهزيمة .

عودة اليهود من السبي

عندما دمرت مملكة الشمال شتت المنتصرون القبائل في كل أنحاء الإمبراطورية الأشورية بطريقة لم تستطع فيها تلك القبائل المحافظة على هويتها الدينية والثقافية. وكانت النتيجة إذابة وإبادة مملكة إسرائيل الشمالية. وتُعرف هذه القبائل "بالقبائل العشر المفقودة" التي لم يعد لها وجود لأنها لم تحظ بالبقاء بعد غزو الآشوريين لمملكتهم. أما قبيلتا يهودا وبنيامين اللتان بقيتا في المملكة الجنوبية لمدة مئة وخمسين سنة أخرى فقد كانتا تعرفان مجتمعتين باسم اليهود لأن القبيلة الكبيرة يهودا كانت هي المسيطرة إلى حد بعيد .

وقد عمل هؤلاء اليهود في خلال هذه الفترة بجد لغرس الديانة اليهودية وقيمها وأخلاقها في أعماق قلوب الناس. وعندما غزت بابل في النهاية يهودا سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ، ودمرت الهيكل، سبت عددا كبيرا من سكانها إلى العاصمة البابلية. استطاع اليهود أن يحافظوا على هويتهم الدينية والثقافية حتى وهم أقلية صغيرة في أرض أجنبية. يسجل المزمور المئة والسابع والثلاثون شعور اليهود المسبيين في بابل : "على ضفاف أنهار بابل جلسنا، وبكينا عندما تذكرنا أورشليم، هناك علقنا أعوادنا على أشجار الصفصاف، هناك طلب منا الذين سبونا أن نشدو بترنيمة والذين عبّدونا أن نطربهم قائلين :

" أنشدوا لنا من ترانيم صهيون١٦ كيف نشدو بترنيمة الرب في أرض غريبة ؟ إن نسيتك يا أورشليم ، فلتنس يميني مهارتها .ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك ولم أفضلك على ذروة أفراحي. "

دام السبي الإجباري في بابل قرابة خمسين عاما وبدخول سنة ٥٣٩ قبل الميلاد (١).

عفا الله عنهم وأعادهم إلى أورشليم لعلهم يشكرون نعم الله عليهم ولا يعودون إلى نبذ شريعته وحربه مرة ثانية .

---

(١) نفسه .ص ٣٢

" وفي السنة الأولى لحكم قورش ملك فارس ، وتتميما لكلام الرب بفم إرميا ، حرّك الرب قلب قورش فأطلق نداء في كل أنحاء مملكته قائلا " هذا ما يقوله قورش ملك فارس : الرب إله السماء وهبني جميع ممالك الأرض ، وأمرني أن أبني له هيكلا في أورشليم التي في يهوذا ، وعلى كل واحد من شعب الرب أن يرجع إلى هناك ، وليكن الرب معكم " (أخبار الأيام الثاني : ٣٦)

هزم كورش ملك فارس البابليين. وسمح بعودة الراغبين من اليهـود إلـى أرض إسرائيل (عزرا ١:١) .

عاد عشرات الآلاف في السنة التالية ، لكن كثيرين آخرين اختاروا البقاء في بابل انضم العائدون في بناء الهيكل في القدس إلى اليهود الذين لم يغادروا الأرض. واكتملت إعادة الهيكل سنة ٥١٥ قبل الميلاد ، إلا أن كل شيء لم يكن على ما يرام في يهودا، لأن البلد بقيت فقيرة والقدس كانت دون تحصينات ومعرضة للخطر، وكان الناس يعيشون في فوضى، ودون نظام ديني وحكومي قوي، وازداد التزاوج من الجيران الوثنيين وأصبح الالتزام الديني ضعيفا (١).

إن بني إسرائيل ما شكروا نعم الله عليهم بل لما عادوا إلى أورشليم عادوا يرتكبون نفس المعاصي ويتعرضون لنفس المشكلات التي تعرضوا لها سابقا فقد أهملوا العبادة وظلم الواحد منهم قريبه .

" وارتفع صراخ الشعب ونسائهم احتجاجا على إخوتهم اليهود المستغلّين ... وحين سمعت صراخ شكواهم وكلامهم غضبت جدا وبعد أن تدبرت الأمر في نفسي عنفت الأشراف والولاة قائلا : " إنكم تأخذون الربا من إخوانكم " ثم عقدت اجتماعا عظيما لمقاضاتهم وقلت لهم : " إننا بحسب طاقتنا افتدينا بالأموال إخوتنا اليهود الذين بيعوا للأمم ، وها أنتم تبيعون إخوتكم لهم ، وهم يعودون فيبيعونهم لنا " فسكتوا ولم يجدوا جوابا " (نحيما : ٥)

وتلخص توراة اليهود قصة شعب إسرائيل عبر تاريخه فتقول :

" وأوحى إليَّ – إي حزقيال – بكلمته قائلا " يا ابن آدم ، عندما أقام شعب إسرائيل في أرضهم نجسوها بطرقهم الشريرة وتصرفاتهم .

---

(١) نفسه .ص ٣٣

كانت طريقهم أمامي نجسة كنجاسة الطامث فسكبت غضبي عليهم جرّاء ما سفكوا من دم على الأرض التي نجسوها بأصنامهم ففرقتهم بين الأمم وشتتهم في البلدان ، ودنتهم بمقتضى طريقهم وتصرفاتهم .

وحين استقروا بين الأمم التي تفرقوا بينها دنّسوا اسمي القدوس إذ قيل لهم : هؤلاء شعب الرب وقد طردوا من أرضه .

فغرْت على اسمي الذي نجسه شعب إسرائيل بين الأمم التي تفرقوا بينها .

لذلك قل لشعب إسرائيل : ليس لأجلكم أنا موشك أن أعمل (عظائم) يا شعب إسرائيل ، بل غيرة على اسمي الذي دنستموه بين الأمم التي تفرقتم بينها فأقدس اسمي العظيم الذي صار بسببكم منجسا بين الأمم التي تفرقتم بينها فتدرك الأمم أني أنا الرب حين أتقدس فيكم أمام أعينهم يقول السيد الرب إذ آخذكم من بين الأمم وأجمعكم من كل البلدان وأحضركم إلى أرضكم وأرش عليكم ماء نقيا فتطهرون من كل نجاساتكم ومن أصنامكم ... ولهذا اعلموا أنه ليس من أجلكم أنا أفعل هذا ، يقول السيد الرب فاخجلوا واخزوا من طرقكم يا شعب إسرائيل " (حزقيال : ٣٦)

ويفي الله بوعده – الذي لا يستحقوه – لبني إسرائيل ويعيدهم بعد السبي البابلي إلى أورشليم لعلهم يتقون الله ولا يعودون إلى رجاساتهم مرة أخرى ولكن هيهات هيهات فما إن استقروا في أورشليم وأعادوا الهيكل حتى عادوا إلى سابق عهدهم .

وطالبهم الله تعالى بالتوبة ليتوب عليهم فلم يتوبوا أنذرهم بنقص في الأموال والأنفس والثمرات فلم يتوبوا ، وأخيرا ضربهم الله بالأوبئة .

" قد جعلت الجوع يعم مدنكم ، فلم تتسخ أسنانكم بالطعام ! وأفقرتكم إلى الخبز في كل أماكن سكناكم ، ولكنكم لم ترجعوا إليَّ تائبين ، يقول الرب : منعت عنكم المطر ولم يكن قد بقي للحصاد سوى ثلاثة أشهر ، وأمطرت على مدينة دون مدينة ، وعلى حقل دون الآخر .. ومع ذلك لم ترجعوا إليَّ تائبين ، يقول الرب :

أرسلت الرياح اللافحة واليرقان لتجفف محاصيلكم وكرومكم وأشجار تينكم وزيتونكم وما رجعتم إليَّ ! أصبتكم بالأوبئة التي أصبت بها مصر ، وقضيت على شبابكم بالسيف وسبيت خيولكم ، وجعلت نَتَن معسكركم يزكم أنوفكم ولكنكم لم ترجعوا إليَّ تائبين يقول الرب :

دمرت بعض مدنكم كما دمَّر الله سدوم وعمورة فكان من نجا منكم كشعلة منتشلَة من النار ولكنكم لم ترجعوا إليّ تائبين " (عاموس : ٤)

ويستمر المسلسل على هذا المنوال فساد من بني إسرائيل وعقاب من الله ، وكثيرة هي النصوص الناطقة بهذا .

ويقيم الله الدعوى على بني إسرائيل قبل معاقبتهم ، ويلزمهم الحجة على استحقاقهم هذا العقاب جاعلا الجبال والأرض شاهدا على هذه المحاكمة .

" استمعي يا جبال إلى شكوى الرب ، وأصغي يا أُسُس الأرض الثابتة ، فإن لدى الرب شكوى على شعبه وهو يحكم إسرائيل .

بماذا أسأت إليك يا شعبي ، وبما ضايقتك ؟ أجبني . لقد أخرجتك من ديار مصر وافتديتك من بيت العبودية ، وأرسلت أمامك موسى وهارون ومريم اذكر يا شعبي ما تآمر به عليك بالاق ملك موآب ، وما أجابه به بلعام بن بعور . واذكر ما أحسنت به إليك في رحلتك من شِطّيم إلى الجِلْجَال لكي تدرك عدل الرب "

وبعد أن عدد الله نعمه على بني إسرائيل يطلب منهم في مقابل ذلك أن يتوخوا العدل ، ويحبوا الرحمة ، ويتواضعوا لعظمة الله

" لقد أوضح لك الرب أيها الإنسان ما هو صالح ، وما يبتغي منك سوى أن تتوخى العدل ، وتحب الرحمة ، وتسلك متواضعا مع إلهك ؟ "

ومع ذلك فإن كثيرا من بني إسرائيل لم يستجيبوا لأوامر الله فسرقوا ، وطففوا الموازين ، وكذبوا ، وغشوا ... لذا استحقوا عقاب الله لهم وتوعدهم بخراب بيوتهم ، واحتقار الأمم لهم ." صوت الرب ينادي في أرجاء المدينة ومن الحكمة أن يُتَّقى اسمك . استمعوا يا أهل المدينة وأعضاء مجلسها : في بيوت الأشرار كنوز مسروقة وموازين مغشوشة فكيف أبرئ ذا المعايير المغشوشة ، صاحب كيس الموازين الناقصة ؟ قد امتلأ أثرياء المدينة ظلما ، ونطق سكانها بالكذب وألسنة الغش في أفواههم لذلك شرعت في تدميرك لأجعلك خرابا من أجل خطاياك ستأكلين ولا تشبعين ، ويظل جوفك خاويا ، وما تدخرينه تعجزين عن الاحتفاظ به لأني أدفعه للسيف . تزرعين ولا تحصدين . تعصرين الزيتون ولا تدهني بزيته وتعصرين العنب ولا تشربين من خمره لأنك قد مارستِ فرائض عمري ، ونهجتِ على غرار أخآب ، وسلكت مشوراتهم . لذلك أجعلك خرابا ، وشعبك مثار سخرية ، وتقاسون من احتقار الأمم " (ميخا : ٦)

***

الفصل الثاني

موقف المسيحية من اليهود

كان اليهود ينتظرون مسيحا من نسل داود يجدد لهم الوعود الإلهية ويعيد لهم مملكتهم الغابرة فلما بُعِث يسوع كفروا به ، وكان أول من آمن به وشهد له بأنه النبي الذي يأتي من بعده وأنه جاء ليزيل خطيئة العالم هو يوحنا المعمداني :

" رأى يوحنا يسوع آتيا نحوه فهتف قائلا : هذا حَمَل الله الذي يزيل خطيئة العالم هذا هو الذي قلت عنه إن الرجل الآتي بعدي متقدّم عليّ " (يوحنا : ١)

وشهد يوحنا أنه ابن الله " أشهد انه ابن الله " (يوحنا : ١)

ويبدأ يسوع بالدعوة إلى دينه الذي هو كمال لرسالات الأنبياء قبله : " لا تظنوا أني جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء ما جئت لألغي بل لأكمل " (متى : ٥)

وآمن به الكثير ممن شهدوا معجزاته .

" وبينما كان في أورشليم في عيد الفصح آمن به كثيرون إذ شهدوا الآيات التي أجراها " (يوحنا : ٣)

جدال اليهود للمسيح

ويبدأ اليهود في مجادلة يسوع حول عقيدته ويرد عليهم يسوع ببيان من هو ؟ وما رسالته ؟

فيقول مجيبا أحد الفريسيين (علماء اليهود) :

" وكما علَّق موسى الحية في البرية فكذلك لابد من أن يُعلَّق ابن الإنسان لتكون الحياة الأبدية لكل من يؤمن به لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية فإن الله لم يرسل ابنه للعالم لكي

يدين العالم بل ليخلص العالم به فالذي يؤمن به لا يُدان أما الذي لا يؤمن به فقد صار عليه حكم الدينونة (يوم القيامة) " (يوحنا : ٣)

وتستمر مجادلات اليهود ليسوع ممن آمن به ، وممن لم يؤمن حول قضايا كثيرة يختلف فيها يسوع عما عندهم في شريعة التوراة مثل : قضية نسبهم ونسب يسوع .

فهم يدعون أنهم من نسل إبراهيم ويتهمونه أنه ابن زنا .

ويرد يسوع على هذا الاتهام قائلا :

" أنا أعرف أنكم أحفاد إبراهيم ولكنكم تسعون لقتلي لأن كلمتي لا تجد مكانا في قلوبكم إني أتكلم بما رأيت عند الآب وأنتم تعملون بما سمعتم من أبيكم فاعترضوه قائلين : أبونا هو إبراهيم فقال لو كنتم أولاد إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم ولكنكم تسعون لقتلي وأنا كلمتكم بالحق الذي سمعته من الله وهذا لم يفعله إبراهيم أنتم تعملون أعمال أبيكم فقالوا له : نحن لم نولد من زنا (أي مثله في زعمهم قبحهم الله) لنا أب واحد هو الله . فقال يسوع : لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من الله وجئت لم آت من نفسي بل هو الذي أرسلني . لماذا لا تفهمون كلامي ؟ لأنكم لا تطيقون سماع كلمتي إنكم أولاد أبيكم إبليس وشهوات أبيكم ترغبون في أن تعملوا " (يوحنا : ٨)

ومن الحوار السابق يظهر سبب الخلاف .

جوهر الخلاف بين اليهود والمسيح

فاليهود يدعون أنهم أبناء الله وهي تعني في شريعتهم أنبياء الله ورسله فقد ذكرت التوراة في مواضع كثيرة أبناء الله بهذا المعنى من هذه المواضع :

" وحدث لما ابتدأ الناس يتكاثرون على سطح الأرض وولد لهم بنات انجذبت أنظار أبناء الله إلى بنات الناس فرأوا أنهن جميلات فاتخذوهن زوجات .. وبعد أن دخل أبناء الله على بنات الناس ولدن لهم أبناء" (التكوين : ٦)

" وقال الرب لموسى حالما ترجع لمصر .. قل لفرعون هذا ما قاله الرب : إسرائيل هو ابني البكر " (الخروج : ٤)

" سيرجعون بنوح وبتضرعات أهديهم إلى جوار جداول المياه أسيرهم فيمشون في طريق مستقيمة لا يعثرون فيها لأني أب لإسرائيل وأفرايم بكري "(إرميا:٣١)

" وها أنا أعلن ما قضى الرب به قال لي الرب " أنت (أي داود) ابني أنا اليوم ولدتك اطلب مني فأعطيك الأمم ميراثا " (المزامير : ٢)

ويقول الرب لداود " إني أقيم بعدك من نسلك الذي يخرج من صلبك من أُثَبِّتُ مملكته هو يبني بيتا لاسمي ، وأنا أثبت عرش مملكته إلى الأبد . أنا أكون له أبا وهو يكون لي ابنا " (صموئيل الثاني : ٧)

فألفاظ مثل " أبناء الله ، ابن الله ، وابني البكر .." في اللغة العبرية تعني الأنبياء والرسل أو الصالحين أو المؤمنين الحقيقيين من خلق الله .

ولقد وردت في الأناجيل بهذا المعنى كثيرا مثل : " آدم ابن الله " (لوقا : ٣) . " طوبى لصانعي السلام فإنهم سيدعون أبناء الله " (متى : ٥)

أما ما جاء في الأناجيل حول استخدام تعبيرات مثل : " أباكم الذي في السماء ،أو أبوكم السماوي ، أو أبوك الذي في الخفاء ، لتكونوا أبناء أبيكم " فهي كثيرة .

واليهود لم ينكروا على يسوع أن يكون ابنا لله بهذا المعنى المجازي – عبد الله ورسوله – لكن الذي أنكروه عليه بل وأدانوه به وحكموا عليه بالصلب هو ادعاؤه أنه الابن الوحيد لله بالمعنى الحقيقي وليس المجازي وأنه ليس مخلوقا كبقية البشر لله إنما هو ابن الله على الحقيقة ، وأنه سيجلس على يمين الله بعد صلبه لإزالة خطيئة العالم .

ويكذب يسوع ادعاء اليهود أنه ابن داود ويؤكد أنه ابن الله .

" وتكلم يسوع فيما هو يُعلِّم في الهيكل فقال : كيف يقول الكتبة (اليهود) إن يسوع هو ابن داود ؟ فإن داود نفسه قال بالروح القدس : قال الرب لربي :(أي قال الله ليسوع) اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك ! فما دام داود نفسه يدعوه الرب فمن أين يكون ابنه ؟ " (مرقس : ١١)

ويقول في (لوقا : ٢١) " قال لهم : كيف يقال إن المسيح هو ابن داود فيما يقول داود نفسه في كتاب المزامير : قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك إذن داود يدعوه ربا فكيف يكون ابنه "

ولقد تعقب اليهود يسوع وجادلوه طويلا وأنكروا عليه دعوته ولما وجد يسوع أنه لا طائل من ورائهم صب عليهم جام غضبه واصفا إياهم بالرياء والنفاق والعمى ،

وبأنهم أحفاد قتلة الأنبياء وأبناء الحيات و الأفاعي، وحملهم مسئولية كل دم زكي سفح ظلما حتى وإن كان دم هابيل ابن آدم ...

" لكم الويل أيها الكتبة والفريسيين (علماء اليهود) المراءون فإنكم تغلقون ملكوت السموات في وجوه الناس فلا تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم تلتهمون بيوت الأرامل وتذرعون بإطالة صلواتكم لذلك سينزل بكم دينونة أقسى الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا متهودا واحدا فإذا تهود جعلتموه أهلا لجهنم ضعف ما أنتم عليه الويل لكم أيها القادة العميان تقولون من أقسم بالهيكل فقسمه غير ملزم أما من أقسم بذهب الهيكل فقسمه ملزم أيها الجهال العميان أي الاثنين أعظم الذهب أم الهيكل الذي يجعل الذهب مقدسا ... الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم تؤدون حتى عشور النعنع والشبث والكمون وقد أهملتم أهم ما في الشريعة : العدل والرحمة والأمانة كان يجب أن تفعلوا هذه أولا ولا تفعلوا تلك أيها القادة العميان إنكم تصفون الماء من البعوضة ولكنكم تبلعون الجمل الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم تنظفون الكأس والصفحة من الخارج ولكنها من الداخل ممتلئتان بما كسبتم بالنهب والطمع الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم كالقبور المطلية بالكلس تبدو جميلة من الخارج ولكنها ممتلئة بعظام الموتى وكل نجاسة كذلك أنتم تبدون للناس أبرارا ولكنكم من الداخل ممتلئون بالرياء والفسق الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الأبرار وتقولون لو عشنا في زمن آبائنا لما شاركناهم في سفك دم الأنبياء فبهذا تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قاتلي الأنبياء فأكملوا ما بدأه آباءكم ليطفح الكيل أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تفلتون من عقاب جهنم ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء ومعلمين فبعضهم تقتلون وتصلبون وبعضهم تجلدون في مجامعكم وتطاردونه من مدينة على أخرى وبهذا يقع عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل البار إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح الحق أقول لكم إن عقاب ذلك كله سينزل بهذا الجيل ."(متى : ٢٣)

وينهي يسوع لعناته على اليهود بالتوجه إلى أورشليم مسكن اليهود الملاعين الذين سفكوا دماء الأنبياء وكذبوا المرسلين فيقول :

" يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا ! ها إن بيتكم

يترك لكم خرابا فإني أقول لكم إنكم لن تروني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب " (متى:٢٣)

و بعد ذلك ينبئ بخراب الهيكل وعلامات نهاية العالم والضيقة الكبرى ومجيئه ثانية في نهاية الزمان (متى:٢٣)

أما اليهود إذ تبين لهم أن يسوع ليس المسيح الذي هو من نسل داود فقد قرروا قتله ليس فقط لأنه اعتدى في السبت بل لأنه ادَّعى أنه ابن الله وليس خَلْقَ الله .

" ولكن يسوع قال لهم : مازال أبي يعمل إلى الآن وأنا أعمل لهذا ازداد سعي اليهود إلى قتله ليس فقط لأنه خالف سنة السبت بل أيضا لأنه قال إن الله أبوه مساويا نفسه بالله " (يوحنا : ٥)

وعبثا حاول يسوع إفهامهم أنه أعظم عن أسلافهم الذين وصفتهم شريعة موسى بأنهم آلهة فكيف ينكرون على من قدسه الرب وبعثه لخراف بني إسرائيل الضالة أن يكون ابنا له :

" كان يسوع يتمشى في الهيكل في قاعة سليمان فتجمع حوله اليهود وقالوا له : حتى متى تُبْقينا حائرين بشأنك ؟ إن كنت أنت المسيح حقا فقل لنا بصراحة فأجابهم يسوع قلت لكم ولكنكم لا تصدقون والأعمال التي أعملها باسم أبي هي تؤدي لي الشهادة .. أن الأب الذي أعطاني إياها هو أعظم من الجميع ولا يقدر أحد أن ينتزع من يد الآب شيئا أنا والآب واحد فرفع اليهود مرة ثانية حجارة ليرجموه . فقال لهم يسوع : أريتكم أعمالا صالحة كثيرة من عند أبي فبسبب أي عمل منها ترجمونني أجابوه : لا نرجمك بسبب أي عمل صالح بل بسبب تجديفك لأنك تجعل نفسك الله وأنت إنسان فقال: لهم يسوع : أليس مكتوبا في شريعتكم : أنا قلت إنكم آلهة ؟ فإذا كانت الشريعة تدعو أولئك الذين نزلت إليهم كلمة الله (يعني بني إسرائيل) آلهة والكتاب لا يمكن أن يُنقض فهل تقولون لمن قدسه الآب وبعثه للعالم أنت تجدف لأني قلت أنا ابن الله ..فأرادوا ثانية أن يُلقوا القبض عليه ولكنه أفلت من أيديهم "
(يوحنا : ١٠)

فالخلاف الأساسي بين اليهود ويسوع كان حول دعواه بأنه ابن الله الوحيد .

وأخذ الصراع عند يسوع شكل المناقشة والحوار الهادئ أما اليهود فقد أخذ شكل المواجهة المسلحة فليس هنالك علاج لهذا الصراع إلا قتل يسوع الذي كفر بادعائه

الألوهية وأصبح خطرا يهدد مكانتهم الدينية ولاسيما أن كل يوم يزداد المؤمنون به بفضل معجزاته .

" فعقد رؤساء الكهنة والفريسيين مجلسا وقالوا : ماذا نفعل ؟ هذا الرجل يعمل آيات كثيرة فإذا تركناه وشأنه يؤمن به الجميع فيأتي الرومان ويدمرون هيكلنا المقدس وأمتنا .. من ذلك اليوم قرر اليهود أن يقتلوا يسوع . فلم يعد يتجول بينهم جهارا " (يوحنا : ١١)

ويخون يهوذا الإسرخريوطي يسوع ويعد اليهود بان يسلمه لهم .

" ثم ذهب يهوذا الإسخريوطي أحد الاثني عشر إلى رؤساء الكهنة ليسلم يسوع إليهم فلما سمعوا بذلك فرحوا ووعدوه أن يعطوه مالا فأخذ يتحين تسليمه في فرصة مناسبة " (مرقس : ١٤)

وبالفعل يتمكن يهوذا الخائن من تسليم يسوع للكهنة اليهود .

" وصل يهوذا أحد الاثني عشر ومعه جمع عظيم يحلون السيوف والعصي وقد أرسلهم رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ وكان مسلمه قد أعطاهم علامة قائلا الذي أقبله فهو هو فاقبضوا عليه وسوقوه بحذر فما إن وصل يهوذا حتى تقدم إليه وقال : سيدي وقبله بحرارة فالقوا القبض عليه " (مرقس : ١٤)

محاكمة كهنة اليهود للمسيح

وسيق يسوع إلى محكمة اليهود وهاك طرفا من وقائع الجلسة .

" وساقوه أمام مجلسهم وقالوا إن كنت أنت المسيح فقل لنا . فقال : لهم إن قلت لكم لا تصدقون وإن سألتكم لا تجيبونني إلا أن ابن الإنسان من الآن سيكون جالسا عن يمين قدرة الله فقالوا كلهم : أ أنت إذن ابن الله ؟! قال لهم : أنتم قلتم إني أنا هو " قالوا : أية حاجة بنا بعد إلى شهود فها نحن قد سمعنا شهادة من فمه " (لوقا:٢٢)

ورواية مرقس تزيد بعض التفاصيل " فعاد رئيس الكهنة يسأله فقال : أ أنت المسيح ابن المبارك ؟ فقال يسوع : أنا هو وسوف ترون ابن الإنسان جالسا عن يمين القدرة ثم آتيا على سحاب السماء . فشق رئيس الكهنة ثيابه وقال : لا حاجة بنا إلى شهود قد سمعتم تجديفه (كفره) فحكم الجميع بأنه يستحق الموت فبدأ بعضهم يبصقون عليه ويغطون وجهه ويلطمونه ويقولون له : تنبأ ! وأخذ الحراس يصفعونه " (مرقس : ١٤)

ولكن بيلاطس حاكم الرومان أحس أن اليهود سلموه للقتل حسدا منهم عليه فأراد أن يعفو عنه لأن يسوع ما كان عدوا له يوما ، وليس بينه أية مشاكل فما هو إلا رجل صالح أرسل معلما ليهود بني جنسه ولم يطالب أحدا من غير بني إسرائيل بالإيمان به بل على العكس نهى رسله عن دعوة أحد غير بني إسرائيل :

" هؤلاء الاثنا عشر رسولا أرسلهم يسوع وقد أوصاهم قائلا : لا تسلكوا طريقا إلى الأمم (غير اليهود) ولا تدخلوا مدينة سامرية بل اذهبوا بالأحرى إلى الخراف الضالة إلى بيت إسرائيل " (متى : ١٠)

بل اعتبر أن دعوة غير اليهود من سائر الأمم خطأ كبيرا بل شبهه بمن يلقي بخبز أبنائه للكلاب :

" غادر يسوع تلك المنطقة وذهب إلى نواحي صور وصيدا فإذا امرأة نواحي كنعانية (عربية) من تلك النواحي قد تقدمت إليه صارخة : ارحمني يا سيد يا ابن داود ابنتي معذبة جدا يسكنها شيطان ، لكنه لم يجبها بكلمة فجاء تلاميذه يلحون عليه قائلين : اقضي لها حاجتها فهي تصرخ في إثرنا فأجاب : ما أرسلت إلا إلى الخراف الضالة إلى بيت إسرائيل ، ولكن المرأة اقتربت إليه وسجدت له وقالت : أعني يا سيد فأجاب : ليس من الصواب أن يؤخذ خبز البنين ويطرح لجراء (صغار) الكلاب " (متى : ١٥)

" لا تعطوا ما هو مقدس للكلاب ولا تطرحوا جواهركم أمام الخنازير لكي لا تدوسها بأرجلها وتنقلب عليكم فتمزقكم " (متى : ٧)

إذن يسوع أرسل لتبشير اليهود ولا علاقة له بغيرهم من بقية الأمم وطوال حياته لم يدع واحدا من غيرهم ولم يؤمن به واحد من غير اليهود لذا فلا عداء بينه وبين القيصر الوثني إلا علاقة محكوم بحاكم ، وقد حاول اليهود أن يستَعْدُوا يسوع على القيصر عندا جاء عماله ليحصّلوا الجزية فردهم خائبين .

" ثم أرسل إليه بعضا من الفريسيين وأعضاء حزب هيرودس .. وقالوا له .أيحل أن ندفع الجزية للقيصر أم لا ؟ ولكنه إذ علم رياءهم قال لهم : لماذا تجربـونني ؟ احضروا دينارا لأراه فأحضروا إيه دينارا فسألهم : لمن هذه الصورة وهذا النقش ؟ قالوا له : للقيصر فرد عليهم قائلا : أعطوا ما لقيصر للقيصر وما لله فذهلوا منه " (مرقس : ١٢)

بل إن هيرودس حاكم الرومان على الجليل كان قد سمع الكثير عن يسوع ورجا أن يرى آية تجرى على يده فلما أرسله له بيلاطس ليحاكمه وجدها فرصة ليتعلم من هذا الرجل البار فأخذ يسأله في قضايا كثيرة لكن يسوع رفض الكلام وأصر على الصمت ولم يجبه بشيء مما جعل هيرودس يحتقره هو وجنوده ويسخر منه– إذ أنه لا يعلم أنه ما أرسل إلا لليهود – وألبسه ثوبا برّاقا ورده لبيلاطس مرة ثانية : " ولما رأى هيرودس يسوع فرح جدا لأنه كان يتمنى من زمان طويل أن يراه بسبب سماعه الكثير عنه ويرجو أن يرى آية تجري على يده فسأله في قضايا كثيرة أما هو فلم يجبه عن شيء . ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يتهمونه بعنف فاحتقره هيرودس وجنوده وسخر منه إذ ألبسه ثوبا براقا ورده إلى بيلاطس " (لوقا:٢٣)

وعاد بيلاطس حاكم الرومان يسأل اليهود :

" بماذا تتهمون الرجل ؟ أجابوه : لو لم يكن مذنبا لما سلمناه إليك ! "

(يوحنا : ١٨)

ولما كان لليهود سلطة الفصل في القضايا الدينية حسب شريعتهم دون الرجوع لحاكم الرومان فقد طلب بيلاطس من اليهود محاكمة يسوع حسب شريعتهم لكن في هذه الحالة وبرغم أن القضية داخلة في إطار تخصص مجلس اليهود إلا أنه ليس من سلطتهم تنفيذ حكم الإعدام في أحد إنما كان المختص بتنفيذ هذه الأحكام والي القيصر لذا طلبوا منه تنفيذ حكم الإعدام الذي أصدره المجمع اليهودي .

" قال بيلاطس خذوه أنتم وحاكموه حسب شريعتكم . فأجابوه لا يحق لنا أن نقتل أحدا ." (يوحنا : ١٨)

وإذ لم يقدم اليهود دليلا على صحة اتهاماتهم لليسوع والتي تضمنت التهم الآتية " تبين لنا أن هذا يضلل أمتنا ويمنع أن تدفع الجزية للقيصر ويدعي أنه المسيح الملك " (لوقا : ٢٣)

راح بيلاطس يسأل يسوع دفاعا عن نفسه فلم يظفر منه برد إلا إقراره بأنه ملك اليهود .

"فسأله بيلاطس : أ أنت ملك اليهود ؟ فأجابه : أنت قلت "

(مرقس : ١٥ ، ولوقا : ٢٣ ، ومتى : ٢٧)

وأصر رؤساء اليهود على صلب يسوع وادعوا أنه كافر بشريعتهم وأنه مدع للألوهية ويستحق الصلب لكن بيلاطس إذ يحس أن اليهود ما سلموا يسوع إلا حسدا راح يعرض عليهم إطلاق سراح المذنب – بزعم اليهود – كما تعود أن يفعل في

العيد ولكنهم رفضوا وفضلوا أن يطلق لهم قاتلا (باراباس) على أن يطلق لهم يسوع !

" وكان من عادته (بيلاطس) أن يطلق لهم في العيد أي سجين يطلبونه وكان المدعو باراباس مسجونا عندئذ مع رفاقه المشاغبين الذين ارتكبوا القتل في أثناء الشغب .. فكلمهم بيلاطس سائلا : هل تريدون أن أطلق لكم ملك اليهود (يسوع) لأنه علم أن رؤساء الكهنة كانوا قد سلموه عن حسد ولكن رؤساء الكهنة حضوا الجمع على أن يطالبوا بالأحرى بإطلاق باراباس فعاد بيلاطس يسألهم فماذا تريدون أن أفعل بمن تدعونه ملك اليهود ؟ فراحوا يصرخون مرة بعد مرة : اصلبه ! فسألهم بيلاطس وأي شر فعل ؟ إلا أنهم أخذوا يزدادون صراخا : اصلبه ! وإذ كان بيلاطس يريد أن يرضي الجمع أطلق لهم باراباس وبعد ما جلد يسوع سلمه ليصلب" (مرقس:١٥)

وأعلن بيلاطس أنه بريء من دم يسوع ودعا اليهود أن يراجعوا أمرهم فأصروا على صلبه وأنهم يتحملون دمه .

" قال (بيلاطس) أنا بريء من دم هذا البار فانظروا أنتم في الأمر فأجاب الشعب بأجمعه : ليكن دمه علينا وعلى أولادنا ! . فأطلق لهم باراباس وأما يسوع فجلده ثم أسلمه للصلب " (متى: ٢٧) .

موقف الكنيسة الكاثوليكية من اليهود

كان الموقِف التقليدي للكنيسة الكاثوليكية، خِلال قريب مِن ألفي عام، تِجاه اليهود، يقوم على ثلاثِ نظريات، حتى مجمع الفاتيكان الثاني، وقوانين: ١٩٦٤ وهذِهِ النظريات هِي :

١ــ إن اليهود بقَتْلِهِم يَسُوع، قد قتلوا الرب، فهم الشعب " قاتل الإله ".

٢ــ والشعب المختار مِن الرب هو منذئذٍ الكنيسة .

٣ــ والعهد القديم تجسيد رمزي مسبق للعهدِ الجديد .

لقد أدّى التفسير التقليدي ــ إذن ــ إلى تصور أن اليهود حين رفضوا الاعتراف بيسوع رسولا للرب ، فلم يهتدوا، قد قطعوا أنفسهم مِن الأمة الإبراهيمية، وصاروا بِصرف النظر عن كونهم الشعب المختار، محكوما عليهم باللعنةِ، جرّاء آثامهم، لقد عاقبهم الله مِن قبل بأن طردهم من فلسطين، ودفعهم سبايا إلى بابل، ومع ذلك فقد تمَّ الوعد الذي أعطاه الرب لإبراهيم، رغم خطاياهم، فبعد أن عُوقبوا بالسبي في القرن السابع قبل الميلاد أعادهم "قورش" إلى فلسطين، وعندما عَصَوا مرة أخرى

وكان عصيانهم كبيرًا برفضهم الاعتراف بيسوع، مسيحًا مكملاً للوعد ــ عاقبهم الرب بصورة أقسى، أيضًا، فقد قَطَّعَهُم في الأرض أُمَمًا، وَفَرَّقَهُم في كل أنحاء الدنيا، فلم يَعُد يجد السلام من بينهم ــ منذئذ ــ إلا بعض أفراد، يتحوّلون إلى المسيحية.

وما لبثت أهمية أورشليم ذاتها أن تناقصت في نظر الكنيسة، ولا سيما بعد عام: ٥٩٠ م، ففي عهد البابا جريجوار الأكبر، والذي كان جالسا على كرسي البابوية، مركز السلطة المسيحية ــ منح الأولوية نهائيًا لروما، وبذلك لم يَعُد لأورشليم دَوْر في القيادة الروحية، لم تَعُد سوي مكانٍ للحج، ولم تَستَعِدْ قيمتها، باعتبارها مركزًا للاهتمام إلا عندما استولى عليها الأتراك السلاجقة، وحينئذ وُلدتْ فكرة الحروب الصليبية.

تِلكمُ هي النظرية الرسمية للكنيسة الكاثوليكية، خلال ألفي عام، وكان لها نتيجتانِ عامتان:

١- أنها أدَّت إلى تولد مبدأ معاداة السامية ، وهو مبدأ مسيحي من الناحية النوعية، فقد اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية، حتى منتصف القرن العشرين، أن "اليهود" كانوا هم "الشعب القاتِل"، قاتل الرب في يسوع المسيح، وهي فكرة بشِعة، تجعل شعبا بأكمله، ولعدة قرون، مسئول عن جريمةٍ ارتكبتها منذ ألفي عام هيئته الكهنوتية.

٢- ومن الناحية العقدية والتفسيرية ــ كانت النظرية الرسمية ــ ولا سيما منذ "مدينة الرب " للقديس أوغسطين أن تكون قراءة العهد القديم بطريقةٍ رمزية تُرى في المشاهد التي قدمها باعتبارها أحداثا تاريخية، كما تُرى في نبواته ــ تَصَوُّرًا رمزيًا مُسبَقًا للمسيحيةِ .

أما فيما يتعلق بالحالةِ الخاصة للكنيسة المسيحية وعلاقتها بالتاريخ اليهودي السابق عليها فإنها قد فسرت "عودة صهيون" بأنها من الناحية الرمزية تشبه عودة المسيحي إلى نقاء إيمانه.

وهكذا مطّطوا في الحركة، التي كانت في الأناجيل، ولا سيما إنجيل متَّى ــ تهدف إلى تِبْيَان أن في حياة المسيح إنجازًا لتنبؤات العهد القديم .

يقول المؤرخون الأكاديميون اليهود: " تعتبر الديانة المسيحية نفسها الوريث الطبيعي للديانة اليهودية، ويولع المسيحيون باعتبار أنفسهم "إسرائيل الحقيقية

مفترضين بذلك أن اليهود ليسوا أهلا للاسم. وبسبب اعتبار المسيحية نفسها ناسخة لليهودية فإن النظرة المسيحية الذاتية نفسها تتطلب أن يهان اليهود والديانة اليهودية ويصغروا علانية. وأصبح إذاً في غاية الأهمية لليهود الذين يعيشون بين المسيحيين أن يعيشوا في وضع منحط ومهين . (1)

لقد ظهرت نزعة معاداة السامية، المسيحية أصلا ــ مصحوبة بانفجار شرس جدا، أثناء الحروب الصليبية، وكانت أول المذابح الكبرى التي أقيمت لليهود على يد المحاربين المسيحيين، وهم في طريقهم إلى فلسطين، بل إن جودفروي دوبريون، بمجرد استيلائه على بيت المقدس لم يقنع هو وجيشه بإبادة المسلمين أو طردهم، فقد حبسوا الأمة اليهودية في المعابد، ثم أهلكوها إحرَاقًا.

وفي أوربا كان الملوك الصليبيون هم الذين طردوا اليهود: إدوارد الأول في إنجلترا، وقد طردهم عام: ١٢٩٠م، وفيليب دي بل، ملك فرنسا، طردهم عام: ١٣٠٦م، وقد مضى ملوك إسبانيا إلى هذين الحدَّين من التطرف في أوربا "المسيحية"، فقد طرد اليهود أو ذبحوا بيد الملوك "الكوثوليك جدًا"، وذلك إبَّان نجاحهم في هدم أخر الممالك الإسلامية عام: ١٤٩٢م، مملكة غرناطة.

أما روسيا المقدسة فقد كانت مسرحًا لمذابح كبرى لليهود . (2)

الفاتيكان ووثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح

وقد يكون عجيبا مع هذا العداء الكاثوليكي لليهود إن يصدر الفاتيكان (مركز السلطة المسيحية الكاثوليكية) في عام (١٩٦٥) بعد المجمع الفاتيكاني الثاني وثيقة يبرئ فيها اليهود من دم المسيح جاء فيها : " مع أن سلطاتٍ يهودية قد ساقت مع أنصارها المسيح إلى الموت، فإن ما اقتُرف خلال آلامه لا يمكن أن يَحمِل وزرَه جميع اليهود الذين كانوا أحياء آنذاك دون تفريق، ولا يَحمِل وزرَه أيضا يهودُ عَصرْنَا . "

---

(1) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٥٥، ٥٦

(2) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الأول : العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية . مرجع سابق .

لكن إن تدبرنا الأمر مليا نجد أن المقصود من إصدار هذه الوثيقة هو تبرئة اليهود المعاصرين من دم المسيح وفي هذا اعتراف من الفاتيكان بأن اليهود المعاصرين ليسوا حفدة اليهود على عهد يسوع الذين نصت الأناجيل على أن دم المسيح عليهم وعلى أولادهم .

" فأجاب الشعب (اليهودي) بأجمعه ليكن دمه علينا وعلى أولادنا "(متى: ٢٧)

وكثير من الكتاب المسلمين يفهم هذه الوثيقة على أنها دليل دامغ على التحالف المسيحي الغربي مع الصهيونية العالمية ضد المسلمين ، ولم يلتفت إلى أنها ذات وجهين :

١- **وجه ديني** معادٍ لليهود حيث إنها تقطع صلة النسب بين يهود اليوم وبين اليهود على عهد يسوع وبالتالي تجردهم من العهود المقدسة - التي يدعونها - في أرض الميعاد ، والاختيار ، وفي الخلاص ، ... .

٢- **وجه سياسي** نفعي مؤسَّس على العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية الذي تتعهد بمقتضاه الحضارة الغربية بأن تقوم بنقل اليهود إلى فلسطين وتأسيس دولة وظيفية لهم فيها، ورعايتها وحمايتها وضمان بقائها واستمرارها نظير أن يقوم اليهود على خدمة مصالح الغرب .

موقف المسيحيين البروتستانت من اليهود

عندما ظهر المذهب البروتستانتي على يد مارتن لوثر في القرن السادس عشر، قلب المسيحية رأساً على عقب، من خلال التغيرات اللاهوتية التي جاء بها والتي روجت لفكرة أن اليهود أمة مُفَضَّلَة وأكدت على ضرورة عودتهم إلى أرض فلسطين كمقدمة لعودة المسيح المنتظر وبزوغ فجر العصر الألفي السعيد .

وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى حدوث هذه التغيرات اللاهوتية، هو ما دعا إليه لوثر من عدم الاعتراف بأن فهم الكتاب المقدس وقفا على رجال الكنيسة وحدهم . وهذا الوضع أدى إلى فتح الباب على مصراعيه أمام أصحاب البدع والأضاليل، مما أدى إلى تعدد الفرق البروتستانتية نفسها حتى وصل عددها الآن إلى أكثر من ٢٠٠ فرقة في مذهب لم يتعد وجوده أكثر من أربعة قرون !

كما أنه في ظل هذا المذهب أزداد الاهتمام بالعهد القديم (التوراة) تحت شعار العودة إلى الكتاب المقدس باعتباره مصدر العقيدة النقية، مع عدم الاعتراف

بالإلهامات والتعاليم غير المكتوبة التي يتناقلها البابوات الواحد عن الآخر والتي تعتبر مصدراً مهماً من مصادر العقيدة المسيحية .

وهكذا أصبح العهد القديم يشكل جزءاً مهماً من مصادر العقيدة البروتستانتية، فأصبح هو المرجع الأعلى للسلوك والاعتقاد ومصدراً للتعاليم الخلقية والمعلومات التاريخية أيضاً واحتلت فكرة عودة المسيح إلى الأرض، مكاناً رئيسياً في الفكر ا المسيحي البروتستانتي .

وتقوم هذه الفكرة على أساس الاعتقاد بأن السيد المسيح سيعود إلى الأرض ثانية (قبل بداية الألفية الثالثة للميلاد) ليقيم مملكة الله على الأرض والتي ستدوم ألف عام (العصر الألفي السعيد) حيث سيحكم العالم من مقره في مدينة القدس . ويعتقد المسيحيون البروتستانت أنه لابد من حدوث بعض الأمور كمقدمة لهذه العودة، وهي

١- إقامة دولة إسرائيل بحدودها التوراتية من النيل إلى الفرات وعودة اليهود إليها .

٢- إقامة الهيكل اليهودي .

٣- وقوع معركة فاصلة بين قوى الخير وقوى الشر تسمى(هرمجدون) " (١)

إذن كل من الكاثوليك والبروتستانت يرون أن الكنيسة هي التي ورثت الوعود من اليهود مع فارق رئيسي بينهما ، ففي حين أن الكاثوليك يناصبون اليهود العداء جهارا ، ويرمونهم بالكفر صراحة ، ويتمنون فناءهم يقيناً، نجد أن البروتستانت لا يفعلون ذلك بل يرون أن الخلاص لا يتم إلا بتحقيق عودة اليهود إلى وطنهم وتنصيرهم، أي التخلص منهم عن طريق التهجير والتنصير وهم في ذلك يتفقون مع الصهيونية التي ترى " أن الأسطورة الاسترجاعية هي أسطورة صهيونية ومعادية لليهود في آن واحد. فهي ترى أن الخلاص لا يتم إلا بتحقيق عودة اليهود إلى وطنهم وتنصيرهم، أي التخلص منهم عن طريق التهجير والتنصير .

ومعنى هذا أن البروتستانت – وهي عقيدة معظم الأمريكان والإنجليز – ترى أن المسيح المخلص لن يأتي إلا بعد أن يتمكن اليهود من العودة إلى فلسطين ثم ينزل

---

(١) الصليبيون الجدد www.alshaab.com

المسيح بن مريم – وليس ابن داود – لينصِّر اليهود ويحقق للمسيحيين الخلاص و يبيد أعداءهم من غير المسيحيين وهذا ما يحدث في معركة هرمجدون .

" وعندما يعود ابن الإنسان في مجده ومعه جميع ملائكته، فإنه يجلس على عرش مجده، وتجتمع أمامه الشعوب كلها، فيفصل بعضهم عن بعض كما يفصل الراعـــي الغنم عن الماعز، فيوقف الغنم عن يمينه، والماعز عن يساره؛ ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا من باركهم أبي، رثوا الملكوت الذي أُعد لكم منذ إنشاء العالم... ثم يقول للذين عن يساره: ابتعدوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبلـــيس وأعوانه!... فيذهب هؤلاء إلى العقاب الأبدي، والأبرار إلى الحياة الأبدية ! "

(متى:٢٥)

إن المذهب البروتستانتي ، وما يتعلق به من أساطير (العودة ، والاختيار ، والخلاص) يظهر بصورة أكثر قوةً لدى المُتزمِّتين المهاجرين إلى أمريكا، الذين أشبهوا عِبرانييِّ السبي: فلقط هربوا من عبودية فرعون "جاك الأول"، وهم يهربون من أرض مصر "إنجلترا" ليصلوا إلى الأرض الجديدة "أمريكا".

لقد كانوا يهتفون بيشوع، وهم يطاردون الهنود الحمر، كيما يستولوا على الأراضي الأمريكية، كما كانوا يهتفون "بالإبادة المُقَدَّسَة" أو "التَّحْريم" الذي ذُكر في العهد القديم، ولقد كتب أحدهم يقول: "من الواضح أن الرب دعا المُستعمرين إلى الحرب، إن الهنود الحمر والقبائل المتحدة معهم يعتزون بعددِهِم، وأسلحتهم، وقدرتهم على صنع الشر، تماما، كما كانت القبائل القديمة من العمالقة والفلسطينيين تتحد مع القبائل الأخرى ضد إسرائيل .

فالثقافة التوراتية في نظر متزمتي أمريكا، إنجلترا ـــ يجب أن تكون حرفية، وهذا اللاهوت الغريب عن أي نصراني ـــ يرى أن "الوعد" لا يتم بمسيح، يحقق ملكوت الرب، ذلك أن جميع "وعود" العهد القديم تخص اليهود، من حيث هم جنس، مرتبط بيعقوب ، برباط الدم، وليس "إسرائيل الرب" أي: الأمة الروحية المنبثقة عن إبراهيم، لا باستمرار رابطة الدم، بل باستمرار الإيمان.

لقد كانت النتائج السياسية لهذا المفهوم واضحة، ومعمرة، ولاسيما فيما يَتَعَلَّق بموقف البروتستانت الأمريكيين، تجاه "دولة إسرائيل" الحالية.

ففي عام: ١٩١٨ كتب الرئيس ولسون، مَدْفُوعًا بهذا التقليد، إلى الربانِيّ ستيفن وايز "خِطاب: ٣١ من أغسطس ١٩١٨" ـــ يُخبره بموافقتِهِ على وعد بلفور، معتمِدًا على الأسطورة الصهيونية.

وفِي عام: ١٩٤٨ لم تكن المسألة مسألة "وعد" "بوطنٍ قومي يهودي"، كما هو وعد بلفور، بل بِحدود بالغة التجسيد لدولة، وقد قِيل آنذاك: "إن حدود الأرض الموعودة لإبراهيم يجب أن ترد خِلال الألف عام، ولسوف يعود المسيح إلى الأرض فِي مملكة، بِالمعنى الحرفي، الثيوقراطي، ومع حكومةٍ تقوم على إثر الحكومة القومية القائمة .

وعِندما يتحدث رئيس أمريكي للمرة الأولى منذ إنشاء دولة إسرائيل، وهو جيمي كارتر فإنه يعلن فِي الكنيست فِي مارس: ١٩٧٩: "أن إسرائيل والولايات المتحدة قد أنشأهما الرواد، إن بلادي أيضا أمة مِن المهاجرين واللاجئين، أنشأتها شعوب قدِمت من بِلادٍ كثيرة... إننا نقتسم تراث الكِتاب المقدس (١)

وكان هذا التقارب الأخير قد تم تحديده على لِسان كارتر فِي قوله: "إن إستِقرار الأمة الإسرائيلية هو تحقيق للنبوءة الكِتابية . (٢)

أن ممثلي الطوائف البروتستانتية الأمريكية والغربية تطرح نفس المقولات التـــي يرددها حاخامات اليهود حول القدس، بل إنها تغالي في أصوليتها المتزمتة وعدائها العنصري للعرب والمسلمين.

وهي التي تدفع باتجاه هدم الأقصى والإسراع ببناء ما يسمى الهيكل حتى يـــأتي المسيح الجديد.

وهذه الطوائف لها الصدارة في الشؤون السياسية والإعلامية في الولايات المتحدة وهي تمثل أكثر من مائة مليون بروتستانتي أمريكي من بينهم رؤســـاء للولايـــات المتحدة وزعامات الحزبين الجمهوري والديموقراطي." (٣)

إن الرؤية الخرافية لفلسطين، فِي الصهيونية المسيحية، تنبع من اللاهوتِ المسيحي البروتستانتي وهو لاهوت فاسِد أيضا "يتخذ من العهد القديم نصا تاريخيا

(١) صحيفة جيروزاليم بوست مارس ١٩٧٩. نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق
(٢) جيمي كاتر "أول مايو ١٩٧٨" Department of state Bulletin ج ٢٨ عدد ٢٠١٥ ص" ٤ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .
(٣)حسن الباش www.qudsway.com .

وعقائديا معا، وهو يُغَيِّر مركز اللاهوت المسيحي ذاته، حين يجعل العهد القديم في المحل الأول، بدلا من الإنجيل الذي جاء به يسوع .

هذهِ النظرية اللاهوتية الزائفة تنبع من قراءة انتقائية للكِتاب، فعلى حين كان بعض المسيحيين منذ أربعة قرون ينشرونه، كان اليهود يرفضونه حتى القرن العشرين.

وفي مقابل ذلك استُغلَّت التوراة من الناحية السياسية، منذ لوثر سواء أكان الاستغلال لغايات معادية للسامية: "وهي التخلص من اليهود بإرسالهم إلى فلسطين، على أنها منفى عالمي للمنبوذين". أم كان لغايات إمبريالية "تحكم استعماري، بوساطة اليهود ذوي التكوين الغربي، في الشرق الأوسط، وفي منافذ آسيا"، أم كان لغاياتِ للصهيونية السياسية، "تعتمد على الإمبريالية الروسية، والإنجليزية، وأخيرا الأمريكية، لتأييد مشروعاتها، وتعتمد على نزعة معاداة السامية لتَقْهر يهود الشتات "على رفض الاندماج، والمجيء لخلْق دولة قوية في فلسطين".

لقد كانت الدعوة إلى عودة اليهود إلى فلسطين، خلال بضعة قرون، من لوثر إلى بلفور، وسيلة إلى إبعادهم من البلاد التي يعيشون فيها حتى ذلك الحين .

أما الرجل الذي تحرك ليحطم التقليد الكاثوليكي فقد كان هو أصل "الصهيونية المسيحية"، مارتن لوثر، وكان له في هذا الصدد موقف ذو مغزى، ففي الوقت الذي كانت ترجمته للكِتاب المقدس تضع في المقام الأول ملحمة العبرانيين، التي تنبثق من قراءةٍ حرفية خالية من أي درس نقدي وتاريخي للعهدِ القديم، كان هو يعبر بوضوح عن سريرته المعادية للسامية: فبعد أن كان في كِتاباته الأولى مثلا يقول: "إن هذا المسيح ولد يهوديا" "عام: ١٥٢٣م"، فيمجِّد اليهود باعتبارهم ورثة الوعد ــ تعبر أعماله المتأخرة عن إتجاه سوف يظل ثابتا منذ كان، وهو: الربط بين الصهيونية "العودة إلى فلسطين"، وبين معاداة السامية "وهي طرد اليهود من بلده"، وقد كتب عام: ١٥٤٤م يقول: "من الذي يمنع اليهود من أن يعودوا إلى أرضهم، أرض يهوذا؟ لا أحد، ونحن نقدم إليهم كل ما يحتاجون من أجل سفرهم، لمجرد أن نتخلص منهم، فهم بالنسبة إلينا حِمْل ثقيل، وهم آفة وجودنا.. (١)

---

(١) مارتن لوثر: Saimtliche wewrke ج ــ ٣٢ ص ٩٩ و ٣٥٨ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

وتكمن هذهِ الفِكرة الباطِنِية لدى لوثر، والتِي كانت أصل "الصهيونية المسيحية" فِي عقل ذلك الذِي حقق "للصهيونية السياسية" انتصارها الأول: بلفور. عِندما كان أرثر بلفور رئِيس وزراء إنجلترا دافع ــ فِي عام: ١٩٠٥ م ــ عن قوانِين الأجانِب " لتحديد الهجرة اليهودية إلى إنجلترا، ويومها إتهمه المؤتمر الصهيوني السابع بمعاداة السامية المقررة ضِد الشعب اليهودي كله .

لقد هيمنت هذهِ النزعة الأساسية المعادية للسامية عليهِ طيلة حياته، قبل وبعد: ١٩٠٥م، واتَّفَقَت فِي نفس الوقت مع الفِكرة الصهيونية التِي تطالب بإِعْطَاء أرض لليهود "من أجل إزاحتهم من إنجلترا على وجه التحديد"، وقد إقترح بلفور منذ عام: ١٩٠٣ إعطاءهم أوغندا، وفِي عام ١٩١٧، وخضوعا لأهدافه فِي الحرب ضِد ألمانيا كتب إلى اللورد روتشيلد إعلانه لِصالِح: "وطن قومي لليهود فِي فلسطين" (١)

المذهب البروتستانتي قراءة مغلوطة للإنجيل

إن تفسير البروتستانت للكِتابِ المقدس يعتبر دنسًا بالنسبة إلى المسيحيين، فهو يستتبِع بالنسبة إلى اليهود العودة بالإيمانِ إلى مفهوم قَبَلِي، ليضع مكان رب إسرائيل دولة إسرائيل، فأما المؤرخون والمفسرون فيرون هذهِ القِراءة على أسطورة، وأما الآخرون فيرون أن هذهِ الأسطورة تستخدم فِي تغطية سياسة قومية، واستعمارية تقوم على التمييز العنصري، وعلى التوسع بلانهاية.

ولسوف يتولد عن إنبثاق فِكرة "الاختِيار" سلطات دِينية "ثيوقراطيات" جديدة وزائفة، ذلك أنه بمجرد أن يظهر أناس، أيا كانوا خِلال التارِيخ، يعتبِرون أنفسهم موظفين لدى المطلق، فإن هذا الادعاء يؤدي إلى خلْق مذابح، وحروب صلِيبِية، ومحاكِم تفتِيش، واستِعمار، وتمييز عنصري، حقا لقد أدانت وثِيقة المصالحة هذا التمييز العنصري

ولكِنها تبقى على جرثومته بِالضرورةِ وهِي تخلد الفِكرة الملعونة، فِكرة "الشعب المختار"، وهِي فِكرة نفتها الرسالة الإنجيلية بِصورة مؤكدة، لو أننا قرأناها فِي مجموعها ، ولم نقِف عِند الصيغ الحرفية المنتزعة مِنْ سياقها.

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الأول : العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية . مرجع سابق .

كيف يستطيع مسيحي أن يؤيد النظرية "المادية" التي تقرر أن الوعد وعد بأرض لشعب معين، على حين أن الإنجيل ما فتئ يردد أن الوعد قد تم في يسوع ــ المسيح، ومن أجل الإنسانية كلها .

ومهما يكن أمر الاتصال أو الانفصال بين العهد القديم والجديد، فإن ما يبقى هو أن "الوعد" بالنسبة إلى أي مسيحي يتِم في يسوع المسيح، ولا يمكن أن يكون وعدًا بأرض.

ويسوع يُبَشِّر " بملكوت الرب "، ولكن هذهِ البشارة ليست مُقَيَّدَة بالنسبة إليهِ بمُجَرَّد إستردادٍ قومي لأرض.

ويسوع لا يعترف بأي حق إلهي للإمبراطور الروماني، ولا لهيرودس، وهو يرفض في ثلاثة مواضع من الأناجيل رفضًا قاطِعًا أن يربط رسالته بتملك أرض أوسلطة، وعندما أراد الشيطان من أعلى جبل أن يُريه ممالك العالم، وأن يُقدمها إليهِ قال له يسوع: "اذهب يا شيطان". "متى ٤/١٠".

إنه يرفض أن يدعى "المسيح"؛ لأن التقليد اليهودي يجعل لهذا الاسم مفهوما سياسيا، فهو يضرب ــ إذن ــ صفحا عن أولئك الذين أعطوه هذا اللقب، يضرب صفحًا ــ مثلاً ــ عن بطرس حين يقول له: أنت المسيح. "مرقص ٨/٣٠" وحين يسأله رئيس الكهنة قيافا: "هل أنت المسيح إبن الله ؟ "، "مَتَى ٢٦/٦٤ ، ولُوقا ٢٢/٦٨".

وعندما يسأله ببلاطس: أنت ملك اليهود؟ يتجنب يسوع هذا الشرك، وبدلا من أن يجيب بنعم أو لا ــ يقول: مملكتي ليست من هذا العالم" ــ "يوحنا ١٨/٣٣ــ ٣٦".

إن مسيحيته تمضي على النقيض من مسيحية اليهود التقليدية، أولئك الذين كانوا ينتظرون مسيحًا يبعث مملكةَ داود.

ومما له مغزى في هذا الصدد أن الكرسي البابوي لم يعترف مُطْلَقًا بدولة إسرائيل، وأن البابَا بولس السادس في خطبته التي ألقاها في: ٢٢ من ديسمبر: ١٩٧٢ أمام المجمع المقدس ــ قد إعترف بالظلم الواقع على "أبناء الشعب الفلسطيني الذين ينتظرون منذ سنوات كثيرة، ويُطالبون بالاعتراف العادل بمطامحهم"، وقد رفض البابا أن يُقَدِّم تبريرا دينيَّة لدولة إسرائيل، وأعلن بمناسبة بناء بعض المستعمرات الصهيونية في الأرض المحتلة، قوله: "إن الدعم التدريجي لأوضاع خاصة ذات أساس قانوني واضح، معترف بهِ دوليا ومضمون ــ يجعل

من العسير إيجاد تسوية عادلة تأخذ في اعتبارها مصالح الجميع، بدلاً من تسهيل الوصول إليها".
وهناك مؤشر آخر على وعي المسيحيين بواقع المشكلة هو: الموقف الذي اتخذه المجلس المسكوني للكنائس في جمعيته العالمية السادسة، في فانكوفر، "من: ٢٤ من يوليو إلى: ١٠ أغسطس:١٩٨٣م" فقد جاء في بيانه قوله: "إن بعض التفسيرات اللاهوتية قد حالت دون أن يتمكن المسيحيون في مناطق أخرى من تقييم تطور الوضع الديني والسياسي في الشرق الأوسط، بطريقة صحيحة"، "وإن السياسة الإسرائيلية لاحتلال المدن الأردنية قد أدت إلى ضمِّها في الواقع، وبذلك إكتمل تطبيق سياسة عنصرية لتنمية السكان، كما حدث انتهاك صارخ للحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني". (١)

اختلاف مسيحيي العرب مع المذهب البروتستانتي

إن موقف المسيحيين العرب جد مختلف عن مسيحي الغرب البروتستانت وذلــك يرجع لاختلافات جوهرية بينهما :

١- إن المسيحيين العرب معظمهم أرثوذكس ، وقليل منهم كاثوليــك ، وموقــف الأرثوذكس والكاثوليك يختلف تماما عن موقــف البروتــستانت (عقيــدة غالبيــة الأمريكان والإنجليز) فيما يتعلق بالوعد الإلهي لبني إسرائيل ، وعقيدة شــعب الله المختار، والعودة إلى أرض الميعاد .

فالأرثوذكس والكاثوليك يريان " أن مجيء المسيح قــد نقــض العهــد الإلهــي لإسرائيل وأنهاه .

فبعد المسيح لا وعد ولا اختيار إلا لمن آمن بالخلاص وسعى إليه.

وباب الخلاص مفتوح لكل الناس بلا استثناء، وعلى اليهود أن يؤمنوا بالمــسيح مثلهم مثل غيرهم إذا أرادوا الخلاص. أما النبوءات الخاصة بعودة اليهود فكانــت تؤوَّل على أنها تحققت حينما أعادهم قورش الفارسي إلى فلسطين.

أما الفقرات الأخرى التي تتنبأ بمستقبل مُشرق لإسرائيل فتقتصر على إســرائيل الجديدة وحسب، أي الكنيسة المسيحية. وبعد ظهور المسيح وإنكار اليهود له أصبح

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الأول : العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية .مرجع سابق .

اليهود إسرائيل الجسدية الزائفة والشعب المختار للعنة الإله وأصبحت اليهودية اسما لا ديناً " (١) .

وهذه طائفة من أقوال أبرز الرموز المسيحية العربية التي تؤكد موقفها العقائدي من المسيحية البروتستانتية الأمريكية

يقول د. ميلاد حنا المفكر المسيحي البارز وعضو المجلس الأعلى للثقافة في مصر : " اليهود ركبوا موجة كبيرة جداً في تفسير بعض نصوص دينية في أن يجعل المؤمن المسيحي – البروتستانتي – علشان يبقى مسيحي كويس لازم يؤمن بحق إسرائيل في الوجود وإنها تستنى، وإن دا يخلي المسيح ييحيى يقوم دا يحقق القيامة " (٢)

ويضيف جمال أسعد عبد الملاك (عضو مجلس الشعب المصري الأسبق والمفكر المسيحي المعروف) قائلا : " الأخطر هو الاختراق الصهيوني للمسيحية من خلال إعمال بعض نصوص العهد القديم اللي هو كتاب اليهود لتبرير صفقات سياسية، يعني هو لما ما يقول حكاية الألفية دي، هو المقصود باختصار شديد، الألفية إنه لابد تنتهي ببناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، ومن هنا يبقى تبرير للوجود الإسرائيلي وإنهاء للقضية الفلسطينية من أساسها، وللأسف الشديد أن هناك بعض المسيحيين يغرر بهم باعتبار إن دي تحت مقولات ونصوص دينية، ومن هنا لا.. لا ينظرون إلى مجمل العقيدة وموقف المسيحية بشكل عام من اليهود، ومعروف إن إحنا كنائسنا التقليدية اللي هي الأرثوذكسية والكاثوليكية ضد الحكم الألفي باعتبار إن إحنا الآن يحكمنا المسيح حكما روحياً، ولا وجود لما يسمى بشعب الله المختار، ولا أرض الميعاد، ولا حكم (ألفي) ولا كل الكلام دا كله الهراء الكذب، " (٣)

د. رءوف أبو جابر (رئيس المجلس الأرثوذكسي في الأردن وفلسطين) يقول :

" إن الأرثوذكس هم كبقية العرب المسيحيين جزء لا يتجزأ من هذه الأمة، والتفكير واحد، نحن نشعر بأن الإنجيليين – طائفة من البروتستانت الأمريكيين –

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري "اليهود واليهودية والصهيونية " .م٣ ج١ الباب الأول: من التحديث إلى ما بعد الحداثة . مرجع سابق .

(٢) د. ميلاد حنا في حوار أجرته معه قناة الجزيرة في برنامج " بلا حدود " ١٢/ ٨ /٢٠٠٢

(٣) قناة الجزيرة في برنامج " بلا حدود " ١٢/ ٨ /٢٠٠٢

هم فعلاً أس البلاء، لأنهم يؤثرون بشكل كبير على السياسة الأمريكية المتعصبة ضد العرب والمسلمين " (١)

ويقول بطريرك السريان الكاثوليك الإنطاكي أغناطيوس بطرس الثامن عبد الأحد : " إن موقف الكنيسة القبطية المصرية وعلى رأسها قداسة البابا شنودة الذي أصدر أوامره إلى أتباعه بعدم زيارة مدينة القدس ما دامت تخضع للاحتلال الإسرائيلي هذا بالرغم من وجود اتفاقية سلام بين مصر وإسرائيل." (٢)

إن المسيحيين العرب قاوموا الحملات التبشيرية البروتستانتية الغربية واعتبروها خارجة على نهج تعاليم المسيحية الصحيحة وحذروا أتباعهم منها .

وإليك هذا الحوار بين أحد القسيسين الأرثوذكس ، وشاب مسيحي من نفس المذهب حول الجمعيات البروتستانتية التبشيرية :

" مارك : شفت يا أبونا الإعلان عن هذه النهضة الروحية .

أبونا : آه ده نهضة في جمعية بروتستانتية – خلوا بالكم .

مارك : إحنا مش ممكن نحضرها، لكن عايزين نسمع رأيك في اللا طائفية المزعومة بهذه الجمعية فهي تدعوا الناس للخلاص ، ولا تتعرض إلى أي عقيدة – و ليه بنقول أنها بروتستانتية ؟

أبونا : لأنها جميعه لا تنادى بالتعليم الصحيح وإنما تدعو الناس إلى الخلاص بمفهوم غير أرثوذكسي خالى من الروحانية الأرثوذكسية. " (٣)

وموجز القول أن من المستحيل بالنسبة إلى أي مسيحي أن يقدم مغزًى لاهوتيًّا لدولة إسرائيل، فإن إحترام الإيمان اليهودي لا يستتبع مطلقا الاندماج بين اليهودية والصهيونية، الذي يؤدي إلى إضفاء صفة القداسة على الأهداف التاريخية لحركة سياسية.

هذهِ القِراءة الانتقائية والقبلية للكِتابِ المقدس ليست أكثر قبولاً بالنسبة إلى اليهودي الروحاني مِنها بالنسبة إلى النصراني الكاثوليكي والأرثوذكسي ؛ لأنها

---

(١) قناة الجزيرة في برنامج " بلا حدود " ١٢/ ٨ /٢٠٠٢

(٢) لمزيد من التفاصيل حول موقف الكنيسة الشرقية من الصهاينة : يهودا ، ومسيحيين انظر " اليهود والصليبيون الجدد " للمؤلف الفصل الرابع عشر " موقف مسيحيي العرب من مخطط الصليبيين الجدد " .

(٣)عن موقع مطرانية الأقباط الأرثوذكس بالفيوم /www.stabraammonastery.com

تستتبع بالنسبة إلى اليهود أنفسهم نوعا من الردة: هو أن يستبدلوا "دولة إسرائيل بإله إسرائيل".

أما بالنسبة لليهودي الصهيوني فإنه يتمسك بأساطير الشعب المختار والأرض الموعودة والخلاص ويكفر بما عداها من روحانيات الدين المُوسوي وفي مقدمتها إله إسرائيل الذي منحهم هذه العهود !!

وَكَثِيرًا ما كَرَّرَ بيجن قوله:

"إن هذهِ الأرض أُعطيتْ لنا وعدا، ولنا عليها حق". (١)

كما كان ديان يقول: "إذا كان لنا الكِتاب المقدس، ونحن نعتبر أنفسنا شعب الكِتاب المقدس، فيجب أن تكون لنا أيضًا الأرْض الكتابية أرض القضاة، والكهنة، وأرض أورشليم، وحبرون، وأريحا، وأراضٍ أخرى أيضًا" (٢)

فالرجوع إلى الكِتاب المقدس، عِند حزب العمل، أو عِند الليكود، إنما يراد منه تدعيم سياسة ترى أن "فلسطين تخص الصهيونيين بموجب مِنْحَةٍ مَمْهُورَةٍ بتوقيع: الله".

وهذهِ القِراءة الانتقائية ذاتها هي التي تُمَيِّز نصوص التوراة، التِي تتَّسمُ بِالعنفِ والشراسة، لتبرير أعمال الاغتصاب التِي تُمَارَس الآن، وبذلك أصبحت علميات النهْب والإبادة التي تُمارس ضِدّ المواطنين الأصليين فِي كنعان شرطا وحيدًا للتمسك بالعهد. (٣)

***

---

(١) تصريح بيجن في أوسلو ــ صحيفة "دافار" ١٢ من ديسمبر ١٩٧٨. نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٢)موشى ديان ــ صَحيفة جيروزاليم بوست ــ ١٠ من أغسطس: ١٩٦٨. نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٣) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الأول : العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية ،مرجع سابق .

الفصل الثالث

بنو إسرائيل في القرآن الكريم

من هم بنو إسرائيل ؟

بنو إسرائيل هم الشعب المنحدر من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، فقد رُزق يعقوب عليه السلام باثني عشر ابنا ،منهم تفرعت قبائل بني إسرائيل ، وإسرائيل كلمة عبرية بمعنى عبد الله وهو اسم ليعقوب عليه السلام ، وقد ذكر الله أسباط بني إسرائيل وهم أبناء يعقوب عليه السلام في أكثر من آية من كتاب الله عز وجل ، منها قوله تعالى :

{ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً } (الأعراف: ١٦٠)

وقوله تعالى : { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) { البقرة:١٣٦)

ولم يكن ليعقوب عليه السلام وطن ثابت فقد كان يعيش وأهل بيته حياة البدو الرحل يضربون خيامهم حيثما وجد الماء و الكلأ ، وقد أشار القرآن إلى حياتهم هذه في قوله سبحانه على لسان يوسف عليه السلام : { وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ } (يوسف:١٠٠)

بنو إسرائيل في مصر

وقص القرآن الكريم قصة سيدنا يوسف عليه السلام بالتفصيل وهي لا تختلف كثيرا عما جاء في التوراة .

وانتهى الحال بيوسف عليه السلام بأن أصبح المتصرف في شئون مصر بعدما رأى ملك مصر دلائل نبوته ، ومبلغ علمه ، ومدى أمانته .

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ {٥٤} قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ {٥٥} وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } (يوسف : ٥٤ – ٥٦)

وذكر القرآن الكريم قصة دخول بني إسرائيل مصر في زمن يوسف عليه السلام .

{ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } (يوسف : ٩٩- ١٠٠) .

وقد عاش بنو إسرائيل في مصر في زمن يوسف عليه السلام حياة كريمة .

{ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ {٥٧} وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ {٥٨} كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } (الشعراء : ٥٧- ٥٩)

لقد عاش بنو إسرائيل في مصر حياة منعمة ، لا أثر فيها لشقاء أو عذاب قبل أن ينقلب عليهم فرعون مصر ، ويضطروا للخروج منها .

{ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ {٢٥} وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ {٢٦} وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ {٢٧} كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ {٢٨} فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ } (الدخان : ٢٥-٢٨)

تصور لنا الآيات النعيم الذي كان بنو إسرائيل فيه يرفلون . . جنات . وعيون . وزروع . ومكان مرموق ، ينالون فيه الاحترام والتكريم . ونعمة يستلذونها ويطعمونها ويعيشون فيها مسرورين محبورين .

وبعد موت يوسف ، تسلط عليهم فرعون وأذاقهم سوء العذاب ، ولم يذكر القرآن الكريم سبب اضطهاد فرعون لبني إسرائيل ، فبعث الله موسى ليخرُج ببني إسرائيل من مصر هرباً من بطش فرعون وجبروته .

قصة سيدنا موسى في القرآن الكريم

وذكر القرآن الكريم قصة سيدنا موسى : ميلاده ، وإلقاء أمه به في النهر داخل تابوت عندما خافت عليه من فرعون – الذي كان يذبح أبناء بني إسرائيل – وتربية فرعون له . فقال تعالى :

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ {٧} فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ {٨} وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {٩} وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {١٠} وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {١١} وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ {١٢} فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } (القصص : ٧- ١٣)

وعندما شب موسى واستوى عرف باضطهاد فرعون لبني إسرائيل وذات يوم استغاث إسرائيلي بموسى في قتاله مع مصري فضرب موسى المصري بقبضة يده لدفعه عن الإسرائيلي فمات المصري ، ولم يكن يقصد قتله ، وعلم موسى أن ملأ فرعون يدبرون لقتله فهرب إلى مدين حيث عمل راعياً لدى شيخ صالح هناك قيل أنه نبي الله شعيب عليه السلام الذي زوجه إحدى ابنتيه نظير أن يعمل عنده ثماني سنوات ، وزاد موسى عليها سنتين تفضلا منه ، ثم أخذ أهله وأراد العودة بهم إلى مصر وهو في سيناء اختاره الله تعالى نبيا .

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ

فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ {٢٤} فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٢٥} قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ {٢٦} قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ {٢٧} قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ {٢٨} فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ {٢٩} فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } (القصص:١٤ – ٣٠)

وبعد أن أوحى الله تعالى لموسى في سيناء بالرسالة أمره أن يذهب هو وأخوه هارون إلى فرعون لدعوته لعبادة الله وحده ولخلاص بني إسرائيل ، فأعرض عنهما فرعون وناصبهم العداء .

{ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى {٩} إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى {١٠} فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى {١١} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {١٢} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {١٣} إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {١٤} إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى{١٥} فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى{١٦} وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى {١٧} قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى {١٨} قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى {١٩} فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى {٢٠} قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى {٢١} وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى {٢٢} لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى {٢٣} اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى {٢٤} قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي {٢٥} وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي {٢٦} وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي {٢٧} يَفْقَهُوا قَوْلِي {٢٨} وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي {٢٩} هَارُونَ أَخِي {٣٠} اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي {٣١} وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي {٣٢} كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً {٣٣} وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً {٣٤} إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا {٣٥} قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى {٣٦} وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى } (طه : ١٣– ٣٧)

موسى وفرعون

ويقص لنا القرآن الكريم الحوار الذي دار بين موسى وفرعون :

{ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧)
قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ
وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ
لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي
إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ
الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
(٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)
قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ
عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩)
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا
لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَى
أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ
(٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦)
قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ
إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ }(الشعراء : ١٦- ٥٠)

وطلب موسى من فرعون أن يعتق بني إسرائيل ليخرجوا من حياة العبودية والقهر إلى الأرض المقدسة ، ولكن فرعون أبى فضربه الله بألوان شتى من العذاب .

{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
(١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ }
(الأعراف :١٣٣- ١٣٥)

وأخيرا سمح فرعون – بعدما رأى العذاب – بخروج بني إسرائيل الذين احتالوا على المصريات فأخذوا حليهم ثم هربوا وعندما علم فرعون بذلك أعد جيشا لينتقم منهم . لكن الله نجى موسى وقومه وأغرق فرعون وجنوده .

{ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ }(الشعراء : ٦٠ – ٦٧)

فترة التيه

عندما ذهب موسى لميقات ربه ليأتي لبني إسرائيل بالتوراة استغل بنو إسرائيل غيابه وعبدوا العجل رغم أنهم كانوا حديثي عهد بمعجزة كبرى وهي شق البحر .

{ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ }(البقرة : ٥٠، ٥١)

وعندما علم موسى بعبادتهم للعجل ألقى الألواح وعاتب أخاه هارون عتابا شديدا .

{ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } (الأعراف : ١٥١ – ١٥٣)

وبرر بنو إسرائيل عبادتهم للعجل بادعاء أنهم أرادوا التطهر من حلي المصريات التي سرقوها منهن بإلقائها في النار ، وأن السامري هو الذي صنع لهم من الذهب المذاب عجلا وأمرهم بعبادته ، وقد استبطئوا موسى فوقعوا في عبادة العجل !!

{ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ } (طه : ٨٦ ، ٨٧)

قال بنو إسرائيل لموسى : ما أخلفنا موعدك بملكنا ، فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا ! { ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها } . . وقد حملوا معهم أكداساً من حلي المصريات كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهن . فهم يشيرون إلى هذه

الأحمال . ويقولون : لقد قذفناها تخلصاً منها لأنها حرام . فأخذهم السامري فصاغ منها عجلاً .

ومن رحمة الله تعالى أن عفا عنهم ، وغفر لهم عبادتهم العجل لعلهم يشكرون .

{ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (البقرة : ٥٢)

لكنهم لم يشكروا الله على عظيم نعمه عليهم ، وطلبوا ما ليس لهم بحق طلبوا أن يروا الله جهرة ليؤمنوا مع أن رؤيتهم لله تتناقض مع الإيمان به فالإيمان يكون بالغيب ، وعاقبهم الله بأن أماتهم جميعا بالصاعقة ، ثم عفا عنهم وأحياهم لعلهم يشكرون .

{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (البقرة : ٥٥ ، ٥٦)

وأنعم الله عليهم بالسحاب يقيهم حرارة الشمس ، وأنزل عليهم من طيباته : المن والسلوى ، وفجر لهم عيون الماء .

{ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }(البقرة : ٥٧)

{ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (البقرة : ٦٠)

ومع ذلك لم يشكروا الله على جزيل نعمه بل اعترضوا على طيبات الله واستبدلوا الذي هو أدني بالذي هو خير فكان جزاؤهم أن كتب الله عليهم الذل والمسكنة وباءوا بغضب من الله .

{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ } (البقر : ٦١)

وأخذ الله تعالى عليهم الميثاق بعبادته تعالى وحده ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، والإحسان لليتامى والمساكين ، ومعاملة كافة الناس بالحسنى ، وإقام الصلاة ،

وإيتاء الزكاة ، وعدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، لكنهم نكثوا عهد الله وعصوا أوامره ، فسفكوا الدماء ، وطردوا الأبرياء من ديارهم وتظاهروا عليهم بالإثم والعدوان فحكم الله تعالى على من فعل ذلك منهم بالخزي في الحياة الدنيا ، وبأشد العذاب يوم القيامة .

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ }(البقرة : ٨٣ – ٨٦)

ومع ما في هذا الميثاق العظيم من تعاليم إلهية جليلة رفضوه فهددهم الله بجبل الطور لقبوله ، لكنهم سمعوا مكرهين وعصوا كافرين .

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } (البقرة : ٩٣)

طلب موسى من بني إسرائيل دخول البلاد المقدسة التي فرض الله عليهم دخولها لكنهم جبنوا عن محاربة الفلسطينيين ، واشترطوا لدخولها خروج أهلها منها !!

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } (المائدة : ٢٠ – ٢٦)

إن جبلّة يهود لتبدو هنا على حقيقتها ، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل . ذلك أنهم أمام الخطر؛ فلا بقية إذن من تجمل؛ ولا محاولة إذن للتشجع ، ولا مجال كذلك للتمحل . إن الخطر ماثل قريب؛ ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض ، وأن الله قد كتبها لهم – فهم يريدونه نصراً رخيصاً ، لا ثمن له ، ولا جهد فيه . نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى !

{ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون } هكذا في وقاحة العاجز ، الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان !

{ فاذهب أنت وربك } ! . فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال !

{ إنا ها هنا قاعدون } . لا نريد ملكاً ، ولا نريد عزاً ، ولا نريد أرض الميعاد . ودونها لقاء الجبارين !

هذه هي نهاية المطاف بموسى عليه السلام . نهاية الجهد الجهيد . والسفر الطويل . واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل !

نعم ها هي ذي نهاية المطاف نكوصاً عن الأرض المقدسة ، وهو معهم على أبوابها . وخروجا على ميثاق الله . . فماذا يصنع موسى ؟ وبمن يستجير ؟

{ قال : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي . فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين } .

دعوة فيها الألم . وفيها الالتجاء . وفيها الاستسلام . وفيها – بعد ذلك – المفاصلة والحسم والتصميم !

هذا هو أدب النبي . وهذه هي خطة المؤمن . وهذه هي الآصرة التي يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون . . لا جنس . لا نسب . لا قوم . لا لغة . لا تاريخ . لا وشيجة من كل وشائج الأرض؛ إذا انقطعت وشيجة العقيدة؛ وإذا اختلف المنهج والطريق . واستجاب الله لنبيه . وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين .

{قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين}

وهكذا أسلمهم الله – وهم على أبواب الأرض المقدسة – للتيه؛ وحرم عليهم الأرض التي كتبها لهم . . حرمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة؛ وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل . جيل يعتبر بالدرس ، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها صلب العود . . جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان

في مصر ، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل! والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب .

ويتركهم السياق هنا – في التيه – لا يزيد على ذلك . . وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفني ، على طريقة القرآن في التعبير . (١)

كيف دخل بنو إسرائيل أرض كنعان ؟

بعد أربعين عاما من التيه مات فيها الجيل الجبان ونشأ جيل آخر مجاهد دخل بنو إسرائيل أرض فلسطين بقيادة يوشع بن نون فتى موسى ، الذي قسَّم ما أخذوه من أرض فلسطين على أسباط بني إسرائيل ، وجعل على كل سبط منهم قاضيا يحكمهم ، واستمر هذا العهد لأكثر من مائتي سنة فيما يذكر اليهود ، وكانوا طيلة تلك الفترة في حال صراع مستمر مع الفلسطينيين أصحاب الأرض الأصليين .

وفي إحدى المعارك هزم الفلسطينيون بني إسرائيل هزيمة منكرة وطردوهم من ديارهم وأسروا أبناءهم وأخذوا منهم التابوت الذي كان فيه بعض آثار موسى وهارون ، كان هذا قمة المذلة لهم لذا دعوا الله تعالى أن يرسل لهم ملكا ليقودهم للقتال لاستعادة ملكهم ، وليعزوا بعد ذل ، ويقص لنا القرآن الكريم هذه المرحلة من قصة بني إسرائيل فيقول تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٢ ص ٣٤٤- ٣٤٦

الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } (البقرة : ٢٤٦ : ٢٥٢)

لقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل ، من كبرائهم وأهل الرأي فيهم إلى نبي لهم . وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته { في سبيل الله } . . وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال ، وأنه في { سبيل الله } يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم ، ويقظة الإيمان في نفوسهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق ، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل؛ ووضوح الطريق أمامهم للجهاد في سبيل الله .

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم ، وثبات نيتهم ، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة ، وجدّهم فيما يعرضون عليه من الأمر :

{ قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ! } .

ألا ينتظر أن تنكلوا عن القتال إن فرض عليكم ؟ فأنتم الآن في سعة من الأمر . فأما إذا استجبت لكم ، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة؛ ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها . . إنها الكلمة اللائقة بنبي ، والتأكد اللائق بنبي . فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ .

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة؛ وذكر الملأ أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال في سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذي لا تردد فيه :

{ قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ } .

ونجد أن الأمر واضح في حسهم ، مقرر في نفوسهم . . إن أعداءهم أعداء الله ولدين الله . وقد أخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم . فقتالهم واجب ؛ والطريق الواحدة التي أمامهم هي القتال؛ ولا ضرورة إلى المراجعة في هذه العزيمة أو الجدال . ولكن هذه الحماسة الفائرة في ساعة الرخاء لم تدم . ويعجل السياق بكشف الصفحة التالية : { فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم } . .

وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات إسرائيل في نقض العهد ، والنكث بالوعد ، والتفلت من الطاعة ، والنكوص عن التكليف ، وتفرق الكلمة ، والتولي عن الحق البين . . ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تتضح تربيتها الإيمانية؛ فهي سمة

بشرية عامة لا تغير منها إلا التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير . وهي - من ثم - سمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر ، وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر ، كي لا تفاجأ بها ، فيتعاظمها الأمر! فهي متوقعة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب ، ولم تصهر ولم تطهر من هذه العقابيل .

{ وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً . قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال؟ قال : إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة في العلم والجسم . والله يؤتي ملكه من يشاء . والله واسع عليم } . .

وفي هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات إسرائيل التي وردت الإشارات إليها كثيرة في هذه السورة . . لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه . ولقد قالوا : إنهم يريدون أن يقاتلوا { في سبيل الله } . فها هم أولاء ينغضون رءوسهم ، ويلوون أعناقهم ، ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم؛ ويستنكرون أن يكون طالوت - الذي بعثه الله لهم - ملكاً عليهم . لماذا ؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة . فلم يكن من نسل الملوك فيهم ! ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضي عن أحقية الوراثة ! . . وكل هذا غبش في التصور ، كما أنه من سمات بني إسرائيل المعروفة . .

ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية ، وعن حكمة الله في اختياره :

{ قال إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة في العلم والجسم . والله يؤتي ملكه من يشاء . والله واسع عليم } . .

إنه رجل قد اختاره الله . . فهذه واحدة . . وزاده بسطة في العلم والجسم . . وهذه أخرى . . والله { يؤتي ملكه من يشاء } . . فهو ملكه ، وهو صاحب التصرف فيه ، وهو يختار من عباده من يشاء .

{ والله واسع عليم } . . ليس لفضله خازن وليس لعطائه حد . وهو الذي يعلم الخير ، ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها . هي أمور من شأنها أن تصحح التصور المشوش ، وأن تجلو عنه الغبش . . ولكن طبيعة إسرائيل - ونبيها يعرفها - لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها . . وهم مقبلون على معركة . ولا بد لهم من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين :

{ وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ، فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين } . .

ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت ، فانتهى القوم منها إلى اليقين .

ثم أعد طالوت جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد ، ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق . . والسياق القرآني على طريقته في سياقة القصص يترك هنا فجوة بين المشهدين . فيعرض المشهد التالي مباشرة وطالوت خارج بالجنود : { فلما فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم بنهر . فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني - إلا من اغترف غرفة بيده . فشربوا منه إلا قليلاً منهم } . .

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل . . إنه مقدم على معركة؛ ومعه جيش من أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة . وهو يواجه جيش أمة غالبة فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة . هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة . الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلي على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها ، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء . . فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه ، وصموده وصبره : صموده أولاً للرغبات والشهوات ، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب . . واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش . ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ، ويؤثر العافية . . وصحت فراسته :

{ فشربوا منه إلا قليلاً منهم } شربوا وارتووا . فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده ، تبل الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم . وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت - إلى حد - ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد :

{ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده }

لقد صاروا قلة وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته : بقيادة جالوت . إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم . ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته . إنها التجربة الحاسمة . تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور . وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم ، فاتصلت بالله قلوبهم؛ وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم ، غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم!

وهنا برزت الفئة المؤمنة . الفئة القليلة المختارة . والفئة ذات الموازين الربانية :

{ قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . والله مع الصابرين } . .

هكذا . . { كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة } . . بهذا التكثير . فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله . القاعدة : أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار . ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى؛ ولأنها تمثل القوة الغالبة . قوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده ، محطم الجبارين ، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين .

وهم يكلون هذا النصر لله : { بإذن الله } . . ويعللونه بعلته الحقيقية : { والله مع الصابرين } . . فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل . .

ونمضي مع القصة . فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله ، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء ، وتستمد قوتها كلها من إذن الله ، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله ، وأنه مع الصابرين . . إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة ، الثابتة ، التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، مع ضعفها وقلتها .. إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة . بعد أن تجدد عهدها مع الله ، وتتجه بقلوبها إليه ، وتطلب النصر منه وحده ، وهي تواجه الهول الرهيب

{ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

أما في هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعاً . . وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة ، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية ، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية . . حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى . . إنها ليست المغانم والأسلاب ، وليست الأمجاد والهالات . . إنما هو الصلاح في الأرض ، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر : { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين } .

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض . ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة ، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع ، فتنفض عنها الكسل

والخمول ، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة ، وتظل أبداً يقظة عاملة ، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة . . وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء . . يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة . تعرف الحق الذي بينه الله لها . وتعرف طريقها إليه واضحاً . وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض . وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل ، وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه . .

وهنا يمضي الله أمره ، وينفذ قدره ، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا ، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية ، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه . وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة .

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر . ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض ، وتمكين الصلاح في الحياة . إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار . (١)

مملكة داود وسليمان

وفي هذه الفترة التي قامت فيها الفئة المؤمنة بشرع الله واستقامت على منهجه أقيمت مملكة بني إسرائيل على جزء من أرض فلسطين في عهد داود وسليمان عليهما السلام .

{ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } (النمل : ١٩) .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان، عليهما من الله السلام، من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين؛ ولهذا قال: { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ } (النمل : ١٥)

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ١ ص ٢٤٨- ٢٥٣ بتصرف .

أن الله تعالى قد أعطى – بفضله وإحسانه – داود وسليمان عليهما السلام نعما عظيمة ، على رأسها نعمة النبوة ، والملك ، والعلم النافع .

وأنهما قد قابلا هذه النعم بالشكر لله تعالى واستعمالها فيما خلقت له .

ونرى ذلك في قوله تعالى على لسان سليمان : { رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين } وفي قوله سبحانه : { هذا مِن فَضْلِ رَبِّي ليبلوني أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ } (النمل : ٤٠) .

تقطيع الله تعالى بني إسرائيل في الأرض أمما

ولكن بني إسرائيل – كعادتهم دائما – عادوا إلى الفساد والعصيان بعد نبي الله سليمان فسلط عليهم من قهرهم وشتت جمعهم .

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } (الأعراف : ١٦٧ ، ١٦٨)

والمعنى : واذكر يا محمد وقت أن أعلم الله تعالى هؤلاء اليهود وأسلافهم بأنهم إن غيروا وبدلوا ولم يؤمنوا بأنبيائهم ، ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم سوء العذاب كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك من صنوف العذاب إن ربك لسريع العقاب لمن أقام على الكفر ، وجانب طريق الحق ، وإنه لغفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحاً . وهذا من باب قرن الترغيب بالترهيب حتى لا ييأس العاصي من رحمة الله بسبب ذنوبه السابقة إذا هو أقبل على الله بالتوبة والعمل الصالح كما قال تعالى : { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهتدى } (طه : ٨٢)

ولقد يبدو للبعض أن هذا الوعيد لليهود قد توقف بسبب ما نرى لهم الآن من دولة وصولة ولكن الذى نعتقده أن هذا الوعيد ما توقف مع ما لهم من دولة ، فإنهم ما زالوا محل احتقار الناس وبغضهم ، وحتى الدول التى تناصرهم إنما تناصرهم لأن السياسة تقتضى ذلك .

وما قامت لليهود تلك الدولة إلا لأن المسلمين قد فرطوا فى حق خالقهم ، وفى حق أنفسهم ، ولم يأخذوا بالأسباب التى شرعها الله لهم لحرب أعدائهم فكانت النتيجة أن أقام اليهود دولة لهم فى قلب البلاد الإسلامية وعندما يعود المسلمون إلى

الأخذ التام الكامل بتعاليم دينهم وإلى مباشرة الأسباب التى شرعها الله مباشرة سليمة ، عندما يفعلون ذلك تعود إليهم عزتهم المسلوبة وكرامتهم المغصوبة .

وصدق الله إذ يقول : { ذلك بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا على قَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ }(الأنفال : ٥٣)

هذا وقوله تعالى : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً } إخبار عن عقوبة أخرى من عقوباتهم المتنوعة بسبب كفرهم وجحودهم ، وتتمثل هذه العقوبة فى تفريقهم فى الأرض ، وتمزيقهم شر ممزق حتى لا تكون لهم شوكة .

أن هؤلاء اليهود قد مزقناهم فى الأرض شر ممزق بسبب عصيانهم وفسوقهم ، وصيرناهم فرقا متقطعة الأوصال ، مشتتة الأهواء . وقوله { مِّنْهُمُ الصالحون وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك } بيان حالهم .

أى : من هؤلاء اليهود قلة آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فصلح حالها ، وحسنت عاقبتها ، ومنهم كثرة منحطة عن رتبة أولئك المؤمنين الصالحين ، بسبب فسوقهم عن أمر الله ، وانتهاكهم لحرماته .[1]

ويبين الله تعالى عقاب الله تعالى لبني إسرائيل بسبب فسادها بأن بعث عليها من هدم عليهم مملكتهم ، وشردهم .

{ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا }
(الإسراء : ٤- ٨)

ولقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ، وأنهم سيعلون في الأرض المقدسة ويسيطرون . وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميراً :

---

(1) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ١٧٢١

{ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولاً } .

فهذه هي الأولى : يعلون في الأرض المقدسة ، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان ، فيفسدون فيها فيبعث الله عليهم عباداً من عباده أولي بأس شديد ، وأولي بطش وقوة ، يستبيحون الديار ، ويروحون فيها ويغدون باستهتار ، ويطأون ما فيها ومن فيها بلا تهيب { وكان وعداً مفعولاً } لا يخلف ولا يكذب .

حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل؛ فرجعوا إلى ربهم ، وأصلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم . وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم ، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا في الأرض ، أدال الله للمغلوبين من الغالبين ، ومكن للمستضعفين من المستكبرين : { ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً } . .

ثم تتكرر القصة من جديد! وقبل أن يتم السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول يقرر قاعدة العمل والجزاء : { إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها } القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل ثماره ونتائجه . وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج ، وبه تتكيف؛ وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه ، إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء ، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء .

فإذا تقررت القاعدة مضى السياق يكمل النبوءة الصادقة :

{ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيراً } . .

ويحذف السياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرة من إفساد في الأرض ، اكتفاء بذكره من قبل : { لتفسدن في الأرض مرتين } ويثبت ما يسلطه عليهم في المرة الآخرة : { فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم } بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه ، أو بما يجبهون به وجوههم من مساءة وإذلال . ويستبيحون المقدسات ويستهينون بها : { وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة } ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار {وليتبروا ما علوا تتبيراً} . . وهي صورة للدمار الشامل الذي يطغى على كل شيء ، والذي لا يبقي على شيء .

ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد ، فسلط على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة ، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض ، ودمر مملكتهم فيها تدميرا .

ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بني إسرائيل ، لأن النص عليها لا يزيد في العبرة شيئاً . والعبرة هي المطلوبة هنا . وبيان سنة الله في الخالق هو المقصود .

ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول ، بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة : { عسى ربكم أن يرحمكم } إن أفدتم منه عبرة .

فأما إذا عاد بنوا إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية : { وإن عدتم عدنا } . .

ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها . ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عباداً آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم « هتلر » .

ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة « إسرائيل » التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات . وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، تصديقاً لوعد الله القاطع ، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف . وإن غداً لناظره قريب! (١)

القرآن الكريم وأساطير اليهود

لقد طورت الصهيونية كثيرا من المفاهيم القومية ذات الطابع العنصري ، ومن هذه المفاهيم ما استمدته من توراة اليهود مثل : أسطورة شعب الله المختار ، وأسطورة أرض الميعاد ، وأسطورة الخلاص الإلهي لليهود في آخر الزمان ...

ومنها أساطير سياسية أضافتها الصهيونية وجعلتها من المقدسات يحرم المساس بها وهي : أساطير : البقاء والاستمرار اليهوديان ، وعداء الأغيار الأزلي لليهود ، أرض بلا شعب لشعب بلا أرض ...

وهذه الأساطير سواء أكانت دينية أم سياسية لم تتجلى في أقوال الصهاينة فحسب بل تجلت في ممارستهم العملية .

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج٥ ص ٧، ٨

وسنكتفي في هذا المقام بعرض موجز لمفهوم القرآن الكريم لما ورد في توراة اليهود من أساطير : الأرض الموعودة ، والاختيار ، والخلاص .

أولا : أسطوة الأرض الموعودة

إن من العقائد الإيمانية المؤكدة في كل الأديان السماوية أن الله تعالى هو خالق السموات والأرض وما فيهن من مخلوقات وعوالم وكائنات ما علمنا منها وما جهلنا ، وأنه تعالى المتصرف في ملكه لا سلطان لأحد عليه ، ولا يشاركه في ملكه أحد .

{ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }(آل عمران : ١٨٩)

أي : هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عديل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، فلا إله غيره ولا رب سواه .(١)

قال الله تعالى : { للّهِ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا فِيهِنَّ } ولم يقل ومن فيهن فغلب غير العقلاء على العقلاء ، والسبب فيه التنبيه على أن كل المخلوقات مسخرون في قبضة قهره وقدرته وقضائه وقدره ، وهم في ذلك التسخير كالجمادات التي لا قدرة لها وكالبهائم التي لا عقل لها ، فعلم الكل بالنسبة إلى علمه كلا علم ، وقدرة الكل بالنسبة إلى قدرته كلا قدرة .(٢)

إذن الأرض أرض الله وليس لجنس أو لقوم أو لشعب أو لأي كائن من كان شيء فيها . والله تعالى كتب في كتبه المقدسة التي أنزلها للناس أن الأرض يورثها لمن يشاء من عباده الصالحين تفضلا منه جل وعلا .

ذكر الله تعالى هذا في كتبه المقدسة جميعها : التوراة المُنَزّلة على موسى ، الزبور المُنَزّل على داود ، والإنجيل المُنَزّل على عيسى ، والقرآن الكريم المُنَزّل على محمد صلى الله عليهم أجمعين .

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } (الحج : ١٠٥-١٠٧)

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٣٦

(٢) فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ج ٦ ص ٢٠٦

واختلف المفسرون في تفسير المراد بالزبور ، والذكر . فمن المفسرين من جعل الزبور لفظ عام يشمل الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه جميعاً . ومنهم من جعله لفظ خاص بكتاب داود فحسب .

أما الذكر فقد وسَّع بعض المفسرين معناه فجعله أم الكتاب عند الله ، ومنهم من قصره على التوراة كتاب موسى .

وسواء أكان المقصود بالزبور والذكر بمعناهما الخاص كتابي (داود ، وموسى) أو بمعناهما العام الذي يشمل كل الكتب المنزلة على جميع الأنبياء فإنه من المؤكد أن وحي الله تعالى واحد في أصله لكل الأنبياء والمرسلين ، وليس هناك تناقض قط فيه ، فالمُرسِل واحد جل في علاه .

{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } (النساء : ١٦٣) .

يقول تعالى : { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } (الحج : ١٠٥) .

فما هي هذه الوراثة ؟ ومن هم الصالحون المستحقون ميراث الأرض ؟

المستحقون لميراث الأرض

إن موسى عليه السلام أكد لبني إسرائيل أن الله تعالى يورث الأرض لمن يشاء من عباده الصالحين لعمارتها . . .

يقول تعالى : { قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا إِنَّ الأرض لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ } (الأعراف : ١٢٨) .

فليس هناك عهد إلهي خاص بجنس دون جنس أو أمة دون أمة كما ادعت اليهود إنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وفقًا لسننه في خلقه .

ولقد أكد الله تعالى لبني إسرائيل هذا مرة ثانية بعد موسى في الزبور المنزل على داود صاحب أول مملكة لبني إسرائيل في الأرض المقدسة .

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } (الحج : ١٠٥)

فالصالحون لعمارة الأرض هم ورثتها ، هذه هي سنة الله في خلقه التي لا استثناء فيها ولا محاباة .

فعندما آمن المسلمون بالله تعالى وأعدوا ما استطاعوا من قوة نصرهم الله تعالى في مواطن كثيرة ، وعندما خالفوا أوامر النبي هزموا في أحد ، وكذلك عندما أعجب كثير من المسلمين بكثرتهم كادوا يهزمون في غزوة حنين .

{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } (التوبة: ٢٥) .

إذن ليس هناك عهد أبدي بتملك أرض مقدسة أو غير مقدسة لشعب بسبب جنسه لا بسبب عمله وصلاحه كما قالت توراة اليهود .

ثانيا : أسطورة شعب الله المختار

إن الحقيقة الإيمانية التي جاءت في الكتب المقدسة وعلى لسان جميع الأنبياء والرسل أنه ليس بين الله تعالى و شعب من الشعوب صلة نسب – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – كما أنه ليس هناك شعب مختار لجنسه ، و إنما هناك مؤمنون صالحون ، وهناك كفار مفسدون ، وخلق بينهم كثيرون .

فجميع الشعوب والقبائل متساوية في الخلق ، ولا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح . وهذه التقوى علمها عند الله فلا ينبغي أن يزكي إنسان أو شعب نفسه فالله تعالى هو أعلم بمن اتقى .

{ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } (النجم : ٣٢)

أساس التفاضل بين الناس

إن معيار التفاضل في الإسلام يستطيع الارتقاء إليه كل البشر ، ولا يقسم الناس إلى طبقات يعلو بعضها بعضا ، وهو معيار يدفع إلى الرقي والسمو بالإنسان .

إن التقوى معيار الكرامة الإنسانية عند الله عز وجل ، ومع ذلك فهي معيار الصلاح في الدنيا ، وهو معيار حقيقي وعملي ؛ إذ إن صلاح الإنسان في دنياه ، يجعله أفضل لنفسه وللمجتمع الذي يعيش فيه ، من غيره الذي لا يفيد نفسه ولا مجتمعه بشيء .

لقد جعل الله تعالى التقوى مقياس التفاضل بين البشر جميعا فلا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }(الحجرات : ١٣)

يقول تعالى مخبرًا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوبا، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ .

وقوله: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب.

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله .

وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء . وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

قال رسول الله ﷺ : " كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب . ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان "

وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية : " دعوها فإنها منتنة "

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي . المجتمع الإنساني العالمي ، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم . . الطريق إلى الله . . ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة . . راية الله . . أن يستمد الناس قيمهم وموازينهم من السماء ، طلقاء من قيم الأرض وموازينها المنبثقة من واقعهم كله . . وهذا هو الأمر العظيم .

إن الميزان الذي أنزله الله للناس مع الرسل ، ليقوّموا به القيم كلها ، هو { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } هذه هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو يشيل! وهي قيمة سماوية بحتة ، لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقاً .(١)

هل اليهود هم الأتقى ليكونوا هم الأكرم عند الله ؟

لا تزعم اليهودية أن لديها هداية تقدمها للبشر ، فهي ديانة يغلب عليها الطابع العنصري ، و" الله " في دين اليهود ليس رب العالمين ، ولكنه رب إسرائيل . والآخرة عند اليهود ليست هي ملكوت السماء عند النصــارى ، ولا جنة الخلد عند المسلمين ، إنمــا هي مُلك إسرائيل .

والعهد القديم " كتاب اليهود المقدس الذي يضم أسفار التوراة وملحقاتهــا يدور جلّه حول تاريخ إسرائيل ، وأحلام إسرائيل .

التوحيد الذي دعا إليه موسى عليه السلام ضاع في هذا الكتاب الذي شوه صورة الألوهية ، وأضفى على الإله من نقائص البشر ، من الجهل والخوف والحسد ، والضعف ، يلحظه كل قارئ للتوراة .

والأنبياء الذين جعلهم الله هُداة ومعلمين ، لُوّثت سيرتهم وأُلصقت بهم التهم ، في هذا الكتاب ، فلم يعودوا ليصلحوا أُسوة للناس . ! (٢)

صفات بني إسرائيل كما جاءت في القرآن الكريم

يصف القرآن الكريم اليهود وأسلافهم – أخلاقيا لا عرقيا – من بني إسرائيل بأنهم يسعون في الأرض فسادا ، وأنهم دائما حريصون على إثارة الفتن وإشعال الحروب ، وإنهم دائما في عداوة ليس فقط لغيرهم إنما أيضا لبعضهم البعض وهذا دأبهم إلى يوم القيامة .

ويرجع فسادهم وإفسادهم إلى عداوتهم لله ورسله وخروجهم الدائم على شريعته وصدق الله العظيم حين يقول فيهم :

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج٧ ص ٥

(٢) د. يوسف القرضاوي " الإسلام حضارة الغد " نقلا عن الشبكة الإسلامية . ١/ ١ / ٢٠٠٢

الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } (المائدة : ٦٤)

فهم دائما لا يحبون إلا أنفسهم و لا يتبعون إلا هواهم مما جعلهم يكذبون فريقا من الرسل ويقتلون الفريق الآخر :

{ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ }

(البقرة : ٨٧)

وأكثرهم ناقضون لعهود الله وعهود البشر .

{ أَ وَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } (البقرة: ١٠٠)

وكثير منهم حريصون على الحياة على أية صورة وأية حال حتى ولو كانت حياة مذلة وقهر ، المهم أن يعيشوا ويتمتعوا كالإنعام .

{ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}(البقرة :٩٦)
{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا }
(الفرقان : ٤٤)

مما جعل الله تعالى يحرم عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله ، وأكلهم الربا .

{ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً {١٦٠} وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ }
(النساء : ١٦٠ ، ١٦١)

وعاقبهم الله تعالي بأن مسخ قوما منهم قردة وخنازير بسبب فسادهم وطغيانهم وفسقهم . { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ }
(البقرة :٦٥)

{ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ }(الأعراف : ١٦٦)

هذا عن تاريخ بني إسرائيل كما جاء في القرآن الكريم فماذا عن قصة النبي صلى الله عليه مسلم مع اليهود ؟ هذا ما نعرفه في الفصل التالي .

ثالثا : أسطورة الخلاص في نهاية الزمان

هناك فرق جوهري بين نهاية التاريخ عند أهل الكتاب ، ويوم القيامة عند المسلمين ، فنهاية التاريخ عند أهل الكتاب تتحقق داخل الزمان الإنساني وعلى الأرض، حين يؤسّس الإنسان الفردوس (مملكة صهيون على يد الماشيخ الذي هو من نسل داود بالنسبة لليهود ، ومملكة المســيح على يد المسيح بن مريم بالنسبة للمسيحيين) داخل الزمان، فهو فردوس مادي أرضي. يتم على أرضنا هذه وليس في الدار الآخرة .

فالمسيحيون يعتقدون أن المسيح **سيرجع بعد ألف سنة ثم يحكم العالم ألف سنة**، وعلى هذه العقيدة اجتمعت آمالهم واتجهت أنظارهم سنة ١٠٠٠ ميلادية ولكن المسيح لم يظهر فهدأت المسألة وتلاشت في الواقع لكنها بقيت في الأحلام ، ولما شارف القرن العشرون على البزوغ أي قرب سنة ١٩٠٠ بدأت الدعوات تظهر من جديد واعتقدوا أن المسيح إن لم يظهر في أول القرن العشرين فسيظهر في آخره أي عام ٢٠٠٠ ولم يظهر المسيح في آخره الذي ظهر هو المسيح الدجال المسمى الصهيونية العالمية .

وهذا خلاف ما يؤمن به المسلمون من أن الدنيا دار ابتلاء وفناء ، والآخرة دار خلود وجزاء .

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب: { وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ } أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد . (١)

***

(١) لمزيد من التفاصيل حول الأساطير الصهيونية الرجوع إلى كتاب " الدين والسياسة والنبوءة ، بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية " للمؤلف .

الفصل الرابع

قصة اليهود مع خاتم المرسلين

أما عن علاقة اليهود بخاتم الأنبياء وإمام المرسلين فكانت أنكى وأشد على الرغم من المعاملة الراقية التي عاملهم الرسول ﷺ بها والتي لم يعاملهم أحد بمثلها من قبل ولا من بعد ، إلا أنهم قابلوا وفاءه لذمتهم بالغدر ، كما قابلوا إحسانه بالإساءة وهاك القصة يهود المدينة مع النبي من البداية ﷺ

اليهود يبشرون بسيدنا محمد

كان يهود المدينة في حربهم مع أعدائهم - قبل أن يبعث الله محمدا ﷺ - " يستفتحون الله ، و يدعون على الذين كفروا ويقولون: اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي ألا نصرتنا عليهم فينصرون { فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ } يريد محمدا ﷺ ولم يشكوا فيه { كَفَرُواْ بِهِ } "(١)

{ وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ }(البقرة : ٨٩)

{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }(الأعراف : ١٥٧)

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (البقرة : ١٤٦)

---

(١) جلال الدين السيوطي " الدر المنثور في التفسير بالمأثور " في تفسير قوله تعالى {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به } .

ولِمَ يكفرون به رغم أنهم يجدونه عندهم في التوارة والإنجيل ؟

إنه الحسد والبغي إنهم يريدون رسولا من بني إسرائيل يجدد لهم وعود الله بتعبيد العرب والاستيلاء على أرضهم ، فلما جاءهم رسول عربي ﷺ و بما لا تهوى أنفسهم كفروا به .

{ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ }
(البقرة : ٩٠)

مع أن ما أنزل به محمد ﷺ هو رسالة التوحيد التي نزل بها كل الأنبياء وهو مصدق لصحيح دينهم . لكنهم أصروا على أن يؤمنوا بما معهم من التوراة ويكفروا بما جاء بعدها حتى وإن كان منزلا من عند الله وصفات مَن أُرسِل به مذكورة في كتبهم .

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
(البقرة : ٩١)

ويَدَّعي اليهود أن دينهم هو الصحيح و ما عاداه باطل ، فلنفترض – جدلا – أنكم تؤمنون بالتوراة وأنها صحيحة و لم تحرَّف ولم تُبَدَّل فلم عبدتم العجل إذن ؟!

هل موسى أمركم بعبادته ؟!

أم أن هذا دأبكم مع كل رسول تكذبونه ؟

والحقيقة أنكم ظالمون لأنفسكم بعدم إيمان أسلافكم بما جاء به موسى ، وظالمون لأنفسكم بعدم إيمانكم بما جاء به محمد ﷺ .

ما أسوأ إيمانكم ! هذا إن كنتم مؤمنين أصلا .

{ وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ {٩٢} وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } (البقرة : ٩٢ ، ٩٣)

إنَّ كُفْر اليهود ليس جديدا عليهم فإن أي نبي يرسله الله لهم إذا أتاهم بما لا تهوى أنفسهم كذبوه أو قتلوه .

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ {٨٧} وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ }

(البقرة : ٨٧ ، ٨٨)

{ لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ {١٨١} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ {١٨٢} الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {١٨٣} بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً }

(آل عمران : ٨١ - ١٨٤)

ومع كل هذا فإن الله تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يستمر في دعوة أهل الكتاب إلى عبادة الله الواحد الأحد ، ونبذ الكفر والشرك ، فإن رفضوا فهم وما يعبدون .

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } (آل عمران : ٦٤)

المجتمع الإسلامي واليهود

بين الله تعالى لنبيه وسيلة الدعوة معهم - ومع غيرهم - وهي بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن .

{ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }(النحل: ١٢٥)

فإن أبوا إلا الكفر والجدال بالباطل فالله تعالى يأمر نبيه بعدم المراء معهم حتى لا يتطور الجدال إلى خصام وجفوة وحروب ، وأمره تعالى بترك الأمور الخلافية لله يحكم فيها بحكمه العادل يوم القيامة .

{ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } (الحج : ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩)

ويقرر الله تعالى أن الأمور العقدية لا إكراه فيها إنما هي علاقة بين العبد وربه .

{ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }(البقرة : ٢٥٦)

{ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا } (الكهف : ٢٩)

ويحذر الله تعالى من استخدام أسلوب الإكراه في الدعوة إلى دين الله .

{ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } (يونس : ٩٩)

فإن تمسكوا بدينهم فهم وما يعتقدون ، ولهم على المسلمين حسن المعاملة – إن كانوا مسالمين – و أن يكون العدل هو أساس الحكم بينهم وبين المسلمين .

{ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (الممتحنة : ٨)

ولم يكن الأمر بإقامة العدل مع اليهود بالأمور النظرية التي لا تعرف طريقها إلى التطبيق شأن كثير من القوانين الدولية بالنسبة العرب والمسلمين بل يضرب الإسلام المثل الأعلى في الحكم بالعدل مع المخالفين للمسلمين في العقيدة ، ومع حتى الذين يضمرون له السوء ، ويتربصون به الدوائر فها هو قرآن ينزله الله تعالى ليبرئ رجلا يهوديا من تهمة رماها به أحد المسلمين وشايعه فيها بعض المسلمين عصبية .. هل هذا معقول ؟!

نعم هذا شرع الله تعالى الحق الذي لا يعرف المحاباة ولا الهوى .

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}(النساء: ٥٨)

تأمل كيف أمر الله تعالى بإقامة العدل بين جميع الناس لا فرق بين مسلم وغير مسلم وقارن هذا بما يفعله الغرب بعامة وأمريكا وحليفتها إسرائيل بخاصة فيما يخص العرب والمسلمين ؛ لتعرف الفرق .

وإليك القصة العجيبة التي تبين حرص الإسلام على إقامة العدل مع كل الناس .

أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : " كان رجل سرق درعا من حديد في زمان النبي ﷺ طرحه على يهودي، فقال اليهودي: والله ما سرقتها يا أبا القاسم ولكن طُرحت عليّ. وكان الرجل الذي سرق له جيران يبرئونه ويطرحونه على اليهودي، ويقولون: يا رسول الله إن هذا اليهودي خبيث يكفر بالله وبما جئت به، حتى مال عليه النبي ﷺ ببعض القول ، فعاتبه الله في ذلك فقال :

{ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} (١)

أ بعد عدل الإسلام عدل ؟!

ينزل الله تعالى قرآنا ليبرئ فيه رجلا يهوديا من تهمة ألصقها به أحد المسلمين ، و دافع عنه – بالباطل – بعض جيرانه ، ويعاتب الله تعالى الرسول فيه !

ويستمر القرآن في الأمر بالإحسان إلى أهل الكتاب حتى بعد إصرارهم على عدم الدخول في الإسلام والتمسك بدينهم ، ويحل للمسلمين مأكلتهم وتبادل الإهداء بالأطعمة . بل يذهب الإسلام إلى ما هو أكثر من هذا حيث يحل الله تعالى زواج المسلم من الكتابية على ما للزواج من مودة ورحمة ، وحسن المعاشرة ، و ائتمان على العرض ، والأولاد .

{ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }(المائدة : ٥)

---

(١) الإمام جلال الدين السيوطي " الدر المنثور في التفسير بالمأثور." في تفسير الآية .

قد أباح اللّه نكاح الكتابية، فلا بد أن تكون المصلحة في إباحتها، إذ قد يترتب على مصاهرة الكتابي مصلحة للدين وإعزاز له أو دفع للمشاكل، والقضاء على الأحقاد والضغائن، فضلاً عما في ذلك من إعلان سماحة الدين وتساهله مع المخالفين في العقيدة من أهل الكتاب، فإن الدين يبيح للرجل أن يقترن بالكتابية وهي على دينها لا يضمر عداء لهؤلاء المخالفين، ولا يبطن لهم حقداً وإنما لم يبح للمرأة أن تتزوج الكتابي لأن المرأة مهما قيل في شأنها لا يمكنها أن تقف في سبيل زوجها غالباً، فتكون مهددة بتغيير دينها، وأولادها لا محالة أن يتبعوا أباهم وهي لا تستطيع ردهم، والإسلام وإن تسامح فيما يجدد الروابط فإنه لا يمكنه التسامح فيما يخرج المسلم من دينه، أو يجعل ذريته من غير مسلمين، فهو قد أباح الكتابية للمسلم ونهاه عن إكراهها على الخروج من دينها، أما الأديان الأخرى فليس فيها هذا الضمان ولما كان الرجل قوياً في الغالب جعل أمر ضمانه هو وأولاده موكولاً لقوة إرادته، وحال بين المرأة ضعيفة الإرادة وبين تزوجها من الرجل الكتابي .(١)

وشدد النبي ﷺ في تحذيره من إيذاء أهل الكتاب بظلم أو بنقص حق أو بتكليفهم ملا يطيقون ، أو بالأخذ منهم شيئا بغير طيب نفس فقال ﷺ : "من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه [أي خصيمه] يوم القيامة " (رواه أبو داود والسيوطي في زيادة الجامع الصغير)

ولقد ساوى القرآن بين حرمة الذمي ، وحرمة المسلم في الدم ، والمال ، والعرض .

قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى :

{ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس }(المائدة: ٤٥)

" قال الكوفيون والثوري : يقتل الحر بالعبد ، والمسلم بالذمي ، واحتجوا بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى" فعم ، وقوله : "وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس" [المائدة: ٤٥] قالوا: والذمي مع المسلم متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأبيد ، فإن الذمي محقون الدم على التأبيد ، والمسلم كذلك ، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام ،

(١) عبد الرحمن الجزيري " لفقه على المذاهب الأربعة" ج ٤ مبحث المحرمات لاختلاف الدين .

والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع – يده – بسرقة مال الذمي ، وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم ، فدل على مساواته لدمه إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه " (١)

وعن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما– مرفوعاً " من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً " (رواه البخاري)

والمدهش أن النبي ﷺ لا يكتفي بحسن معاملة أهل الكتاب وهم أحياء فقط بل يراعي إنسانيتهم بعد الموت حتى لا يظن ظان أن الإسلام إنما كان يرمي من حسن معاملتهم وهم أحياء ترغيبهم في الدخول في الإسلام فقط فها هو النبي ﷺ يقوم لجنازة يهودي عندما مرت به ويستنكر على من ظن أن نفس اليهودي بلا حرمة قوله : " إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة ، فقام ، فقيل : إنه يهودي ، فقال أليست نفساً ؟ " (متفق عليه)

وحسن معاملة الرسول ﷺ لليهود بدأت من أول نزوله المدينة ويتضح ذلك جليا في وثيقة المدينة التي وادعهم فيها ولقد جاء فيها .

" إنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ؛ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ؛ وإن ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يُوتِغ –يهلك– إلا نفسه ، وأهل بيته وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ؛ وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ؛ وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ؛ وإن النصر للمظلوم ؛ " (٢)

هذا ما كان من أمر الإسلام ورسوله ﷺ في معاملة يهود المدينة التي اتسمت بحسن المعاملة من أول لقاء بينه وبينهم في المدينة .

اليهود يحاولون قتل النبي ﷺ

والسؤال هنا هل راعى اليهود هذه المعاملة الحسنة ؟ هل تخلوا لو لمرة واحدة في تاريخهم عن نقضهم للعهد وإثارتهم للفتن ؟

---

(١) " تفسير القرطبي " للآية الكريمة .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ، سيرة ابن هشام باب وموادعته– ﷺ– اليهود الذين كانوا بالمدينة.

اللهم لا.. فهم لن يرضوا عن المسلمين إلا إذا اتبع المسلمون دينهم وصاروا مثلهم و إلا فليثيروها فتنة وليشعلوها حربا .

{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى }(سورة البقرة آية: ١٢٠)

وها هي أفعالهم الدنيئة مع رسول الله ﷺ فقد أرادوا قتل النبي ﷺ عندما ذهب إليهم يستعينهم في دية- بموجب العهد الذي بينه وبينهم- " عن ابن عباس قال "أن عمرو بن أمية الضمري حين انصرف من بئر معونة، لقي رجلين كلابيين معهما أمان من رسول الله ﷺ فقتلهما ولم يعلم أن معهما أمانا من رسول الله ﷺ فذهب رسول الله ﷺ إلى بني النضير ومعه أبو بكر وعمر وعلي، فتلقاه بنو النضير فقالوا: مرحبا. يا أبا القاسم، لماذا جئت ؟ قال: رجل من أصحابي قتل رجلين من بني كلاب معهما أمان مني، طلب مني ديتهما، فأريد أن تعينوني. قالوا: نعم، أقعد حتى نجمع لك. فقعد تحت الحصن وأبو بكر وعمر وعلي، وقد تآمر بنو النضير أن يطرحوا عليه حجرا، فجاء جبريل فاخبره بما هموا به، فقام بمن معه، وأنزل الله { يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }(المائدة : ١١) (١)

وكرر اليهود المحاولة محاولة قتل النبي ﷺ مرة ثانية لكن هذه المرة ليس بإلقاء حجر عليه إنما بالسم " قالت عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه :

" يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري- عرق مرتبط بالقلب إذا انقطع مات الإنسان - من ذلك السم " (البخاري)

(وطعام خيبر) هو اللقمة التي أكلها من الشاة التي سمتها اليهودية وقدمتها إليه في غزوة خيبر فأكل منها لقمة وقال إن هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة وأكل معه منها بشر فمات " (٢)

---

(١) الإمام جلال الدين السيوطي " الدر المنثور في التفسير بالمأثور." في تفسير الآية .
(٢) الإمام المناوي " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٥ حرف الميم .

نقض اليهود لعهد النبي ﷺ

وقد نقضوا عهد رسول الله ﷺ وعاهدوا الأحزاب – سرا – كعادتهم في معاهدة الأطراف المتصارع معا فلما كفى الله تعالى المسلمين شر الأحزاب ذهب إلى اليهود وأعمل فيهم السيف ومن بقي حيا أجلاه عن المدينة وإليك قصة غدرهم وخيانتهم للعهد مع رسول الله ﷺ كما جاءت في كتب السيرة .

ذهب كعب بن الأشرف إلى مكة بعد بدر يُحرِّض أهلها على الأخذ بثأرهم والانتقام من الرسول ﷺ والمسلمين قبل أن يثبت سلطانهم وتقوى شوكتهم . ولم يكتف بذلك ، إذ عندما عاد إلى المدينة استخدم شعره في التشبيب بنساء المسلمين والخوض في أعراضهم ، ثم راح يطعن في الرسول ﷺ ويُحرِّض الناس على الخلاص منه .

وحدثت مشادة في سوق الصاغة التي كانت ليهود بني قينقاع أدَّت إلى مقتل يهودي ومسلم وأراد الرسول ﷺ تهدئة النفوس في ضوء احترام عقد الموادعة بين الطرفين ، ولكن يهود بني قينقاع رفضوا فأمر الرسول ﷺ بحصار دورهم واستمر الحصار خمسة عشر يوماً حتى أعلن اليهود استسلامهم . وقد كان من رأي المسلمين أن يقتلوهم جميعاً، وكان عددهم سبعمائة رجل، لكن الرسول قَبل ساطة عبد الله بن أبيّ وعبادة بن الصامت على أن يجلوا عن المدينة وسُمح لهم بالهجرة فخرجوا إلى أذرعات الشام، وأخذ الرسول ﷺ أموالهم وأبقى لهم ذراريهم ونساءهم.

وفي أُحُد رفض اليهود الاشتراك مع المسلمين كما يفترض العهد بين اليهود والمسلمين ، وتعللوا بأنه يوم سبت. بل كان هوى بني النضير مع المشركين. واتخذ بعضهم (مثل كعب بن الأشرف) موقفاً استفزازياً بندب قتلى بدر والتحريض على المسلمين . كما أخذ بعضهم يزيد في التشكيك والتحرش، ووجدوا تشجيعاً من المنافقين معتمدين على حلفهم مع الأوس. وقد استقبل زعيم بني النضير سلام بن مشكم أبا سفيان بن حرب عندما قدم من مكة في مائتين من أهلها وأغار على أطراف المدينة وأحرق دارين وقتل رجلين وقفل عائداً إلى مكة. وقد أطلعه ابن مشكم على أسرار المسلمين. وقام أحدهم (عمرو بن جحش) بمحاولة اغتيال الرسول ﷺ بعد عقد العهد (أي المعاهدة) بين المسلمين واليهود.

واعتبر الرسول ﷺ هذا التصرف دليلاً على نقضهم العهد. وكانت قريش قد بدأت تجمع جموعها للفتك بالمسلمين. ولتأمين جبهتهم الداخلية أعطاهم الرسول ﷺ إنذاراً بالرحيل عن المدينة فرفضوا وأخذوا يتحصنون ويعدون أنفسهم لحرب طويلة. وجاء ذلك على لسان زعيمهم حُيَيّ بن أخطب. وازداد صلف بني النضير عندما وعدهم زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي بالدعم . واستمر القتال عشرين ليلة ولكن بني النضير استسلموا في نهاية الأمر فسمح لهم الرسول ﷺ بالخروج من المدينة ومعهم ما تحمل الإبل إلا الدروع (حسب طلبهم) وخرجوا حيث نزل بعضهم خيبر، ونزل آخرون بالشام. ويُلاحَظ أن بني قريظة حلفاء بني النضير لم يمسهم سوء لأنهم أبقوا على العهد .

وكان لليهود دور كبير في خروج الأحزاب في غزوة الخندق . فبدءوا يهيّجون ضد المسلمين واستجابت لهم جماعات (أحزاب) كثيرة فزحفت على المدينة . فحفر المسلمون خندقاً وضُرب الحصار على المدينة لمدة شهر. وخلال ذلك كان زعيم بني النضير، حييّ بن أخطب يُحرض كل قبائل العرب الذين كانوا ما يزالون على وثنيتهم ضد مُحمّد وأصحابه، وسعى جاهداً إلى أن يجعلها حرباً عامة تضم سكان شبه الجزيرة العربية من الوثنيين واليهود والمنافقين في المدينة لاستئصال شأفة الإسلام؛ فقدم إلى قريش في مكة وذكّرها بقتلى بدر وضياع سيادتها على الطريق التجاري إلى الشام إذا ازدادت قوة المسلمين في المدينة .

وسألت قريش وفد اليهود « يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومُحمّد ، أ فديننا خيرٌ أم دينه ؟ » وأعماهم الحقد فأجابوا « بل دينكم خيرٌ من دينه وأنتم أولى بالحق منه » !

والقرآن الكريم يشير إلى ذلك في آيات صريحة جاء فيها :{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً {٥١} أُولَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً } (النساء ٥١ ــ ٥٢)

هكذا أثار اليهود من جديد ثائرة قريش ضد المسلمين ، وفعلوا ذلك أيضاً مع قبائل غطفان من قيس عيلان ومن بني مُرة ومن بني فزارة ومن أشجع ومن سليم ومن

بني سعد ومن أسد وغيرهم . وأتم ذلك كله حيي بن أخطب بإغراء يهود بني قريظة بالدخول في هذا الحلف مع الأحزاب ، ونقض عهدها مع الرسول ﷺ وعلى الرغم من أن زعيمهم كعب بن أسد تردد في أول الأمر، إلا أن حيي بن أخطب ما زال به حتى انضم لقريش وحُلفائها من يهود ووثنيين .

وكانت خطورة انضمام بني قريظة إلى هذا الحلف، أنهم كانوا يقيمون في المنطقة التي لم يمتد إليها الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة عندما علموا بمقدم الأحزاب، اعتماداً على أن بني قريظة تحمي هذه المنطقة وفاءً لعهدها مع الرسول ﷺومن ثم كان هذا يعني دخول الحلفاء إلى المدينة والقضاء على المسلمين بداخلها عن طريق بوابة قريظة هذه ، ولما سمع الرسول ﷺ بغدرهم أرسل لهم سعد بن معاذ سيد الأوس (لأنه كان هو وجماعته من حُلفاء بني قريظة) وسعد بن عبادة سيد الخزرج فقابلا كعب بن أسد وحذَّراه من مغبة الغدر، فسخر منهما. ونجح أحد المسلمين في زرع الشكوك بين الأحلاف ، فلما أيد اللّه تعالى الرسول والذين آمنوا معه ، وهزم الأحزاب وحده ، ورجع رسول اللّه ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول اللّه ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة ، في بيت أم سلمة رضي اللّه عنها ، إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام متعجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج ، فقال : أوضعت السلاح يا رسول اللّه ؟ قال ﷺ : "نعم"، قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، ثم قال: إن اللّه تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة ، فنهض رسول اللّه ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة وكانت على أميال من المدينة وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي اللّه عنه، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، ثم نازلهم رسول اللّه ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم (سعد بن معاذ) سيد الأوس رضي اللّه عنه، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، فعند ذلك استدعاه رسول اللّه ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم، ويرققونه عليهم ويعطفونه، وهو ساكت لا يرد عليهم، فلما أكثروا عليه قال رضي اللّه عنه: لقد آن لسعد أن تأخذه في اللّه لومة لائم، فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول

اللّه ﷺ قال رسول اللّه ﷺ : "قوموا إلى سيدكم" فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم، فلما جلس قال له رسول اللّه ﷺ : "إن هؤلاء - وأشار إليهم – قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت" فقال رضي اللّه عنه: وحكمي نافذ عليهم؟ قال رسول اللّه ﷺ :

" نعم" قال: وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال: "نعم"، قال: وعلى من ههنا، وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول اللّه ﷺ فقال له رسول اللّه ﷺ : "نعم"، فقال رضي اللّه عنه: إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبي ذريتهم وأموالهم، فقال له رسول ﷺ : "لقد حكمت بحكم اللّه تعالى من فوق سبعة أرقعة " .

ولعل سعد بن معاذ فكّر فيما قام به بنو النضير من نشاط ضد المسلمين بعد خروجهم من المدينة وتحريضهم لبني قريظة. وقد رأى سعد بن معاذ بنفسه إصرار بني قريظة على الخيانة ورفضهم النصح. فحكم على الرجال (أي العناصر العسكرية) بالقتل وسبي الذراري والنساء، باعتبار أن ما ارتكبوه يعادل في القانون الحديث الخيانة العظمى وإعلان الحرب .

وكانت خيبر (في أعالي الحجاز) من مراكز اليهود المهمة، وصارت ملجأ اليهود الحانقين ومركزاً للتآمر، وأخذت في تكوين كتلة من يهود القرى المجاورة كتيماء ووادي القرى ولكن دون نجاح. وكان المسلمون يدركون ذلك. وحين سالم الرسول ﷺ مكةَ في الحديبية (آخر العام السادس للهجرة)، أمر بالتهيؤ لخيبر في مطالع العام السابع للهجرة، فهي خطر عسكري من الشمال مع وجود قريش في الجنوب ولها دور في التحريض على غزوة الخندق كما حاولت التفاهم مع غطفـــان لمحاربة المســـلمين بوعـــدهم بنصـــف تمر خيبر لعام إن انتصروا، كما جرت المفاوضات بين خيبر ويهود وادي القرى وتيماء وفدك لتكوين حلف جديد يتزعمه اليهود الآن لحرب مُحمّد وأصحابه بعد أن فشل القرشيون في ذلك .

ولم يكن من المستبعد أن يسعى يهود خيبر للاستعانة بقوى خارجية كالفرس مثلاً الذين كانت لهم مصالحهم في اليمن ، وهم ولا شك يطمعون أن يمتد نفوذهم إلى كل محطات طريق التجارة البري من اليمن إلى الشام عبر المدينة. ولكن المحاولة فشلت لسبق المسلمين في التحرك ولتخاذل غطفان. وكان ليهود خيبر مناطق حربية

(النطاة والشق والكتيبة) لكل منها حصون يحتمون بها من الغارات، وفيها مخازن الغلال، أما المزارع فخارج الحصون. وبعد حصار ومناوشات، سلم يهود خيبر على أن تُحقن دماؤهم، واعتبر الرسول ﷺ خيبر غنيمة وقسمها، ولكنه ترك اليهود يزرعونها لعدم توافر الأيدي العاملة لديه مقابل نصف المحصول. وكان بين غنائم خيبر صحائف من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي ﷺ بتسليمها إليهم .

وبعد خيبر، خضعت بقية القرى اليهودية وسلمت للرسول ﷺ. فأرسل الرسول ﷺ إلى يهود فدك وتم الاتفاق معهم دون قتال على أن يُتركوا لزراعة الأرض ويعطوا النبي نصفها.

ثم خرج الرسول ﷺ بنفسه إلى يهود وادي القرى وهزمهم وتوصل معهم إلى اتفاق مشابه لما توصل إليه مع اليهود السابقين .

ولما سمع يهود تيماء بذلك لم ينتظروا مسيرة الرسول ﷺ إليهم بل أرسلوا إليه وقبلوا شروط المسلمين .

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}(الأعراف : ١٦٧)

أهؤلاء هم الضحية التي يتحدثون عنها ؟

أ هؤلاء من يستحقون وعد الله لإبراهيم كما يزعمون ؟

إن ما حدث لهم على مدى التاريخ – كما بينا – كان جزاء وفاقا .

{ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } (النحل : ١١٨)

***

الفصل الخامس

بنو إسرائيل في التاريخ الإنساني العام

علماء التاريخ والكتاب المقدس

إن علماء التاريخ يعتبرون الآثار المادية التي خلفتها الجماعات البشرية على سطح هذا الكوكب هي أكثر المصادر دلالة على تاريخ هذه الجماعات ومدى إسهامها في الحضارة الإنسانية عامة ، وعلى ضوء هذه الحقائق المادية يمكن اكتشاف مدى صحة ودقة الروايات المكتوبة والشفوية التي دونتها وتناقلتها هذه الجماعات عن تاريخها وحضارتها . فالمصادر المادية الممثلة بالمخلفات الأثرية لا تخضع لمبالغة أو تنميق أو تحريف بسبب العواطف والمطامح والمطامع . ومن هنا ، فان الآثار التي خلفتها هذه الجماعات البشرية تبقى المعيار الحقيقي الذي على ضوئه يتم فحص مدى تطابق ما روته هذه الجماعات عن ذاتها ، أو ما رواه الآخرون عنها ، مع الواقع المادي المكتشف .

لذا فإن علماء التاريخ لا يعتمدون على النصوص الدينية مصدراً للتاريخ دون سند من مصادر أخرى مثل نتاج الإنسان الاصطناعي القديم، وتاريخ اليوميات الملوكية أو أرشيفات الممالك المجاورة، أو الدراسات الأركيولوجية (علم الآثار) . وعلى ضوء هذا، فإنه لا يوجد سند قاطع لمجمل التاريخ الموجود في الأسفار المبكرة للتوراة، وبالتالي فإن المؤرخين لا يقبلون أنه يمثل بالضرورة واقعا ملموسا بالرغم من احتمال وقوعه تاريخيا. ويرون بالأحرى أن التاريخ القديم للديانة اليهودية وللشعب اليهودي قد خرج من عالم قديم تختلط فيه الأسطورة مع التاريخ . وقد

سُمي هذا الاختلاط في بعض الأحيان "بالتاريخ المقدس" ومما هو واضح أن تاريخ الديانة اليهودية الأكاديمي قد خرج من التاريخ اليهودي المقدس " (١)

تركز اهتمام الباحثين الأثريين في البداية على الحضارات الكبيرة القديمة كالمصرية واليونانية والرومانية وحضارة ما بين النهرين بتكليف من المتاحف الأثرية الكبيرة في باريس وبرلين ولندن .

وعلى الرغم من أن أول من شكك في إلهية التوراة المكتوبة من الغربيين كان الفيلسوف اسبينوزا والمفكر توماس هوبز في القرن السابع عشر . إلا أن علم الآثار المتعلق بتاريخ بني إسرائيل لم يظهر إلا في مرحلة متأخرة نسبياً في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وكان الهدف الأساسي للأبحاث الأثرية هو معرفة مدى التطابق بين ما روته التوراة ككتاب ديني وبين أرض الواقع .

تقول وزارة الخارجية الإسرائيلية " بدأت الحفريات الأثرية في أرض إسرائيل في منتصف القرن التاسع عشر ، عندما قام علماء العهود التوراتية بمسح المنطقة بحثًا عن أماكن ورد ذكرها في كتب العهد القديم والعهد الجديد. ولدى انتهاء القرن التاسع عشر وخصوصًا لدى بداية القرن ال٢٠ ، تم حفر العديد من التلال الأثرية ووضعت أسس البحث العلمي في مجال الآثار .

واتسعت رقعة النشاطات الأثرية خلال عهد الانتداب البريطاني(١٩١٧- ١٩٤٨) وازدادت بعد تأسيس دولة إسرائيل. وأدت الخبرة التي تم اكتسابها خلال أعمال الحفريات إلى بلورة أساليب علم الطبقات الأثرية إضافة إلى بحث مفصل في تطوّر أشكال الأواني الفخارية وغيرها من المنتجات الصناعية، مما يفسح المجال أمام تحديد تأريخ الطبقة الأثرية. وخلال السنوات القليلة الماضية اتسع علم الآثار ليشمل مجالات غير معروفة نسبيًا للحضارات المادية القديمة مثل الغذاء والأمراض والاقتصاد والتجارة. وتم استخدام هذه الإنجازات لعلم الآثار الجديد في عشرات مواقع أثرية يتم حفرها . (٢)

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ١٤

(٢) موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

وفي حين كان هناك مؤرخون صادقون انتصروا للحقائق التاريخية حتى ولو خالفت روايات العهد القديم نجد أن هناك مؤرخين آخرين اعتمدوا العهد القديم وثيقة تاريخية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها حتى وإن خالفت الحقائق التاريخية والمكتشفات الأثرية .

لذا عمدت دولة إسرائيل على التركيز على الآثار اليهودية التي تعود إلى مملكة داود ولا تتعرض لآثار العربية السابقة عليها " وقد تركزت العديد من النشاطات في مجال الحفريات الأثرية في أورشليم القدس عاصمة إسرائيل حيث تم اكتشاف بقايا أثرية ل ٥٠٠٠ سنة من التأريخ: في مدينة داود ، أسوار المدينة الكنعانية وبقايا مبان تعود الى فترة مملكة إسرائيل الموحّدة ، بما في ذلك شبكة المياه المطوّرة تحت الأرض. ومن عهد الهيكل الثاني هناك بقايا أثرية للمباني العامة، والأسوار الإستنادية المحيطة بجبل الهيكل الذي لا يزال قائمًا، والمساكن الرائعة في المدينة العليا حيث يقع اليوم الحي اليهودي من البلدة القديمة والتي بقيت آثارها في المكان بعد أن قام الرومان بتدمير أورشليم القدس عام ٧٠ م ، إلى جانب المئات من شواهد القبور المزخرفة المصنوعة من الصخور التي تدل على الحياة الثرية في المدينة التي دمّرت. (١)

لقد تَعَرَّضَ تاريخ فلسطين دائما للتشويه من قِبَل هؤلاء الباحثين ، خُضُوعًا لدوافعهم الدينية أو السياسية .

فمنذ بدايات البحوث الأثرية المنهجية عن فلسطين، وهي التي بدأت في القرن العشرين، ورؤية التوقع التاريخي كانت مُزَيَّفَة، بعامل ديني مُسَبَّق؛ ذلك أن الوثيقة الأساسية كانت الكِتاب المقدس، وانطلاقا من هذا النص طرحت كل المسائل، فكانت المشكلة الكبرى هي مشكلة الجانب التاريخي .

فالخلط بين الحدث والإيمان يؤدي إلى ضروب من السذاجة، عندما تسبق النتائج "اللاهوتية" البحث التاريخي أو الأثري، وتَستَبِدُّ به. ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما نشر القَسُّ الألماني سلن عام ١٩١٣ تفاصيل حفريات في أريحا ــ ذكر أنه عثر فعلاً على الأسوار المُهَدَّمة، وأنه رأى فيها على الفَوْر تلك الأسوار التي هدَّها

---

(١) موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

صوت طبول يشوع "يشوع ١٢/٢". والواقع أن البحوث التاريخية اللاحقة قد أثبتت على ما ذكر الأب دوفو أن الإسرائيليين الذين وصلوا في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد لم يستطيعوا الاستيلاء على أريحا؛ لأنها كانت حينئذ قد هُجِرَت .

وكذلك الحال بالنسبة إلى "الاستيلاء على عاي" من قبل يشوع، "يشوع ٨/١ ـ ٢٩" فإن الأب دوفو يؤكد "أن هذه القصة هي أكثر قصص الغزو تفصيلاً؛ فهي لا تتضمن أي عنصر خارق، بل تبدو كأنها الأكثر احتمالاً، ولقد كذَّبها علماء الآثار... فعندما وصل الإسرائيليون لم يكن هنالك مدينة في عاي، بل كانت أنقاضًا قديمة منذ ألف سنة ومائتي عام" (١)

ولكي نُبَيِّن إلى أية درجة من العنصرية الوحشية يمكن للاستخدام السياسي للكتاب المقدس أن يتحكَّم في المؤرخ، نقتصر على ذكر واحد من أشهر المؤرخين هو الأمريكي وليان فكسويل البرايت في كتابه "من العصر الحجري إلى العصر المسيحي: الوحدانية وتطورها" ص ٢٠٥: إنه يُبَرِّر "الإبادة المقدسة" في غزو كنعان، ثم يمُرُّ بمرحلة قَمْع الغازي بطرْد أبناء البلاد الأصليين، فينقل عن الكتاب المقدس : "وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحدِّ السيف، وأشعلوا المدينة بالنار" "القضاة ٨/١" ثم إن "الله يطرد أمامكم الكنعانيين" "يشوع ١٠/٣" "وأنا أطرد أمامك الكنعانيين" "الخروج ٢/٣٣".

وبعد أن يذكر مثال طرْد الهنود من بلد يُضيف: "ونحن ــ الأمريكيين ــ ربما كنا أقل حقًا من أغلب الأمم الحديثة، برغم نزعتنا الإنسانية الصادقة، في أن نحكم على الإسرائيليين في القرن الثالث عشر "ق.م"، فلقد أبَدْنَا، عن عَمْد أو غير عمد، آلاف الهنود، في جميع أرجاء بلدنا الكبير، وجمَعْنا كل مَن بقي منهم في معسكرات كبرى للتجميع".

ثم يضيف في هامش نفس الصفحة "٢٠٥" تلك المُجاهرة الحقيقة بالإيمان العنصري: "إن فلسفة التاريخ، التي هي قاضٍ متجرد نزيه، غالبًا ما ترى من الضروري اختفاء شعب ذي مستوًى دنيء، كيما يُخْلِي مكانه لشعب يتمتع بميزات وملَكات راقية؛ إذ إن اختلاط الأجناس يُصبح كارثة عند مستوى مُعَيَّن"، وقد سمح

---

(١) الأب دوفو " تاريخ إسرائيل القديم " ص ٥٦٥ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق

له هذا الكلام أن يخرُج بنتيجة فيما يَخصُ الكنعانيين، فقال: "لقد كان الإسرائيليون الذين قاموا بالغزو شعبًا همجيًّا مزودًا بطاقة بُدائية، وإرادة للحياة شَرسة، وكان هذا من أجل المستَقْبَل السعيد للوَحْدانية؛ ذلك أن إبادة الكنعانيين قد حالت دون انصهار شعبين في بُوتقة قرابتهما، فربما أدَّى هذا الانصهار ــ لو حدث ــ إلى إضعاف اليهوية " (١)

وسنحاول ذكر تاريخ بني إسرائيل حسب التاريخ الإنساني العام وبحسب ما قاله المؤرخون وما جاء في القرآن الكريم ، وما يتفق مع هذا من العهد القديم .

أصل العبرانيين

كان العبرانيون في الأساس شعباً رعوياً متجولاً من مكان إلى آخر، يضرب خيامه على حواف المدن الكنعانية ويتمتع برعاية الملوك الكنعانيين. وثمة نظرية أخرى تقول إنهم لم يكونوا رعاة وإنما كانوا يعيشون من الأرباح التي يحققونها من التجارة، وأنهم كانوا يوجدون على طرق القوافل، وأنهم باعتبارهم شعباً متجولاً لم يكونوا منعزلين ثقافيا. وهؤلاء يرون أن أصول الآباء ترجع إلى الآراميين، بل إن قبيلتين من القبائل العبرانية كانتا تريان أن دماء مصرية تجري في عروقهما، فقبيلتا إفرايم ومنَسَّى، تنتسبان إلى ابنى يوسف من زوجته المصرية حيث لم يكن التزوج من الأجنبيات أمراً مُحرَّماً بعد، فإبراهيم يتزوَّج هاجر المصرية ويهودا يتزوج كنعانية وتزوَّج يوسف مصرية، وتزوَّج موسى مَدْيَنية. ... (٢)

هجرات العبرانيين إلى مصر

كان كثير من قبائل البدو السامية تستأذن فرعون مصر في الالتجاء إلى مصر، حيث كان فيها مجتمع زراعي مستقر يعتمد على الري وعلى فيضان النيل فراراً من جفاف أو مجاعة، ثم تخرج بعد ذلك. ولم يكن العبرانيون استثناءً من ذلك بأي شكل من الأشكال. ففلسطين مجتمع زراعي كان يعتمد على المطر. وثمة وثائق مصرية تتحدث عن بدو من أدوم وجنوب فلسطين تركوا منازلهم في زمن

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية ". الباب الأول : تاريخ أرض ، الفصل الأول : الحضارة الكنعانية . مرجع سابق .

(٢) عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م٤/ ج١ " عصر الآباء " مرجع سابق .

القحط ليبقوا على حياتهم وحياة قطعانهم. ومثل هذه المجاعات هي التي اضطرت إبراهيم وإسحق إلى التوجه جنوباً إلى مصر .

وقد أرسل يعقوب أولاده لهذا السبب، ثم استقرت الأسرة كلها هناك ، وقد بدأت الهجرة السلمية لبعض الساميين تحت قيادة أمير بدوي يُقال له أبشاي أو أبشاه في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وثمة لوحة مقبرة خنوم ــ حوتب (أحد أشراف الأسرة الثانية عشرة) في بني حسن تصور الآسـيويين يدخلـون مصر لكي يحـصلوا على الطعـام. وهذه هجرات تشبه، في بعض الوجوه، هجرات إبراهيم وإسحق ويعقوب. وهي تبين أن قصة يوسف- فيما يتعلق بهذه الهجرات- مبنية على خلفية تاريخية عامة، كما أن كره المصريين للرعاة له هو الآخر أساس تاريخي .

فقد تحولت الهجرة إلى تسلل والتسلل إلى غزو، حتى استولى خليط آسيوي سامي من الرعاة العموريين والكنعانيين والحوريين على السلطة في مصر خلال فترة الانحلال الثاني بدءاً من الأسرة الثالثة عشرة حتى الأسرة السادسة عشرة فيما يُعرَف باسم حكم الهكسوس. ورغم أن الهكسوس قد تبنوا الحضارة المصرية، فإن المصريين لم يتقبلوا الهكسوس قط، وقامت حركة تحرير بقيادة ملوك طيبة كُلِّلت بالنجاح .

وقبل التعرُّض لموضوع دخول العبرانيين مصر وخروجهم منها، يجب التنبيه إلى أن لغتنا ستكون غير يقينية لأن الوثائق التاريخية المتاحة ليست قاطعة، وتترك مجالاً واسعاً للاختلاف. ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن حكم الهكسوس متزامن مع فترة الآباء، وأن هذه الفترة هي التي دخل إبَّانها العبرانيون مصر. فوجود الهكسوس- على ما يبدو - هو الذي سهل عملية دخول العبرانيين، وثمة رأي يذهب إلى أنه يوجد قرابة عرقية بين الهكسوس والقبائل العبرانية [1]

بنو إسرائيل في مصر

والرأي المتفق عليه نهائيا بين العلماء أن بدء حكم الهكسوس لمصر لابد أن يقع بين عامي ١٧٣٠ و ١٧٢٥ ق .م [2] وأن هجرة بني إسرائيل إلى مصر إبان يوسف عليه السلام كانت ما بين عامي (١٦٧٥و ١٦٥٠) ق. م .

---

(١) نفسه م٤ ، الباب الثالث: مصر والإمبراطورية الحيثية . مرجع سابق .
(٢) د. أحمد فخري " مصر الفرعونية " مكتبة الأنجلو المصرية ص ٢٠٦

وإليك ما جاء في التوراة بشأن دخول بني إسرائيل مصر

" وَمَثَّلَ يُوسُفُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ (١) وَقَالَ لَهُ: «لَقَدْ جَاءَ أَبِي وَإِخْوَتِي مَعَ قُطْعَانِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَكُلِّ مَا لَهُمْ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ، وَهَا هُمُ الآنَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ». ٢وَأَخَذَ خَمْسَةً مِنْ إِخْوَتِهِ وَقَدَّمَهُمْ إِلَى فِرْعَوْنَ. ٣فَسَأَلَهُمْ فِرْعَوْنُ: «مَا هِيَ حِرْفَتُكُمْ؟» فَأَجَابُوهُ: «عَبِيدُكَ وَآبَاؤُهُمْ رُعَاةُ غَنَمٍ. ٤وَلَقَدْ جِئْنَا لِنَتَغَرَّبَ فِي الأَرْضِ إِذْ لَيْسَ لِغَنَمِ عَبِيدِكَ مَرْعًى مِنْ جَرَّاءِ وَطْأَةِ الْجُوعِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، فَدَعْ عَبِيدَكَ يُقِيمُونَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ».(التكوين : ٤٧)

" فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «لَقَدْ جَاءَ إِلَيْكَ أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ، ٦وَأَرْضُ مِصْرَ أَمَامَكَ، فَأَنْزِلْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ فِي أَفْضَلِ الأَرْضِ. دَعْهُمْ يُقِيمُونَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَإِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ بَيْنَهُمْ ذَوِي خِبْرَةٍ فَاعْهَدْ إِلَيْهِمْ فِي الإِشْرَافِ عَلَى مَوَاشِيَّ».(التكوين:٤٧)

" وَأَنْزَلَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ فِي مِصْرَ وَمَلَّكَهُمْ فِي رَعَمْسِيسَ أَجْوَدَ الأَرْضِ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنُ. ١٢وَأَمَدَّ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَهْلَ بَيْتِ أَبِيهِ بِالطَّعَامِ عَلَى حَسَبِ عِيَالِهِمْ." (التكوين : ٤٧)

وجمهرة المؤرخين يؤكدون أن هذا قد تم في عهد الهكسوس حوالي ١٦٥٠ ، ولكن ذكر مدينة " رعمسيس " يتناقض مع هذا التاريخ فالثابت أنها ستبنى في عهد رمسيس الثاني الذي حكم مصر حوالي ١٢٨٠ ق. م .

ويزيل سليم حسن مؤرخنا الكبير هذا التناقض فيقول " إن مجيء يوسف على حسب التقديرات المعقولة كان قد حدث في عهد الهكسوس فليس هناك كبير شك في أن حوادث عهد الهكسوس قد صوِّرت بشكل ما في قصة خروج بني إسرائيل غير أن ذكر مدينة " رعمسيس " (قنتير الحالية) تدخل في القصة عنصرا من عهد متأخر ، وعلى ذلك فليس من المستحيل أن تكون الاقتباسات التي اقتبسها " يوسفس " من " مانيتون" (المؤرخ المصري الشهير) و " كارمون " توحي بأن حوادث قد وقعت فيما بعد في أوائل الأسرة التاسعة عشرة ، وأنها اختلطت بذكر حوادث الهكسوس . " (٢)

---

(١) تلقب ملوك الهكسوس بألقاب حكام مصر فكان يطلق على الحاكم لقب ، ملك أو فرعون .
(٢) سليم حسن " موسوعة مصر القديمة " الجزء السابع الهيئة العامة للكتاب ص ١١٤

وبهذا يرتفع اللبس الذي أحدثه ذكر مدينة " رعمسيس " في عهد الهكسوس .

ولقد عاون بنو إسرائيل الهكسوس على حكم مصر أو استخدمهم الهكسوس كجماعة وظيفية لتسخير المصريين لهم كما جاء في التوراة .

" اشْتَرَى يُوسُفُ لِفِرْعَوْنَ كُلَّ أَرْضِ مِصْرَ، لأَنَّ جَمِيعَ الْمِصْرِيِّينَ بَاعُوا حُقُولَهُمْ مِنْ جَرَّاءِ الْمَجَاعَةِ الَّتِي أَلَمَّتْ بِهِمْ، وَصَارَتْ كُلُّ الأَرْضِ مِلْكاً لِفِرْعَوْنَ. ٢١أَمَّا الشَّعْبُ فَقَدْ نَقَلَهُمْ إِلَى الْمُدُنِ مِنْ أَقْصَى حُدُودِ مِصْرَ إِلَى أَقْصَاهَا... ٢٣ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ لِلشَّعْبِ: «هَا قَدِ اشْتَرَيْتُكُمُ الْيَوْمَ أَنْتُمْ وَأَرْضَكُمْ فَصِرْتُمْ مِلْكاً لِفِرْعَوْنَ، فَإِلَيْكُمُ الْبِذَارَ لِتَزْرَعُوا الأَرْضَ. ٢٤وَيَكُونُ فِي مَوْسِمِ الْحَصَادِ أَنَّكُمْ تُقَدِّمُونَ لِفِرْعَوْنَ خُمْسَ الْغَلَّةِ وَتَحْتَفِظُونَ لَكُمْ بِالأَرْبَعَةِ الأَخْمَاسِ لِتَكُونَ بِذَاراً لِلْحَقْلِ وَطَعَاماً لَكُمْ وَلِمَنْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلأَوْلاَدِكُمْ». ٢٥فَأَجَابُوا: «لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَيَاتَنَا، فَيَا لَيْتَنَا نَحْظَى بِرِضَى سَيِّدِنَا فَنَكُونَ عَبِيداً لِفِرْعَوْنَ» ٢٦وَمِنْ ذَلِكَ الْحِينِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا جَعَلَ يُوسُفُ فَرِيضَةَ الْخُمْسِ هَذِهِ ضَرِيبَةً عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ، تُجْبَى لِفِرْعَوْنَ، بِاسْتِثْنَاءِ أَرْضِ الْكَهَنَةِ الَّتِي لَمْ تُصْبِحْ مِلْكاً لِفِرْعَوْنَ " (التكوين : ٤٨)

ولقد اعتبر المصريون أن بني إسرائيل هم الذين استعبدوهم لصالح الحاكم الأجنبي وأنهم استولوا على أملاكهم .

" وَأَقَامَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَاقْتَنَوْا فِيهَا أَمْلاَكاً وَأَثْمَرُوا وَتَكَاثَرُوا . " (التكوين : ٤٨)

والشعب المصري على مدى تاريخه قد يقبل الظلم من حاكمه إن كان مصريا أو أجنبيا يدين بديانته (كالعرب والمماليك والترك) لكنه أبداً لا يقبل أن يعش تحت ظل حاكم أجنبي على غير دينه (كالهكسوس والفرس والرومان والصليبيين ..) وإن كان عادلا .

يقول د. جمال حمدان " إن المصري ليوشك أن يتصف بمتناقضة غير عادية إن لم تكن محيرة ، بين سهولة الانقياد والخضوع للحاكم في مجال السياسة والداخل ، وبين الشجاعة الوطنية الفائقة والصلابة العسكرية النادرة في مجال الحرب في الخارج ، ولقد يرى العكس أنه لا تناقض حقيقي بين الصفتين بقدر ما هما

متكاملتان بمعنى أن العوامل والظروف التي جعلته سهل الخضوع للحاكم ويفضل السلامة في الداخل هي نفسها التي تجعله مقداما فدائيا بالغ الجرأة في القتال في الخارج " (١)

وفي محاولة تفسير حركة طرد العبرانيين من مصر يمكننا القول بأنه عند تحرير مصر من الهكسوس طُرد معهم حلفاؤهم العبرانيون. أما من بقوا منهم، فقد اعتُبروا أجانب وتحوّلوا إلى أرقاء وعبيد سُخروا في أعمال البناء والمشاريع الإنشائية التي كان يقوم بها الفراعنة، ومن هنا أصبحت مصر، بالنسبة إليهم أرض العبودية." (٢)

لذا عندما تمكن المصريون في عهد أحمس الأول من طرد الهكسوس حوالي عام ١٥٧٠ ق .م فإنهم قاموا باضطهاد واستعباد بني إسرائيل الذين عاونوا الهكسوس في حكم مصر .

" وَمَا لَبِثَ أَنْ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. ٩فَقَالَ لِشَعْبِهِ: «هَا بَنُو إِسْرَائِيلَ أَكْثَرُ مِنَّا وَأَعْظَمُ قُوَّةً. ١٠فَلْنَتَآمَرْ عَلَيْهِمْ لِكَيْلاَ يَتَكَاثَرُوا وَيَنْضَمُّوا إِلَى أَعْدَائِنَا إِذَا نَشَبَ قِتَالٌ وَيُحَارِبُونَا ثُمَّ يَخْرُجُوا مِنَ الأَرْضِ». ١١فَعَهِدُوا بِهِمْ إِلَى مُشْرِفِينَ عُتَاةٍ لِيُسَخِّرُوهُمْ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَةِ. فَبَنَوْا مَدِينَتَيْ فِيثُومَ وَرَعَمْسِيسَ لِتَكُونَا مَخَازِنَ لِفِرْعَوْنَ. ١٢وَلَكِنْ كُلَّمَا زَادُوا مِنْ إِذْلاَلِهِمْ، إِزْدَادَ تَكَاثُرُهُمْ وَنُمُوُّهُمْ، فَتَخَوَّفُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٣فَتَفَاقَمَ عُنْفُ اسْتِعْبَادِ الْمِصْرِيِّينَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. ١٤وَأَتْعَسُوا حَيَاتَهُمْ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَةِ فِي الطِّينِ وَاللِّبْنِ كَادِحِينَ فِي الْحُقُولِ. وَسَخَّرَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ بِعُنْفٍ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِمِ الشَّاقَةِ. (الخروج : ١)

ولم يكن دافع فرعون مصر – رمسيس الثاني على الأرجح – لاضطهاد بني إسرائيل مساعدتهم للهكسوس على استعباد المصريين فحسب بل قيامهم بأعمال تعد خيانة عظمى للوطن .

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ / ص ٧١١ دار الهلال .
(٢) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤ / ج ١ " عصر الآباء" . مرجع سابق .

فقد نسبت بعض البرديات القديمة ثورة المصريين على بني إسرائيل إلى ما كان يقومون به من أساليب لاغتصاب أملاك الفلاحين وابتزاز أموالهم فكانوا أول من ابتدع الربا والمراهنة كما كانوا يجمعون الذهب والفضة نظرا لتخصصهم في صناعة المصاغ ويهربونه خارج البلاد .

أما ثورة فرعون الأخيرة عليهم والتي انتهت بطردهم من مصر فينسبها المؤرخ " نافيل " إلى خيانتهم للوطن عندما كانوا يهربون أولادهم من التجنيد أو أعمال الحرب وانتهزوا فرصة انشغال فرعون وجيشه في محاربة الليبيين على الحدود الغربية فقاموا بتهريب الغلال والماشية والذهب إلى سوريا والبلاد الآسيوية وكانوا يشرفون على مخازن التموين وصوامع الغلال في بر رعمسيس ومنف مما تسبب في مجاعة في البلاد وتوقف إمداد الجيوش المحاربة بالتموين .

فأوقف فرعون معاركه وعاد إلى العاصمة حيث أعد خطة للقضاء عليهم . (١)

ويؤكد هذا اللوحة التي كشف عنها الأستاذ " فلندرز بتري " وهي التي دوَّن عليها أنشودة انتصار " مرنبتاح " - ابن رمسيس الثاني - على أعدائه والمنقوشة على لوحة تذكارية من الجرانيت الأسود وهي المسماة " لوحة إسرائيل " والتي جاء فيها أن من أعمال مرنبتاح العظيمة هي انتصاره على الليبيين وقضائه على بني إسرائيل وتطهير مصر منهم .

" قد أشرق السرور العظيم على مصر ، وانبعث الفرح من بلدان " الدميرة " (مصر) وتحدَّث الناس عن الانتصارات التي أحرزها " مرنبتاح " على " التحنو " (الوبيين) ما أعظم حبهم للأمير المظفر ، وما أكثر تعظيمهم له بين الآلهة ، وما أسعده حظا رب القيادة ، آه إنه لحسن الحظ أن يجلس الإنسان يتحدث والناس تغدو وتروح ثانية دون عائق ما في الطريق ، وليس هناك خوف في قلوبهم .

وقد ترك المعاقل وشأنها ، وأصبحت الآبار مفتوحة ومسالكها سهلة ومعاقل الحوائط أصبحت هادئة ، ولا يوقظ حراسها إلا الشمس ، وجنود " المازوي " نيام راقدون بلا حركة أما " النياو " و" التكتن " فإنهم يطوفون بالحقول على حسب

---

(١) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية ص ٢٥١. الهيئة العامة للكتاب .

رغبتهم ، وماشية الحقول قد تركت تذهب جائلة بدون راعٍ وتعبر ماء النهر الذي يحد مراعيها ، ولم تسرق كذلك على الجانب المقابل لهذه المراعي ، وليس هناك نداء لليل : قف قف . بلغة الأجانب .

والناس يروحون ويغدون مغنين ، وليس هناك صياح قوم يتوجعون ، والمدن أصبحت كرة أخرى معمورة ، وذلك الذي زرع غلة سيأكل منها أيضا .

ولقد وجهه " رع " إلى مصر ثانية وقد ولد مقدّرا له حمايتها ، هو الملك " مرنبتاح " .

ويقول الرؤساء مطروحين أرضا : السلام .

ولم يعد يرفع واحد من بين قبائل البدو تسعة الأقواس رأسه (اسم لجيران المعادين لها) .

التحنو قد خربت .

وبلاد " خاتي " أصبحت مسالمة .

" وكنعان " أُسرت مع كل خبيث .

وأُزلت " عسقلان " .

" وجيزر " قُبض عليها .

" وينوم " أصبحت لا شيء .

وإسرائيل خُربت وليس بها بذر " (١)

ويعلق سليم حسن على العبارة الأخيرة الخاصة ببني إسرائيل فيقول " هذا هو أوّل عهدنا باسم إسرائيل ، بل هي المرة الأولى التي ذكر فيها الاسم في نص مصري ، وبموازنته بأسماء أخرى نجد أن كلمة إسرائيل كتبت لتدل على شعب لا على بلد " (٢) ويقول في موضع آخر " هذه اللوحة قد ذكرت لنا إسرائيل للمرة الأولى والأخيرة أيضا وعلى ذلك تكون الإشارة إلى هؤلاء القوم هنا تشير إلى حادثة

---

(١) نقلا عن سليم حسن " موسوعة مصر القديمة " الجزء السابع مرجع سابق . ص ١٠٠ ، ١٠١ .
(٢) نفسه ص ١٠١

الخروج وعدم وجودهم في مصر ، " إني لا أزال مُسَلِّماً بوجهة النظر التي أدلى بها " لبسيوس " عن موضوع خروج بني إسرائيل – وهي التي يقتفيها معظم الأثريين – أن مضطهد اليهود هو " رعمسيس الثاني " الذي كان حكمه الطويل بداية انحلال الإمبراطورية المصرية ، وأن الفرعون الذي ينسب إليه خروج بني إسرائيل ابنه " مرنبتاح " (١)

ثم يخلص سليم حسن إلى النتيجة التالية :

" والنتيجة التي يمكن استخلاصها من كتابة هذا المخصص (عن بني إسرائيل) هي : أن بني إسرائيل كانوا أجانب لا وطن لهم ، فقد كانت التوراة تسميهم " أبناء إسرائيل " وأنهم ليسوا من سكان هذه البلاد ولا تلك ومن ذلك نعلم أن عناصر النقش نفسه (النقش الذي ذكر قضاء مرنبتاح على بني إسرائيل) تعارض الرأي القائل : بأن الإسرائيليين كانوا يسكنون " فلسطين " بل على العكس يميل إلى الرأي القائل : بأن البلاد التي كانت تفيض بالمن والسلوى لم تكن قد احتلت بعد ، فقد كانت كنعان (فلسطين) لا تزال الأرض الموعودة لا الأرض المملوكة ، والواقع أن ما جاء في متن هذه اللوحة على ما يظن يعد سجلا معاصرا لخرج بني إسرائيل مع حوادث أخرى كما يدل دلالة واضحة على أنه قد وقع في السنة الخامسة من عهد مرنبتاح " (٢) أي ما بين عامي ١٢٥٠ و١٢٣٠ ق.م

والقرآن الكريم يذكر تعبيد فرعون لبني إسرائيل .

قال موسى لفرعون : { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } أي: وما أحسنت إلي وربّيْتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدا وخدما، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفَيَفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرته شيئا بالنسبة إلى ما فعلتَ بهم. (٣)

فكأنه يقول له : إن ما تمنّ به عليَّ هو فى الحقيقة نقمة ، وإلا فأية مِنَّة لك علىّ فى استعبادك لقومى وأنا واحد منهم ، إن خوف أمى من قتلك لى هو الذى حملها على أن تلقى بى فى البحر ، وتربيتى فى بيتك كانت لأسباب خارجة عن قدرتك (٤)

---

(١) نفسه ص ١٠٩

(٢)نفسه ص ١١٢

(٣)تفسير ابن كثير ٦ / ١٣٨ .

(٤) تفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي ص ٣١٥٥

وهناك سبب رابع لتعبيد فرعون لبني إسرائيل غير مساعدتهم للهكسوس ، وإساءتهم للمصريين ، والخيانة العظمى . وهو أن فرعون كان قد رأى رؤيا هالته، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سُمَّاره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، فعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذَكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأراذلها.(١)

{ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } (البقرة : ٤٩)

وقيل أن الكهنة هم الذين قالوا لفرعون : إن مولودا يولد في بنى إسرائيل يذهب ملكك على يديه، أو قال المنجمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعبرت كذلك .(٢)

وفي هذا الجو المشحون ضد بني إسرائيل وُلِد موسى عليه السلام وخافت عليه أمه من المصير الذي يلقاه الذكور من مواليد بني إسرائيل فدعت الله أن ينجي ابنها ، واستجاب الله لها فأرضعته ووضعته في تابوت وألقته في نهر النيل ، وأمر الله تعالى التابوت أن يسير إلى قصر فرعون الذي يطل على النهر ورأت آسيا زوج فرعون التابوت فالتقطته من بين الماء والعشب ، ومن هنا سمته موسى حيث تعني " مو " الماء ، " سى " العشب ، وطلبت آسيا زوج فرعون منه أن تتبنى هذا الولد بحيث يصبح كابن حقيقي لها ولفرعون .{ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا } (القصص : ٩)

وهكذا عاش موسى في قصر فرعون يتمتع بالعناية ويعامل كأمير من أسرة فرعون إلى أن حدثت مشادة بين موسى وأحد المصريين مات المصري على إثرها دون قصد من موسى الذي أسرع بالهرب بعد أن أخبره أحد خلصائه بعزم ملأ فرعون على قتله ، ومكث موسى عشر سنوات في أرض مدين ، وهو في طريق عودته إلى مصر أمره الله تعالى إن يذهب إلى فرعون ويدعوه إلى الحق والتوحيد لكن فرعون أبى واستكبر وأصر على كفره فعرض عليه موسى مطلبا واحدا أن يسمح له بالخروج ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم إلا أن

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٢٥٨ .
(٢) تفسير القرطبي ١٣ / ١٤٨

فرعون أبى وزاد بني إسرائيل تسخيراً فأوقع الله على فرعون وقومه الرجز مما اضطر فرعون أن يرسل بني إسرائيل مع موسى { وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى {٧٧} فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ } (طه : ٧٧، ٧٨)

ويظهر من الدلائل التاريخية المقارنة أن موسى عليه السلام قاد بني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة في النصف الأخير من القرن ١٣ ق.م أي أواخر العصر البرونزي المتأخر، ولم يدخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة في عهد موسى عليه السلام بسبب عصيانهم الله وعبادتهم العجل . وقبل الحديث عن كيفية دخول بني إسرائيل أرض فلسطين نذكر لمحة تاريخية عن فلسطين قبل غزو بني إسرائيل لها

فلسطين عربية

يرجع المؤرخون هجرة العموريين (الأموريون) والكنعانيين، وكذلك اليبوسيين والفينقيين (وهما من البطون الكنعانية) إلى فلسطين ، إلى الألف الثالث قبل الميلاد فقد كانت هجرتهم إلى فلسطين حوالي ٢٥٠٠ ق.م، حيث استقر الكنعانيون في سهول فلسطين، وتركز العموريون في الجبال، واستقر اليبوسيون في القدس وما حولها وهم الذين أنشئوا مدينة القدس وأسموها "يبوس" ثم "أورسالم"، أما الفينيقيون فاستقروا في الساحل الشمالي لفلسطين وفي لبنان .

كما يرى ثقات المؤرخين أن العموريين والكنعانيين واليبوسيين والفينيقيين قد خرجوا من جزيرة العرب وأن سواد أهل فلسطين الحاليين وخاصة القرويين هم من نسل تلك القبائل والشعوب القديمة أو من العرب والمسلمين الذين استقروا في البلاد إثر الفتح الإسلامي لها .

لقد كانت هجرة الكنعانيين واسعة في تلك الفترة بحيث أصبحوا السكان الأساسيين للبلاد، واسم أرض كنعان هو أقدم اسم عرفت به أرض فلسطين، وقد أنشأ الكنعانيون معظم مدن فلسطين، وكان عددها – حسب حدود فلسطين الحالية – لا يقل عن مائتي مدينة خلال الألف الثاني قبل الميلاد وقبل قدوم العبرانيين اليهود بمئات السنين. ومن المدن القديمة فضلاً عن أريحا والقدس مدن شكيم (بلاطة، نابلس) وبيسان وعسقلان وعكا وحيفا والخليل وأسدود وعاقر وبئر السبع وبيت لحم

كانت فلسطين ــ آنذاك ــ بلدًا مزدهرًا، حتى لقد عُرِضَت قِصَّة فريدة لوصفِهِ بالكثيرِ من الحرص، وهي قِصة أمير مصري مهاجر، يُسَمَّى سينوهي حوالي سنَّة ٢٠٠٠ ق.م قال: "إن فيها تينًا وعنبًا، وإن خمرها أغزر من الماء، وعسلها كثير، وزيتونها وفير، وكل ما تشتهيه من أنواع الفواكِه تجود بِهِ الأشجار .

ويدل ما تحدث عنه سينوهي من وفرة زراعية على أن الشعب كان يتألَّف من مزارعين، ومُرَبِّي ماشية، وتجار ــ أيضا ــ إذ إن الحفريات قد كشفت عن أوانٍ، وأسلِحة من البرونز، اجتُلِب نحاسها من الأناضول.

كانت سِمات هذا العصر وجود القلاع الحصينة، وإن كانت ضَيِّقَة "فقلعة جزر ، وهي من أكبرها، لم تزد على ألف ومائتي متر، في محيطها، وقلعة أريحا كان محيطها سبعمائة وثمانية وسبعين مترا" ، وكانت هذِهِ القلاع في أكثر الاحتِمال مخازن للمؤن، وملاجئ في حال أي هجوم، وفي أقل الاحتِمال مسكنا دائما، وكانت تغذيتها بِالمياهِ تتِم عبر قنوات مائية تحت الأرض "على عمق ثلاثين مترا تقريبا في جزر، وبطول سبعين مترا، لتجتذب الماء من أقرب نبع". (١)

دخول بني إسرائيل أرض كنعان

مكث بنو إسرائيل في صحراء سيناء أربعين سنة عقوبة لهم على عدم امتثالهم لأوامر الله ولم يدخلوا فلسطين إلا بعدما استقاموا على شرع الله وأطاعوا يوشع بن نون الذي عهد إليه موسى بأن يدخل ببني إسرائيل الأرض المقدسة أرض كنعان ليعملوا بالشريعة التي فرضها الله عليهم وكان ذلك عام ١٢٥٠ ق. م .

ولما كان العبرانيون قبائل بدوية بدائية لا قدرة لها على حرب الفلسطينيين فضلا عن الاستيلاء على أرضهم ، لذا لم يكن أمامهم سوى التسلل التدريجي فيها، وقد كانت عملية طويلة استمرت ما بين ١٢٥٠ و ١٢٠٠ ق.م. وما كان لهذا التســلل أن ينجح لولا تضافر عدة عوامــل تاريخية واجتماعية وسياسية، لعل أهمها كان الغياب المؤقت للإمبراطوريات العظمى في تلك المرحلة. فالإمبراطورية الحيثية في الشمال كانت قد انهارت في الربع الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد، وكانت

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية ". الباب الأول : تاريخ أرض ، الفصل الأول : الحضارة الكنعانية .مرجع سابق .

عوامل الضعف تزحف على القوة المصرية في الجنوب التي تضاءلت هيمنتها على كنعان، ولم تكن آشور قد أصبحت بعد قوة عظمى ذات أهمية. أما في كنعان ذاتها، فقد كانت المدن الكنعانية قد أحرزت تقدماً حضارياً ملحوظاً.

ومع ذلك، كانت هذه المدن تتطاحن فيما بينها، وهو ما أدّى إلى تدهور الوضع الأمني في البلاد. ويبدو أن الوضع الإثني في كنعان كان يتّسم بعدم التجانس، فالعهد القديم يذكر دائماً الأقوام السبعة التي تقطن المكان ويزداد العدد أحياناً ليصل إلى عشرة في سفر التكوين (١٥/١٩ـ٢١) « القينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرزيين والرفائيين والعموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين ». وهذه نقطة أدركها جواسيس موسى، فقد ذهبوا ورأوا أرضاً «تفيض لبناً وعسلاً وأن مدنها حصينة عظيمة جداً » أي أنها تتمتع بقدر عال من التقدم الحضاري. ولكنهم لاحظوا أيضاً تنوعها الإثني، إذ قالوا: «العمالقة ساكنون في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والعموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن » (عدد : ٢٩) .

ومع هذا، لم يحرز العبرانيون نصراً عسكرياً، فلم يحتلوا سوى بعض المناطق الجبلية عن طريق استخدام التجسس والتخريب وعنصر المفاجأة. أما في السهول، حيث توجد العربات الحربية، فقد ظلت الهيمنة للكنعانيين. ويظهر هذا في رد قبيلة يوسف على يوشع بن نون حين يقولون: « لا يكفينا الجبل، ولجميع الكنعانيين الساكنين في أرض الوادي مركبات حديد » (يشوع : ١٧). والوضع نفسه ينطبق على قبيلة يهودا، فقد ملكت الجبل لكنها لم تطرد سكان الوادي « لأن لهم مركبات حديد » (يشوع :١٧) .

ويعترف المؤرخون الأكاديميون اليهود بأن العبرانيين لم يدخلوا فلسطين عن طريق الغزو كما جاء في العهد القديم إنما عن طريق التسلل كما أثبت المؤرخون فيقولون : " يوصف عادة دخول الأرض بعد أربعين سنة في الصحراء أنه غزو، والسبب في ذلك يرجع إلى سفر يشوع الذي يذكر أن بني إسرائيل استولوا على الأرض بقوة السلاح. وذلك لأن جيلا من المقاتلين الأشداء الذين قوتهم الحياة في الصحراء أربعين سنة اجتاح السكان المحليين بإرادة الله . لكن التنقيبات الأثرية الحديثة لا تعزز هذا الوصف لعدم وجود أي آثار للدمار أو طبقات محروقة مثل التي توجد في الأماكن التي تعرف بأن الغزو والاحتلال وقع فيها .

وبالتالي فقد اقترح المؤرخون الأكاديميون احتمال دخول بني إسرائيل إلى الأرض على شكل هجرة كبيرة توصلت في النهاية إلى السيطرة على الأديان والثقافات المحلية في المنطقة، وأثارت في بعض الأحيان معارك أدت إلى المقاومة لكنهم نجحوا بسبب قوة الأعداد " (١)

ومن يقرأ سفر القضاة العدد الأول ، ويشوع العدد السادس عشر يعرف أن الغزو العبراني كان مجرد استيطان في عدة جيوب غير مترابطة، رغم كل التهويل الخاص بقتل عشرات الملوك. ويؤكد السفر أن الكنعانيين كانوا يقطنون وسط العبرانيين. بل يمكن القول بأن العبرانيين ظلوا مُشرَّدين لاجئين على قمم التلال، ومن تجرَّأ منهم ونزل إلى السهول أصبح خادماً أو عبداً. وظل هذا الوضع فترة طويلة جداً، ففي سفر الملوك الأول إشارة إلى إله العبرانيين باعتباره « إله جبال لذلك قووا علينا. ولكن إذا حاربناهم في السهل فإننا نقوى عليهم »
(ملوك أول : ٢٠) .

ولا يمكن فَهْم هذا التسلل العبراني باعتباره غزواً بالمعنى العادي، فهو تسلل يعتمد على القوة العسكرية أحياناً وعلى المكر أحياناً أخرى وعلى التزاوج في بعض الأحيان . كما أن العبرانيين المتسللين تزاوجوا مع أقاربهم الذين لم يهاجروا معهم إلى مصر كما تزاوجوا مع الكنعانيين. وقد سيطر العبرانيون في نهاية الأمر على قسم كبير من أراضي فلسطين الشمالية، فاستوطنت قبائل يهودا وبنيامين الأراضي المرتفعة المحيطة بالقدس، واستوطنت القبائل الأخرى السهول الشمالية، وقام اتحاد القبائل المعروف بالمملكة العبرانية المتحدة وهكذا حقق الرب لهم ما وعد بعدما استقاموا على الشريعة ونبذوا الفرقة واتحدوا تحت راية الإيمان.

إن "البحث التاريخي ــ كما قال فون راد ــ قد بيَّن أن إسرائيل هو اسم هذا الاتحاد الكونفدرالي (٢) المُقدس بين الأسباط، الذي تكوَّن في فلسطين، بعد دخولهم إلى هذا البلد" (١)

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٢٧- ٢٨

(٢) اتحاد كونفدرالي: هو اتحاد بين دُوَل تحتفظ فيه كل دولة بسيادتها وتَحل مسائلها العامة في مؤتمر جامع له صفة سياسية لا تشريعية .

ومن القضايا التي تثار، عمليات الإبادة الافتراضية التي صاحبت التسلل العبراني، فحسب ما جاء في العهد القديم كان العبرانيون لا يكتفون بفتح المدن وإنما كانوا يقومون بإتلاف وتدمير كل ما تقع عليه أيديهم من إنجازات مادية أو حضارية وبإبادة الرجال والنساء والشباب والشيوخ والثيران والخراف والحمير بحد السيف. ويذكر العهد القديم بفخر واضح الألوف التي تمت إبادتها.

ومما لا شك فيه أن الحديث عن الإبادة، مثل الحديث عن الانتصارات العسكرية، أمر مبالغ فيه. ومع ذلك يظل هناك جزء من الحقيقة. ولعل اتجاه العبرانيين نحو الإبادة هو تعبير عن تخلفهم الحضاري .

فالعبرانيون كما أسلفنا كانوا جماعات متحركة هاربة من مصر ، دخلت أرضاً فيها مدن مستقرة بلغت مرحلة حضارية وثقافية أعلى وأكثر رقياً. ولم يكن تحقيق الانتصار الاستيلاء على هذه المدن ممكناً إلا عن طريق الإبادة الجسدية والإفناء المادي الشامل بسبب غياب أية مؤسسات إدارية عبرانية تتمتع بقدر من التركيب. كما أنهم، نظراً لتخلفهم الاقتصادي والحضاري، لم تنشأ عندهم الحاجة إلى الأيدي العاملة التي كان الأسرى من أهم مصادرها. ومن هنا، نجد أن العبرانيين كانوا يتخلصون من الأسرى بإبادتهم جسدياً. وقد استمر هذا الوضع حتى بعد إنشاء الدولة العبرانية المتحدة التي كانت تَسدُ حاجتها من الأرقاء والعبيد المطلوبين لأداء خدمات يومية اعتيادية للأرستقراطيين والموسرين عن طريق استعباد المذنبين والأفراد الذين يعجزون عن تسديد ديونهم فيبيعون أنفسهم أو أبناءهم ليكونوا عبيداً لدى الدائن. (٢)

لكن السؤال هنا لماذا توراة اليهود تؤكد على إبادة بني إسرائيل للكنعانيين رغم ما في هذا من مجافاة للأخلاق الإنسانية الكريمة ، وللتاريخ الإنساني الصحيح ؟

تهدف الصهيونية من وراء ذلك إلى :

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول : تاريخ أرض ، الفصل الأول : الحضارة الكنعانية . مرجع سابق .

(٢) عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤ / ج ١ " التسلل أو الغزو العبراني لكنعان " . مرجع سابق .

١- التأكيد على فناء الكنعانيين أصحاب فلسطين الأصليين عن آخرهم وبالتالي لا يكون هناك حق لأي عربي في فلسطين .

وفي ذلك يقول المؤرخون الأكاديميون اليهود عند حديثهم عن الشتات الروماني : " مارس الرومان نوعا من "التطهير العرقي" من أجل إبعاد اليهود عن القدس عاصمتهم المركزية، وكانوا مصممين على منع وقوع مزيد من الثورات اليهودية إلى درجة أنهم تخلوا عن تسمية المنطقة يهودا، وذلك من أجل فصلها عن اليهود تماما. غيّر الرومان اسم يهودا إلى اسم "فلسطين" **المأخوذ من اسم الشعب القديم البائد المعروف بالفلسطينيين .** " (١)

٢- اتخاذ الصهيونية من إبادة بني إسرائيل للكنعانيين ذريعة دينية لممارسة كافة أشكال المذابح العنصرية ضد العرب . معتبرة أن المجازر التي ترتكبوها في حق العرب جهاد مقدس مارسه سلفهم الصالح !!

استمر يشــوع بن نون في حكم العبرانيين مدة ثمانية وعشرين عاماً، فقسَّم الأرض التي احتلوها بالقرعة على القبائل العبرانية، وكان يُحذِّر جماعة إسرائيل من ترك الرب وعبادة آلهة غريبة .

من القضاة إلى الملوك

قادت الصِّراعاتُ - التي واكبت الاستقرار في فلسطين - الأسباط إلى أن تَوثِّق العُرَى فيما بينها؛ لتُدافِع عن نفسها، وتُمارِس مهمَّة الغزو .

فكان بين الأسباط أولاً تحالُفات مُؤَقَّتة، وجزئية، تحت قيادة رؤساء مُلْهَمين أطلَق عليهم الكتاب المقدس "القُضاة" امتدت لنحو مائتي عام (١٢٥٠-١٠٢٠ق.م) ولم يستطع العبرانيون السيطرة على كل أرض كنعان في فترة القضاة ، وهذا يعني أن الوجود العبراني ظل وجوداً متقطعاً جغرافياً ومحاطاً بأقوام معادية مثل الكنعانيين والفلسطينيين استمرت في مقاومة العبرانيين قروناً عديدة. وقد أوقع الفلسطينيون هزائم شديدة بالقبائل العبرانية واستولوا على تابوت العهد، وخضع العبرانيون لحكمهم لبعض الوقت .

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق ،ص ٥١

وواكب ذلك غياب القوى العظمى في منطقة الشرق الأدنى القديم بسبب ظروفها الداخلية. وقد ساهمت هذه الأوضاع الداخلية والخارجية في أن نظام القضاة أصبح نظاماً بالياً غير قادر على التعبير عن الأوضاع الجديدة، وأصبح نظام الملكية أمراً حتمياً للتعبير عن البنية الجديدة للمجتمع . (1)

وتعبر القصة التوراتية عن ذلك بطلب الشعب الإسرائيلي من نبي لهم يدعى " صـموئيل " لن يجعل لهم ملكاً مثل الشـعوب الأخرى المتحـضرة المحيطة بهم. فتوَّج عليهم شاول، ثم داود (١٠٠٤ ــ ٩٦٥ ق.م) الذي وحَّد القبائل العبرانية فيما يُسمَّى " المملكة العبرانية المتحدة " .

والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيذكر جل وعلا أن بني إسرائيل بعد أن ثقلت عليهم الهزيمة طلبوا من نبي لهم (صموئيل) أن يعين لهم ملكا ليقاتلوا أعداءهم فاختار لهم طالوت ملكا وزاده الله بسطة في العلم والجسم ، وقاد طالوت الصالحين من بني إسرائيل لحرب جالوت ملك الكنعانيين " وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ " (البقرة:٢٥١)

وهكذا قضى داود على الفلسطيني بالمقلاع والحجر وقتله . وإذ لم يكن بيده سيف ركض نحو جليات واخترط سيفه من غمده وقتله وقطع به رأسه . فلما رأى جبَّارهم قد قُتِل هربوا " (صموئيل الأول : ١٧)

مملكة داود وسليمان

عظم داود في عين بني إسرائيل بعدما حقق الانتصار الحاسم على أعدائهم وقتل رئيسهم فاختاروه ملكا عليهم بعد موت شاول " وتوافد جميع رؤساء أسباط إسرائيل إلى داود في حبرون قائلين : " إننا لحمك وعظمك . وفي الأيام الغابرة عندما كان شاول ملكا علينا كنت أنت قائدنا في المعارك ، وقد قال الرب لك : " أنت ترعى شعبي إسرائيل وتتولى حكمه " .

---

(1) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤ " أشـكال الإدارة الذاتية " . مرجع سابق .

وفي حضور شيوخ إسرائيل في حبرون قطع الملك داود معهم عهدا أمام الرب ، فنصبوه ملكا على إسرائيل " (صموئيل الثاني : ٥)

عند ذلك تدخَّل الفلسطينيون للمرة الأخيرة، فهزمهم داود، وقد استطاع داود منذ ذلك الحين أن يبني دولته، واختار أولاً أورشليم مركزًا لها، وهي التي أُنشئت في بداية الألف الثانية قبل الميلاد، ولكنها منذ بُنِيَت لم تكن غزاها الإسرائيليون حتى عهد داود ،وقد دخل بمُرْتَزقة تلك المدينة الكنعانية القديمة التي كان يسكنها اليبوسيون، " (صموئيل الثاني ٥/٦ ــ٩)

هذه المدينة التي تقع على مُفترَق طرُق مجموعتين من الأسباط ــ لم تكن مُلْحَقة بإسرائيل أو يهوذا، فصارت "مدينة داود" يسكنها دائمًا اليبوسيون، ولكنها تستقبل الملك الجديد، وحاشيته، وجنوده المُرْتَزقة، وقد استقدم داود من المدينة الكنعانية قريات يريم التابوت الذي أخذه من الفلسطينيين، وأودَعه في أورشليم، ليجعل من هذه المدينة ــ رمزيًّا ــ مركزًا للرابطة بين الأسباط الاثني عشر، وهو يربطهم بماضيهم المقدس.

لقد أنشأ داود حينئذ دولة تقوم على تعدُّد العناصر، حيث يلقى الكنعانيون ترحيبًا في دولتي : يهوذا ، وإسرائيل ، وحيث يعترف الفلسطينيون والمؤابيون بسيادتها المُطلَقة، ومن بعدهم آرام دمشق الذين كانوا يُقَدِّمون الهدايا.

(صموئيل الثاني ٨/١ــ٦)

وهكذا أُنْشِئت مملكة تتجاوز حدود دولة إسرائيل، لقد كانت إمبراطورية فلسطينية ترتبط مُكَوِّناتها المتنافرة بشخص الملك وحده .

ولقد يسَّرت الظروف الدولية المُحيطة مهمة داود، فلا مصر المُمَزَّقة بصراعاتها الداخلية، ولا العراق الذي يحكمُه الكاسيون، ولا الحثيون الذين حطَّمهم غزو شعوب البحر ــ لم يكن هؤلاء جميعًا يستطيعون أن يقفوا في وجه توسُّع مملكة داود. [1]

مملكة سليمان

أقام داود في ملكه والوحي يتتابع عليه وسور الزابور تتنزل ، وبعد تمام أربعين عاما من دولته عهد إلى ابنه سليمان وأوصاه ببناء بيت المقدس ثم قبض ودفن في بيت لحم .

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الثاني العبرانيون " من الرابطة المقدسة إلى المَلَكيَّة " . مرجع سابق .

قام بالملك بعد داود ابنه سليمان فقوي حكمه وآتاه الله من الملك ما لم يؤت أحدا من العالمين وأصهر إليه الملوك من كل ناحية بناتهم ثم شرع عليه السلام في بناء بيت المقدس ، واتخذها عاصمة لمملكته وكان هذا عام ١٠١٥ ق. م ، وعام ١٠٠٧ ق .م بنى بيت المقدس بناء عظيما ثم قبض سليمان عليه السلام ٩٩٧ ق . م ودفن بجوار قبر أبيه داود .

تحدثت التوراة عن المملكة الإسرائيلية الموحدة في عهد داود وسليمان ووصفتها بأنها كانت قمة الاستقلال السياسي العسكري والاقتصادي لشعب إسرائيل في العهود السابقة بعد أن وصلت احتلالات داوود من نهر الفرات إلى غزة . " وحَّد داود القبائل في مملكة واحدة وأسس إمبراطورية إسرائيلية كبرى امتدت من الحدود المصرية إلى بلاد ما بين النهرين " (١)

ولكن المكتشفات الأثرية لم تثبت صحة هذه الادعاءات ، حيث تبين أن الحركة العمرانية التي تحدثت عنها التوراة في هذه الفترة كانت شحيحة وقليلة وأن داود وسليمان كانا حاكمين لممالك قبلية تضم مناطق صغيرة : الأول في الخليل والثاني في القدس . كما أن مملكتي يهودا وإسرائيل كانتا في البداية منفصلتين ومستقلتين . وفي كثير من الأحيان كانت متخاصمتين . ولم تكن القدس في عهد داود وسليمان سوى مدينة صغيرة وربما كانت فيها قلعة ملك صغيرة ، غير أنها لم تكن بأي شكلٍ عاصمةً للإمبراطورية التي وصفتها التوراة .

ولا زالت أعمال الحفريات التي تقوم بها إسرائيل حاليا تكشف عما لا يروق لمن يبحثون عن دلائل عما ما ذكرته التوراة . فقد اتضح من خلال الحفريات الجارية في منتصف عام ١٩٩٨ أن هناك أطلالاً لمدينة كنعانية في القدس تحت أطلال ما يدعيه الإسرائيليون أطلال الهيكل الأول .

ويعود تاريخ هذه المدينة الكنعانية إلى ما قبل المدينة التي أسسها داود، والتي تتحدث عنها التوراة .وقد تبين أيضا أن هذه المدينة الكنعانية كانت كبيرة ومحصنة ولها شبكة مركزية للمياه، الأمر الذي يدل دلالة قاطعة على وجود حياة عامة

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٢٩

منظمة على مستوى رفيع من الإدارة والتنظيم إذا كانت الأبحاث الأثرية المختلفة قد دحضت وألقت ظلالاً كثيفة من الشك على رواية التوراة لتاريخ بني إسرائيل القدامى فاتضح أن احتلال المدن الكنعانية وتدميرها بالشكل الذي ذكرته التوراة ليس له أساس على أرض الواقع .

إذا كانت رواية التوراة لتاريخ بني إسرائيل من حيث نشأتهم وحلهم وترحالهم ، لم تتطابق والمكتشفات الأثرية على أرض الواقع ، فمن البديهي أن تكون الادعاءات بتحديد مكان الهيكل اليهودي تحت قبة الصخرة والمسجد الأقصى مصدر شك وجدل أيضا .

ومن هنا ، فان آراء العلماء والباحثين الأثريين حول موقع الهيكل تراوحت بين النفي التام لهذا الادعاء وبين التخمين حول هذا الموقع المزعوم من جهة أخرى . فالعالم فنكلشتاين يرى أن قدس داود لم تكن أكثر من قرية فقيرة بائسة ، وأنه ليس هنالك من شاهد أثري يدل على أن هيكل سليمان كان موجوداً بالفعل . ويصر فنكلشتاين على أن رواية التوراة لا تتطابق مع المكتشفات الأثرية الجديدة ، فمدينة مجدو لم يبنها سليمان وإنما بناها الكنعانيون .

وفي محاولته البحث عن مكان الهيكل المدعى توصل المهندس اليهودي طوبيا سيغف ، وهو الأثري الذي كرس سنوات طوالاً من حياته للبحث عن مكان هذا الهيكل في الحرم القدسي الشريف ، إلا أن الهيكل لا يقوم في المكان الذي تقع فيه قبة الصخرة اليوم . وهو بهذا يخالف رأي معظم الحاخامين اليهود "الإسرائيليين" . وبناء على ما أسماه الأدلة الظرفية يعتقد سيغف أن قدس الأقداس يقع تحت صنبور المياه الدائري للوضوء وأن أطلال الهيكل اليهودي مدفونة في الساحة الواقعة بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى .

وخلاصة القول هي أن الدلائل المادية الأثرية هي التي تكشف مدى تطابق الرواية التاريخية أياً كانت مع الواقع المادي الملموس الأمر الذي يعطي هذه الرواية المصداقية أو عدمها . وإن العبث والتخريب اللذين تتعرض لهما الآثار الإسلامية والمسيحية في القدس في محاولات بحث تهجسي لا طائل من ورائه لا تنفي الحقائق الملموسة والعلمية التي توصل إليها العلماء والباحثون الأثريون من

خلال أبحاثهم ومكتشفاتهم العلمية والأثرية والتي لم تسعف إلا الحقيقة التاريخية وان جاءت على خلاف ما يتمناه ويروج الذين يستندون إلى أساطير وأهواء معينة . (1)

انقسام مملكة سليمان

بعد موت سليمان عليه السلام عام ٩٢٨ ق.م تولى ابنه رحبعام الملك وبدأت القوى التي خضعت لقوة سليمان في التمرد عليه فنصحه مستشاروه بأن يتشدد في التعامل مع شعبه ففر بعضهم إلى مصر ومنهم يُربْعام الذي منحه شيشنق فرعون مصر الحماية فاستطاع الاستقلال عن رحبعام وكون دويلة في الشمال سميت إسرائيل وعاصمتها شكيم (نابلس) بينما ظلت أورشليم عاصمة دولة رُحبعام التي سميت دولة يهوذا ، ومنها أخذ اليهود اسمهم .

وهكذا انقسمت المملكة العبرانية المتحدة إلى مملكتين، سُمِّيت المملكة الجنوبية " يهودا " لأنها ضمت قبيلتي يهودا وبنيامين، وهما القبيلتان اللتان بايعتا رُحبعام بن سليمان ملكاً، في حين بايعت القبائل العشر الباقية يُربْعام ملكاً على الجزء الشمالي الذي سُمِّي باسم " مملكة يسرائيل " أو" المملكة الشمالية " وكانت القدس عاصمة مملكة يهودا التي تقع على البحر الميت .

بعد انقسام المملكة العبرانية المتحدة إلى مملكتين متنازعتين :المملكة الشمالية ، والمملكة الجنوبية ، انقسمت القبائل العبرانية الاثنتا عشرة إلى قسمين: عشر قبائل منها في المملكة الشمالية، وقبيلتا يهودا وبنيامين في المملكة الجنوبية .

السبي الآشوري والبابلي

بدأت الدولة الآشورية في التغلغل في شئون دولة رحبعام والتأثير عليه مما دفع شيشنق إلى إثبات سيطرته على الأمور فقام بغزو مملكة رحبعام عام ٩١٨ ق.م (مثلما غزا مملكة الفلسطيين وأدوم) وحمـل معـه كنوز الهيكل والقصر غنائم. ويذكر شيشنق في قائمة الكرنك مائة وخمسين مكاناً استولى عليها وبعد عودة

---

(1) محمد فياض صلاحات " الرواية التوراتية لتاريخ بني إسرائيل على ضوء المكتشفات الأثرية الحديثة " نقلا عن المركز الفلسطيني للإعلام .

شيشنق إلى مصر حاول ملك آشور استعادة نفوذه في المنطقة وإزالة آثار الحملة المصرية .

وقد شغل عرش يهودا تسعة عشر ملكاً . غير أن هذه المملكة الجنوبية دامت نحو قرن وثُلث بعد زوال المملكة الشمالية .

واستطاع شلمانصر الثالث الآشوري أن ينتصر على الملك الإسرائيلي ياهو وأن يفرض عليه ضريبة كبيرة ثم حاصر الآشوريين العديد من المدن الفلسطينية والقدس ولم تسلم القدس من الدمار إلا بعد أن قام حكام القدس بدفع الجزية لحكام آشور وقد أدى استمرار التمرد الإسرائيلي على الآشوريين والميل إلى التجسس لصالح مصر الضعيفة وقتها إلى بطش الآشوريين بدولة إسرائيل وسبي أهلها عام ٧٢١ ق. م وهو السبي الأول الذي تعرض له بنو إسرائيل .

وبعد ضعف الآشوريين راح البابليون من ناحية والمصريون من ناحية أخرى يتنازعون السيادة على أورشليم بينما ازداد بنو إسرائيل في بعدهم عن دين الله في هذا الوقت أخذ نبي الله أرميا ينصح بني إسرائيل بالتوبة والعودة إلى الحق ، ويحذرهم من أن يسلط الله تعالى عليهم أعداءهم البابليين فلم يعبئوا به وبالفعل غزا البابليون أورشليم واستطاعوا أن يستولوا عليها فذاق أهلها الجوع والمرض وقام نبوختنصر ملك بابل ينهب المدينة ودك صورها ودمر بيت المقدس الذي بناه سليمان وأجلى شعبها إلى بابل فيما سمي السبي البابلي فقتل منهم من قتل واستعبد منهم من بقي على قيد الحياة ، وهكذا انقرضت مملكة يهوذا ٥٤٦ ق.م .

سنة ٥٣٨ ق.م قام قورش ملك الفرس بالهجوم على بابل وهزم البابليين مستغلا حالة الضعف التي سيطرت على دولتهم وبُعْض الأسرى من يهوذا لها حيث عملوا له كجواسيس ومرتزقة وأخذ يُمَنِّيهم بإعادة هيكلهم فلما تمكن من الإمبراطورية البابلية فتح قورش الباب أمام عودة اليهود إلى أورشليم .

وقد رفض كثير من اليهود، وخصوصاً الأثرياء، العودة إلى فلسطين بعد مرسوم قورش، واكتفوا بدفع مساعدات مالية للعائدين. ويُقال إن قسماً كبيراً من اليهود العائدين كانوا من أحفاد الأسر الأرستقراطية والكهنوتية ذات المواقع الطبقية والمكانة المتميزة المرتبطة بالهيكل والعبادة القربانية، وهؤلاء استرجعوا بعودتهم

بعضاً مما فقدوه من مواقع ومزايا طبقية واجتماعية، وكانوا يعرفون أنهم سيكونون نخبة حاكمة جديدة أو جماعة وظيفية موالية للفرس تدير شئون فلسطين وأهلها لصالح الدولة الحاكمة . (1)

ولم يعد من بابل سوى أقلية قليلة، بسبب معدلات الاندماج العالية التي حقَّقها المهجَّرون. وكان النبي إرميا من أكبر مشـــجعي العبرانيين على الاندماج، إذ قـــال: " واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلُّوا لأجلها إلى الرب لأن سلامها يكون لكم بسلام " (إرميا : ٢٩).

بدأت سياسة عامة للتسامح الديني في بداية الحكم الفارسي وحاول اليهود الذين عادوا إلى أورشليم بناء الهيكل من جديد إلا أن سكان المدينة من العرب والحوريين والعموريين خافوا من نياتهم وتحصينهم لأسوار أورشليم فهددوا بالعصيان مما جعل الملك الفارسي الذي خلف قورش وقف الهيكل وعندما اعتلى " دارا " عرش القدس ٥١٩ ق.م سمح لليهود بإتمام بناء الهيكل وكان البناء الثاني بعد بناء سليمان عليه السلام له . لكن هل بُنِيَ الهيكل هذه المرة في نفس المكان الذي بناه سليمان فيه ، أم تغير المكان هذا ما لا يعرفه أحبار اليهود ولا يدعون معرفته .

لم يهنأ اليهود بالإقامة في القدس طويلا إذ دخلها الإسكندر الأكبر في سنة ٣٢٠ ق.م ثم ورثها خليفته القائد بطليموس وبعد ذلك انتقلت القدس من حكم البطالسة إلى حكم اليونانيين الذين اكتسحوا فلسطين سنة ٦٣ ق.م . واستولوا على القدس بقيادة بامبيوس ، ودكوا حصونها ونهبوا هيكلها ونصبوا فوقه التماثيل وقتلوا من اليهود الكثير وحذروا عليهم الختان وأرغموهم على انتهاك حرمة السبت ، وأكل لحم الخنزير .

وفي سنة ٢٠ ق.م بني هيرودس هيكل سليمان من جديد ، وقد ظل هذا الهيكل حتى سنة ٧٠ م حيث دمر الإمبراطور تيطس المدينة وأحرق الهيكل ، وهذا هو التدمير الثاني .

---

(1) عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤/ ج ١ " التهجير الآشوري والبابلي " .مرجع سابق .

يقول المؤرخون الأكاديميون اليهود : كان القرن الذي سبق تدمير الهيكل الثاني عام٧٠ م أحد القرون الأكثر توترا بالنسبة ليهود فلسطين اليونانية — الرومانية. لقد احتلت الإمبراطورية الرومانية يهودا، وكان اليهود يعيشون في كل الشرق الأوسط ، واستقروا في كل شمال إفريقية وفي اليونان وإيطاليا وفرنسا وأسبانيا، وألمانيا وحتى في بريطانيا. ونمت الجالية القديمة في بابل أيضا، وكان اليهود يعيشون في مصر وبلاد الرافدين، وقد دخلوا الجزيرة العربية حتى وصلوا اليمن .

لقد وعد العهد القديم بمكافأة اليهود بالسلام، والثروة ، والصحة والحياة الطيبة في هذا العالم إذا هم أطاعوا التوراة الإلهية (التثنية ٧، ١١) . لكن معظم اليهود لم يشعروا أن نصيبهم في هذا العالم يمثل تقواهم وإيمانهم بالله وبالميثاق. لقد شاهد اليهود إخوانهم المستقيمين يعانون من الفقر والمرض والعنف من قبل جنود روما ومسئوليها وشاهدوا في الوقت ذاته كيف يبدو أن الكفار الأقوياء يتمتعون بأفضل ما يمكن أن توفره الحياة .

لقد اضطهدت السلطات الرومانية الوثنية اليهود في أرضهم في الوقت الذي تمتعت فيه بكل اللذات الممكنة في الحياة .

وبالرغم من هذا فقد بدأ كثير من اليهود داخل الإمبراطورية الرومانية في الاعتقاد أن الشخصية التي سيكون على يدها الخلاص الإلهي هي شخصية تحظى بالتوجيه الرباني، وذلك خلال فترة الحكم الروماني الشرير . (١)

اليهود في زمن المسيح

لقد ولّد الاضطهاد الذي عانى منه اليهود على يد الرومان لديهم شعور توقع لظهور المهدي المخلّص، واعتقد عدد منهم أن بعض الشخصيات النادرة هي فعلا المهدي المنتظر وكان أشهر هذه الشخصيات عيسى (يسوع) .

وإن كان بعض اليهود آمنوا بمقامه كالمسيح المخلص، فإن معظمهم لم يؤمنوا به لأنهم لم يستطيعوا تقبّل الرسالة على أنها مسيحية؛ لأن يسوع الناصري لم يكن

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٣٦

يتطابق في شيء مع الصورة التي كانت لديهم عن المسيح، ولكي نفهم إلى أي مدى خيَّب يسوع توقعهم ينبغي أن نضع رسالته في سياق اليهودية في زمانه.

إن رب الإيمان اليهودي خالق وسيد، وهو الذي يصنع التاريخ، وبنو إسرائيل هم شعبه، وقد أوحى إليهم مشيئته، وشريعة حياتهم، واختارهم، وعقد معهم "عهدًا" غير مشروط، فهو مرتبط بطاعتهم أو معصيتهم، فالاختيار، والعهد، والوعد، والشريعة هي التي تتحكم في تاريخهم.

هذه الشكلية، وضيق الأفق، بل والعرقية ــ تتجلّى في كل مُكَوِّنات المجتمع اليهودي في زمن يسوع . (١)

كان هذا هو موقف اليهود من السيد المسيح أما موقف الرومان فيكشف عنه مؤرخوهم فقد أكدت مدوناتهم أن الرومان لم يهتموا كثيرا بميلاد المسيح ولا بدعوته فهو بالنسبة لهم لم يكن ذا أهمية سياسية، وإنما كان مُهَيِّجًا يُتَوَقَّع منه الضرر، ضمن المهيجين الآخرين، وهم كثير، وهو ليس قوة سياسية، مثل متاتياس والمكابيين، أو مثل الزيلوتيين القادرين على تنظيم التمرد المسلَّح ضد روما. (٢)

ويبدو أن المسيح كان على قطيعة مع كل الجماعات اليهودية، والجماعة الوحيدة التي كانت له بها علاقة هي جماعة يوحنا المعمدان (نبي الله يحيي عليه السلام)

الذي أتاح لنا إنجيل لوقا أن نُحَدِّد لحظة ظهوره "في السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر" "لوقا ٣/ ١٠"، أي عام ٢٨ أو ٢٩م.

جاء المسيح بعظات ونصائح وحكم وأمثال يريد بذلك توجيه نظر الجماهير من اليهود إلى إخلاص العبادة لله تعالى والتخفيف من مادياتهم التي غرقوا فيها إلى آذانهم وترك الرياء والنفاق وأن يتلبسوا بروح الدين الذي ورثوه عن أنبيائهم كما جاءهم ، جاء المسيح ليطلق اليهود من أسار الكهنة الذين يعوجون الشريعة ، ويقصرون العهد والاختيار والخلاص على اليهود شعب الله المختار بلا شرط ،

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الثالث فلسطين النصرانية " . مرجع سابق .
(٢) نفسه .

ويجعل الاختيار والخلاص عام يشمل كل الأجناس وكل الشعوب ومشروط بالإيمان بالله والاستقامة على شرعه .

{ وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ {٦٣} إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ {٦٤} فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ }
(الزخرف : ٦٣-٦٥)

ولم يأت كلام المسيح على هوى اليهود إذ يجعل كل البشر سواء ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم من أجل هذا لم يتعرَّف اليهود فيه على المسيح الذي كانوا ينتظرون. لقد كانوا يُؤَمِّلُون مخلصًا يبعث مملكة داود "بكل الأوهام المختلقة، عبر القرون، في خيال الشعب . فعادوه ، وأغروا به الرومان ليقتلوه .

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ } (البقرة : ٨٧)

ولكن الله تعالى نجى نبيه وسلط على من كفر به – اليهود – الرومان يسونهم سوء العذاب ، وأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

{ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {٥٥} فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ {٥٦} وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } (آل عمران : ٥٥- ٥٧)

السبي الروماني

وقسَّى الله قلوب حكام روما وولاتها على اليهود الذين كفروا بالمسيح فأصبحوا أكثر قساوة وظلما حتى ثار اليهود سنة ٦٦ تحت زعامة المتحمسين الذين يؤمنون بأن الله سيمدهم بعونه في حربهم ضد كفار الرومان ويأتي "بآخر الزمان" المتوقع. لكن اليهود لم يكونوا على رأي واحد فيما يتعلق بهذه الحرب. اعتقد كثير منهم إما

أن الوقت ليس هو الوقت الموعود، وإما أن الحرب ليست الوسيلة المناسبة لتحقيق الخلاص .

إن الثورة اليهودية ضد روما قد تسببت في تمزيق هائل في الإمبراطورية الرومانية، واستقدمت وحدات من الجيش الروماني من مناطق متعددة من أوروبا والشرق الأوسط لإخمادها والقضاء عليها. ونجحت روما في النهاية بإعادة السيطرة على القدس سنة ٧٠ ودمرت الهيكل في أثناء العملية. وكانت آخر قلعة تسقط في أيدي الرومان هي مسّادا قرب البحر الميت وذلك سنة ٧٣ م .

لقد توقفت القرابين التي كان اليهود يقدمونها بعد تدمير الهيكل وانتهت الكهانة الوظيفية، ولم تعد القدس تلعب دور الموحد للأمة اليهودية المشتتة. ومع نهاية زعامة الكهانة اليهودية بدأ حكماء اليهود المتعلمين، أو الأحبار، يملئون الفراغ. ولعب السنهــدرين أو مجلس العلماء دور المجلس التشريعي والقضائي المركزي وأصبح رئيسه السلطة اليهودية المركزية في العلاقات مع روما. ووضع تدمير الهيكل نهاية لليهودية التوراتية وبداية لظهور اليهودية (الحاخامية)

حدثت ثورة يهودية أخيرة في غاية التدمير ضد روما، وكان سببها أيضا الحكم الروماني الجائر، وقادتها شخصية عسكرية مهدية باسم شيمون باركوخبا ومساندة الحاخام عقيبا. انتزعا القدس من الرومان سنة ١٣٢ وحاولا إعادة بناء الهيكل. لكن فشلت "انتفاضة باركوخبا". ومحى الإمبراطور الروماني هدريان مدينة القدس بأكملها سنة ١٣٥، وبنى بعد ذلك مكانها مدينة كافرة تسمى إليا كابيتولينا، ومن هذا الاسم اللاتيني تكون أحد أسمائها العربية إلينا. ومنع اليهود من الظهور حول القدس تحت تهديد الموت. وأصبحت المنطقة حول المدينة خرابا مهجورا .

مارس الرومان نوعا من "التطهير العرقي" من أجل إبعاد اليهود عن القدس عاصمتهم المركزية، وكانوا مصممين على منع وقوع مزيد من الثورات اليهودية إلى درجة أنهم تخلوا عن تسمية المنطقة يهودا، وذلك من أجل فصلها عن اليهود تماما. غيّر الرومان اسم يهودا إلى اسم "فلسطين" المأخوذ من اسم الشعب القديم المعروف بالفلسطينيين. أصبحت يهودا خرابا، وفر الناجون شمالا إلى الجليل أو خارج المنطقة كليا. ومنع الرومان الوثنيون - وكذلك المسيحيون فيما بعد -

اليهود من دخول القدس ما عدا يوما واحدا في السنة، اليوم التاسع من شهر آب الذي يصادف يوم حداد يهودي شامل . (١)

اليهود تحت الحكم البيزنطي

مع انتهاء القرن الرابع، وإثر اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية عام ٣١٣م وتأسيس الإمبراطورية البيزنطية، أصبحت فلسطين بلداً يعتنق معظم سكانها المسيحية. فقد بنيت الكنائس في المواقع المسيحية المقدسة في أورشليم وبيت لحم والجليل. كما أقيمت أديرة في عدة أماكن من البلاد. وحرم اليهود من استقلالهم الذاتي النسبي وحظر عليهم أداء مناصب عامة وكذلك دخول أورشليم باستثناء يوم واحد في السنة (التاسع من آب العبري) للإعراب عن حزنهم على خراب هيكل سليمان.

وحظي الغزو الفارسي عام ٦١٤ بتأييد اليهود، الذين أفعمت قلوبهم بالآمال في مجيء المخلص. وأبدى الفرس شكرهم على هذا الدعم، فمنحوا اليهود حرية إدارة في أورشليم، إلا أن هذه الفترة لم تدم إلا ثلاث سنوات. فبعد ذلك عاد الجيش البيزنطي واحتل المدينة (٦٢٩) وطرد السكان اليهود منها مرة أخرى. (٢)

اليهود تحت الحكم العربي

عندما دخل المسلمون فلسطين عام: ٦٣٨ م ــ كان ذلك كما وَصَفَه البلاذري المؤرخ المسلم في القرن التاسع" ــ فتْحًا سهلاً .

والواقع أن ذلك لم يكن فتحًا، ولا انتصارًا حربيًّا، بل كان تحريرًا؛ ذلك أنه في عام : ٦٣٨ م لم يكن الذين وصلوا إلي فلسطين هم العرب، ولكنه الإسلام، فقد كان العرب فيها منذ أكثر من ثلاثةِ آلاف عام، منذ الهجرة السامية الأولي، القادمة من الجزيرة، والتي كانت تعيش مُتبدية على طول "الهلال الخصيب" يصدق ذلك علي الأمُوريين، والكنعانيين، والعبرانيين، الذين كان لهم نفس الأصل العرقي، وهم ينتمون إلي نفس المجموعة اللغوية .

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٥١

(٢) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

وتدلُ المخطوطات الإغريقية التي عُثِر عليها في الأردن أن أغلبية السكان في زمن الرومان كانوا عربًا و أن مهاجرينَ قدِموا، كسائر الموجات السابقة منذ ثلاثة آلاف عام ــ مِن الجزيرة العربية، وقد أنشأوا في القرن الرابع بعد ميلاد المسيح مملكة الأنباط في جنوب فلسطين .

فالذي وصل "عام ٦٣٨ م" مع المَوجة الجديدة من المهاجرين القادمين من الجزيرة العربية ــ إنما هو الإسلام .

والإسلام لا يَقنع بأن يكون مجرد دين كسائر الأديان، ولكنه كَمالُ الرسالات الإلهية التي أُوحيت مِن قبلُ في منطقة الهلال الخصيب . والله سبحانه يقول : { شرَعَ لكمْ مِن الدِّينِ ما وَصَّى بهِ نُوحًا والذي أوحينا إليكَ وما وَصَّيْنَا بهِ إبراهيمَ ومُوسَى وعيسَى أنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفرَّقُوا فيهِ }(الشورى: ١٣).

ويقول تعالى: { قُولوا آمَنَّا باللهِ ومَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وما أُنْزِلَ إلي إِبْراهيمَ وإسماعيلَ وإِسحاقَ ويَعقوبَ والأسباطِ وما أُوتِيَ مُوسى وعيسى وما أُوتِيَ النَبيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لا نفرِّقُ بينَ أحدٍ مِنهُمْ ونحنُ لهُ مُسلمونَ }. (البقرة: ١٣٦، وآل عمران: ٨٤).

وعلى خلاف ما أبداه أباطرة "بيزنطة" من عدم تسامُح، فقد بدا وصول الإسلام مُحرِّرًا لليهودِ، وللنصارى أي: لأغلبية سكان المنطقة، باستثناء المُحتلين، إغريقًا، أو بيزنطيين .

ولهذا فعندما اقترب المسلمون مِن سورية وفلسطين، استُقبلوا استقبالاً أدبيًّا من قِبَلِ مجموع السكان، الذين كانوا عربًا مثلهم ، ومُستعدون أن يَعتنقوا وحدانية الإسلام الخالِصة، والإسلام الذي يرى أن إبراهيم، وموسى وعيسى، رُسل الله، وهم أنبياء مُبَشِّرون بمحمد، مُرهصون بخَبَرِهِ .

كتب بار عبرايوس "بار العبري" يقول: "لقد أرسل ربُّ الثأر العرب ليُخلصونا مِن الرومان، لم تَعُد إلينا كنائسنا؛ لأن كل واحد أمسك ما كان يملكه، ولكنًّا كنا على الأقل قد تخلصنا من وحشية الإغريق، ومن بُغْضهم لنا ".

هذا الاستبداد القمعي الذي مارسه بعض الأباطرة البيزنطيين يُتيح لنا أن نفهم لماذا تقرَّر مصير سورية وفلسطين في معركة واحدة، هي معركة "اليرموك" التي حدثت في أوائل رجب سنة: ١٥ هجرية .

ولماذا سُحق الجيش البيزنطي ؟

لقد انفجر قبل المعركة تمرُّدٌ بين النصارى الأرمنيينَ في الجيش الإمبراطوري، وفي غمرة القتال انسحب النصارى العرب السوريون من الجيش البيزنطي، وحينئذ وجَد المُحتل الإغريقي نفسَه وحيدًا، وقد انفضَّ عنه الشعب كله، فانسحق، ووصلت الجيوش الإسلامية إلى دمشق دون قتال.

وفي دمشق، قرَّر سكانها، بعد انسحاب الفرقة البيزنطية، أن يَستسلموا وتولَّى أحد كبار موظفي الإمبراطورية، وهو عربيٌّ نصرانيٌّ، واسمه: منصور بن سرجون حاكم المدينة منذ رحيل المستعمرين ـــ تولَّى المفاوضة لتسليم المدينة، فأنقذ حياة جميع السكان وأموالهم .

وفي أورشليم يطلب البطريرك النصرانيُّ "صفرون" السلام، شريطة أن يحضر الخليفة بنفسه إلى أورشليم، ليَضمن شروط الصلْح، وقبل الخليفة عمر بن الخطاب ، ويصف المُؤرخ رابو بورت مقْدِمَهُ وَصفًا رائعًا فيقول: "أما سكان أورشليم الذين اعتادوا أن يروا الأباطرة البيزنطيين في أُبَّهتهم، وأرديتهم المُطرزة بالذهب ـــ فقد كان مَرْآهم للخليفة مَشْهدًا رائعًا، ذلك أن خليفة النبيِّ كان يرتدي بُرْدةً رَثَّةً من وبَرِ الإبل، وقد اخترق أورشليم على بَعير يحمل كل أمتعته، وما يكفيه من تمرٍ ليَومٍ واحد، فكان هذا التناقض بين بَساطة المُنتصر وتَقشُّفه، وبين الهَوَس الباذخ الذي تعوَّد على الظهور به، ليس الأباطرة البيزنطيون وحسب، بل مُمثلوهم من ولاة الأقاليم ـــ كان هذا التناقض مُذهِلاً، لم يَلْبث أن أحدَث تأثيرَه العميق في شعب حانقٍ على حكومةٍ كانت في نَظره استبدادية جشعةً.

ويذكر المُؤرخون العرب أن الخليفة عمر لم يقبل الدعوة التي وُجِّهتْ إليه من البطريرك النصراني أن يُصلِّي في إحدى كنائس أورشليم، مَخافة أن يأتيَ بعضُ المسلمين المُتحمسين، فيَتخذوا ذلك ذريعةً لإقامة مسجدٍ مكان الكنيسة، تَخليدًا لذكرى صلاته فيها.

ولم يُخرج من فلسطين سوى المُستوطنين القدامى والمُحتلين من الإغريق، وقد أعلن الخليفة نداءً إلى أهل الكتاب "من يهود ونصارى ومسلمين" أن يتَّحِدُوا، فَضمِنَ إعلانه أمْنَ الأشخاص والأموال، وفرَض احترام رهبان النصارى، وذلك بألاَّ يُرهب أولئك الذين يعيشون مُنعزلينَ عن الناس حتى يَستمروا في أداء عبادتهم

(نصّ كتاب الصلح بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبين أهل إيلياء على أنه:
" هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصُلبانهم، وسقيمها وبَريئها، وسائر مِلّتِهَا أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من خيْرها، ولا من صَليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحدٌ منهم، ولا يَسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوت "اللصوص"، فمَن خرج منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله، حتى يَبلغوا مأمَنهم، ومن قام منهم فهو آمنٌ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه، وماله مع الروم، ويُخلي بِيَعَهُمْ وصُلُبَهُمْ فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بِيَعِهِمْ وصُلُبهم، حتى يَبلغوا مأمنهم، ومَن كان بها من أهل الأرض قبل مَقْتل فلان، فمَن شاء منهم قعدوا، وعليه مثل ما على أهل إيلياء منَ الجِزْية ومَن شاء سار معَ الروم، ومَن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يُؤخَذ منهم شيء حتى يُحصَد حصادُهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهْد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجِزْية).

شهد على ذلك : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان. " .

وهنا أيضًا يشهد رابوبورت، وهو يكتب في مؤلفه: "تاريخ فلسطين من وجهة النظر اليهودية: "يجب أن تعترف بأن إعلانًا كهذا في بداية القرن الوسيط "وقد التزمت به كل الجيوش الإسلامية بعامة" هو إعلانٌ حافل بالإنصاف، فهو يتنفس عدالةً وتسامُحًا، وما استطاع أباطرة بيزنطة ولا أساقفة الكنيسة أن يُعبروا مُطلقًا عن مشاعر من هذا القبيل باسم ذلك الذي دعاهم إلى دين الحب.

إن وثيقةً كإعلان الخليفة كانت كفيلةً بإحداث تأثيرٍ عميق، لا في روح اليهود فحسب، بل في روح نصارى سورية وفلسطين، وبعضهم كان يُعاني من الظلم والطغيان، في حين كان الآخرون يُعانون من اضطهاد الكنيسة التابعة للدولة، جراء ما يَعتنقون من آراء دينية مختلفة، وكان الجميع يتحملون أغلال المُوظفين وأعباء الضرائب الباهظة".

لقد كانت سياسة الخفاء الأمويين الأوائل سياسة ليبرالية لدرجة أن البطاركة من أمثال منصور بن سرجون ومن بعده ابنه، ثم ابنه الأصغر الذي يُطلق عليه الآن: "القديس يوحنا الدمشقي" ــ كانت لهم وظائف المراقبة العامة للمالية، أيْ: إنهم كانوا يُمثلون الشخصية الثانية في الدولة الإسلامية.

لقد كان التناقض هائلاً بين مسلك المسلمين واستبدادية أباطرة بيزنطة .

لقد شهدت فلسطين، في عهد الخلفاء العرب أربعة قرون من السلام والرخاء.
وكانت أورشليم "القدس" هي المدينة المقدسة للمسلمين، ولليهود، وللنصارى، على سواء. وبعد وفاة الخليفة عليٍّ اجتمع الرؤساء العرب في أورشليم عام: ٦٦٠م، ليُعلنوا معاوية ملِكًا، مؤسسًا لأسرة الأمويين، فبادر كما يقول المؤرخون العرب إلى الصلاة في جُلْجُثة (المكان الذي تقول الأناجيل: إن المسيح صُلب فيه، ففي " متى ٢٧/٣٤) .

وبعد خلافة ابنه يزيد، "٦٨٠ــ ٦٨٣"، وعندما تولى الخلافة عبد الملك، بنى في أورشليم "القدس" المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، أول الأعمال الإسلامية وأجلها، قبّة الصخرة وقد بُنيت في الواقع "عام ٦٨٧م"

وقد أُلِّف التلمود الفلسطيني في أكاديمية طبرية، وهو يُعتبر نقطة تجميع اليهود خلال ألف سنة، وبه اتجهت اليهودية إلى أن تكون دولة قومية.

وقد أمكن بفَضل الخلفاء المسلمين وحدهم نقل أكاديمية طبرية إلى أورشليم، وبذلك أصبحت مركز إشعاع عقلي، حيث جرى تثبيت النص العبراني للعهد القديم، "وهو ما يُطلق عليه: النص المسّوري" وفي فلسطين أُلّفت حينئذ أجمل الأشعار الطقوسية المسماة: "بيوتيم ". (١)

والدولة الصهيونية تعترف بحسن معاملة المسلمين لليهود إبان الفــتح الإســلامي لفلسطين فعن الفتح الإسلامي يقول موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية : " جاء الفتح الإسلامي للبلاد بعد أربع سنوات من وفاة النبي محمد (ص) ٦٣٢. واستمر الحكم العربي للبلاد أكثر من أربعة قرون، وتوالى على الحكم الخلفاء الراشدون ثم خلفاء بني أمية من دمشق وخلفاء الدولة العباسية من بغداد ثم من مصر.

---

(١) لمزيد من التفصيل حول وضع اليهود وفلسطين تحت الحكم الإسلامي انظر رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة . مرجع سابق .

وفي البداية، تجدد التوطن اليهودي في القدس، ومنحت الطائفة اليهودية المكانــة التي حظي بها أهل الذمة تحت الحكم الإسلامي، وهي المكانة التي تضمن سلامتهم وأمنهم وممتلكاتهم وحرية العبادة مقابل دفع الجزية ومع ذلك فــإن القيــود التــي فرضت بعد ذلك على غير المسلمين (٧١٧م) أثرت على إدارة اليهود لــشؤونهم العامة كما أثرت على ممارستهم لشعائرهم الدينية وعلى مكانتهم الشرعية. ونظــراً لفرض ضرائب باهظة على المحاصيل الزراعية اضطر الكثير من اليهــود إلــى الانتقال من المناطق الريفية إلى المدن؛ ولكن أحوالهم المعيشية لم تتحسن. ونتيجــة لتصاعد التمييز الاجتماعي والاقتصادي، اضطر الكثير إلى الهجرة من البلاد. ومع انتهاء القرن الحادي عشر طرأ انخفاض ملحوظ على عدد السكان اليهود في البلاد وفقدت قسماً من تماسكها التنظيمي والديني (١).

وسوء حال اليهود الاقتصادية والدينية في العصر العباسي الذي تدعيه الدولة الصهيونية هو محض افتراء وحسبنا للرد عليه هو ذكر ما كتبه المؤرخون الأكاديميون اليهود عن حال اليهود في العصر العباسي : " لقد مكّنت وحدة الإمبراطورية العباسية تسهيل نقل الأشخاص والبضائع ورأس المال والأفكار من المركز اليهودي في بغداد إلى معظم العالم اليهودي، وبالفعل فإن حوالي ٩٠ % من يهود العالم آنذاك كانوا يعيشون في العالم الإسلامي.

وكان العالم اليهودي حرا في إدارة شئونه الداخلية بتدخل قليل من السلطات الإسلامية ما دام اليهود يدفعون ضرائبهم ويعترفون بسيادة الإسلام من خلال بعض التصرفات بعضها مذل شيئا ما. لا يهتم أسيادهم المسلمون كثيرا بما يقوم به اليهود ما داموا يحفظون السلام ويدفعون ضرائبهم (الحسبة أو الجزية) وما داموا ملتزمين بأماكنهم .

وصلت الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى فترتها الأكثر إنتاجا بين السنوات ٩٠٠ و ١٢٠٠، وتبعتها الحضارة اليهودية في العالم الإسلامي على المنوال نفسه .تطورت في أثناء هذه الفترة بعض أكبر أعمال الفلسفة اليهودية، والنحو، والقانون وفقه اللغة، وصناعة المعاجم مماثلا للتقدم الكبير لهذه الحقول في العالم

---

(١) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

الإسلامي. ووجد الشعر اليهودي بالعبرية نهضته أيضا في هذه الفترة وتشبه أوزانه وأسلوبه ومحتواه مثيلاتها في الشعر الإسلامي العربي وفي هذه الفترة أيضا بدأ العراق يفقد السيطرة السياسية للإمبراطورية .(١)

هذا اعتراف من المؤرخين الأكاديميين اليهود بحسن معاملة المسلمين لليهود الذين كانوا يمثلون ٩٠% من يهود العالم في الخلافة العباسية .ودونك هذه الأمثلة التي تؤكد تميز وضع اليهود تحت الحكم العربي الإسلامي في شتى البلاد .

إن قيام الدولة الأموية في أسبانيا والدولة الفاطمية في إفريقية ومصر قد جلب معه قيام الجاليات اليهودية التي تعيش في هذه المناطق. وجذب نجاح هذه المناطق النائية الاقتصادي والسياسي العلماء والمثقفين إلى المراكز الجديدة الناشئة .

لم يكن هذا أكثر وضوحا في أي مكان آخر مما هو في أسبانيا حيث ازدهرت الحضارة اليهودية جنبا إلى جنب مع ازدهار العلوم الإسلامية والدنيوية هناك. كان اليهودي حسدي ابن شبروت (ت ٩٧٥) طبيب خلفاء بني أمية ومستشارهم مثل عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني. لم يخدم فقط أسياده المسلمين بامتياز، لكنه أيضاً رعى الفنون والعلوم بين اليهود .فكما أن المسلمين الخلفاء والحكام والشخصيات البارزة لها بلاطاتها التي يدعمون فيها العلوم الإسلامية والدنيوية ويشجعونها، فكذلك تدعم الشخصيات اليهودية والمسيحية البارزة فنانيها ومثقفيها. وقد أدى هذا النشاط إلى انتشار ازدهار كبير للثقافة في كل أسبانيا المسلمة المعروفة بالأندلس في اللغة العربية. (٢)

في عهد الخليفة الفاطمي العزيز: "٩٧٥ ـ٩٩٦م" كان الوزير الأول نصرانيًّا هو عيسى بن نِسطورس، وقد عيَّن واليًا على دمشق يهوديًّا هو منسي ابن هزرا، بحيث كان النصارى واليهود يَحكمون الدولة، فجاء رد الفعل على عهد الخليفة الحاكم، ومن هنا لا مجال لاعتبار وضع فلسطين في ظل الفاطميين بالقاهرة وضعًا مثاليًا، ففي عام: ٩٦٧م. أحرق المسلمون البطريرك يُوحنا "وأيد اليهودُ المسلمين في ذلك"، وأمر الخليفة الحاكم عام: ١٠٠٩ م بهدم أسوار قبر السيد المسيح بالقدس، ولكن

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٥٣- ٥٤

(٢)الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق . ص ٥٣- ٥٤

الذي يبقى هو أن هذه الحوادث تظل فردية، وأن اليهود والنصارى لم يتعرضوا مُطلقًا، في أرض الإسلام لأحداث اضطهاد أو إبادة على نحو ما فعل الغرْب مما سجّله التاريخ، سواء في ذلك العربدة الدموية التي اقترفت عندما استولى الصليبيون على بيت المقدس "أورشليم" وإبادة المانويين في القرن الثالث عشر الميلادي، ومَحاكم التفتيش الكاثوليكية التي تبعث استعادة إسبانيَا في القرن الخامس عشر، وهي المحاكم التي نُصبت ضد المسلمين، واليهود، والنصارى المُهرطقين، ومَذابح اليهود التي قامت بها روسيَا القيصرية لاستِئصالهم، ومذابح كيشينيف في أوكرانيا، وأخيرًا مذابح ألمانيا الهتلرية ضد الشيوعيين، وضد المسيحيين من أتباع الكنيسة المعادية لهتلر، وضد اليهود. (١)

اليهود تحت حكم غير العرب (البيزنطيون ــ الأتراك ــ الصليبيون)

خِلال الفترة من القرن العاشر حتى الثالث عشر لم يعرف اليهود والنصارى في فلسطين أحداث اضطهاد أو مذابح إلا من قبل المُحتلين، الغزاة، وذلك في ثلاث مراحل :

ففي عام : ٩٥٠م قامت جيوش الإمبراطور النصراني، بقيادة نقفور فوكاس، البيزنطي ــ باحتِلال فلسطين، "فذبحت السكان، وأحرقت المنازل، وخرَّبت الحقول والبساتين، وقطعت الأشجَار المثمرة، وباعت الرجال والنِساء والأطفال عبيدًا، ويمكن القول بأن الأرض المقدسة استحالت إلى صحراء بأيدي النصارى الغرب .

وفي عام " ١٠٧١م حتى : ١٠٩٦م دُمِّرت فلسطين بغزو السلاجقة "نسبة إلى شيخ قبيلة تركية كانت تحكم ضواحي بخارى ، في آسيا الوسطى"، لقد ادَّعَوا أنهم مسلِمون ولكِنهم نهبوا المساجِد كما نهبوا الكنائس، والمعابد، ولقي كثير من الحُجاج اليهود أو النصارى ــ وهم كثير ــ مصيرًا مُؤلمًا .

الحروب الصليبية دوافعها وآليات تنفذها ونتائجها

أما كارثة فلسطين الثالثة فكانت على يدِ الصليبيين، إبتِداء من عام: ١٠٩٦م، وكانت ذريعة هذِهِ الحملات هي "الدفاع" عن نصارى الشرق وكان الحافز الأكبر

---

(١) جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة . مرجع سابق .

وراء الحروب الصليبية خطبة حماسية ألقاها البابا أربان الثاني ودعا لسماعها كبار الإقطاعيين والفرسان والنبلاء ويمكن أن نرجح من قراءة نصوص الروايات التي أوردها المؤرخون حول خطبة البابا في كليرمون (مدينة صغيرة جنوب فرنسا) ، أولا : أنه كان يدعو إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين ، اعتمادا على نصوص وردت في الأناجيل المسيحية وأهمها نص يقول : " ٢٧وَمَنْ لاَ يَحْمِلُ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعُنِي، فَلاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَكُونَ تِلْمِيذاً لِي." (لوقا : ١٤)

وثانيا : أنه يدعو إلى هذه الحملة المسلحة المقدسة باسم الرب بوصفه نائبا عنه في الأرض فقد ذكر فوشيه أن البابا خاطب المستمعين قائلا : " ومن ثمَّ فإنني لست أنا ، ولكن الرب هو الذي يحثكم باعتباركم وزراء المسيح أن تحضُّوا الناس من شتى الطبقات .. "

لقد تحدث أربان بهذه الصفة ليحث الفرسان على شن الحرب في سبيل المسيح ، وبرر هذه الحرب بأن هدفها أن تحرر الكنيسة الشرقية من ربقة المسلمين ، وأن تخلص الأرض المقدسة من سيطرتهم ، هذه الأرض التي وصفها الكتاب المقدس بأنها الأرض التي تفيض باللبن والعسل ، ووصفها أربان الثاني بأنها ميراث المسيح ، وامتدح البابا شجاعة الفرنج كما امتدح قدراتهم القتالية .. وأشار إلى منح غفران جزئي لكل من سيشارك في هذه الحملة ، سواء مات في الطريق إلى الأرض المقدسة ، أو قُتِل في الحرب ضد المسلمين .. وسارع الكثيرون إلى البابا يُقسِمُون أمامه على القيام بالرحلة كما أخذ كثيرون يخيطون صلبانا من القماش على ستراتهم رمزا لأخذهم شارة الصليب (١)

لقد أعلن الصليبيون أن دافعهم الوحيد لشن حروبهم ضد العالم الإسلامي هو الدافع الديني المتمثل في :

١- تأمين طريق الحجاج المسيحيين إلى كنيسة القيامة بالقدس بعد أن ورود الشكوى الكثيرة إليهم من الحجاج عن سوء معاملة الأتراك السلاجقة لهم أثناء أداء فريضة الحج .

---

(١) د. قاسم عبده قاسم " ماهية الحروب الصليبية " عالم المعرفة ص ١١١ ، ١١٢

٢- استعادة الصليب المقدس (صليب الصلبوت) الدي كان في حوزة المسلمين في بيت المقدس .

وإلى جانب هذه الدوافع الدينية المعلنة من قِبَل قواد الحروب فقد كانت هناك دوافع أخرى اقتصادية ، وسياسية ، قصد بها هؤلاء القواد تحقيقها بواسطة هذه الحروب . وتمثلت الدوافع الاقتصادية في :

١- سوء الأحوال الاقتصادية عموما في أوربا آنذاك ، ورغبة دول الغرب في تحسين هذه الأحوال مما يحصلون عليه من خيرات بلاد الشرق الغنية .

٢- رغبة الفلاحين الأوربيين الذين وقعوا تحت وطأة النظام الإقطاعي الجائر في تحسين أحوالهم ، وخلاص أرواحهم بالمشاركة في هذه الحروب .

٣- رغبة فرسان أوروبا وأمرائها في حل مشاكلهم الاجتماعية ، والاقتصادية التي نتجت عن طبيعة النظام الإقطاعي الظالمة في الغرب الأوربي لذا سارعوا في قيادة جموع العامة المشاركة في هذه الحروب .

٤- حرص المدن الإيطالية التجارية مثل : بيزا ، وجنوة ، والبندقية على نقل الصليبيين على سفنهم ونقل سائر الإمدادات للصليبيين بهدف تحقيق مصالح تجارية خاصة بها . (١)

أما الدوافع السياسية لهذه الحروب فتتمثل في : رغبة البابا إيان الثاني في توحيد الإمبراطورية الرومانية (٢) وتأسيس سلطة ثيوقراطية عن طريق إنشاء كنيسة رومانية في "الأرض المقدسة" في مواجهة الكنيسة الشرقية، وإنشاء دولة لاتينية في سورية وفلسطين تكون قاعدة للتأثير الروماني في الشرق حتى يصبح في مركز القوة بحيث يفرض وحدة الكنائس .

---

(١)د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، و د. عاصم الدسوقي وغيـرهم " الحـضارة الإسـلامية وتاريخ العرب الحديث " وزارة التربية والتعليم مطابع روز اليوسف ص ٥٩ .

(٢) انقسمت الإمبراطورية الرومانية في عهد دقلديانوس (٢٨٣- ٣٠٥) إلى قسمين : شرقية ، وغربية ، وانتقلت العاصمة أيام قسطنطين الأول من روما إلى القسطنطينية ، ومع ظهور الإمبراطورية البيزنطية ضعف الجزء الغربي ، وفقدت روما أهميتها بانتهاء الإمبراطورية الرومانية ، وتاريخها عندئذ هو تاريخ البابوية حيث أصبحت روما عاصمة الولايات البابوية . الموسوعة الثقافية مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ص ٤٩٨ .

وقد كان نداء الاستغاثة الذي وجهه الإمبراطور البيزنطي رومانس الرابع للبابا إربان الثاني بعد هزيمته الساحقة على يد السلاجقة في معركة مانزيكرت سنة ١٠٧١م ، وجددها الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين سنة ١٠٩٥ م فرصة ذهبية لإربان الثاني لتحقيق حلم توحيد الإمبراطورية الرومانية تحت سلطته .

وكانت الاستجابة الشعبية لخطبة إربان الثاني أكبر من كل التوقعات ففي أنحاء فرنسا ، وفي الأراضي الواطئة ، وألمانيا ، وغرب إيطاليا ترددت أصداء الخطبة التي ألقاها أربان الثاني في كليرمون في السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥م .

كانت الظروف الاجتماعية البائسة وراء هذه الاستجابة الشعبية المذهلة لقد فهم الناس في غرب أوربا آنذاك دعوة أربان على أنها فرصة لمستقبل جديد وحياة أفضل في الشرق المقدس ، وفرصة لضمان الخلاص في يوم الدينونة إذا مات الإنسان وهو على الطريق صوب هذا الشرق المقدس .

لقد كان العامَّة من الفلاحين وفقراء أهل المدن يظنون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء ، وكان هذا المظهر الديني العاطفي هو ما ميز حركة الفقراء في غرب أوربا وموقفهم من دعوة البابا بيد أن هذا التدين العاطفي نفسه كان من أسباب ارتكابهم لأحط ضروب الجرائم ، كما كشف عن أبشع الشرور الدنيوية والأطماع المادية حتى بمقاييس تلك العصور التي اتسمت بالقسوة والغلظة .

الحملة الصليبية الأولى بدأت بمسيرة شعبية كبيرة قادها راهب يدعى بطرس الناسك في يوم سبت النور ١٢ أبريل ١٠٩٦ لقد سحر هذا الراهب ألباب الفقراء بفصاحته التي تتناقض مع هيئته الزرية ، إذ كان رث الثياب بينه وبين حماره شبه كبير .

ولقد ارتكبت هذه الحملة من جرائم السلب والنهب والقتل في حق الآمنين من سكان البلاد التي مروا بها ما يسمهم مع التتار والنازيين والصهاينة بميسم واحد فعند مدينة " سملين " على الحدود المجر كشف " جيش الرب " بقيادة بطرس الناسك عن وجهه القبيح فقد قام بمذبحة ضد إخوانهم المسيحيين الذين زعم جيش الرب أنه جاء لنجدتهم راح ضحية هذه المذبحة أربعة آلاف من أبناء " سملين " التي تحولت إلى خرائب تصاعد منها دخان الحرائق .

كما أحرق جيش الرب مساكن القرويين من أهل مدينة " نيش " مع سكانها الأحياء ، وعاث حماة الصليب فسادا في مدينة القسطنطينية فنهبوا وسرقوا وأحرقوا وارتكبوا أبشع المذابح ضد السكان المسيحيين . (١)

لم تكن مذابح حملة العامّة موجهة ضد المسيحيين فحسب بل كانت مذابحهم ضد اليهود أشد لقد وضعت الكنيسة إبتداءً شعارها المجنون والإجراميّ المعادي للسامية ضدّ "الشعب قاتل الإله" " فأوصلهم ذلك إلى أن يبدؤوا "الحرب المقدسة" بإقامة مذابح عبْر أوربا لمجتمعاتٍ يهودية كثيرة، لينتهي الأمر بهذه الحملة إلى الموت، حتى قبل أن يصلوا إلى آسيا الصغرى، وقليل فقط منهم إلتحقوا بالحرب الصليبية التي يقودها الأمراء وهؤلاء الأمراء لم يبدؤوا إلا بعد ستة أشهر من الحرب الصليبية الشعبية . لقد كان الهدف واضحا أمامهم، وهو أن يقتطعوا إماراتٍ في سوريةٍ وفلسطين، بدعوى "نبيلَة" كانت تخفي نواياهم الوضيعة ، لقد نالوا مُقدّمًا مَغفِرَةً كاملة من البابا، لكل آثامهم، وإعفاءً من ديونهم في أوربا، ومستقبلا جميلا في الشرق يقوم على النهب والسلب.

مذابح الصليبيين في مدينة القدس

ونجحت حملة الأمراء بعد انتصار قواتها على المسلمين في إقامة أربع إمارات صليبية هي : الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، وبيت المقدس . كانت مملكة بيت المقدس هي ثالث الإمارات التي كونها الصليبيون في الشام بعد استيلائهم على المدينة المقدسة يوم الجمعة ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ / ١٥ يوليو ١٠٩٩م بعد حصار دام أربعين يوما سقطت المدينة المقدسة عند اليهود، والنصارى، والمسلمين، واقتحمها القائد جودفروي دي بويون فانهال الصليبيون المُنتصرون على المدينة عربدة ونهبًا، وذبحا، مدة أسبوع، حتى قتلوا بحدّ السيف سبعة آلاف من المسلمين، لم يُفرقوا بين سنٍّ وسنّ، ولا بين جنس وجنس، أما اليهود فقد لجأوا إلى المعابد الكبيرة يُصلّون، وسدَّ الفرنجة كل منافذ المدينة، ثم كدّسوا حزَمَ الأخشاب حولها، وأشعلوا فيها النيران. فمن حاول الحرب أُجْهِزَ عليهِ في الحواري والأزقّة المحيطة بها، وأما الآخرون فقد أُحرقوا أحياء . (٢)

---

(١) لمزيد من التفصيل حول جرائم الحملات الصليبية راجع الفصل الثالث من كتاب " ماهية الحروب الصليبية " مرجع سابق .

(٢) جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة .مرجع سابق .

لقد أجمعت المصادر الإسلامية والمسيحية على همجية الجند الصليبيين وعلى دموية غزوهم حتى أن أحدهم ذكر أن هذه القوات كانت تخوض في دماء القتلى في شوارع المدينة المقدسة ، وأن قائد الحملة أقام فيها حمام دم لأهل الملل الثلاثة ، وأن رجاله انطلقوا في شوارعها يقتلون كل من يصادفهم من أهلها من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز .

يقول ستيفن رانسيمان وهو من أكبر المؤرخين للحروب الصليبية : " زاد في جنون الصليبيين ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديد ، وانطلقوا في شوارع المدينة (المقدسة) وإلى الدور والمساجد يقتلون كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز ، واستمرت المذبحة طوال ذلك اليوم وطوال الليل وفي صباح اليوم الثاني اقتحم الصليبيون المسجد الأقصى وأجهزوا على جميع اللاجئين إلى المسجد ، وحين توجه الأمير ريموند في الضحى لزيارة ساحة المسجد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه ، وقد أدت مذبحة بيت المقدس إلى خلو المدينة من سكانها " (١)

ويؤكد اليهود الصهاينة هذه الحقيقة : " بعد حصار دام خمسة أسابيع، احتلت الدفعة الأولى من فرسان الحملة الصليبية وجيوشهم مدينة القدس وقتلت معظم سكانها من غير المسيحيين. وتحصن اليهود داخل الكنس ودافعوا عن حيهم، ولكنهم أحرقوا أحياء أو أصبحوا عبيداً. (٢)

وفُرض على مملكة بيت المقدس النظام الإقطاعِيّ الغربي، مُخْتَلِطًا بِمَزِيج من العسكرية والإكليروسية، دون أن تكون له علاقة بماضيها، أو بماضي سكانها، الذين كانوا — يهودًا أو نصارى — أكثر قربًا إلى العرب المسلمين من أولئك الغرباء الذين لم يكونوا يترددون في تعذيب مخالفيهم "المهرطقين" .

هذِهِ الدولة التي كانت بِلا جذور لم تكن تستمد إيراداتها من البلد نفسه، بل كانت تعيش على هِباتِ النقود التي كانت تُجمع في الغرب بوساطة الكنيسة، وما كان لها أن تبقى إلا بفضل انقسامات العالم الإسلامِيّ (٣)

---

(١) ستيفن رانسيمان " تاريخ الحروب الصليبية " ترجمة السيد الباز العيني طبعة بيروت .

(٢) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

(٣) جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة .

تحرير القدس

كان لنجاح الغزو الصليبي لبلاد العالم الإسلامي وقع أليم في نفوس المسلمين ، وكان سقوط بيت المقدس في يد الصليبيين أهم دوافع الجهاد الديني وأهم عوامل يقظة المسلمين ، وعملهم على استرداد الأماكن المقدسة واستخلاصها من أيادي المعتدين الأوربيين ، وكانت أكبر قوتين إسلاميتين قد وقفتا عاجزتين بسبب ضعفهما أمام الغزو وهما الدولة العباسية ، والدولة الفاطمية ، وجاءت النجدة ، وكان الخلاص على يد السلاجقة ، ومن بعدهم سلاطين الأيوبيين والمماليك .

وكان عماد الدين زنكي حاكم حلب أول السلاجقة الذين تصدوا للعدوان الصليبي ، واستطاع أن يهزم أقوى قوات أول وأقوى إمارات الصليبيين ويستولي عليها وهي إمارة الرها ديسمبر ٥٣٩هـ / ١١٤٤ م ، وبعد مقتل عماد الدين وورث ابنه نور الدين محمود عنه أملاكه كما ورث جهاده ضد الصليبيين ، ولقد رأى نور الدين محمود أن الجهاد ضد الصليبيين لن يتم إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية ، والقضاء على الخلافة الفاطمية ، وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية ، وبالتالي وضع الصليبيين بين شقي الرحى ، وتحقق أمل نور الدين ؛ فاستولى على دمشق سنة ١١٥٤ م بعد وفاة حاكمها السلجوقي واتخذها قاعدة له ، وقربت النهاية المحتومة للصليبيين عندما استولى اثنان من قواد نور الدين محمود هما : أسد الدين شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين على مصر سنة ١١٦٨ م قبل أن يغزوها الصليبيون . وتحقق بذلك حلم نور الدين في وحدة الأمة الإسلامية ولم يبق أمامه إلا تحرير القدس إلا أن المنية وافته قبل أن يحقق حلمه الأخير .

أكمل صلاح الدين ما بدأه أستاذه نور الدين محمود فجمّع قوى المسلمين بعد قضائه على الخلافة الفاطمية ، وأعلن الجهاد الديني ، وأرسل إلى سائر الأطراف يطلب العسكر فجاءته من كل مكان في دولته الكبيرة ، وبدأت معركة حطين بين المسلمين والصليبيين صباح السبت الموافق ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ / ٤ يوليو ١١٨٧ م ، واشتد الضرب واستعر القتال وحصرت جيوش الصليبيين بين حر القتال وحر الجو وحر الظمأ وهزموا في هذه المعركة هزيمة ساحقة فقتل منهم العدد الكبير كما أسر منهم أعداد هائلة وكان في مقدمة الأسرى جاى لوزجنان ملك القدس الذي أطلق صلاح الدين سراحه .

وبعد حطين غدت قلاع ومدن الصليبيين في بلاد الشام تحت رحمة صلاح الدين ومضى يفتح البلاد والمدن الصليبية واحدة بعد الأخرى فتحا متواصلا ، ولما فرغ

صلاح الدين من الاستيلاء على المدن الصليبية الساحلية التي تمثل قواعد الصليبيين البحرية التي تربطهم بالغرب الأوربي توجه إلى القدس وكان قد اجتمع بها عدد كبير من الصليبيين الذين نجوا من معركة حطين وتحصنوا بها ، وعزموا على الدفاع عنها لما لها من قدسية عندهم .

عرض صلاح الدين على أهل بيت المقدس التسليم على نفس شروط بقية المدن التي كانت للصليبيين في فلسطين ، لكنهم رفضوا الاستسلام أول الأمر وحين نجحت قوات صلاح الدين في نقب سور المدينة المقدسة أدركوا عدم جدوى المقاومة وطلبوا الصلح فقبل صلاح الدين أن يعطي للصليبيين الأمان على أن يغادروا خلال أربعين يوما .

وفي ذكرى ليلة الإسراء والمعراج يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ / ١٢ أكتوبر ١١٨٧ م دخل صلاح الدين بيت المقدس ، وأظهر من التسامح والعفو مع أهلها ما جعل المؤرخين المسلمين وغير المسلمين يذكرونه بالثناء والتقدير ، ولقد أمَّن صلاح الدين سكان المدينة جميعهم على أرواحهم ووزع جنوده في شوارع المدينة وأحيائها ليحفظوا الأمن والنظام بها ويحفظوا أرواح سكانها فلم يقع حادث واحد من حوادث السرقة والنهب التي تلازم الفتح عادة ، وكانت الشروط التي فرضها صلاح الدين على المدينة في غاية التسامح والكرم لدرجة أن بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين قال في هذا الصدد : " ولم تتجل عظمة صلاح الدين مثلما تجلت عند تسليم المدينة الخالدة "

وهذه العبارة في الواقع تتضمن حقائق ومعاني كثيرة لأن صلاح الدين لم يستغل انتصاره للتمثيل بأعدائه كما فعل الصليبيون بالمسلمين حينما احتلوا القدس سنة ١٠٩٩ بل تركهم يغادرون المدينة بأمتعتهم وأموالهم بعد دفع فدية معتدلة على القادرين ، أما الفقراء فقد تركهم يرحلون دون دفع الفدية المطلوبة ، أما النصارى الشرقيين فقد سمح لهم بالبقاء مع المسلمين .

ولم يحاول صلاح الدين هدم الكنائس المسيحية ، بل تركها واكتفى بإعادة المساجد التي حُوِّلت إلى كنائس ولا سيما المسجد الأقصى الذي كان الصليبيون قد حولوه

إلى كنيسة وأطلقوا عليه معبد سليمان ، وهذا يدل على أن صلاح الدين لم يكن يحارب الدين المسيحي بل كان يحارب السياسة الأوربية الاستعمارية . (١)

ولم يكتف صلاح الدين بترك الكنائس النصرانية مَفْتُوحَة لِلعبادة، من جميع الاتجاهات، بل أعاد فتح المعابد اليهودية أيضا . (٢)

وحتى الرواية الصهيونية للتاريخ لا تنكر هذه الحقيقة : " عندما طرد الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين الصليبيين (١١٨٧)، حصل اليهود ثانية على نسبة معينة من الحرية بما في ذلك حق الإقامة في القدس .ومع أن الصليبيين عادوا ووجدوا موطئ قدم في البلاد بعد وفاة صلاح الدين(١١٩٣) ، فقد اقتصر تواجدهم على شبكة من القلاع المحصنة. وانتهى حكم الصليبيين على البلاد نهائياً (١٢٩١) على أيدي المماليك الذين كانوا يشكلون طبقة عسكرية إسلامية كانت قد تولت الحكم في مصر. (٣)

ولقد أخفقت جميع المحاولات الصليبية التي بذلت لاستعادة أورشليم بعد أن حررها صلاح الدين .

وبعد قرنينِ من الحرب الدائمة، التي غذّتْها أسلِحة الغرب وأمواله استطاعت دولة المماليك قطع دابر الصليبيين عن الشام ، وإزالة الخطر الصليبي عن بلاد العرب.

وبذلك إنتهت تِلك المُغامرة الحربِية المشئومة، التِي كانت بعيدة عن الإيمان المسيحِي بعد الصهيونية عن الإيمان اليهودي، وأنبيائه.

ذلِك أن الصليبيين كانوا هم الصهيونية النصرانية، كما أن الصهيونية السياسية هِي حرب صليبية . (٤)

---

(١) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٦٥ ، ٦٦ .
(٢) جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة .مرجع سابق .
(٣) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .
(٤) جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة .مرجع سابق .

فلسطين تحت الحكم العثماني

عاشت فلسطين قرونا مظلمة ومأساوية تحت الحكم العثماني التركي منذ عام: ١٤٥٣م وحتى وقوعها تحت الانتداب الإنجليزي ١٩٢٢م ؛ فلم تذق طعم الرفاهية إلا في عهد سليمان العظيم "القانوني"، أما فيما عدا هذه الفترة فقد فسد إقتصاد فلسطين، وانهارت زراعتها وصناعتها، كما بارت موانيها، وأرهقت الإتاوات الباهظة كاهل الفلاح، وكسدت صناعات النسيج، وإنتاج الزيت والصابون، حيث سحقتها أعباء الضرائب والديون ؛ إن الانحطاط في نوعية الحكم العثماني أدى إلى إشاعة الإهمال في البلاد. ولدى انتهاء القرن الثامن عشر كانت غالبية أصحاب الأراضي تتغيب عن أملاكها وتم تأجيرها لمزارعين أو فلاحين فقراء، وفرضت السلطات ضرائب باهظة وعشوائية. وجردت أحراش جبال الجليل والكرمل الكثيفة عن أشجارها، وتحولت الأراضي الزراعية إلى مستنقعات وصحارى. لذلك فكثيراً ما كانت تشب الثورات ضد الحكام العثمانيين .

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين توافدت إلى فلسطين موجتان كبيرتان من المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية، بوحي المبادئ الصهيونية. وكان هؤلاء الطلائعيون مصممين على احتلال فلسطين عن طريق فلاحة الأراضي . فقاموا باستصلاح الأراضي القاحلة التي أهملت خلال قرون عديدة وأنشئوا مستوطنات جديدة . على الرغم من أن شراء الأراضي كان محظوراً، والبناء ممنوعاً بغير إذن خاص، لا يمكن الحصول عليه إلاّ من اسطنبول .

وفي ديسمبر عام ١٩١٧، دخلت القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي القدس، منهية بذلك ٤٠٠ سنة من الحكم العثماني. وكان الفيلق اليهودي، الذي اشتمل على ثلاث كتائب تضم الآلاف من المتطوعين اليهود، يشكل جزءاً لا يتجزأ من الجيش البريطاني . (١)

يهود أوروبا المسيحية

إذا كانت عدد اليهود الذين يعيشون في العالم العربي يمثل ٩٠% من مجموع يهود العالم في العصور الوسطى فإنه لم يعش في أوروبا في تلك العصور أكثر

---

(١) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

من ١٠ % من مجموع يهود العالم حيث كانت أوروبا في ذلك الوقت غير متطورة في الغالب ويفضل اليهود أن يعيشوا في الأماكن المتحضرة جدا.

ولكن الوضع الأوروبي تحسن كثيرا مع تقدم العصور المتوسطة وازداد سكانها اليهود تبعا لهذا التحسن. وكلما انحط العالم الإسلامي تحسن العالم الأوروبي المسيحي.

وحتى نكون منصفين سوف نترك الكلام للمؤرخين اليهود ليبنوا كيف كانت حياة اليهود في البلاد الإسلامية وحياتهم في أوربا المسيحية " إن الوضع بالنسبة ليهود أوروبا المسيحية ظل غير مستقر ؛ فالديانة المسيحية تعتبر نفسها الوريث الطبيعي للديانة اليهودية، ويولع المسيحيون باعتبار أنفسهم "إسرائيل الحقيقية مفترضين بذلك أن اليهود ليسوا أهلا للاسم. وبسبب اعتبار المسيحية نفسها ناسخة لليهودية فإن النظرة المسيحية الذاتية نفسها تتطلب أن يهان اليهود والديانة اليهودية ويصغروا علانية. وأصبح إذاً في غاية الأهمية لليهود الذين يعيشون بين المسيحيين أن يعيشوا في وضع منحط ومهين .

ورغم كل ذلك، يزداد سكان أوروبا من اليهود بانخفاض عددهم في العالم الإسلامي وقد استفاد اليهود من تحسن الأوضاع الاقتصادية والسياسية الأوروبية في العصور الوسطى المتأخرة. لكن على عكس العالم الإسلامي، فمع تقدم أوروبا المسيحية اقتصاديا، وفكريا، وعلميا فإن معاملتها لليهود لم تتحسن. وعلى عكس العالم الإسلامي أيضا حيث يوجد دائما مكان لليهود في المجتمع الواسع، فإن كثيرا من دول أوروبا المسيحية كانت تبحث عن التخلص من اليهود بالكامل . أشهر حالة هي حالة إسبانيا المسيحية التي طردت كل اليهود بالقوة أو أرغمتهم على تغيير دينهم سنة ١٤٩٢ ، وقامت بالعملية نفسها مع المسلمين بعد سنوات قليلة فيما بعد ، لكن طرد اليهود كلهم أيضا من بريطانيا، وفرنسا، ومن عدد من الولايات الألمانيـــة كذلك .ولحسن الحظ فإنهم إذا طردوا من مكان، فإنهم استطاعوا أن يجدوا ملجأ في مكان آخر في أوروبا ولكن النتيجة المحصلة كانت في الغالب الفقر والمأساة .

إن وحدة العالم المسيحي هي أقل من وحدة العالم الإسلامي، وكان لدى اليهود مهارات ممتازة جعلتهم مرغوبين عند بعض الحكام والملوك المسيحيين، بالرغم من

أن هذه المهارات نفسها جعلت منهم تهديدا للآخرين . وفي بعض الأحوال السيئة جدا تعرض اليهود للمــذابح في بعض المناطق، كما حــدث في أثنــاء الحرب الصلــيبية الأولى سنة ١٠٩٦ أو في أثناء مذابح أرمليدير الألمانية في السنوات ١٣٣٦ ــ ١٣٣٩م . وهكذا فلقد عاش اليهود في أوروبا لكن، وضعهم لم يتحسن في الغالب إلا بعد دخول العصر الحديث .(١)

لم يُمنَح اليهود في كثير من الدول الغربية وضعا متساويا إلا في القرن العشرين، ولم يقبلوا أبدا في بعض الأماكن، وكان تحررهم في أماكن أخرى عكسياً تماما حيث اضطهدتهم روسيا القيصرية ، وألمانيا النازية .

لكن مع هزيمة النازية وانتصار الصهيونية أضحى اليهود في مكانة متميزة في الغرب تتسابق الحكومات لكسب ودهم وتحقيق مصالحهم . ولكن كيف حدث هذا التحول من الكراهية إلى الحب ، ومن العداء إلى الإخاء فهذا ما سنبينه في الفصل الخاص بالصهيونية .

خلاصة تاريخ بني إسرائيل

وفي نهاية هذا الاستعراض نذكر الخلاصات التالية :

١- إن سكان فلسطين قد جاء معظمهم من جزيرة العرب وأنهم ظلوا سكان هذه البلاد حتى عصرنا هذا .

٢- إن الله قد وعد بني إسرائيل الأرض المقدسة عندما كانوا مستقيمين على أمر الله وعندما كانت تسوسهم الأنبياء، فلما بدلوا وأعرضوا وكفروا ذهب هذا الحق من أيديهم .

٣- إن المسلمين هم أولى من بني إسرائيل بأنبيائهم وهم الورثة الحقيقيون لتراثهم ودعوة الإسلام هي استمرار لدعوة هؤلاء الأنبياء، وإن الحق الذي سعوا لتكريسه هو الحق الذي يسعى المسلمون لتكريسه .

٤- إن ملك بني إسرائيل لم يشمل في أي يوم من الأيام كل فلسطين المعروفة بحدودها الحالية، وإن المدة التي حكموا فيها بشكل مستقل تماماً هي مدة ضئيلة

---

(١)الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٥٥- ٥٦

قياساً إلى تاريخ فلسطين وأنهم حتى عندما كانت لهم مملكتان كانوا في كثير من الأحيان خاضعين لنفوذ قوى أكبر منهم .

٥- إن الحكم الذاتي الذي تمتع به اليهود بعد عودتهم من السبي البابلي كان ضعيفاً ومحدوداً بمنطقة القدس وضواحيها، ولم يتمتعوا بعد ذلك إلا باستقلال محدود في عهد المكابيين .

٦- إن اليهود بعد ذلك تشردوا في الأرض – بسبب منكراتهم وأفعالهم- ولم تعد لهم صلة بفلسطين لفترة استمرت حوالي ١٩٠٠ سنة متصلة .

وفي الختام نذكر قول هـ.ج.ولز في كتاب موجز التاريخ حول تجربة بني إسرائيل في فلسطين بعد السبي البابلي :

" كانت حياة العبرانيين (في فلسطين) تشبه حياة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار ، ومن الأول إلى الآخر لم تكن مملكة بني إسرائيل سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسورية وآشور وفينيقية ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم " .

ويذكر المؤرخ المشهور غوستاف لوبون أن بني إسرائيل عندما استقروا في فلسطين " لم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخس ما في حضارتها، أي لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارة ودعارتها وخرافاتها فقربوا لجميع آلهة قبيلتهم يهوه العبوس الحقود الذي لم يثقوا به إلا قليلا " .

ويقول : " اليهود عاشوا عيش الفوضى الهائلة على الدوام تقريباً ولم يكن تاريخهم غير قصة لضروب المنكرات. . إن تاريخ اليهود في ضروب الحضارة صفر . . و(هم) لم يستحقوا أن يعدوا من الأمم المتمدنة بأي وجه " .

ويقول غوستاف لوبون أيضاً "وبقي بنوا إسرائيل حتى في عهد ملوكهم بدواً أفّاقين مفاجئين مغيرين سفاكين . . مندفعين في الخصام الوحشي"، ويقول "إن مزاج اليهود النفسي ظل على الدوام قريباً جداً من حال أشد الشعوب ابتدائية فقد كان اليهود عنذاً مندفعين غفلاً سذجاً جفاة كالوحوش والأطفال" . . "ولا تجد شعباً عطل من الذوق الفني كما عطل اليهود" [1]

([1]) انظر المركز الفلسطيني للإعلام .

إن تزوير تاريخ فلسطين القديم مسعى شرع به كتبة التوراة في العصر الفارسي الذي ساد فلسطين واستكمل في العصر الهلنستي، عندما أراد هؤلاء أن يكتبوا تاريخاً مشتهى لليهود، فنسجوا الحكايات الأسطورية عن ماض لهم مزعوم، أوقعت حقائق التاريخ في أحبولتها وما لبثت أن أسكتتها، وعلى امتداد قرون عديدة ظلت الأخيولة التوراتية هي المصدر الذي يكاد يكون وحيداً للكتابة عن تاريخ فلسطين القديم، خاصة في أزمنته التي سبقت العصر الهلنستي. أما في العصر الحديث، ومع نشوء علم الآثار وارتقاء سلطته المرجعية للتعرف على التاريخ القديم، فقد بذلت جهود محمومة للعثور على أي أثر مادي في فلسطين يثبت صدق المرويات التوراتية ويمنحها الشرعية التاريخية، ولكنهم لم يجدوا رغم كثرة الآثار والجهود الجبارة ، والأموال الطائلة " توجد في إسرائيل حوالي ٢٠،٠٠٠ موقع أثري معترف بها تقع تحت حماية القانون. وتتم أعمال الحفريات في عشرات المواقع من مختلف العهود التاريخية وفي جميع أنحاء البلاد كل عام.

وتقوم سلطة الآثار المكلفة بصيانة الآثار بإصدار التصاريح للحفريات لبعثات من إسرائيل ومن الخارج. وبموجب قانون الآثار الإسرائيلي يجب فحص جميع المواقع المنوي إجراء أعمال البناء فيها بحثاً عن آثار، وحفر هذه المواقع إذا اقتضت الضرورة ذلك.

ومن حق الدولة الاحتفاظ ببعض الآثار محل اهتمام الجمهور. ويتم عرض جزء من أهم هذه الآثار في متحف إسرائيل في أورشليم القدس. كما يوجد في المتحف هيكل الكتاب حيث تحفظ لفائف البحر الميت ويعرض بعضها للجمهور وتبذل جهود جبارة وأموال لصيانة وإعادة بناء مواقع أثرية قديمة. وتم فتح العشرات منها وهي من جميع الفترات التاريخية أمام الجمهور"(١)

ولما وجد دولة إسرائيل أن الأساطير التوراتية لا تثبت أمام المكتشفات الأثرية لجأت إلى عملية تزوير متعمد لتقديم شهادة مادية منقوشة على الحجر تبرهن صحة ما روته التوراة من أخبار، فكان أولاً ما اشتهر باسم نقش " دان " الذي تأكد تزويره، وما لبث أن تلاه ما عرف باسم نقش " يهوآش " الذي سقط سقوطاً ذريعاً عند فحصه علمياً على الرغم من كثرة المصدقين به.

---

(١) موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

وهكذا إذا كانت التوراة قد ثبت أمرها حديثاً على أنها سجل لتزييف تاريخ فلسطين القديم ومصادرته فإن من لا يزالون يؤمنون بصدقيتها التاريخية -أو يريدون الإيمان بذلك - يقاومون بهدف الإمعان في هذا التزييف، مرة باستنطاق اللقى الأثرية بغير ما قالته،ومرة باستحداث لقى من عدم وتقويلها كلمات وردت في الحكايات التوراتية (١)

و اتضح من خلال هذا السياق الموجز من تاريخ اليهود حقيقة دعوتهم ملكية أرض فلسطين ، وأحقيتهم بها دون المسلمين، ونحن نجيبهم على ذلك فنقول : إن كانت دعوتكم تستند إلى أنكم أول من سكن تلك الأرض ، فهذا خلاف الواقع تاريخيا ، إذ يعتبر الفلسطينيون من أول من سكن تلك الأرض ، وإن ادعيتم أن حقكم في فلسطين حق ديني ، بمعنى أن الله أورثكم تلك الأرض ، فنقول : إن دعواكم تلك في هذا الوقت لا تستند سوى إلى الأماني الكاذبات . فميراث الله لا يؤتاه إلا من قام بدينه ، ونشر شرعته ، وأنتم قد أفسدتم في الأرض ، وتنكبتم الصراط المستقيم ، والتوراة أكبر شاهد على بعدكم وضلالكم ، فمن أين لكم الحق في الوراثة الدينية ، فأما تاريخيا فلما سبق وقلناه أن الفلسطينيين هم من أول من سكن أرض فلسطين . (٢)

وأما أحقية وراثة الأرض دينيا فالأمر ليس بالأماني إنما التمسك بدين الله وشرعه .

{ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا } (النساء : ١٢٣)

فالمتمسكون بدين الله وشرعه ، أحق بوعد الله ، قال تعالى :

{ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } (الأعراف:١٢٨)

***

(١) انظر المركز الفلسطيني للإعلام .

(٢) " اليهود واليهودية " الشبكة الإسلامية. السبت : ٢٠٠٢/١٠/١٢

الفصل الثامن

حياة اليهود في الجيتو

يمكن تقسيم تاريخ الجماعات اليهودية إلى عدة حقب تميزت كل جماعة بسمات عامة مشتركة بتأثر هذه الحقبة أو تلك وهذه السمات ليست قانونا علميا إنما هي أداة تحليلية تهدف لإبراز السمات المميزة لهذه الجماعة أو تلك مع الأخذ في الاعتبار أن هناك من أفراد الجماعة من لا تنطبق عليه هذه السمات ، وحتى الغالبية التي تتسم بهذه السمات تختلف من حيث درجاتها تبعا لظروف وخصائص كل شخصية فردية .

والقرآن الكريم يعلمنا الموضوعية في الحكم على الجماعات فلا نعمم الأحكام على كل الأشخاص فليس كل يهودي مثلا عدواني أو بخيل أو استغلالي إنما هذه الصفات قد تغلب على جماعة معينة في زمان ومكان معينين .

السمات العامة ليهود الشتات " دياسبورا " :

تعَرَّض اليهود - كما سبقت الإشارة - إلى النفي القهري على يد البابليين والآشوريين والرومان ويمكن رصد ثلاث سمات عامة ليهود الشتات هي :

أولا : العزلة :

عاش اليهود تاريخهم كله في عزلة وترجع التوراة وهي السجل السياسي لتاريخ اليهود تاريخ هذه العزلة الاختيارية إلى فترة إقامة بني إسرائيل في مصر حيث رسم لهم يوسف خطة الهجرة من أرض كنعان ، كما دبر لهم الإقامة في أرض مستقلة بهم مستغلا تقدير فرعون له ، وما إن ذهب يوسف وذهب النفوذ العبراني في الحكم اللذان ضمنا لهم استمرار هذه الميزة بما ترتب عليها من ثراء وجاه حتى

كلفهم فرعون مصر في مهنة الزراعة وصناعة البناء اللتين كانتا الصناعتين الرئيستين في مصر ، وقد اعتبروا هذا التكليف تعذيبا وعبودية وفكروا في الخروج من مصر ، وأضفوا على أمانيهم ورغباتهم قدسية إلهية تستر ما يخفونه من تآمر على أبناء الشعب المصري .

وقد أخذ الوجود اليهودي داخل المجتمعات القديمة وفي العصور الوسطى أشكالا متعددة مثل : حارة اليهود في مصر ، وقاعة اليهود أو المسبتة في اليمن والمِلاح في المغرب ، ويعتبر الجيتو أشهر الأشكال الانعزالية اليهودية في العالم بحيث أصبح يطلق على سبيل التعميم على كل شكل من أشكال الحياة اليهودية الانعزالية وسط الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيهم . والجيتو عبارة عن حي أو عدد من الشوارع المخصصة لإقامة اليهود .

الجيتو إذن يشكل مسألة حيوية بالنسبة لليهودي لا يضمن بقاءه وحسب وإنما مكانته وهويته أيضاً. ومما دعم الحاجة إلى الجيتو مجموعة الشعائر اليهودية الخاصة، مثل: قوانين الطعام، وتحريم الزواج المختلط ، وعدم شرب خمر صنعها واحد من الأغيار، والختان، والنصاب اللازم لصلاة الجماعة، وعادات الدفن والمدافن ، وشعائر السبت " (1)

نتائج العزلة على يهود الجيتو :

كان لعزلة يهود الشتات في الجيتو نتائج مهمة أثرت تأثيرا كبيرا في شخصية يهود الشتات من هذه النتائج :

١- قللت العزلة من اختلاط اليهود بغيرهم من الجماعات مما ولد الشبهات تجاه اليهودي .

٢- نظرا لضيق المساحات المخصصة لسكن يهود الجيتو فإن الكثافة السكانية في أحياء اليهود كانت عالية مما أدى إلى انحطاط وتدهور المستوى الاجتماعي لحياة اليهود ، وتفشي الأمراض فيهم ، وتراكم القاذورات مما أثر تأثيرا عميقا على

---

(1) لمزيد من التفصيل الرجوع لكتاب " الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية " د.رشاد الشامي دار الهلال .و " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " د . عبد الوهاب المسيري م ٤ / ج ٣ / الباب الثاني " : الجيتو : التاريخ " .مرجع سابق .

وجدان يهود الجيتو وعمّق من انفصالهم عن العالم الخارجي انحصارهم داخل عالم يتصورون أن كل ما فيه يهودي خالص .

٣- انعدام الإحساس بالأمن لدى اليهودي خارج أسوار الجيتو ، أما داخل الأسوار فكان يجد الأمن والطمأنينة .

٤- تعمق الإحساس لدى يهود الشتات بأن الجيتو هو درع الأمان للحفاظ على الجماعة اليهودية وشريعتها ، وأن هذه العزلة هي الشرنقة التي تحافظ على حياتهم الروحية إلى أن يأذن الرب بالعودة إلى أرض الميعاد ويتم الخلاص على يد الماشيح .

٥- حدّت العزلة داخل الجيتو من أوجه النشاط التي كان يقوم بها اليهود في مجال التجارة الدولية مما جعل الفقر يعم الحياة اليهودية .

ثانيا : الدين اليهودي :

السمة الثانية من السمات العامة ليهود الشتات هي الدين اليهودي ، لقد ظل الدين اليهودي لفترة طويلة منذ القرن الثاني ق. م وحتى القرن الثاني عشر الميلادي هو العامل الرئيسي في توجيه الحياة اليهودية ، وبالرغم من أن الدين اليهودي كدين سماوي يحتوي على الكثير من التعاليم السماوية التي تحض على الخير وتنبذ الشر إلا أن المحاولات التي تمت على يد حاخامات اليهود بعد أن تم تدوين التراث الشفهي اليهودي (التلمود) الذي يضم بين دفتيه اجتهادات هؤلاء الحاخامات في تفسير الدين اليهودي أدخلت إلى الدين اليهودي مجموعة من الأفكار المحورية خلقت من اليهود استعدادا للانعزال عن الأغيار وعمقت بعض العقائد لدى اليهودي مثل عقيدة " شعب الله المختار " و " العودة إلى أرض الميعاد " و " انتظار الماشيح المخلص " وغيرها من العقائد التي أكدت مع مرور الأجيال انفصالية اليهود وإحساسهم بالتميز والتفرد .

وكان اليهود يحرصون على إقامة معابدهم حيثما حلُّوا ولم يكن المعبد قاصرا على أداء الصلاة فقط بل كان يمثل المركز الديني والثقافي والتعليمي والاجتماعي ، وكان نظام التعليم اليهودي قائما على افتراض أن شريعة إسرائيل هي ذروة أعمال الرجل اليهودي في حياته ومعيارا لمركزه الاجتماعي .

في ظل هذا المناخ الانعزالي التمحور حول الدين وسلطة الحاخام وهامشية الاقتصاد المنحصر في التجارة المتجولة ، وبيع الملابس المستعملة ، وفتح الحانات ، وعملية الحياكة والصباغة والإقراض بالربا والصيرفة تبلورت السيكولوجية الأساسية لشخصية يهود الجيتو التي عانت نوعا من الانفصام في الرؤية جعل الصراع في المشاعر والتناقض الحاد في السلوك محورا رئيسيا تحددت من خلاله السمة الرئيسية لتلك الشخصية وهي : عقدة التناقض بين الشعور بالاستعلاء والشعور بالدونية والاضطهاد .

ثالثا : عقدة التناقض بين الشعور بالاستعلاء والشعور بالدونية والاضطهاد :

السمة الثالثة من السمات العامة ليهود الشتات هي عقدة التناقض بين الشعور بالاستعلاء والشعور بالدونية والاضطهاد ، فيتنازع شخصية يهود الجيتو شعوران متناقضان : شعور بالذلة والمسكنة والتشريد نتيجة الاضطهاد الذي تعرضوا له منذ السبي البابلي إلى محرقة النازي ، وشعور بالزهو والفخر ببقائهم رغم كل مشاريع الإبادة التي خططت من أجلهم فظهرت في تعبيراتهم اللغوية ألفاظا يطلقونها على أنفسهم لتؤكد هذا الغرور وتزيد من الالتحام والتضامن اللذين يربطان بعضهم ببعض وجعلوا هذه الظاهرة مرتبطة باختيار إلهي دون سائر البشر ومن هنا لا يتردد اليهود في تسمية أنفسهم " شعب الله المختار " فبهم يعاقب الله الأمم الأخرى وهم الذين يبقون وحدهم في آخر الزمان متسلطين على رقاب العالم ، وهذا الشعور يولد لديهم الإحساس بالاستعلاء العنصري على أمم العالم التي تعني – عندهم – القذارة المادية والروحية والكفر . (1)

والشعور بالاستعلاء العنصري ليهود الجيتو جاء كرد فعل لشعورهم بالذل والهوان والاضطهاد لإحداث توازن نفسي لدي شخصية يهود الجيتو فهي تمثل أحلام اليقظة التي تخفف من ضغوط الواقع المؤلم الذي كانوا يعيشونه .

ولكن هذا الاستعلاء العنصري وإن كان قد خفف من وطأة شعورهم بالذل والهوان إلا أنه كان سببا في مزيد من اضطهاد الأمم لهم لأن الاستعلاء العنصري

---

(1) لمزيد من التفصيل حول شخصية يهود الجيتو انظر كتاب " الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية " د.رشاد الشامي الفصل الأول .

اليهودي ولّد الكراهية والكراهية تغري بالاضطهاد ، وإذا باليهود يدورون والعالم على أثرهم في حلقة مفرغة من الاستعلاء والكراهية والاضطهاد مما رسخ في عقيدتهم أنهم الضحية الوحيدة لشعوب العالم على مدى التاريخ أو ما عبروا عنه حديثا بمعاداة السامية . مع أن العداء للسامية هو رد فعل لعداء اليهود لغير اليهود أو عداء السامية لغير الساميين .

ويتساءل الأديب الصهيوني " حييم برينر " عن هذه المشاعر المتناقضة داخل شخصية اليهودي في الجيتو بقوله : " من أين أتى هذا الاحتقار من جانب اليهود للأغيار والشعور بالسمو عليهم ؟ هل كان اليهودي عديم الشعور حقا وميتا إلى درجة لم يشعر معها أن حياة الأغيار أكثر غنى وأكثر جمالا من حياته ؟ كلا إن هذا مستحيل ونحن لا نستطيع أن نصدق هذا .

فإذا كان هناك احتقار للأغيار فلم يكن ذلك سوى حسد طبيعي يشعر به الفقراء تجاه الأغنياء والرهبان تجاه الفرسان والعاجز تجاه القادر .

إن هذا الاحتقار لم يكن سوى استسلام لنصيبنا في الدنيا ، وأحيانا نوع من العزاء لآمالنا في العالم الآخر يتلوه صرير أسنان وغضب داخلي عن وعي أو غير وعي " (١)

وبسبب كتب اليهود المقدسة ، وتفسيرات الحاخامات الاستعلائية العنصرية ، والانعزالية – الاختيارية أو القهرية – اتسم يهود الجيتو بسمات اجتماعية خاصة ميزتهم عن سائر المجتمعات مما جعل لهم طابعا قوميا أهم سماته الازدواجية فهو:

١- مخيف باطش بالضعفاء ذليل جبان أمام الأقوياء .

٢- يشعر بالذل والمسكنة في أعماق نفسه ومع ذلك يتظاهر بالاستعلاء العنصري أمام الأغيار .

٣- راض بما نزل به من اضطهاد ، لكنه متذمر متربص لتحقيق تمرده وثورته

٤- محب للمال حريص على جمعه من أي سبيل ، ومع ذلك يتظاهر بالقناعة والرضا بالقليل .

---

(١) هرتزبرج . أفراهام " الفكرة الصهيونية " ص ٢١٣ نقلا عن " الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية " مرجع سابق ص ٤٩

وكل من ينشأ في المجتمع اليهودي مهما كان أصله فإنه يحافظ على سماته الخاصة حتى يحوز القبول من المجتمع اليهودي .

ويؤكد ذلك علماء النفس حيث يقولون إن " الفرد يتعلم خلال عملية النمو أن يسلك ويتصرف وفقا لما يتوقعه منه المجتمع ويقبل الفرد قيم المجتمع و معاييره دون تفكير كثير ودون وعي بأن هذه المعايير تختلف عن مجتمع آخر فإذا كان المجتمع الذي نعيش فيه يقيم النظافة والسرعة والعمل الجاد فإننا نحاول أيضا أن نتحلى بهذه الخصال ويصبح الأفراد الذين يتحلون بها موضع تقديرنا وإعجابنا ... ولعل هذا يوحي بوجود طابع مميز للشخصية يميز شخصيات الأفراد في كل مجتمع من المجتمعات فنجد أن الطابع الغالب للشخصية في أحد المجتمعات هو العدوانية بينما نجد أن الطابع الغالب في مجتمع آخر برود الأعصاب وفي مجتمع ثالث السلبية ، ويتمشى ذلك مع الأفكار الشائعة عن الطابع القومي فيقال فمثلا أن الفرنسيين يختلفون عن الإنجليز وهؤلاء يختلفون عن الصينيين" (١)

يهود الجيتو والنهضة الأوربية :

بدأ عصر النهضة بسقوط الحكم الثيوقراطي في أوربا وبداية عصر العلمانية الجزئية التي تدعو إلى فصل الدين عن الدولة وتحولت الكنيسة وما يماثلها عند اليهود " وهو المعبد " إلى جمعيات حرة ووظيفية تؤدي وظيفة محددة .

وكان هناك متحمسون لهذه الديانة الجديدة العصرية ، ديانة المنطق ، وكانوا يدهشون مما يجنى من جراء التمسك بالاضطهادات القديمة ، وحارات اليهود التي هي أمور بعيدة عن التبصر .

وبالنسبة للاضطهادات الدينية سارع العقلانيون المتحررون من نير الكنيسة وتعاليمها إلى تطبيق المبدأ المذكور في موضوع الدين .

لقد اعتبروا الفرق بين الدينين : المسيحي ، واليهودي غير ذي بال في الحياة المدنية وقالوا : إذا كانت القرارات السياسية يجب أن يتخذها المواطنون باستخدام عقولهم وبتعقلهم للأمور فما يهم أن يدين المواطنون بأديان مختلفة (٢)

---

(١) د. محمد فرغلي فراج " مدخل إلى علم النفس " ص ٨٤ دار الثقافة للنشر و التوزيع .
(٢) إسماعيل راجي الفاروق " الملل المعاصرة في الدين اليهودي " ص ٣٥ نقلا عن " الشخصية اليهودية الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٦١ .

إن الدولة الوطنية العلمانية الحديثة التي ظهرت مع نهاية القرن الثامن عشر لم تكن تهتم بالمعتقدات والممارسات الدينية لمواطنيها. فإن اهتمامها بالعكس كان مرتكزا على استعدادهم للمساهمة في القضية الوطنية من خلال الخدمة العسكرية والمدنية، ودفع الضرائب، وعلى العموم، في العمل لصالح الوطن .

وكانت للدولة الوطنية العلمانية الحديثة أثر بالغ على تطور الديانة اليهودية لأن اليهود حتما طبقوا أفكار أوروبا الحديثة على القانون، والطقوس والفلسفة والأخلاق والممارسة اليومية لدينهم. وكانت النتيجة انخفاض درجة التأثير الديني على سلوكهم وازدياد الحزبية والانقسامات معا في مواجهتهم لتحديات الحداثة (١) .

كانت دعوة سبينوزا إلى العالمية وإلى التسامح، تدوي في جميع أنحاء أوربا، ولاسيما إبتداء من القرن الثامن عشر، الذي كان يعتبر "قرن النور"، في مقابل الظلمانية الدينية، فالعقلانية تفترس التقليد .

هذا الانفتاح على العالم الخارجي، بعد قرون من "الجيتو" جعل اليهودية قادرة على أن تصلح نفسها بنفسها، وأن تتجرَّد من الطقوسية البالية، ومن الجمود الذي أبَّدَ نظام التمييز، كما هي الحال في كل مجتمع مضطهد يعيش في وضع حصار. (٢)

وعندما قامت الثورة الفرنسية، ألغت كل تفرقة عنصرية تجاه اليهود وعُمم هذا الإجراء في فرنسا وفي أوربا الغربية بأجمعها . (٣)

وجد اليهود أنفسهم متحررين من القوانين المقيدة لأول مرة منذ آلاف السنين. وأنهم يستطيعون أن يعيشوا خارج الجيتو وأن يبعثوا أولادهم إلى المدارس العمومية، وأن يتعلموا أي حرفة أو مهنة، وأن يستخدموا المسيحيين، وأن يرتدوا اللباس نفسه الذي يرتديه الأوروبيون. ولم يحصروا في بيوتهم صبيحة أيام الأحد والأعياد المسيحية؛ وتم السماح لهم بالذهاب إلى الحدائق العمومية وإلى أماكن الترفيه. (٤)

---

(١)الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق . –٥٨-٦٣

(٢) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني، الفصل الثاني " من القومية إلى اليهودية الصهيونية " مرجع سابق .

(٣) أبقت أوربا الشرقية على "الجيتو" أي: مجتمعات المنبوذين، واستمر فيها إرهاق الجماعات اليهودية ..

(٤)الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص –٥٨-٦٣

ولم يكن من الممكن أن يدخل المجتمع اليهودي في أوربا الغربية في نطاق حركة التنوير أو النهضة لأنه لم يكن مهيأ لذلك ثقافيا وعاطفيا وكانت الغالبية العظمى من اليهود التي فرت إلى أوربا لازالت تعيش في عالم تظلله المعابد وروح التلمود ، ولم يكن لديهم أي علم تقريبا بالتيارات الإنسانية التي تجري في الحياة خارج أسوار الجيتو .

لكن رويدا رويدا بدأت الآراء الجديدة عن حرية الإنسان تأثر في يهود الجيتو ، ولم يَعُد كثير من اليهود أي معنى لبعدهم الزائد عن الشعوب التي بشرت بحب الإنسان وبالحرية ، وتفجرت في كل ناحية هتافات " لنخرج من الجيتو " و " لنقترب من الشعوب " و " لنتعلم لغاتهم " و " لنتثقف ونتعلم الحكمة والمعرفة " (١)

وهكذا بدأت حركة تثقيف عصرية بين يهود الجيتو كانت بدايتها في ألمانيا عبر عنها بما يسمى " حركة التنوير اليهودية " انطلق فيها دعاة حركة التنوير اليهودية من المنطلقات نفسها التي انطلقت منها حركة الاستنارة الغربية بكل محاسنها ومساوئها ولكن حركة التنوير اليهودية كان لها طابعها الخاص و موضوعاتها المتميّزة، نظراً للخصوصية النسبية للجماعات اليهودية في المجتمع الغربي . ومن أهم الموضوعات التي نادت بها :

١- رفض الشخصية اليهودية الجيتوية المتمسكة بتراثها وهويتها بشكل يفرض عليها العزلة .

٢- المطالبة بتحويل اليهود من عناصر هامشية منعزلة إلى عناصر منتجة مندمجة ، أي تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج بحيث يمكنهم التكيف مع الوضع الاقتصادي الجديد.

٣- المطالبة بضرورة تشجيع اليهود على الاشتغال بالزراعة والحرف اليدوية . ولم يكن للدعوة إلى تحديث وظائف اليهود وحرفهم ومهنهم مضمون اقتصادي وحسب وإنما كان لها مضمون ثقافي ونفسي عميق .

---

(١) باروخ يهودا " تاريخ الصهيونية " ص ٤١ نقلا عن نقلا عن " الشخصية اليهودية الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٦٣ .

٤- تشجيع الاندماج اللغوي فطالبوا بألا يستعمل اليهود اللغـة " اليديـشية " وأن يتعلموا بدلاً من ذلك اللغة الأم سواء كانت الروسية أو الألمانية أو البولندية. ذلك أن تنقية اللغة التي كان يتحدث بها اليهود كفيلة برفع مستواهم الحضاري .

٥- الدعوة إلى إحياء اللغة العبرية باعتبارها لغة التراث اليهودي الأصلي .

٦- الدعوة إلى إصلاح التربية التعليم لدى اليهود ، واعتبـروا قـضية التربيـة القضية الأساسية بسبب ما تصوروه من استغراق الجماعات اليهودية في التخلـف والخصوصية. فقد كان الاعتقاد السائد بين أعضاء الجماعات اليهودية أن التلمـود هو الكتاب الوحيد الجدير بالدراسة، وأن الدراسة العلمية غير الدينية لابد أن تبقـى ثانوية وتوظَّف في خدمة الدراسة الدينية. ونادى دعاة التنوير اليهودي بأن :-

أ- تكون المدارس التلمودية العليا (يشيفا) مدارس لإعداد الحاخامات وحدهم .

ب- تتم العملية التعليمية خارج الإطار الديني .

ج- تشمل الجماهير كلها وليس الأرستقراطية الفكرية وحدها مـن الحاخامـات وغيرهم.

هـ- يرسل اليهود أولادهم إلى المدارس غير اليهودية حتى يتقنوا كل الفنـون العلمانية، مثل الهندسة والزراعة .

و- تتاح الفرصة كاملة أمام المرأة للتعليم .

وبالفعل ، بدأت المدارس اليهودية العلمانية تظهر، لأول مرة في تاريخ الجماعات اليهودية الأوربية ، مع منتصف القرن التاسع عـشر المـيلادي ، وافتتحـت أول مدرسة يهودية لتعليم المرأة في روسيا عام ١٨٣٦. وكان دعاة التنوير يـرون أن التعليم العلماني هو الســبيل إلى تحـديث اليهود ودمجهم وعلمنتهم.

٧- إعادة كتابة التاريخ اليهودي كتابة عقلية لا دينية ، لذا انتقدوا التراث الـديني اليهودي المغرق في الغيبية واللا تاريخية .

٨- إعادة تنظيم الجماعة اليهودية من الداخل، وإلغـاء أشـكال الإدارة الذاتيـة التقليدية ، والاستجابة لدعوة الدولة المركزية إلى أن يدين المواطـنون لها وحدها بالولاء .

٩- الدعوة إلى الإصلاح الديني . فمع تغيير حياة اليهود الاجتماعية والاقتصادية ، أي بعد تحديثهم ، كان ضرورياً أن يتم تحديث الديانة نفسها حتـى لا ينـصرف عنها الشباب اليهودي الذي كان قد بدأ يتساءل عن مدى جدوى وجدية مصطلحات مثل «المنفى» أو «صهيون» أو «العودة». وقد وجه دعاة التنوير سهام نقدهم إلـى التراث القومي الديني اليهودي فاهجموا بعضه وأعادوا فهم بعضه الآخر :-

أ- هاجموا فكرة الماشيَّح وأسطورة العودة .

ب- حولوا فكرة جبل صهيون إلى مفهوم روحي أو إلى اسم المدينة الفاضلة التي لا وجود لها إلا بوصفها فكرة مثالية في قلب الإنسان .

ج- أصبح الخلاص هو انتشار العقل والعدالة بين الشعوب غير اليهودية ، ولـم يَعُد مرهوناً بالعودة إلى أرض الميعاد .

د- هاجموا التراث اليهودي الشفوي أو الشريعة الشفوية وكُتبها الدينية مثل التلمود والشولحان عاروخ ، وأبقوا على التراث اليهودي المكتوب وحده .

هـ- ذهبوا إلى أن من حقهم العودة إلى التراث الأصـلي نفـسه بـدون التقيـد باليهودية الحاخامية، كما هاجموا الحركات والكتب الصوفية العديدة التي أفرزهـا التراث اليهودي، مثل الحسيدية وكتب القبَّالاه .

و- حاولوا أن يُدخلوا نزعة عقلانية على اليهودية . (1)

وحين أصبح اليهود مُنذئذٍ مواطنين كاملِيِّ المواطنة فِي أممهم، سواء فِي أوربـا الغربية أو الوسطى، اندمجوا على إختِلاف أصـولهم فِـي الحيـاة الاجتِماعِيـة، والاقتصادية، والسياسية لبلادهم، وأسهموا فِي تطوِير الثقافة الغربيـة فِـي سـائر المجالات، ففِي الفلسفة ــ مثلاً ــ قدَّمَ سبينوزا إسهامًا عظِيمًا وأصِيلا فِـي التيـار الدِّيكارتِي، كما فسَّر المفكرون اليهود الألمان التقاليد السابقة على "كَانت"، والأمر لا يختلف عن ذلك فِي المجالات الأخرى، من شِعر هين إلى موسيقى مندلـسون، أو فيزياء آنشتين.

---

(1) انظر موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٣ / ج١ الفصل الخامس الاستنارة اليهودية مرجع سابق .

كل هذهِ الأعمال العظيمة جزء من المجال الثقافي للغرب في مجموعــه، دون أن يحمل شيء منها طابعا يهوديا، كما أنهُ لا يوجد ما يُسَمَّى بالبيولوجيا الكاثوليكيــة، مع وجود باستور، ولا فيزياء بروتستانتية مع نيوتن. (١)

أثر حركة التنوير اليهودية على الفكر اليهودي

أ- حققت حركة الإصلاح الديني نجاحاً فائقاً في ألمانيا وانتقلت منها إلى الولايات المتحدة، حيث يشكل اليهود الإصلاحيون والمحافظون الأغلبية الساحقة .

ب- فشلت حركة الإصلاح الديني تماماً في شرق أوربا. وانتشرت بدلا منها – خصوصا بين شباب اليهود – النزعتان الإلحادية والثورية.

ج- زعزعت الحركة كيان السلطة الدينية التي كانت تتحكم في اليهــود ، الأمر الذي جــعل هــذه الســلطة تقاوم التيارات التنويرية وتحاول إفشالها. وهو ما كان يضطر دعاة التنوير إلى اللجوء أحياناً إلى السلطات الحكومية لتساعدهم في فرض القيم العصرية على اليهود.

اليهودية الإصلاحية

كان لليهودية الإصلاحية في أوروبا قوة لها بعض الأهمية، لكن لم يتبنّها أبــدا معظم يهود القارة. ولكنها نمت بسرعة في الولايات المتحدة حتى أصبحت حركة دينية قوية. ومن سماتها الأمريكية المميزة التركيز على حق كل يهــودي، ومــن واجبه دراسة التناخ (العهد القديم) والتقليد ثم يتخــذ قراراتــه حــول الممارســة والطاعة الدينية المبنية على علمه الشخصي بدلا من أن يطيع فقط أوامر حاخامه.

وكانت نتيجة هذه الديمقراطية للديانة اليهودية هي تشجيع ممارسات دينية كبيرة ومختلفة. ولقد اختار كثير من اليهود الإصلاحيين إقامة الصلوات بالإنجليزية بــدلا من العبرية والالتزام فقط بالنزر القليل من الأوامر . (٢)

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني، الفصل الثاني " مــن القوميــة إلــى اليهودية الصهيونية " .مرجع سابق .
(٢) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٥٨-٦٣

اليهودية الأرثوذكسية

كان إصلاحيو أوائل القرن التاسع عشر أقلية صغيرة من يهود أوروبا . وتخلى عدد آخر منهم عن تراثهم بالكامل، وبحثوا عن الانصهار في الدولة الوطنية الأوروبية الحديثة متخذين هوية وطنية مكان هويتهم اليهودية. نظر الذين يعتقدون أن الحداثيين قد عصوا الله في رفضهم اتباع أوامر التناخ (العهد القديم) بدقة إلى كل من الإصلاحيين والانصهاريين، أو العلمانيين، بانزعاج كبير. لقد أرادوا في أول الأمر تحدي ما رأوه استخفافاً بالأوامر، وذلك بتركيزهم على أهمية الالتزام الصارم بالشريعة والطقوس اليهودية.

وبدأت بعض الجماعات اليهودية تنغلق على نفسها خوفا من خطر الحداثة الذي يهدد تلاحم الجماعة واستمرارها، وذلك من خلال تشكيل جماعات متراصة ترفض الحداثة. وقد احتج بعضهم بضرورة رفض الامتيازات التي وفرها التحرر. وأصر آخرون على الانفصال الاجتماعي والثقافي الكامل لليهود من المجتمع الحديث. كل هذه الجماعات، مجتمعة تشكل ما يسمى اليوم باليهودية الأرثوذكسية. وفرض الأرثوذكس قيودا شديدة على التفاعل الاجتماعي والثقافي مع غير اليهود ولم تكن هذه القيود معروفة لا في اليهودية القديمة ولا في يهودية القرون الوسطى. فكان إزاء أي عبث طفيف بالتقليد تتخذ قيود جديدة من أجل حماية اليهود من إغراءات الحداثة؛ وهذا وضع اليهودية الأرثوذكسية في الاتجاه المعاكس للعلمانية أو اليهودية الإصلاحية . (١)

القومية الأوربية والقومية الصهيونية

لقد كانت القومية اليهودية عندما فتح سبينوزا اليهودية على العالم ـ قد برزت على السطح مع "مسيح" كاذب هو سبتاي زفي ١٦٧٦م"، وكان الحماس لظهوره عامًا، من مراكش إلى الدانيمارك، ومن تركيا إلى فرنسا، وتهيأ المجتمع اليهودي الصغير في مقاطعة فنسان ليُنشئ مملكة يبوذا، في ربيع عام: ١٦٦٦م.

وقد إعتقِل سبتاي زفي أولاً لدى وصوله إلى الدردنيل، ثم تحوّل إلى الإسلام لقاء معونة من السلطان التركي ، بيد أن الحركة المسيحية والقومية التي كان قد أعلنها

(١) نفسه .ص ٥٨-٦٣

لم تتوقف مع ردَّتِهِ، فبعد موته بأكثر من قرن قام يهودي اسمه: يعقوب فرانك "مات عام ١٧٩١" بتقمُّص شخصية سبتاي زفي، واتبعه تلاميذ وأتباع في كل أنحاء أوربا، وحين فصله أحد المؤتمرات الربانية أعلن تحوله إلى المسيحية .

وفيما عدا هؤلاء الدجاجلة الذين ظهروا بصورة دَوْريَّة، وعبَّأوا جموعا غفيرة، وكل منهم يقدم نفسه على أنهُ "مسيح" للإصلاح "القومي" ـ نجد فيما عدا ذلك أن التقليد السائد لليهودية قد إحتفظ بالمغزى الروحي للإيمان اليهودي، باعتباره شاهدًا في جميع الأمم على التبشير بملكوت الرب .

ولكن، منذ مطلع القرن التاسع عشر، كانت جميع تيارات الفكر في أوربا - بل وتيارات الروحية اليهودية في أعلى مستوياتها ـ كانت قد انحرفت عن طريق اليهودية الروحانية بتأثير هذهِ النزعة القومية .

لقد اتجهت الصهيونية السياسية إلى أن تخلق نموذج مجتمع، يختلف إختلافًا ثابتًا عن المجتمع الديني اليهودي، كيما تقلد المفهوم الغربي للقوميةِ وللدولة، فالدولة اليهودية في الواقع مشتقة من نموذج الدول الغربية التي يعيش فيها غوييم "غير يهود" .

ولقد فعل اليهود ما فعله الأوربيون، فكما إستورد جميع القوميين الأوربيين، الإيديولوجية الرومانسية، للأمةِ القومية، حاول القوميون اليهود، رواد الصهيونية السياسية، أن يؤسسوا قوميتهم على تصوُّف يُؤْمِن بالعرق وبالأرض.

إن هذا التحول الذي أصاب اليهودية، من دين إلى قومية، كان مصحوبًا بنغمة تمجد العسكرية والعنف، شبيهة بما حدث في "القومية الجرْمانيَّة":
إن القوميةَ الصهيونية، ككل القوميات، تقوم على مجموعة من الأساطير، سواء في ذلك القومية السلافية، والألمانية، والفرنسية، والإيطالية، وسائر القوميات الأخرى، فكل همها هو أن تجد "منابع" للأصلِ المشترك، من أجل تبرير "سياسة" تنتهجها، وهي منابع: الاشتراك في الدم، والملحمة التاريخية، والرباط الجسدي بالأرض. ولقد لجأت القومية الصهيونية، كغيرها، إلى هذهِ الأساطير . (١)

ولقد أثبتت كشوف الأنتروبولوجيا الفيزيقية كذب ادعاء اليهود بأنهم ينحدرون جميعا من أصل واحد ، يميزهم عن سائر الأجناس الأخرى .

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني الفصل الثاني " القومية الأوربية والقوْميَّة الصهيونية " . مرجع سابق .

ويقول المؤرخون الأكاديميون اليهود " ، لقد استهل روفائيل بتاي مقاله عن "اليهود " في دائرة المعارف البريطانية بهذه العبارة الثمينة: " لقد ثبت من كشوف الأنثروبولوجيا الفيزيقية أنه لا يُوجَد جنس يَهوديٌّ، خلافًا للفكرة الشائعة . (١)

ورغم فشل حركة التنوير اليهودي في إنجاز كل أهدافها، فإنها تركت آثاراً عميقة في اليهودية. ولعل أهم هذه الآثار هو ظهور اليهودية الإصلاحية ودعاة الاندماج من الليبراليين والثوريين اليهود الذين طالبوا بحل مشاكل اليهود، أي المسألة اليهودية ، عن طريق الثورة الديموقراطيسة البرجوازيــة أو الثورة الاجتماعيــة الاشتراكية .

غير أن حركة التنوير مسئولة أيضاً بشكل ما عن ظهور الصهيونية فقد نادت بـ :

١- مهاجمة فكرة انتظار الماشيَّح الذي سيأتي بالخلاص، ونادوا بأن على اليهود الحصول على الخلاص بأنفسهم. وقد أزالت هذه الدعوة الحاجز الوجداني الذي كان يقف بين اليهود (المتدينين وغير المتدينين) والصهيونية، إذ أصبحت العودة إلى فلسطين ممكنة دون انتظار مقدم الماشيَّح .

٢- مهاجمة مفاهيم أخرى ، مثل العودة والشعب المقدَّس، بحيث أسقطوا البعد الديني المجازي، وكان هذا تمهيداً لتحويلها إلى مفاهيم ذات طابع دنيوي وضعي حرفي فتحوَّلت صهيون إلى موقع للاستيطان وتحوَّل الشعب المقدَّس إلى شعب بالمعنى العرْقي أو الإثني .

٣- تطبيع اليهود أي أن تكون الشخصية اليهودية شخصية طبيعية، ويصبح اليهود أمة مثل كل الأمم، وتطوَّر هذا المفهوم ليصبح الدعوة إلى تأسيس الدولة الصهيونية حتى يكون للشعب اليهودي دولته المستقلة شأنه في هذا شأن كل الشعوب .

ولقد خلقت حركة التنوير في شرق أوربا طبقة وسطى يهودية تتميز بصفتين متناقضتين هما :

أ- الولاء الكامل لتراثها الديني الغربي .

ب- التشبُّع بالأفكار السياسية والاجتماعية الغربية من قومية إلى اشتراكية .

---

(١)الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٧٠-٧٢

وهذا الازدواج الفكري، أو التعايش بين نقيضين، هو الذي أفرز القيادات والزعامات الصهيونية القادرة على التحرك في إطار معتقداتها التقليدية ، والتي تجيد في الوقت نفسه استخدام المصطلحات والوسائل العلمانية. (١)

ومن أهم أسس الازدواج الفكري لدى زعماء الحركة الصهيونية :

أ- الشعب اليهودي شعب مثل كل الشعوب، ولكنه شعب ذو رسالة خاصة وحقوق مطلقة .

ب- الشعب اليهودي يسعى لتأسيس دولة ديموقراطية مثل كل الدول الأخرى، ولكن هذه الدولة تتمتع بقداسة لا نظير لها حتى أنها تحل محل الرب في وجدان اليهود .

ج- المستوطن الصهيوني سيعمل بيديه في الأرض، ويتحرر من الاستغلال والملكية الخاصة ومن كل ما يميّز الإنسان عن أخيه الإنسان. ولكن أرضه ليست أي أرض بل الأرض المقدّسة الخاصة المقصورة عليه .

هـ- الدعوة إلى الإخاء الإنساني والعالمي ،ومع ذلك يقتل العرب ويرفض السماح لهم بأن يزرعوا الأرض معه .

٤- انتقاد مفكري حركة التنوير اليهودية الشخصية بسبب طفيليتها و هامشيتها ، وأكدوا على أهمية العمل اليدوي وطالبوا بتحويل اليهودي إلى شخصية منتجة وهذه قضية أثارها الصهاينة .

٥- بعث البطولات العبرية القديمة مثل : شمشون وشاؤول، وهي بطولات تجسّد عناصر لا عقلانية خارقة وذلك لتنفض الشخصية اليهودية عن نفسها شيئا من خنوعها وتصبح شخصية تمتلئ بالحيوية .

٦- إزكاء نيران الحب لصهيون وفلسطين وتمجيدها الأسلاف كانت بمثابة المدخل الحقيقي لانتشار المثل الأعلى القومي بين اليهود .

بعد فشل حركة التنوير في دمج اليهود في مجتمعاتهم الأوربية ، كانت هناك ردود أفعال يهودية أربعة على النحو التالي :

---

(١) انظر موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٣ / ج١ الفصل الخامس الاستنارة اليهودية. مرجع سابق .

١- ردود الفعل الفردية ، بأن يعتنق الشخص دينا آخر ، وإذا لم يكف ذلك فإنه يندمج تماما بل ويتخذ لنفسه اسما آخر لكي يمحو تماما أي أثر لأصله اليهودي

٢- المشاركة في الحركات اللبرالية أو الاشتراكية لتغيير المجتمع على أساس أن هذه التغيير سيحقق الخلاص من معاداة السامية .

٣- القومية الإقليمية أي يكون اليهود هيئة خاصة في الدول التي يعيشون فيها لها حق انتخاب جالية وممثلين لها .

٤- القومية الشاملة ، التي تجمع اليهود بهدف خلق قومية يهودية لها أرضها الخاصة (فلسطين) حفاظا على الشخصية اليهودية التي كانت في طريقها إلى الاختفاء والتصفية وهذا ما يسمى الصهيونية . (١)

وفي النهاية رفض غالبية اليهود الاندماج في المجتمعات الأوربية فاليهودي الذي يسعى لتحويل نفسه إلى يهودي هولندي أو إنجليزي أو أمريكي يشوه - في أعين الصهيونية - شخصيته اليهودية ، وأحرى به أن تنفذ عملية الاندماج على أساس قومي لا فردي فبدلا من محاولة الاندماج يجب على اليهودي أن يتحول إلى شعب يماثل الشعب الإنجليزي ، بإنشاء وطن قومي له يغدو فيه سيداً (٢)

إذن كان هناك عاملان رئيسيان عملا على حمل كثير من اليهود على اعتناق الصهيونية وهما :

١- **الاندماج اليهودي** في المجتمعات الأوربية ، الذي يهدد الهوية اليهودية .

٢- **الاضطهاد** من قِبَل المجتمعات الأوربية الذي يهدد الوجود اليهودي .

وسنبين في الفصل التالي ما هي الصهيونية ؟ وما هي أهدافها ؟ وكيف استطاعت أن تحقق هذه الأهداف .

***

---

(١) د. رشاد الشامي " الشخصية اليهودية " مرجع سابق ص ٧٢ .
(٢) فؤاد محمد شبل " مشكلة اليهود العالمية " ص ٨٨ ، نقلا عن " الشخصية اليهودية الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٧٤

الفصل السابع

الصهيونية أهدافها ووسائلها

ماهية الصهيونية

للصهيونية مفهومات عديدة ومتنوعة يمكن أن نجملها في مفهومين أساسين هما : صهيونية دينية ، وصهيونية سياسية .

أولا الصهيونية بالمعنى الديني :

تشير كلمة " صهيون " في التراث الديني اليهودي إلى جبل صهيون والقدس، بل إلى الأرض المقدّسة ككل، ويُشير اليهود إلى أنفسهم باعتبارهم " بنت صهيون ". كما تُستخدَم الكلمة للإشارة إلى اليهود كجماعة دينية .

والواقع أن أتباع عقيدة العودة إلى صهيون يؤمنون بأن الماشيح المخلِّص سيأتي في آخر الأيام ليقود شعبه إلى صهيون (الأرض ــ العاصمة) ويحكم العالم فيسود العدل والرخاء. وقد وردت إشارات شتى في الكتاب المقدّس إلى هذا الارتباط بصهيون الذي يُطلَق عليه عادة " حب صهيون "، وهو حب يعبِّر عن نفسه من خلال الصلاة والطقوس الدينية المختلفة، وفي أحيان نادرة على شكل الذهاب إلى فلسطين للعيش فيها بغرض التعبد. ولذا كان المهاجرون اليهود الذين يستقرون هناك لا يعملون ويعيشون على الصدقات التي يرسلها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم.

وقد كان العيش في فلسطين يُعَد عملاً من أعمال التقوى لا عملاً من أعمال الدنيا، وجزاؤه يكون في الآخرة أو في آخر الأيام، ولذا فإنه لا تربطه رابطة كبيرة بالاستيطان الصهيوني، وخصوصاً أن اليهودية الحاخامية (الأرثوذكسية) تُحرِّم محاولة العودة الجماعية الفعلية إلى فلسطين وتعتبرها تجديفاً وهرطقة ومن قبيل " التعجيل بالنهاية ". فاليهودية تؤمن بأن العودة إلى أرض الميعاد ستتم في الوقت

الذي يحدده الرب وبطريقته، وأنها ليست فعلاً بشرياً يتم على يد البشر. وهذه النزعة الصهيونية الدينية لا علاقة لها بالاستيطان الصهيوني الفعلي والمادي في فلسطين. (١)

ثانيا الصهيونية السياسية :

كان الوهن الذي دب في أوصال الدولة العثمانية (رجل أوربا المريض) قد بدأ يظهر ويتضح، وكانت كل القوى الغربية تفكر في طريقة للاستفادة من هذا الضعف لتحقق لنفسها بعض المكاسب. وقد أخذ هذا شكل الهجوم المباشر من روسيا التي ضمت بعض الإمارات التركية على البحر الأسود، ثم هجوم نابليون على مصر، بينما قررت إنجلترا، ومن بعدها ألمانيا (في مراحل مختلفة) الحفاظ على هذه الإمبراطورية مع تحقيق المكاسب من خلال التدخل في شئونها و"إصلاحها" حتى تقف حاجزاً ضد أي زحف روسي محتمل.

ولعل أهم حقيقة سياسية في هذه المرحلة هي ظهور محمد علي المفاجئ وقيامه بتكوين إمبراطوريته الصغيرة. فقد قلب موازين القوى وهدد المشروع الاستعماري الغربي الذي كان يفترض أن العالم كله إن هو إلا ساحة لنشاطه وسوق لسلعه، ووضع حداً لآمال الدول الغربية التي كانت تترقب اللحظة المواتية لاقتسام تركة الرجل المريض المحتضر. ولذا تحالفت الدول الغربية كلها، ومنها فرنسا، وعقدت مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ وقررت فيه الإجهاز عليه، فاضطرته إلى التوقيع على معاهدة لندن لتهدئة المشرق.

وعند هذه النقطة تبلورت الفكرة الصهيونية بين غير اليهود، وتحوّلت من مجرد فكرة إلى مشروع استعماري محدد، إذ بدأت تُطرَح فكرة تقسيم الدولة العثمانية ومن ثم اكتسبت الصيغة الصهيونية الأساسية مضموناً تاريخياً وبُعْداً سياسياً، وأصبح بالإمكان دمج المسألة اليهودية (مسألة الشعب العضوي المنبوذ) مع المسألة الشرقية (تقسيم الدولة العثمانية) وطُرحت إمكانية توظيف الشعب المنبوذ وبدأ التفكير في

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" م٦ ج١ الباب الأول التعريف بالصهيونية. مرجع سابق.

حل المسألة اليهودية عن طريق نَقْل اليهود إلى فلسطين وإيجاد قاعدة للاستعمار الغربي .

ويمكن أن نرصد عدة مراحل مرت بها الصهيونية السياسية هي :

١- أصبح مفهوم الصهيونية مفهوماً أساسياً في الخطاب السياسي الغربي عام ١٨٤١ مع نجاح أوربا في بلورة مشروعها الاستعماري ضد العالم العربي والإسلامي الذي حقق أول نجاح حقيقي له في القضاء على مشروع محمد علي في تحديث مصر والدولة العثمانية، ومع تفاقم المسألة اليهودية التقت المسألة الشرقية بالمسألة اليهودية وساد التصوُر القائل بإمكان حل المسألتين من خلال دمجهما .

٢- تمت بلورة المفاهيم الصهيونية وملامح المشروع الصهيوني بشكل كامل في الفترة بين منتصف القرن التاسع عشر وعام ١٨٨٠ على يد المفكرين الصهاينة غير اليهود لورد شافتسبري ولورانس أوليفانت. وقد لخص شافتسبري التعريف الغربي لمفهوم الصهيونية في عبارة أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض (في كلمات تقترب كثيراً من الشعار الصهيوني). وقد حاول أوليفانت أن يضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ .

٣- بدأت النزعات الصهيونية تظهر بين اليهود أنفسهم في أواخر القرن التاسع عشر مع تفاقم المسألة اليهودية، وعبَّرت عن نفسها في بادئ الأمر عن طريق المساعدات التي كان أثرياء اليهود في الغرب يدفعونها للجمعيات التوطينية المختلفة التي كانت تهدف إلى توطين يهود شرق أوربا في أي بلد (ويشمل ذلك فلسطين) حتى لا يهاجروا إلى غربها فيعرِّضوا مكانتهم الاجتماعية وأوضاعهم الطبقية للخطر .

٤- وقد قام هرتزل بصياغة المفهوم والعقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية الذي تتعهد بمقتضاه الحضارة الغربية بأن تقوم بنقل اليهود إلى فلسطين وتأسيس دولة وظيفية لهم فيها، ورعايتها وحمايتها وضمان بقائها واستمرارها نظير أن يقوم اليهود على خدمة مصالح الغرب .

٤- تبلور المفهوم الغربي للصهيونية تماماً في وعد بلفور الذي مُنح "للشعب اليهودي" والذي أشار للعرب باعتبارهم الجماعات غير اليهودية، أي أن اليهود أصبحوا شعباً بلا أرض وفلسطين أصبحت أرضاً بلا شعب .

٥- وفي الوقت الحاضر، فإن كلمة " صهيونية " تعني في العالم العربي "الاستعمار الاستيطاني الإحلالي في فلسطين الذي ترسَّخ بدعم من الغرب". وتحمل الكلمة إيحاءات دينية لدى كثير من العرب المسلمين أو المسيحيين الذين يرون أن الصراع العربي/الإسرائيلي صراع ديني .

ويُلاحَظ أن كثيراً من الأُسس التي تستند إليها الصهيونية السياسية قد اختفى بفعل التطورات التاريخية. فيهود العالم الغربي قد تناقص عددهم واندمجوا بشكل شبه تام في مجتمعاتهم، ولم يَعُد هناك مجال للحديث عن "عدم نفعهم". كما أن عملية نَقْل اليهود ونفي العرب اكتملت معالمها إلى حدٍّ كبير، وخصوصاً أن الترانسفير بعد تأسيس الدولة أصبح عملية هجرة تتم في ظلال قانون العودة .

أما بالنسبة للسكان الأصليين فقد تم نفي غالبيتهم عام ١٩٤٨، ولكن بعد عام ١٩٦٧ أصبح من الصعب التخلص منهم. وما تبقَّى من الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة هو دولة وظيفية يدعمها الغرب ويضمن بقاءها وتقوم هي على خدمته وعلى تجنيد يهود العالم وراءها لخدمتها وخدمة العالم الغربي ، وهذا ما يُشكِّل أساس الإجماع الصهيوني . (١)

تظل الصهيونية السياسية حتى نهاية القرن التاسع عشر مجرد فكرة، ولكنها تتحول إلى حركة منظمة بعد مرحلتي : هرتزل ، وبلفور ومضمونها أن يتم التوظيف من خلال دولة وظيفية على أن تشرف على العملية إحدى الدول الاستعمارية الكبرى في الغرب التي تؤمِّن للمستوطنين موطئ قدم وتضمن بقاء واستمرار الدولة الوظيفية الاستيطانية. ومع وعد بلفور، يصبح المكان الذي ستقام فيه الدولة الوظيفية هو فلسطين .

---

(١) لمزيد من التفصيل حول الصهيونية راجع د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٦ ج١ الباب الأول التعريف بالصهيونية -مرجع سابق .

ويمكن تقسيم الصهيونية السياسية إلى ضربين أساسيين : صهيونية توطينية وأخرى استيطانية، لكل اتجاهه وتاريخه وجماهيره :

١ - **صهيونية توطينية** : وجمهور هذه الصهيونية هم مؤيدو المشروع الصهيوني في العالم الغربي ويهود الغرب الذين يؤيدون المشروع الصهيوني ولكنهم لا ينوون الهجرة، وهم يشكلون غالبية يهود وصهاينة العالم، وكذلك كل يهود غرب أوربا والولايات المتحدة تقريباً .

٢ - **صهيونية استيطانية** : وقد ظهرت في بداية الأمر على هيئة صهيونية تسللية ثم تحوّلت إلى صهيونية استيطانية بعد مرحلة هرتزل وبلفور. وأهم التيارات الاستيطانية التيار العمالي، ويأتي معظم الصهاينة الاستيطانيين من يهود شرق أوربا . (١)

ولم يهدأ الصراع تماماً بين التوطينيين والاستيطانيين. فحتى عام ١٩٤٨، كان الصراع يدور حول من يتحكم في المنظمة وحول تحديد أهداف المشروع الصهيوني. أما بعد عام ١٩٤٨، فإن مجال الصراع أصبح تعريف اليهودي (الديني والعلماني) إذ حُسمت قضية التحكم في المنظمة لصالح المستوطنين تماماً، ولم يعد الصهاينة التوطينيون يهتمون بها . (٢)

اليهودية ديانة سماوية كغيرها من سائر الديانات السماوية الأخرى ، أما الصهيونية فحركة سياسية عنصرية متطرفة ومن حسن الحظ أن كثيرا من اليهود ليسوا صهاينة .

وعندما أراد تيودور هرتزل أن يؤسس إسرائيل عارضه معظم الحاخامات ؛ فالصهيونية ما هي إلا هذه البدعة المتشددة العظمى التي غيرت الرسالة الإلهية بإعطائها هذا التبرير الأيديولوجي لقومية عدوانية ، وتم تبديل إله إسرائيل بدولة إسرائيل .

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود والصهونية " م٦ ج١ الباب الأول التعريف بالصهيونية . مرجع سابق.

(٢) نفسه م٦ ج٢ الباب الأول تاريخ الصهيونية . مرجع سابق .

إن المطلب الوارد في التوراة عن إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات هو أساس قائم على قراءة متطرفة للتوراة أي قراءة تحريفية تحول الأقوال العظيمة التي قالها الآباء الكهنة والرسل لتجعل منها تاريخا قوميا وحتى قبليا .

إن هذا المطلب هو بدعة تدعم السياسة الصهيونية . وهي تؤدي إلى المفارقة التالية ، فحَسَب إحصاءات الحكومة الإسرائيلية فإن ١٥ % فقط من الإسرائيليين متدينون وبالرغم من ذلك فإنها تحاول أن تجعل الغالبية العظمى من الشعب يؤمن بأن هذه الأرض – الممتدة من النيل إلى الفرات – ملك له لأن الله قد وعده بها هذا الإله الذي لا يؤمن به الشعب .

إن بن جوريون الكافر هو الذي أطلق هذا الشعار المذكور . في إسرائيل يقدمون لهم التوراة عن مملكة داود الثالثة ، وعندما يستدعون الشباب للجندية في إسرائيل يقدمون لهم التوراة وفيها خريطة عن إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، ويقولون إن تفكك المستوطنات خيانة كبرى لليهودية (١) .

فالصهيونية عقيدة قومية لم تولد من الديانة اليهودية بل من القومية الأوربية في القرن التاسع عشر ، ولم يحرك مؤسس الصهيونية هرتزل دافع ديني بل عقيدة سياسية قومية استعمارية فهو يقول في يومياته :

" إنني لا أنقاد لأي دافع ديني .. فأنا لا غنوصي (أي أنه من اللاأدرية) (٢)

فهو لاتهمه الأرض المقدسة بوجه خاص فهو يقبل أيضا ومن أجل أهدافه القومية الاستعمارية بأوغندا أو طرابلس أو قبرص أو الأرجنتين أو موزمبيق أو الكونغو .. ولكن أمام معارضة أصدقائه من اليهود فإنه يعي أهمية الأسطورة القوية التي " تمثل صيحة للمّ الشعث ذات قوة لا تقهر " (٣)

(١) رجاء جارودي " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ . مرجع سابق .
(٢) تيودور هرتزل " اليوميات " طبعة فيكتور جولانسز نقلا عن " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص ١٨
(٣) نفسه ص ١٨

فالصهيونية عقيدة سياسية ، وقومية عنصرية ، وأيديولوجيا استعمارية تلك هي الخصائص التي تشرح السياسة الصهيونية التي انتصرت في مؤتمر بازل في أغسطس ١٨٩٧ م .

ولكن هذه العملية السياسية والقومية والاستعمارية لم تكن بأي حال تمثل روحانية الديانة اليهودية ، ففي نفس وقت انعقاد مؤتمر بازل انعقد مؤتمر في مونتريال في أمريكا جاء في بيانه الختامي :

" إننا نشجب تماما أي مبادرة تهدف إلى إنشاء دولة يهودية ، وإن أي محاولات من هذا القبيل تكشف عن مفهوم خاطئ لرسالة إسرائيل .. التي كان الأنبياء اليهود هم أول من نادى بها .. ونؤكد أن هدف اليهودية ليس بهدف سياسي ولا قومي ، ولكن روحي .. (١)

في هذا المؤتمر تمسك اليهود بروحانية اليهودية ، واعترضوا على المنحى الذي سلكه هرتزل في مؤتمر بازل الذي انتقى من الديانتين اليهودية والمسيحية ما يبرر أهدافه السياسية الاستعمارية " فهو يشير إلى عصر مسيحي حيث يعترف كل الناس بأنهم ينتمون إلى طائفة واحدة كبرى لإنشاء مملكة الرب على الأرض " (٢)

وهكذا كان رد الفعل الأول للمنظمات اليهودية ابتداء من " رابطة حاخامات ألمانيا " وحتى " الاتحاد الإسرائيلي العالمي لفرنسا " و " الاتحاد الإسرائيلي في النمسا " وكذلك الرابطات اليهودية في لندن .

وهذه المعارضة حيال الصهيونية السياسية المستوحاة من التمسك بروحانيات الديانة اليهودية ، ما فتئت تعبر عن نفسها حتى في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، عندما استغلت الصهيونية الإسرائيلية مرة أخرى المخاصمات والمشاحنات التي دارت بين الدول في الأمم المتحدة ، ولا سيما التأييد غير المشروط من الولايات المتحدة لكي تفرض نفسها كقوة مهيمنة ، وتمكنت بفضل مختلف أنواع اللوبي من

---

(١) المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين الكتاب السابع ١٨٩٧ ص ١٢ نقلا عن " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٢١

(٢) نفسه ص ٢١ .

عكس الاتجاه وإنجاح سياسة القوة الإسرائيلية الصهيونية على العكس ما كان متوقعا ولكنها مع ذلك لم تفلح في تكميم نقد كبار الروحانيين .

نقول هذا لأن كثيرا من الكتابات العربية والإسلامية تخلط خلطا فاضحا بين اليهودية كديانة والصهيونية كسياسة ، فالصهيونية قراءة مغلوطة ومتعصبة لليهودية ومن الخطأ الفاضح وسم الجماعات اليهودية كافة بميسم واحد ، ووصفها جميعا بصفات واحدة تميزهم عن سائر البشر " وغني عن القول أن هذا المفهوم يُفسِّر الواقع كله بصيغة واحدة بسيطة جاهزة، ومن ثم فهو يتجاهل واقع أعضاء الجماعات اليهودية المُركَّب غير المتجانس، وهو واقع لا يخضع لقانون عام ولا ينضوي تحت نمط متكرر واحد. " (١)

الأهداف الاستراتيجية للصهيونية السياسية :

لكل حركة أو تنظيم أهداف يسعى لتحقيقها ولما كانت الصهيونية تقوم على الفكر الغربي العلماني الاستعماري الذي يهدف إلى التخلص من العناصر اليهودية المنبوذة بتوطينهم في فلسطين – كما بينا – لذا جاءت أهداف الصهيونية في صالح الغرب المسيحي الاستعماري ومن تحالف معهم من اليهود الرأسماليين وليس في صالح اليهود بعامة .

ولقد اعتقد الكثير أن الصهيونية حركة يهودية دينية ، وأن كلمة صهيوني مرادفة لكلمة يهودي والذي أوقع الكثير في خطأ قصر الصهيونية على اليهود فقط أن أشهر الأسماء التي ارتبطت بالصهيونية السياسية كانت يهودية مثل : تيودور هرتزل ، اللورد روتشيلد ، حاييم وايزمان ، ناحوم جولدمان ، بن جوريون والدارس لحياة هؤلاء الأشخاص وغيرهم من اليهود الصهاينة يتضح له أنهم جميعا ينطلقون من أيديولوجية علمانية غربية لا تحركها إلا دوافع مادية نفعية لا دينية ولقد واجه هؤلاء الصهاينة اعتراضات كبيرة من اليهود المتدينين – كما بينا – ونظرة إلى أهداف الصهيونية التي تحققت يتبين لنا جليا لمصلحة من كانت الحركة الصهيونية تهدف ، ويمكن أن نجمل أهداف المخطط الصهيوني في الآتي :

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م ٢ / ج ١ " طبيعة اليهود " . مرجع سابق .

١- تخلص الغرب من مشاكل اليهود على كافة المستويات : القومية ، والسياسية ، والاقتصادية ، تلك المشاكل التي باتت تهدد النهضة الغربية .

٢- نقل دور اليهود كجماعة وظيفية كانت تقوم بدور تسخير الطبقات الشعبية الدنيا لصالح الطبقة الأرستقراطية الحاكمة إلى فلسطين لتسخير العرب لتحقيق المصالح الغربية الاستعمارية التي تتمثل في :

أ- السيطرة على موارد العرب الطبيعية وخاصة البترول الذي يعد أمرا حيويا لمنظومة الصناعة في الغرب .

ب-السيطرة على الأسواق العربية التي تعد أهم المنافذ لتسويق السلع الغربية (من الإبرة للصاروخ) .

ج- استثمار رأس المال الغربي في البلاد العربية التي تعد أصلح المناطق لاستثمار هذه الأموال نظرا لتوفر العمالة الماهرة الرخيصة ، والموارد الطبيعية ، والقرب من منافذ تسويق السلع المنتجَة .

٣- تمزيق الخلافة الإسلامية ، وضرب المشروع العربي الإسلامي الذي بدأه محمد علي والذي بات يهدد أوروبا والعمل على إجهاض أي مشروع عربي أو إسلامي مزمع قيامه .

٤- العمل على تحقيق النبوءة المسيحية بالخلاص ونزول المسيح المخلص والتي لا تتم إلا بقيام دولة صهيون في أرض الميعاد .

٥- إبادة اليهود وغيرهم من غير المسيحيين " فما تضمره المسيحية الإنجيلية، أو المسيحية الصهيونية أو الصهيونية المسيحية هو دعوة اليهود إلى العودة إلى أرض الميعاد – فلسطين – تمهيداً إما لتنصيرهم أو لإبادة معظمهم "(١)

هذه هي أهم أهداف الصهيونية وهي في عمومها تصب في صالح الغرب المسيحي في المقام الأول والأخير .

(١) حوار مع المسيري " قناة الجزيرة " .

إن الدولة الصهيونية، في واقع الأمر، ما هي إلا أداة في يد الاستعمار الأمريكي على وجه الخصوص، والغربي على وجه العموم، وهذا هو العدو الحقيقي الذي يحاول أن يفرض منظومته على العالم فيُحوِّله إلى سوق ومصنع، والدولة الصهيونية هي الوسيلة والجزء وليست الغاية والكل ... ولعل موقف بلفور (وكل الصهاينة من غير اليهود) هو خير تعبير عن هذا الموقف الذي ينم بلا شك عن تسامح مع اليهود حيث وقف إلى جوارهم حتى أعلن الوعد المعروف باسمه عام ١٩١٧. ولكن من الواضح أن تسامحه هذا نابع من رغبته في وضع اليهود في خدمة المصالح الإمبريالية البريطانية بحيث يحولهم إلى أداة لقمع العرب واغتصاب أرضهم. ومن ثم، نجد أن بلفور المتسامح هو نفسه الذي حاول أن يوقف هجرة يهود اليديشية إلى إنجلترا، واستصدر من القوانين ما يكفل ذلك حينما كان رئيساً للوزراء. فكأن تسامحه مع المشروع الاستيطاني الصهيوني تعبير عن رغبته الصادقة في التخلص منهم وتوظيفهم. ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن نابليون بونابرت وغيره من الزعماء الغربيين ممن أبدوا تسامحاً كبيراً تجاه اليهود." (١)

الدليل على خضوع اليهود للمخطط الغربي الإمبريالي

ودونك هذه الأدلة التي تؤكد فكرة تبعية اليهود للمخطط الغربي الإمبريالي وليس العكس :

١- فكرة الصهيونية السياسية فكرة غربية مسيحية وليست فكرة يهودية بل إن معظم الحاخامات رفضوها وناصبوها العداء ؛ لأنهم وجدوها قراءة مغلوطة ومتعصبة للديانة اليهودية ، فإذا كانت الديانة اليهودية تدعو إلى العمل بشريعة الرب وهدي الأنبياء لاستحقاق اختياره وتحقيق وعوده والخلاص على يد الماشيخ ، فإن الصهيونية ما هي إلا تلك البدعة المتشددة التي استبدلت بالرسالة الإلهية قومية عنصرية ، وبإله إسرائيل دولة إسرائيل ، وبهداية الأنبياء العظام ضلال السياسيين اللئام ، وبانتظار الماشيخ المخلص السعي للحصول على الخلاص بالعنف والإرهاب .

(١) د . عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م ٢ / ج ٣ .مرجع سابق .

٢- رفض أمريكا ومعظم دول أوربا فتح أبوابها لليهود أثناء المرحلة النازية التي عملت على إبادة أعداد كبيرة من اليهود ، بسبب سوء حالة الاقتصاد الأمريكي آنذاك والخوف من تسلل الجواسيس الألمان لأمريكا ففضلت أمريكا مصلحتها الاقتصادية والأمنية وأغلقت الأبواب في وجه اليهود .

٣- إسراع أمريكا بالاعتراف بدولة إسرائيل فور إعلانها رغم أن اللوبي الصهيوني آنذاك كان ضعيفا في مقابل اللوبي اليهودي المعادي للصهيونية الذي كان لا يزال قويا إذ كان يضم عددا كبيرا من أثرياء اليهود المندمجين ، وهذا يعني أن المصالح الأمريكية هي ما تسعى أمريكا لتحقيقه بغض النظر عن أية ضغوط يهودية أو إعلامية .

٤- حينما تصرفت إسرائيل دون إذن من أمريكا ، ودون مراعاة لمصالحها في حرب السويس سنة ١٩٥٦م أجبرت أمريكا إسرائيل على الانسحاب من سيناء التي كانت قد احتلتها . إذ أن المصلحة الأمريكية آنذاك كانت تقضي بإجلاء الاستعمار القديم (انجلترا وفرنسا) من منطقة الشرق الأوسط لتحل محله .

٥- لم تقدم إسرائيل على القيام بحرب ٥ يونيو ١٩٦٧ إلا بعدما أن أضاءت لها أمريكا الضوء الأخضر لأن السياسة الأمريكية آنذاك كانت تريد التخلص من جمال عبد الناصر الذي أدخل عدوها اللدود الاتحاد السوفييتي في المنطقة ، والذي عملت سياسته على زيادة نفوذه فيها ، ومحاربة المصالح الأمريكية عن طريقه .

٦- شهدت الفترة من ١٩٦٧- ١٩٧٤ تنامي العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية في فترة حكم نيكسون الذي لا يكن حباً خاصاً لليهود .

٧- ضغط أمريكا في عهد كاتر على ساسة إسرائيل لتوقيع معاهدة السلام وإعادة كل سيناء لمصر والتعهد باستمرار المفاوضات من أجل سلام شامل في المنطقة وإعادة كل الحقوق لأصحابها لكن حكام العرب – عدا الرئيس السادات – قد فوتوا على أنفسهم فرصة ذهبية يصعب تكرارها .

٨- إن سياسة إنجلترا أكثر اقترابا من السياسة الأمريكية وأكثر دعما لإسرائيل رغم الضعف الشديد للجماعة اليهودية في انجلترا ، في مقابل أن سياسة فرنسا أكثر ابتعادا عن السياسة الأمريكية رغم أن جماعة اليهود في فرنسا تعدادها ٧٠٠ ألف يهودي وهي جماعة ذات نفوذ قوي في الإعلام وغيره . مما يؤكد أن الجماعة

اليهودية في الغرب لا تأثير لها يذكر في المخطط الغربي الاستعماري بل هم يمثلون أحد أدوات هذا المخطط .

٩- وقوف أمريكا في وجه إسرائيل حينما حاولت الاستقلال النسبي عنها وظهر هذا جليا في قضية " جوناثان بولار " الأمريكي اليهودي الذي تجسس لحساب إسرائيل ، وكان رد الفعل المؤسسة الأمريكية حاسما ، إذ قبض على بولار وأدخل السجن لمدة عشرين عاما وأُجري تحقيق في إسرائيل لتحديد المسئولية ، كما أن الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ثارت ثائرتها ضد إسرائيل ، ورفض كل من بوش ، وكلينتون العفو عن بولار رغم إلحاح اللوبي الصهيوني في ذلك .

كذلك رفض أمريكا السماح لإسرائيل بإنتاج " طائرة اللافي " محليا في إسرائيل وبمساعدة أمريكي .

١٠- أثبتت حرب الخليج الثانية (التي بدأت بالاحتلال العراقي للكويت) بما لا يدع مجالا للشك أن إسرائيل لا تتحرك إلا في إطار المصالح الغربية وليس في إطار المصالح اليهودية أو الصهيونية ، فإسرائيل قد أعدها الغرب للقيام بالدور العسكري لصالح الغرب في المنطقة العربية ، وكانت إسرائيل تأمل أن تقوم بدورها في حرب صدام حسين خاصة أنه هددها بحرقها بسلاحه الكيماوي قبل غزوه للكويت بزمن ، لكن جاء قرار أمريكا بعدم مشاركة إسرائيل في هذه الحرب حتى لا تستثير حفيظة الشعوب العربية الكارهة لإسرائيل ضد أمريكا وحلفائها ، وتتعاطف مع صدام الذي سيظهر بدور البطل العربي الشجاع الذي يحارب أمريكا وإسرائيل . وقد حاول صدام أن يستثير حفيظة إسرائيل لدفعها في الدخول في المعركة ليكسب تأييد الشعوب العربية فضربها بعدة صورايخ " سكود " ، ولكن إسرائيل وبضغط من أمريكا لزمت الصمت ، وامتثال إسرائيل لأوامر أمريكا في هذا الظرف يؤكد مدى ذكاء اليهود الصهاينة في معرفة قواعد اللعبة السياسية ، بعكس كثير من حكام العرب وعلى رأسهم صدام حسين . (١)

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول تبعية اليهود للمخطط الغربي وليس العكس الرجوع إلى كتاب " اليد الخفية " د. عبد الوهاب المسيري الفصل الخاص باللوبي اليهودي والصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

آليات تنفيذ المخطط الصهيوني

أعلن هرتزل هدف الصهيوينة في مؤتمر بازل قائلا : "إن الصهيونية تستهدف أن تُنشئ للشعب اليهودي، وطناً في فلسطين، مضموناً بوساطة القانون العام .

وللوصول إلى هذا الهدف يُطالب المؤتمر بالوسائل الآتية :

١ــ تطوير استعمار فلسطين على أحسن وجه، بالمزارعين والمِهَنيِّين، والتجار اليهود .

٢ــ تنظيم اليهود، وتوحيدهم في العالَم أجمع، في تشكيلات محلية أو قومية، تبعًا لقوانين كل بلد .

٣ــ تقوية الشعور القومي اليهودي، ووعيهم بأنهم قومية.

٤ــ المساعي التحضيرية للحصول على موافقة الحكومات، التي هي ضرورية لبلوغ أهداف الصهيونية .

وقد ظل هذا البرنامج دستور الحركة الصهيونية حتى المؤتمر الثالث والعشرين الصهيوني عام ١٩٥١، في أورشليم، حيث صيغت الأهداف بطريقة جديدة .

ولقد اعتمدت الصهيونية في تحقيق استراتيجيتها الاستيطانية على :

١ - نصوص الكتاب المقدس بعهديه القديم (التوراة) والجديد (الإنجيل) .

استعارات الصهيونية السياسية الفكرة الأساسية من الصهيونية الدينية التي كانت منتشرة في القرون الوسطى . وطورت فكرة عودة اليهود الحتمية من التشتت في الكرة الأرضية إلى جبال صهيون في أورشليم أي إلى أرض الأجداد معتمدا على أمور الدين اليهودي المُسلَّم به ، ومعتمدة على ما جاء في الكتاب المقدس من أن فلسطين " الأرض المقدسة " سترجع إلى أبناء سكانها القدماء في يوم ما . (1)

ولقد أسس الصهيونيون أسطورة "العودة" على أسطورة الاستمرار العرقي والتاريخي بين العبرانيين الكتابيين، وبين اليهود المعاصرين، وقد حاولوا حمْل الآخرين على الاعتقاد بأن كل "يهوديٌ" أينما وُجد في العالم، عندما يَجيء إلى

---

(1) الكاتبة الروسية جالينا نيكيتينا : " دولة إسرائيل خصائص التطور السياسي والاقتصادي " دار الهلال ص ١٧ .

إسرائيل ـــ إنما "يعود" إلى أرض أجداده، في حين يُقرِّر الواقع أن ٩٩% على الأقل من اليهود المعاصرين ليس من أجدادهم أحد وطئت قدماه أرض فلسطين، بسبب التحوُّل من ناحية، وبسبب الزيجات المختلطة خلال القرون من ناحية أخرى .

فهرتزل عندما صاغ الشعارات: "نحن شعب"، "وفلسطين وطننا التاريخي الذي لا يُنسَى" فإنه لم يفعل سوى أن تناول ما أطلق عليه هو نفسه: "الأسطورة العظيمة" (١)

وهناك وثيقة ظهرت لأول مرة في كتاب صدر عام ٢٠٠٨ لعميد المؤرخين الإسرائيليين الجدد وهو " بيلي موريس " الوثيقة هي حوار دار بين اثنين من منشئي إسرائيل بلا جدال، أولهما رئيس الوكالة اليهودية وهو ناحوم جولدمان، والثاني هو أول رئيس لوزراء إسرائيل ورئيس الهيئة التنفيذية التي أنشأت إسرائيل وهو ديفيد بن جوريون الذي هو بحق مؤسس الدولة، هذه المناقشة موجودة في صفحة ٣٩٣ من هذا الكتاب ، يرجع زمان هذه الوثيقة إلى عام ١٩٤٨ ، وفيها يقول ناحوم جولدمان لبن جوريون إنه يعتقد أن السلام مع العرب ممكن ويرد عليه بن جوريون بالحرف: " إنني لا أفهم سببا لتفاؤلك بالسلام، لماذا يقبل العرب بالسلام معنا ؟ إذا كنتَ - يتكلم عن نفسه- زعيما سياسيا عربيا فلن أعقد سلاما مع إسرائيل، تلك هي طبيعة الأمور ذاتها، إننا استولينا على بلدهم، صحيح أن إلهنا وعدنا بها لكن ذلك لا يعني لهم شيئا، فإلهنا غير إلههم إننا كنا في هذه الأرض من قبل هذا صحيح ولكن ذلك كان قبل ألفي سنة وهذا له معاني وقيم كثيرة بالنسبة لهم، ودعوانا في العودة أننا قاسينا من العداء للسامية والنازية وهتلر لكن تلك لم تكن مسؤوليتهم. بصراحة فيما يبدو لهم فإننا جئنا لسرقة وطنهم فلماذا يكون على العرب أن يقبلوا ؟ " (٢)

٢- استخدام اليهود كجماعة وظيفية لتنفيذ المخطط الاستعماري الاستيطاني .

إن أهم العناصر على الإطلاق التي ساهمت في نجاح الصهيونية السياسية هو ظهور الإمبريالية الغربية كقوة عسكرية وسياسية عالمية (بمعنى أن ساحتها العالم بأسره) تُجيِّش الجيوش وتنقل السكان وتقسم العالم .

وقد وجدت الإمبريالية الغربية في أعضاء الجماعات اليهودية ضالتها باعتبارهم مادة استيطانية تسبب مشاكل أمنية إن بقيت داخل العالم الغربي، ولكنها تستطيع أن

(١) تيودور هرتزل " الدولة اليهودية " نقلا عن " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٤٥

(٢) محمد حسنين هيكل برنامج مع هيكل حلقة خاصة بمناسبة مرور ستين عاما على إنشاء دولة إسرائيل " فلسطين حق يأبى النسيان ج١ " ٢٠٠٨/٥/١٥ قناة الجزيرة .

تزيد نفوذه إن نُقلت خارجه وتحولت إلى مادة قتالية تعمل لحساب الغـرب داخـل نطاق الدولة الوظيفية. ووجدت القيادات الصهيونية بدورها أن ثمة إمكانية لوضـع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ من خلال تَقبُّل الوظيفة القتالية المطروحة .

ويجب ملاحظة أن الصهيونية التوطينية ظهرت في غرب أوربا حيث كان عـدد اليهود صغيراً وحيث حقق أعضاء الجماعات اليهودية قدراً عاليـاً مـن الانـدماج والعلمنة في مجتمعات كانت تحل مشاكلها الاجتماعية عن طريق الاستعمار وغيـر ذلك من الآليات. أما الصهيونية الاستيطانية فقد ظهرت أساساً في شرق أوربا حيث توجد كثافة سكانية يهودية ضخمة، وحيث تفاقمت القضايا الاجتماعية دون حل حتى عام ١٩١٧ .

ثم ظهرت الصهيونية النفعية (صهيونية المرتزقة) بعد ذلك بـين يهـود الـدول العربية منذ عام ١٩٤٨، وبين يهود الاتحاد السوفيتي بعد عام ١٩١٧، وتصاعدت وتيرتها بعد عام ١٩٧٠. والسياق التاريخي للصهيونية النفعية يتفاوت من بلد لآخر، ومن جماعة يهودية إلى أخرى. (١)

٣- المذهب البروتستانتي لتأييد المخططات الصهيونية .

عندما ظهر المذهب البروتستانتي على يد مارتن لوثر في القرن السادس عـشر، قلب المسيحية رأساً على عقب، من خلال التغيرات اللاهوتية التي جاء بها والتـي روجت لفكرة أن اليهود أمة مفضلة وأكدت على ضـرورة عـودتهم إلـى أرض فلسطين كمقدمة لعودة المسيح المنتظر وبزوغ فجر العصر الألفي السعيد .

أصبح العهد القديم يشكل جزءاً مهماً من مصادر العقيدة البروتستانتية، فأصـبح هو المرجع الأعلى للسلوك والاعتقاد ومصدراً للتعاليم الخلقية والمعلومات التاريخية أيضاً .

احتلت فكرة عودة المسيح إلى الأرض، مكانـاً رئيـسياً فـي الفكـر المـسيحي البروتستانتي . وتقوم هذه الفكرة على أساس الاعتقاد بأن السيد المسيح سيعود إلى الأرض ثانية (قبل بداية الألفية الثالثة للميلاد) ليقيم مملكة الله على الأرض والتـي ستدوم ألف عام (العصر الألفي السعيد) حيث سيحكم العالم من مقره فـي مدينـة

---

(١) د . عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٦ ج١ الباب الثالـث: العقـد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية .مرجع سابق .

القدس . ويعتقد المسيحيون البروتستانت أنه لابد من حدوث بعض الأمور كمقدمة لهذه العودة وهى :

أ- إقامة دولة إسرائيل بحدودها التوراتية من النيل إلى الفرات وعودة اليهود إليها

ب- إقامة الهيكل اليهودي .

ج- وقوع معركة فاصلة بين قوى الخير وقوى الشر تسمى(هرمجيدون) " (١)

يقول هرتزل في يومياته : " إن المسيحيين المتدينين في إنجلترا (البروتستانتية) سوف يساعدوننا إذا ما ذهبنا إلى فلسطين؛ لأنهم ينتظرون عودة المسيح عندما يعود اليهود إلى بلدهم .. ومع جولد سميد وجدتني فجأة في عالم آخر.

إنه يريد أن يسلم قبر المسيح للمسيحيين، على أن يتعاوروه فيما بينهم، صلاة بصلاة، نصف لموسكو، والآخر لروما!! وكان، شأنه شأن مونتاجو، يفكر في "فلسطين الكبرى" (٢)

٤- الاضطهاد الغربي لليهود .

مما ساعد على نجاح المشروع الصهيوني فظاعة " جيتو " العصور الوسطى اليهودي ، فعندما دب اليأس إلى اليهود الفقراء وجدوا أملهم الأخير في الصهيونية الدينية ، ويعبر النشيد الديني عن هذا الحلم قائلا : لا نزال مشردين في هذا العالم ولكن في العام القادم سنكون في أورشليم .

" لا نزال عبيدا في هذا العام ، ولكن في العام القادم سنكون أناسا أحرارا " (٣)

وهكذا أصبحت الدولة اليهودية هي العلاج الوحيد لكل مصائب ومآسي اليهود . وبدا اليهود المشتتون بين البلاد المختلفة " كأمة يهودية واحدة " ويشرح أيديولوجيو الصهيونية فلسفة هيرتزل باستخدامه لاصطلاح " المشكلة القومية " أنه كان يريد أن يقول أن المشكلة اليهودية ليست مشكلة فقراء اليهود فقط كما يظن الخيرون على

---

(١) لمزيد من التفصيل عن الاختلاف بين المذهبين : الكاثوليك ، والبروتستانت أنظر " الصليبيون الجدد " www.alshaab.com

(٢) يَوْمِيَّات هرتزل الْكَامِلَة". نوفمبر عام ١٨٩٥ جـ ١ ص ٢٨٢".

(٣) الكاتبة الروسية جالينا نيكيتينا " دولة إسرائيل خصائص التطور السياسي والاقتصادي " مرجع سابق ص ١٧، ١٨

اختلافهم . ولكنها كذلك مشكلة أغنياء اليهود وكافة اليهود عموما ممن يعيشون في ظروف غير عادية فمعاداة السامية موجهة إليهم قبل أي شيء . كما أن المشكلة اليهودية تمس كل اليهود بصرف النظر عن الوضع الاقتصادي والاعتقاد الديني لأننا كلنا شعب واحد . (١)

لقد ظلت الصيغة الصهيونية حتى نهاية القرن التاسع عشر مجرد فكرة إلى أن الحادثة التي أثارت اليهود كثيرا ودفعتهم إلى تكوين أول مؤتمر يجمعهم هي " مذبحة ليشينيف " الشهيرة التي كشفت اضطهاد روسيا القيصرية لليهود ومعاملتهم بعنف وقسوة .

وتعترف الدولة الصهيونية بأن الاضطهاد الأوربي لليهود هو الذي ولّد الصهيونية السياسية : " وقد تبلورت الصهيونية السياسية رداً على الاضطهاد وملاحقة اليهود المستمرة في أوروبا الشرقية، ونتيجة لخيبة الأمل المتزايدة من حركات التحرر في أوروبا الغربية التي لم تضع حداً للتمييز ضد اليهود ولم تؤد إلى دمجهم في المجتمعات المحلية. " (٢)

وانتهز صحفي نمساوي هو " تيودور هرتزل " حوادث العنف ضد اليهود وعمل على إثارة عطف الدول الأوربية ، وساعده في ذلك كاتبان فرنسيان هما ، أميل زولا ، و كليمونصو .

واستطاعوا جميعا أن يضعوا أرضية سياسية مناسبة ليصدر هرتزل كتابه " الدولة اليهودية " ينادي بالتجمع لبناء دولة يهودية .

حدد هرتزل في مقدمة كتابه (الدولة اليهودية) عام ١٨٩٦م بكل وضوح على أية قوة سوف يعتمد في تحقيق المشروع الصهيوني للكفاح ضد دمج اليهودية في بلادهم الخاصة وللهجرة إلى فلسطين .

---

(١) نفسه ص ١٨ .
(٢) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

وكتب يقول: " هذا المشروع ينطوي على إستخدام قوة محركة موجودة في الواقع، كل شيء يجري علي القوة المحركة، فما هذه القوة ؟ إنها محنة اليهود " (١)

ويقول المؤرخون الأكاديميون اليهود " ظل الصهيونيون حركة أقلية بين الشعب اليهودي حتى وقعت الهولوكست (الكارثة) .. التي ساهمت في إقناع الشعب اليهودي، مع استثناءات قليلة، لمساندة قيام دولة يهودية حديثة في أرض إسرائيل. يستطيع اليهود هناك أخيرا أن يحكموا ويدافعوا عن أنفسهم ولن يعودوا تحت رحمة الشعوب التي لا تهتم برفاهيتهم، أو تلك التي تعمل على اضطهادهم أو على تدميرهم (٢)

٥- نشاط اليهود الصهاينة وإخلاصهم لقضيتهم

إلى جانب العناصر الخارجية لا ينبغي أن نغفل دور اليهود الصهيونيين الذين استغلوا هذه الظروف لتحقيق حلمهم في الأمان والنفوذ فهم يريدون النفوذ الذي يحمي ضعفهم لذا توجهوا إلى المال، وبعد المال توجهوا للإعلام. يقول روتشيلد " أنا اليهودي التائه لا أريد أن أملك عقارا لا أستطيع أن أحمله معي حيث ذهبت، أن أريد أن أحمل ما أستطيع حمله و أهرب به إذا وَجَدْتُ الظروف مختلفة. " ولقد أضاف اليهود الصهاينة إلى قوة المال رؤى العصر أضافوا لها الإعلام، أضافوا لها نفاذا في الإعلام .

قال رئيس تحرير الواشنطن بوست العتيد بن بريدلي لأستاذ حسنين هيكل " يوجد عشر وسائل إعلام في أميركا هي تحدد جدول أعمال الاهتمامات العالمية كلها. قوة الإعلام الأميركي هم موجودون فيه ". ويكمل هيكل مبينا نفوذ اليهود الصهاينة :

---

(١) تيودور هرتزل " الدولة اليهودية " مرجع سابق ص ١١

(٢)الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٦٦، ٦٧ .

قوة الصورة دخلوا فيها وبالتالي أنت تتكلم عن جماعة إنسانية لها دور وتعرضت لاضطهادات صحيح طبعا لكن السؤال لماذا كان عليَّ أنا أدفع الفواتير.؟!

قال هيرتزل وهو يتناقش حول وجوب كسب تعاطف العالم للمشروع الصهيوني عن طريق التباكي على اضطهادات الغرب لليهود : " نقول هذا الكـلام لأنـاس آخرين ولكن أرجوكم أن تتذكروا أن الأوطان لا تقام بالدموع، والأماني لا تحقـق بالدموع، نستطيع أن نبكي أمام الآخرين لكن في الداخل لا يجب أن نبكي " . (١)

لقد كان الدور الذي لعبته الأسطورة الصهيونية في وهم الشعوب هائلاً، وليس بوسعنا أن نبين تأثير اللوبي "جماعة الضغط" الصهيوني وفاعليته على المستوي العالمي بالاعتماد فقط على قوة تنظيمه، والوسائل السياسية والمالية الهائلة التي يتحكم فيها، ولا سيما ذلك الدعم غير المشروط، وغير المحدود الذي تقدمه الدولة الأمريكية، نعم، إن هذهِ القوة تلعب دون ريب دورا عظيما ولكن قبول هذهِ الأسطورة الفجَّة، بقدر كبير من حسن النية، وقبول نتائجها السياسية الموغلة في الدموية — يبقى غير مفهوم، إذا لم نَتَذَكَّر ذلك العبث الإيديولوجي الذي إستمر قرونا طويلة، والذي خلقت بهِ الكنيسة المسيحية هذهِ "الصهيونية المسيحية"، التي كانت مجالا قابلا للاستغلال بسهولة من جانب دعاية الصهيونية السياسية، والدولة الإسرائيلية. (٢)

٦- ضعف الدولة العثمانية وسقوطها .

ومما ساعد على إتمام المشروع الصهيوني التراجع المستمر للدولـة العثمانيـة، واضطرارها لتقديم التنازلات القانونية الكثيرة مثل : الامتيازات الأجنبية، ويمكـن القول بأن نظام الامتيازات الأجنبية هو المسئول عن تحويل يهود الدولة العثمانيـة والعالم الإسلامي ككل إلى جماعات وظيفية تابعة لدول أجنبية وتدين لهـا بـالولاء وتتمتع بحمايتها. وحاولت الدولة العثمانية التخلص من هذا النظام أو تقليل أضراره

---

(١) محمد حسنين هيكل برنامج مع هيكل حلقة خاصة بمناسبة مرور ستين عاما على إنشاء دولة إسرائيل " فلسطين حق يأبى النسيان ج١ " ٢٠٠٨/٥/١٥ قناة الجزيرة .

(٢) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الأول : العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية .مرجع سابق .

دون جدوى إذ أن نظام الامتيازات كان جزءاً لا يتجزأ من الهجمة الإمبريالية الغربية على الشرق، وساعد على إحكام قبضة الإمبريالية على دول العالم العربي وعلى تحويل بنيتها السياسية والاقتصادية إلى بنية تابعة. وقد أُلغي نظام الامتيازات في مصر بمقتضى معاهدة مونتريه عام ١٩٣٧ التي نظمت فترة انتقالية (بقيت خلالها المحاكم المختلطة) حتى عام ١٩٤٩ مما نتج عنه اتساع الثغرة التي سمحت للفائض البشري اليهودي بالتسلل.

ومن المعروف أن الدولة العثمانية كانت ترحب بهجرة اليهود إليها منذ عملية طردهم من إسبانيا. ومع تزايُد تدخُّل الدول الأجنبية، وتزايُد الأطماع في فلسطين، بدأت الدولة العثمانية تحاول أن تمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين (مع استمرار فتح الأبواب خارجها). بل فتحت باب الهجرة أمام اليهود إلى فلسطين شريطة أن يتجنسوا بالجنسية العثمانية، أي شريطة أن يتحولوا من عنصر استيطاني (قتالي) غريب إلى عنصر وطني محلي (وكانت هذه هي السياسة الرسمية حتى عام ١٩١٤). وكانت الدول الكبرى تتدخل لحمل الدولة العثمانية على السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين وملكية الأراضي فيها، فاضطرت الدولة العثمانية إلى إصدار قرار عام ١٨٦٧ بمنح الأجانب حق ابتياع الممتلكات في فلسطين، وهو القرار الذي استفادت منه الجمعيات التبشيرية المسيحية والجماعات الاستيطانية المسيحية مثل فرسان الهيكل، كما استفاد منه المستوطنون الصهاينة في مراحل لاحقة. وحينما حاولت الدولة العثمانية منع اليهود من امتلاك العقارات في فلسطين (عام ١٨٨٤)، ادَّعت الدول العظمى أن هذا خرق لنظام الامتيازات. وكان قناصل الدول الغربية يستخدمون نفوذهم لتسهيل عملية استيطان اليهود. وحين صدرت قرارات تحرِّم هجرة اليهود (غير العثمانيين) عام ١٨٨٨ ثم عامي ١٨٩١ و١٨٩٨، عبَّرت الدول الغربية عن استيائها وساعدت المهاجرين على التحايل على هذه القوانين.

وحينما اتُّخذ قرار تقسيم أسلاب الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى، اتخذ أيضاً القرار بتأييد تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين ومن ثم صدر وعد بلفور. وانتهت المسألة الشرقية مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانية.(1)

---

(1) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٤ ج٢ الباب الثالث الدولة العثمانية .مرجع سابق .

كانت الشعوب العربية تعيش في جيتو الدولة العثمانية التي فرضت عليهم الجهل والتخلف والقهر والفقر حتى وقعت فريسة سهلة في قبضة الاستعمار الغربي الذي سخرها لما فيه مصلحته وخرابها ، مما عاقها عن مواكبة الحاضر المتطور والعكوف على التقليد والتكرار في شتى المجالات .

٦- فساد الحكام العرب وضعف شعوبهم .

لقد فشل الحكام العرب في التعامل الجدي مع قضية توطين الدول الغربية الاستعمارية اليهودَ في فلسطين ، واكتفوا بالشكوى والتنديد بالأوضاع القائمة الظالمة دون السعي الحسيس لتغيرها .

أما الشعوب العربية فسيطر عليهم الجهل والتخلف والسلبية ،ودب فيهم الوهن فأحبوا الدنيا وإن كانوا أذلاء فيها ، وكرهوا الجهاد في سبيل الله وإن كان فيه عزهم

الحقيقة أنه منذ أن وطئت قدم العثمانيين أرض العروبة والإسلام وحل بها الخراب والدمار " حيث صارت البلاد مسرحا للفوضى والاضطراب نتيجة تنازع الهيئات التي تقتسم الحكم فيها ، وسارت الدولة على سياستها التقليدية في تغيير الباشوات خوفا من جنوحهم إلى الاستقلال تحقيقا لأطماعهم الخاصة ، كما اتسم الحكم العثماني في بلاد المشرق العربي بالرجعية وشمل البلاد التأخر إذ كانت فكرة الحكم عند العثمانيين بسيطة اقتصرت وظيفة الدولة في نظرهم على الدفاع عن البلاد وحفظ الأمن وجمع الضرائب والفصل في الخصومات أما ما عدا ذلك من خدمات عامة فقد أهملت ولم تعتبرها الدولة من بين مسئولياتها وتركتها للأفراد والجماعات ، ولذلك ساءت أحوال الشعوب العربية اقتصاديا . " (١)

لذا جاءت حركة القومية العربية وحركة المقاومة العربية الفلسطينية، وبخاصة في العقود الأولى من هذه الفترة ضعيفة غير قادرة على تعبئة الجماهير وتنظيمها ضد الاستعمارين الإنجليزي والصهيوني بتنظيمهما الحديث وعلاقاتهما العالمية وتعاونهما الوثيق داخل فلسطين وخارجها .

---

(١) د. محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣١ .

ودونك هذا المثال الذي يؤكد ضعف العرب ، لما بدأ الأتراك يفكرون في القومية التركية فكر العرب في القومية العربية في مقابلها ولجأ أحرار الناس من أعيان الشام إلى الهاشميين، لأننا نحن – العرب – دائما نفكر بعقلية قَبَلِيّة ، ونحتاج لشيخ قبيلة – مع الأسف الشديد – باستمرار، لذا راح الناس الذين يتكلمون على القضية العربية والوعي العربي للأمراء الهاشميين. بدأ الأمراء الهاشميون يهتمون بالقضية العربية لكنهم لم يكن عندهم تَصَوُّر للدولة العربية التي يتكلم عليها أحرار العرب في الشام و مصر والمغرب إلى آخره. ويذكر محضر بريطاني "سئل فيصل بن الشريف حسين خلال المحادثات عن موضوع فلسطين فأشار إلى أن العرب مثقلون بأفضال بريطانيا العظمى وأنه لن يليق بهم أن يضعوا العراقيل أمام قضية يرون الحكومة البريطانية خير حكم فيها، ويعترف العرب بأن هناك مصالح متضاربة كثيرة تتركز في فلسطين ويقرون بادعاءات الصهاينة الأدبية، وهم يعتبرون اليهود أقارب سيسرهم أن يروا ما هو عادل من مطالبهم تستجاب لأنهم يشعرون أن مصالح السكان العرب يمكن أن تودع بأمان في يد الحكومة البريطانية" واعتبرت الحكومة البريطانية أن هذا تفويض عربي. (١)

ويذهب الملك عبد الله – ملك الأردن – لجسر المجامع مع جولدا مائير قبل قرار التقسيم ويتفق معها على الحدود العربية الإسرائيلية .

الإسرائيليون حَكَمَتهم قضية تسابقوا لأجلها لكن نحن – العرب – حكمتنا باستمرار أسرة تسابقت لتأمين نفسها . هنا فرق، عندما تكون كل الخلافات التي بين فايتشمن وبن جوريون وجولدمان هؤلاء الناس كانوا أعداء جدا لكن المشكلة أن خلافهم كله كان في أيهم يستطيع أن يقدم أكثر للمشروع . نحن بنفس المقدار كان كل الناس المسئولين عن القضية كلهم كانوا موجودين وكلهم كان لهم عداءات لكن المشكلة أن عداءاتهم لم تكن سباقا إلى أن أيهم يخدم أكثر هذه القضية وإنما أيهم أكثر يستفيد منها ! . أتصور أنا أن الوكالة اليهودية في ذلك الوقت كانت معبرا شرعيا عن مشروع وعن أمل وعن حقيقة في حين أن النظم العربية التي قامت بعد

---

(١) محمد حسنين هيكل برنامج مع هيكل حلقة خاصة بمناسبة مرور ستين عاما على إنشاء دولة إسرائيل " فلسطين حق يأبى النسيان " مرجع سابق

الحرب العالمية الأولى والتي لا تزال مستمرة بشكل أو آخر في الدول العربية الحديثة لم تستكمل بعد أساسا حقيقيا يعطيها الشرعية . (١)

صدر كتاب عام ٢٠٠٨ بعنوان the accidental Empire الإمبراطورية التي نشأت بمحض مصادفة. والحقيقة إن إسرائيل لم تنشأ بسبب الصدفة بل بسبب الغفلة لأن كل عوامل القوة في إسرائيل المفترضة لم تكن كفيلة أنها تخلق إمبراطورية تبدو في هذه اللحظة هي القوة المتحكمة في هذه المنطقة وهي التي تضع جدول أعمال هذه المنطقة مع الأسف الشديد، إسرائيل ليست إمبراطورية بالمصادفة، إنما هي إمبراطورية لم تكن لديها مقومات أن تقوم لولا أن المجال الذي قامت فيه كان مخلخلا (٢)

الجذور التاريخية للصهيونية السياسية

كثير من الناس يعتقد أن الصهيونية حركة يهودية تزعمها هرتزل الذي استطاع أن يسخر الغرب لتنفيذ مخططاتها لصالح اليهود . والحقيقة أن الفكرة الصهيونية فكرة غربية مسيحية استعمارية قديمة .

فيبدأ تاريخ الصهيونية اعتبارا من فترة نشوء الرأسمالية الغربية وبداية النضال من أجل تقسيم العالم ففي القرن السابع عشر أظهر " كرومويل " اهتماما بعودة اليهود إلى انجلترا لأسباب اقتصادية وكان إدوارد الأول قد طردهم في عام ١٢٩٠ وكان تقدير " كرومويل " مبنيا على أن اليهود سيجلبون معهم الأموال والمتاع وأنهم سيفدونهم في تحقيق مخططاته الاستعمارية التوسعية وارتبطت في ذهن " كرومويل " مسألة عودة اليهود إلى انجلترا بفكرة عودة اليهود إلى فلسطين . (٣)

وبعد الثورة الفرنسية أعدت حكومة الإدارة الفرنسية خطة لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين، وذلك مقابل تقديم المموّلين اليهود قروضاً مالية للحكومة الفرنسية التي كانت تمر آنذاك بضائقة مالية. وكان المفروض أن يموّل اليهود الحملة المتجهة

---

(١) نفسه .
(٢) نفسه .
(٣) الكاتبة الروسية جالينا نيكيتينا " دولة إسرائيل خصائص التطور السياسي والاقتصادي " مرجع سابق ص ١٦ .

صوب الشرق، وأن يتعهدوا ببث الفوضى وإشعال الفتنة وإحلال الأزمات في المناطق التي سيرتادها الجيش الفرنسي لتسهيل أمر احتلالها. ويبدو أن نابليون كان مطلعاً على الخطة. ولذا، فقد أصدر، بمجرد وصوله إلى مصر، بياناً يحث فيه اليهود على الالتفاف حول رايته لإعادة مجدهم الغابر ولإعادة بناء مملكة القدس القديمة، أي أن نابليون أصدر أول وعد بلفوري في تاريخ أوربا .

وفيما يلي الجزء المهم من نص الوعد :

"من نابليون القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين .

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذين لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبهم اسمهم ووجودهم القومي وإن كانت قد سلبتهم أرض الأجداد فقط .

إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين — وإن لم تكن لهم مواهب المتنبئين مثل أشعياء ويوئيل — قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع من دمار وشيك لمملكتهم ووطنهم: أدركوا أن عُتَقَاء الإله سيعودون لصهيون وهم يُغنون، وسيُولَد الابتهاج بتملُّكهم إرثهم دون إزعاج، فرحاً دائماً في نفوسهم (أشعياء ١٠/٣٥)

انهضوا إذن بسرور أيها المُبْعَدُون. إن حرباً لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، تخوضها أمة دفاعاً عن نفسها بعد أن اعتبر أعداؤها أرضها التي توارثوها عن الأجداد غنيمة ينبغي أن تُقسَّم بينهم حسب أهوائهم. وبجرة قلم من مجلس السوزراء تقوم للثأر وللعار الذي لحق بها وبالأمم الأخرى البعيدة. ولقد نُسي ذلك العار تحت قيد العبودية والخزي الذي أصابكم منذ ألفي عام. ولئن كان الوقت والظروف غير ملائمة للتصريح بمطالبكم أو التعبير عنها، بل وإرغامكم على التخلي عنها، فإن فرنسا تقدم لكم إرث إسرائيل في هذا الوقت بالذات، وعلى عكس جميع التوقعات .
إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، والذي يقوده العدل ويواكبه النصر، جعل القدس مقراً لقيادتي، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي لم تَعُد تُرهب مدينة داود .

يا ورثة فلسطين الشرعيين :

إن الأمة التي لا تتاجر بالرجال والأوطان، كما فعل أولئك الذين باعوا أجـدادهم لجميع الشعوب (يوئيل ٤/٦) تدعوكم لا للاستيلاء على إرثكم بل لأخذ ما تم فتحـه والاحتفاظ به بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء

انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تُخمد شجاعة أحفاد هـؤلاء الأبطـال الذين كان تحالفهم الأخوي شرفاً لإسبرطة وروما (مكابيون ١٢/١٥) وأن معاملـة العبـودية التي دامت ألفي عام لم تفلح في إخمادها .

سارعوا! إن هذه هي اللحظة المناسبة ــ التي قـد لا تتكـرر لآلاف الـسنين ــ للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سُلبت منكم لآلاف السنين، وهي وجودكم الـسياسي كأمة بين الأمم، وحقـكـم الطـبيعي في عبادة يهـوه، طبقاً لعقيدتكم، علناً وإلى الأبد. (يوئيل ٤/٢٠) (¹)

كان نابليون يحذو حذو مؤسسي الإمبراطوريات الذين كانوا يهتمـون بفلـسطين لأهميتها الإستراتيجية، ولذا كانوا يحاولون غرس عنصر سكاني موالٍ لهم. ويبـدو أن نابليون وجد في يهود الشرق ضالته، حيث يمكن تحويلهم إلى مادة اسـتيطانية تدور في مدار المصالح الفرنسية وتكون عوناً له في دعم نفوذه وتثبيت سـلطانه. واليهود إن وُطِّنوا في فلسطين فإنهم سيكونون بمثابة حاجز مادي بشري يفصل ما بين مصر وسوريا، ويدعّم الاحتلال الفرنسي، ويهدّد المصالح البريطانية من خلال إغلاق طرق مواصلاتها إلى الهند.

ويبدو أن نابليون كان يحاول كسب رضا وتأييد حاييم فارحي، اليهودي الذي كان يتمتع بنفوذ مالي في عكا ويتولى مسئولية تزويدها بالمؤن الغذائية. وأخيراً، فـإن نابليون كان يهمه كسب ثقة يهود فرنسا ودعمهم المالي في صـراعه الـذي بـات وشيك الوقوع مع حكومة الإدارة ولكن، مهما كانت الدوافع، فإن نابليون كان مـن نتاج عصر الاستنارة، وكان نفعياً لا يؤمن بأية عقيدة دينية، ولذا فإنـه لـم يكـن ليتوانى عن استغلال الدين أو أية عقيدة أخرى. وعلى هذا، فإنه، في ندائه إلى يهود العالم، يتحدث عن حقوقهم التي وردت في العهد القديم وعن احترام الأنبياء (وهـو

(¹) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٦ ج١ البـاب الثالـث: العقـد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية .مرجع سابق .

لا يؤمن بأيٍّ منهم). وحينما يصل إلى مصر، فإنه يتحدث عن الإسلام بإجلال شديد ويعلن أنه لم يأت إلى ديار المسلمين إلا للدفاع عن الإسلام ولحمايتهم من الظلم .(١)

لكل هذا استحق نابليون لقب أول الصهيونيين المعاصرين من غير اليهود " كان حاييم وايزمان يعتبر نابليون " أول الصهيونيين المعاصرين غير اليهود " وذلك في رسالة وَجْهَهَا إلى ونستون تشرشل، وكان وايزمان في الواقع أول رئيس دولة يقول بهذا الرأي.(٢)

وكان أكثر المتحمسين لمشروع زرع دولة يهودية في فلسطين هو لورانس أوليفانت (١٨٢٩-١٨٨٨م) في كِتَابه (The land of Gilead) وقد كتب عن فلسطين : " إن على إنجلترا أن تقرر ما إذا كانت سوف تَشْرَعُ في مُهِمَّة ارتياد المدن المهدَّمة وتنمية مواردها الزِّرَاعِيَّة الواسعة في هذا البلد، وذلك بأن تُعيد إليهِ الجنس الذي تملكه أولاً منذ ثلاثة آلاف عام، وبذلك تُؤَمِّن لنفسها أيضًا المنافع السياسية الكبرى التي تترتب على هذهِ السياسة " (٣)

وقد كان مشروع أوليفانت يقترح كذلك أن يُطرَدَ من فلسطين البدو المحاربون، وأن يُودَعَ الفلاحون العرب في معازل كهنود أمريكا الشمالية.

وكانت الأهداف الإنجليزية قد تحددت عندما أنجز الاستعمار إعداد مناهجه، ففي عام ١٨٧١م وبعد أن صدرت في إنجلترا الجرائد الكبرى، مثل (جويش كرونيكل) و(عبرو أوبزرفر) و(صوت يعقوب) ظهرت مجموعات من المقالات في هذهِ المجلات بتوقيع إسحاق آشر، وهي تقترح تكوين (شركة امتيازات) في فلسطين، من نوع (شركة الهند الشرقية) أو (شركة هدسون بك) لشراء الأرض في فلسطين، وحرثها بتدفق رؤوس الأموال التي تسمح بتحسين التربة وإنشاء المشروعات، وأخيرًا تسمح بتأمين الدفاع العسكري عن الشركة، وكانت هذهِ رؤية تستبق المشروع المستقبل (الصندوق القومي اليهودي) بثلاثين سنة .

---

(١)نفسه " م٣ ج٢ الفصل الثالث " نابليون بونابرت .

(٢)ريتشارد كرسمان " قَوْمِيَّة تُولَدُ من جَديد " ص ١٣٠. نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٣)بربارا توتشمان " الكِتَاب المقدس والسَّيْف " ص ١٧٣ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

وبعدما اغتيل القيصر ألكسندر الثاني عام ١٨٨١وعقب التفتت المتزايد للإمبراطورية العثمانية لم يعد واقعيا الدفاع عن سلامة سلطة السلطان ضد روسيا، بل أصبح أكثر واقعية الاستيلاء على جزء من إمبراطوريته، كان هذا هو تكتيك دزرائيلي فقد كان المهم في نظره وهو زعيم السياسة الإمبريالية الإنجليزية أن يحمي طريق الهند، وبذلك كانت فلسطين ذات معنى جديد على رقعة الشطرنج الدولية، وإنما ترجع أهميتها منذئذ إلى قربها من مصر، وقد نصح اللورد كيتشنر ــ وهو واضع السياسة الشرقية الجديدة ــ لحكومته (أن تتخذ من فلسطين حصنا تحمي به الوضع الإنجليزي في مصر بقدر ما تكون رباطا مع الشرق) (١)

وجدير بالملاحظة أن الكُتَيِّبَ الذي أصدره وليام هتشلر (١٨٤٥-١٩٣١م) وهو راع أنجليكاني من رعاة الكنيسة، وعنوانه (بعث اليهود في فلسطين يسبق بعامين ظهور كتاب هرتزل عن (الدولة اليهودية) (١٨٩٦م).

في ذاك الوقت كان جوزيف تشمبرلين وزيرًا للدولة لشئون المستعمرات، وقد كان قليلا ما يعبأ بنبوءات الكِتاب المقدس، ولكِنه يعتبر أن (الاتجاه القومي) للإمبراطورية البريطانية هو أن تصبح القوة المهيمِنة على التاريخ العالمي وعلى الحضارة الإنسانية .

لقد كان يعتبر اليهود مجموعة من المستعمرين المستعدِّين لأن يُزْرَعوا في فلسطين لتنمية الأرض واستِخدامها تحت قِيادة إنجلترا. لسوف نرى بأية مهارة دبلوماسية سوف يسلك تيودور هرتزل مشروعه ضمن هذه الحسابات . (٢)

علاقة الصهيونية باللاسامية

اللا سامية، أو معاداة السامية، مصطلح اخترعته الحركة الصهيونية للتعبير عن معاداة اليهود وكلمة "سامي" مأخوذة مما ورد في الإصحاح العاشر من سفر التكوين من أن أبناء نوح هم سام وحام ونافث.

والساميون هم نسل سام من العرب واليهود وغيرهم ولكن الصهيونية تعمدت إطلاق السامي على اليهودي وأصرت على إطلاق مصطلح معاداة السامية على كل الحركات والأفعال المناوئة لليهود في أوروبا، وفي كل أنحاء العالم فيما بعد، تجنبا

---

(١) ليونارد ستن " إعلان بلفور " ص ٥٢ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .
(٢) راجع " إسرائيل أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الثالث " أسباب نجاح الصهيونية السياسية "مرجع سابق .

منها لاستعمال مصطلح معاداة اليهود ما اكتسبه لفظ اليهودي من ظلال قبيحة في أذهان الشعوب الأوربية عبر التاريخ، فقد ارتبطت كلمة اليهودي بصفات البخل والانغلاق والجبن والاستقلال وغيرها.

استغلت الصهيونية فكرة اللاسامية لتحقيق أهدافها في إنشاء الكيان الصهيوني في فلسطين، بل عملت على تأجيج نارها وافتعالها كلما خمدت وقد كان هناك اعتقاد بأن اللاسامية ستنتهي بهزيمة النازية ولكن الصهيونية أرادت للاسامية أن تستمر لأنها البقرة الحلوب للصهيونية المعاصرة وأداة الابتزاز والإرهاب التي تشهرها ضد العالم، ولا سيما ضد الإنسان الأوروبي الذي أصبح يعاني بفعل الدعاية الصهيونية من عقدة الذنب وتأنيب الضمير.

إن إشهار سلاح اللاسامية على كل من يقف في وجه الحركة الصهيونية أو يشكك في نشاطها أو مطامعها التوسعية أطلق يدها لتهيمن على مقدرات الإعلام الغربي فلم يعد هناك كاتب أو مفكر أو صحفي حر يجرؤ على فضح الصهيونية أو إدانتها دون أن يتعرض لتهمة اللاسامية.

ولم تقف الصهيونية في استغلالها اللاسامية، عند هذا الحد فراحت تتهم كل من يتعاطف مع الفلسطينيين في مأساتهم بأنه لا سامي، تماماً مثلما اتهمت العرب (الساميين) بأنهم لا ساميون، لا بل إنما اتهمت اليهود الذين عارضوا الصهيونية باللاسامية، فحين تظاهر اليهود العراقيون في تل أبيب عام ١٩٥١ احتجاجاً على التفرقة بين الاشكنازيين والسفارديين هاجمهم بن غوريون ووصف تضاهرتهم بأنها "لا سامية إسرائيلية".

وما تزال الصهيونية تشتهر سلاح اللاسامية في وجه كل دولة أو سياسي في العالم ينتقد (إسرائيل) أو يقف من العرب موقفا مؤيدا، بعدما استخدمت هذا السلاح بفاعلية لإقامة دولتها على أرض فلسطين. (١)

وإذا كانت الصهيونية تصرخ في العلن بأن العداء للسامية لدى شعوب أوروبا هو الخطر الثابت الدائم الذي لا خلاص منه إلا بتجميع اليهود في دولة تكون دولتهم . فإن الصهيونية في الخفاء تذكي نار العداء للسامية كلما خمدت ، وتقدم

(١) " قاموس المصطلحات الصهيونية " موقع السلطة الوطنية الفلسطينية على الإنترنت .

الحجج اللازمة لاستمرارها وهي عالمة بأن العداء لليهود هو أفضل محرّك لفصلهم عن أوطانهم وتهجيرهم وتجمعهم في الدولة المقرر قيامها .

وكان اللاساميون يلعبون اللعبة نفسها فيهاجمون الصهيونية في العلن ويجدون فيها البرهان الساطع على " عدم ولاء اليهود لأوطانهم " وعلى كونهم " أغراب يستحيل دمجهم في مجتمعاتهم " بينما كانوا ينسقون في الخفاء مع الحركة الصهيونية ، ويجدون فيها أفضل معين لهم على " التخلص من اليهود الاندماجيين " وتوجيههم إلى بقعة خارجية بعيدة تصبح لهم وطنا .

هذا هو سر العلاقة وسر اللقاءات والمراسلات بين تيودور هرتزل وأكبر المسئولين عن أعمال العنف ضد اليهود الروس في بدء القرن العشرين . (١)

إن العودة اليهودية إلى فلسطين ، وبناء الوطن اليهودي فيها اللذين تصورهما الصهيونية وكأنهما ظاهرتان طبيعيتان وحركتان تاريخيتان ملازمتان للتاريخ اليهودي من البداية والنهاية هما في الحقيقة حركتان وهميتان ومصطنعتان من جملة ما اختلقته واصطنعته الصهيونية ، وليس لهما وجود تاريخي قبل القرن التاسع عشر .

ولقد هال يهود أوروبا وأمريكا أن يتحملوا وزر الحركة الصهيونية الناشئة التي تلتقي في طرحها وهدفها – ولو من منطلقات مختلفة ومتعارضة – مع أعدائهم اللاساميين فتحيي العداء لليهود ، وتسعى لمنع اندماجهم في أوطانهم وتعمل على تجميعهم ونقلهم إلى مكان بعيد لا معرفة لهم به ولا دافع لهم للذهاب إليه يكون أحيانا الأرجنتين وأحيانا أوغندا وأحيانا فلسطين .

كانت الحركة الصهيونية تردد الحجج نفسها التي يسوقها اللاساميون ضد اليهود كانت تقول :

١-إن اليهود عرق واحد و شعب واحد .

٢- لا ولاء حقيقا لليهود لأوطانهم التي يعيشون فيها .

---

(١) فيصل أبو خضرا " تاريخ المسألة الفلسطينية " ص ٤٠ ، ٤١ .

٣-لا مجال نهائيا لاندماج اليهود في أوطانهم .

٤-أن العداء لليهود شعور أبدي ثابت لدى شعوب العالم .

٥-أن الحل هو فصل اليهود عن سواهم نهائيا وإتاحة المجال لتكوين دولة مستقلة لهم تكون بمثابة جيتو كبير .

وكان هرتزل يردد في كل مكان قولا وكتابة من الأفكار ما يلتقي تماما مع اللاسامية وتبريرها فيقول للإمبراطور الألماني : " دع شعبنا يرحل فنحن أجانب " ، وهو يجيب أحد محاوريه الألمان : " إني أتفهم اللاسامية فنحن اليهود بقينا أجساما أجنبية داخل مختلف الأمم ، وإن لم يكن الخطأ خطأنا " وبنتيجة حواره مع أحد رجال الدين اليهود الفرنسيين يصل إلى الاستنتاج التالي : " على المرء أن يختار بين صهيون وفرنسا "(¹)

الصهيونيـــة والفاشـــية

بناءً على التحالف المكيافيلي الذي تمّ بين الحركة الصهيونية والحركات اللاسامية ، أنشـــأت الصهيونية جسور صداقة مع النظام الفاشـــي في إيطاليا والنظام النازي في ألمانيا .

وقد أكد موسوليني منذ بداية حكمه أن الفاشية لا علاقة لها بالعداء لليهود. وفي ٣٠ أكتوبر ١٩٣٠ أصدر قراراً بدمج كل التجمعات اليهودية في إيطاليا في اتحاد فاشي يمثل كل يهود إيطاليا بغير استثناء، وأصبح هذا الاتحاد إحدى الوكالات الرسمية للحكومة الفاشية. حيث نصت المادة ٣٥ من قانـــون تأســـيس هـــذا الاتحاد على أن اليهود هم سفراء الفاشية للعالم، وعلى ضرورة أن يشترك اتحاد التجمعات اليهودية في إيطاليا في النشاطات الدينية والاجتماعية ليهود العالم، وأن يحتفظ بعلاقاته الدينية والثقافية معهم .

وفي ٣ يناير ١٩٢٣ قام حاييم وايزمان بوصفه رئيس المنظمة الصهيونية بزيارة موسوليني، لمحاورته بشأن الصهيونية والدعم الفاشي الممكن تقديمه إلى الحركة. واكتشف الزعيم الصهيوني أن اعتراض موسوليني على الصهيونية مرده إحساسه

(¹) يوميات هرتزل ص ٩ ، ١٩ ، ٧٣ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

بأن الصهيونية أداة لإضعاف الدول الإسلامية لصالح الإمبراطورية البريطانية . فرد وايزمان عليه رداً مقنعاً بيَّن له فيه أن إضعاف الدول الإسلامية سيعود أيضاً على إيطاليا بالنفع، وأضاف أن شروط حكومة الانتداب ذاتها تفتح المجال أمام إيطاليا أو أية دولة أخرى للمشاركة في تطوير هذا البلد (أي تصدير العمالة الفائضة والحصول على امتيازات تجارية، على حد قول وايزمان)، وأن في وسع إيطاليا أن تفعل ذلك إذ اعتمدت الميزانية اللازمة. وانتهى الاجتماع بتفاهم كامل بين الطرفين، سمح موسوليني على أثره بتعيين يهودي إيطالي في الوكالة اليهودية .

وحينما دُعي وايزمان مرة أخرى إلى إيطاليا في١٧ سبتمبر ١٩٢٦، **عرض موسوليني أن يُقدم المساعدة للصهاينة كي يبنوا اقتصادهم، وقامت الصحافة الفاشـــية بنشـــر مقالات مؤيدة للصهاينة .**

وتحدث ناحوم جولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية مع موسوليني في ٢٦ أكتوبر ١٩٢٧ الذي قال له : " **سأساعدكم في إنشاء هذه الدولة اليهودية** " [1]

الصهيونية والنازية : الفكر المشترك

يظهر التماثل بين النازية والصهيونية في خطابهما فكلاهما يستخدم مصطلحات القومية العضوية مثل «الشعب العضوي » و«الرابطة الأزلية بين الشعب وتراثه وأرضه» و«الشعب المختار». وقد سُئل هتلر عن سبب معاداته لليهود، فكانت إجابته قصيرة بقدر ما كانت قاسية: "**لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران. ونحن وحدنا شعب الإله المختار.** هل هذه إجابة شافية على السؤال ؟ ".

وأثناء محاكمات نورمبرج، كان الزعماء النازيون يؤكدون، الواحد تلو الآخر، أن الموقف النازي من اليهود تمت صياغته من خلال الأدبيات الصهيونية، خصوصاً كتابات بوبر عن الدم والتربة.

وقد أكد جولدمان أن هرتزل قد وصل إلى فكـــرته القومية (العضـــوية) من خـــلال معـــرفته بالفـــكر والحضـــــارة الألمانيـــــين .

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٢ / ج ٤ " إشكالية التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين " .مرجع سابق .

وكان كثير من المستوطنين الصهاينة يكنون الإعجاب للنازية، وأظهروا تفهماً عميقاً لها ولمُثُلها ولنجاحها في إنقاذ ألمانيا. بل عدوا النازية حركة تحرر وطني. وقد سجل حاييم كابلان، وهو صهيوني كان موجوداً في جيتو وارسو (حينما كان تحت حكم النازي)، **أنه لا يوجد أي تناقض بين رؤية الصهاينة والنازيين للعالم فيما يخص المسألة اليهودية، فكلتاهما تهدف إلى الهجرة، وكلتاهما ترى أن اليهود لا مكان لهم في الحضارات الأجنبية .**[1]

موقف المسيحية من الصهيونية والنازية

في عام ١٩٢٦، حدد فيلي ستارك ما تصوره موقف المسيحية من مسألة الشعب العضوي. فأشار إلى نقط التشابه بين الصهيونية والنازية، فكلتاهما تدور حول قيمة مطلقة تحيطها القداسة الدينية، الدم والتربة، وهي قيمة تضرب بجذورها في المشاعر الأسطورية الكونية، وفي ممالك الأرض بدلاً من مملكة السماء. ومن ثم، توصّل فيلي ستارك إلى أنه لا يوجد أي مجال للتفاهم بين المسيحية وعبادة الشعب العضوي : الصهيونية أو النازية. كما توصل إلى أن كلاً من الصهيونية (التي تحاول أن تؤسس الهيكل الثالث أي الدولة الصهيونية) والنازية (التي أسست الرايخ الثالث أي الدولة النازية) تجسيد لعدم فهم البُعد المجازي في العقيدة الألفية الاسترجاعية في المسيحية. وبالتالي، **فإن كلتا الحركتين ضرب من ضروب المشيحانية السياسية (الأخروية العلمانية) التي تحوّل الدنيوي المدنّس إلى مقدَّس، وبذلك يُمثل كل منهما تهديداً لليهودية والمسيحية، بل للجنس البشري بأسره.** [2]

ولقد أحجمت الفاتيكان عن الاعتراف بدولة إسرائيل عند قيامها ، كما أن الكنيسة الشرقية تناهض تماما الصهيونية وتعادي دولة إسرائيل ، فهل يوجد تهديد للمسيحية أخطر من سيطرة اليهود الصهاينة على القدس والأراضي المقدسة ؟ واليهود هم أعدى أعداء المسيحية ابتداءً من تكذيبهم للمسيح وإعلان العداء له ولدعوته و حمل دمه وانتهاءً بعدوانهم على مسيحيي فلسطين وهدم كنائسهم تماما كما يفعلون مع مسلمي فلسطين .[3]

([1]) نفسه .
([2]) نفسه .
([3]) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب " علاقة اليهود بالمسيح كما جاءت في الأناجيل " .

تناقض مصالح الصهاينة مع اليهود

وقد اكتشف النازيون أيضاً عمق تناقض مصالح الصهاينة مع اليهود واتفاق الموقف النازي مع الموقف الصهيوني. فاليهودي الصهيوني الذي يخدم هويته العضوية هو شخص يستحق الاحترام (لأنه يشبه النازي)، على عكس اليهودي المتألمن المندمج الذي يتمسح في الهويات العضوية للآخرين ولا ينجح بطبيعة الحال في اكتسابها، لأنه حبيس هويته اليهودية، شاء أم أبى. ولعل هذا يُفسّر السبب في أن **النازيين اعتبروا أن عدوهم الحقيقي هو اليهود الأرثوذكس والجماعة المركزية للمواطنين اليهود من أتباع العقيدة اليهودية**. ولعله يفسر أيضاً لم كانت علاقة الدولة النازية بالمنظمات الصهيونية تتسم بشيء من الود والتفاهم. فبينما كان الأرثوذكس والإصلاحيون يطالبون بمنح اليهود حقوقهم كمواطنين، وباندماجهم في مجتمعاتهم، كان الصهاينة يعارضون الاندماج ويعارضون منح اليهود أي حق، إلا حق الهجرة إلى الوطن القومي اليهودي.

لكل هذا قام النظام النازي بتشجيع النشاط الصهيوني ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان ونشر مجلاته، بينما مُنع الاندماجيون والأرثوذكس من إلقاء الخطب، أو الإدلاء بتصريحات، أو جمع التبرعات أو مزاولة أي نشاط آخر.

الصهيونيـــة والنازيـــة : العـلاقة الفعليـة

من المدهش حقا أن نكتشف أن قادة اليهود الصهاينة الذين أثاروا موضوع الهولوكوست وحصلوا على تعويضات ضخمة من ألمانيا بسببها هم من تعاون مع هتلر المتهم الأول بإبادة اليهود في الهولوكوست !!

فعندما بدأت الحرب ضد هتلر وقفت الغالبية العظمى من المنظماتاليهودية إلى جانب الحلفاء إلا أن جماعة اليهود الصهيونية رغم قلتها في ألمانيا آنذاك اتخذت سياسة مخالفة منذ ١٩٣٣ وحتى ١٩٤١ ، وتواطأت بل وتعاونت مع هتلر ، وكان **اهتمامهم الوحيد هو إنشاء دولة يهودية قوية وكانت رؤيتهم العنصرية للعالم تجعل عداوتهم للإنجليز أشد من عداوتهم للنازية** .

والمدهش حقا أن المتعاونين مع هتلر من اليهود الصهاينة يصبحون بعد الحرب العالمية هم قادة دولة إسرائيل مثل : مناحم بيجين أو اسحق شامير .

ولقد برهن الزعماء الصهاينة في عدم نازية هتلر على سلوك غامض ومشبوه بدءا من عرقلة الكفاح ضد النازية وحتى التعاون معها .

فالهدف الأساسي لليهود الصهاينة لم يكن إنقاذ حياة اليهود ولكن إنشاء دولة **يهودية في فلسطين ، ولقد أعلن أول رئيس لدولة إسرائيل بن جوريون ودون مواربة في ٧ ديسمبر ١٩٣٨ أمام القادة الصهاينة من " العمال " :** " لو كنت أعلم أنه من الممكن إنقاذ كل أطفال ألمانيا بإحضارهم إلى إنجلترا ، وإنقاذ نصفهم فقط بنقلهم إلى إسرائيل الكبرى لاخترت الحل الثاني ؛ **لأننا يجب أن نحرص ليس فقط على حياة هؤلاء الأطفال بل وعلى تاريخ شعب إسرائيل أيضا** " [1]

الصهيونية ومقاومة النازية

قد بيَّن كثير من الكُتَّاب أنه لم تنشــأ أية مقاومــة يهودية في أرجاء أوربا للإبادة النازية لليهود ، مع أن مثل هذه المقاومة كان بوسعها أن تصيب آلة الإبادة النازية بالشلل أو تحد من سرعتها أو تعطلها،خصوصاً أنها كانت مُرهَقة.ولم تبدأ المقاومة اليهودية جدياً في وارسو – التي كان ٤٥ % من سكانها من اليهود – إلا في أوائل عام ١٩٤٣، عندما بدأت موازين القوى تميل لصالح الحلفاء وحين قررت برلين تدمير حارة اليهود، وكان الوقت قد فات على إنقاذ نزلاء المعسكرات .

ويبدو أن يهود الولايات المتحدة (الذين يُشكِّلون أكبر جماعة يهودية في العالم) لم يلعبوا دوراً فعالاً بما فيه الكفاية في محاولة حماية يهود ألمانيا. وقد حاولت إحدى المنظمات اليهودية الأمريكية، عام ١٩٨١، فتح ملف تقصير الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة، ولكنها أغلقته بسرعة بدعوى أن الموضوع محرج ومؤلم، وهو كذلك بالفعل. لكن هذا لا يبرر إغلاق التحقيق، وخصوصاً أن الاتهامات الصهيونية للحكومة الأمريكية والفاتيكان والكنيسة بالتقصير لم تتوقف. [2]

هدف الصهيونية ، إنقاذ اليهود أم إنشاء الدولة يهودية ؟

إن الصهاينة اكتشفوا، أثناء الإرهاب النازي ضد اليهود، **ذلك التناقض العميق بين فكرة الدولة اليهودية ومحاولة إنقاذ اليهود . وقد حدد بن جوريون القضية بشكل قاطع (في ٧ ديسمبر ١٩٣٧) حين أكد أن المسألة اليهودية لم تَعُد مشكلة**

---

(1) إيفون جلبنير " السياسة الصهيونية ومصير اليهودية الأوربية " المجلد الثاني عشر ص ١٩٩ نقلا عن رجاء جارودي " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " ص ٧٣ .مرجع سابق .
(2) نفسه .

آلاف اليهود المهدَّدين بالإبادة وإنما هي مشكلة الوطن القومي أو المستوطن الصهيوني.

وقد أدرك بن جوريون خطورة فصل مشكلة اللاجئين اليهود عن المشروع الصهيوني والتفكير في توطين اللاجئين في أي مكان إن لم تستوعبهم فلسطين. وأكد بن جوريون أنه إن استولت "**الرحمة على شعبنا ووجه طاقاته إلى إنقاذ اليهود في مختلف البلاد**" فإن ذلك سيؤدي إلى "**شطب الصهيونية من التاريخ**".

وإذا كان بن جوريون على استعداد بالتضحية بنصف الأطفال اليهود من أجل الوطن القومي الصهيوني فإن إسحق جرونباوم (رئيس لجنة الإنقاذ بالوكالة اليهودية) قد تجاوز الحدود تماماً، ففي حديث له أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٨ فبراير ١٩٤٣، صرح قائلاً إنه لو سُئل إن كان من الممكن التبرع ببعض أموال النداء اليهودي الموحد لإنقاذ اليهود فإن إجابته ستكون « كلاَّ ثم كلا » بشكل قاطع .وأضاف: "يجب أن نقاوم هذا الاتجاه نحو وضع النشاط الصهيوني في المرتبة الثانية ...**إن بقرة واحدة في فلسطين أثمن من كل اليهود في بولندا** ". وكان وايزمان قد عبَّر عن نفس الفكرة النفعية عام ١٩٣٧ حينما قال: " إن العجائز سيموتون، فهم تراب وسيتحملون مصيرهم، وينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك".

إن العدو الرئيسي بالنسبة لزعماء اليهود الصهاينة هو ذوبان اليهود في مجتمعاتهم ، وهم يلتقون في ذلك مع الفكر الأساسي لأي عنصرية بما في ذلك العنصرية الهتلرية ، وهو نقاء الدم ، ولهذا السبب وطبقا لمعاداة السامية المنظمة التي دفعت زعماء النازية إلى محاولة طرد كل اليهود من ألمانيا ثم من أوروبا عندما سيطروا عليها ، فإن النازيين قد اعتبروا الصهاينة بمثابة السند الرئيسي لهم لأنهم يخدمون المخطط هذا . (١)

جرائم اليهود الصهاينة في حق اليهود

لقد ارتكب اليهود الصهيونية أبشع الجرائم في حق اليهود أنفسهم فقد كان حرصهم على إقامة دولة إسرائيل أهم عندهم من إنقاذ يهود أوربا من الإبادة كما أشرنا ، لكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد بل وصل باليهود الصهاينة إلى قتل أعداد كبيرة من اليهود من أجل مشروعهم القومي ففي عام ١٩٤١ ومن أجل إثارة السخط على

(١) رجاء جارودي " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٧٤

الإنجليز الذين كانوا قد قرروا إنقاذ اليهود المهددين من هتلر وذلك باستضافتهم في جزيرة موريشيس فإن الباخرة التي كانت تنقلهم وهي ناقلة البضائع الفرنسية " باتريا " وعند توقفها في ميناء حيفا يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٤٠ لم يتردد الزعماء الصهاينة من جماعة الهاجاناه (وكان رئيسهم بن جوريون) في تفجيرها مما أدى إلى وفاة ٢٥٢ يهوديا وأفراد طاقم الباخرة الإنجليز .

ومثال آخر وقع في العراق ، فقد كانت الطائفة اليهودية (١١٠٠٠٠ شخص في ١٩٤٨) متأصلة في العراق ، وأعلن حاخام العراق الأكبر خدوري ساسون : " لقد تمتع اليهود والعرب بنفس الحقوق الامتيازات منذ ألف سنة ولم يعتبروا أنفسهم عناصر غريبة أو منفصلة عن هذا البلد " .

ثم بدأت التصرفات الإرهابية الإسرائيلية ، في عام ١٩٥٠ في بغداد وأمام إحجام اليهود العراقيين وترددهم في تسجيل أنفسهم على قوائم الهجرة إلى إسرائيل ، ولم تتردد الأجهزة السرية الإسرائيلية ومن أجل إقناعهم بأنهم في خطر بإلقاء القنابل عليهم ، وقتل الهجوم على معبد " شيم توف " ثلاثة أشخاص وجرح العشرات وهكذا بدأ الخروج المسمى " عملية علي بابا " (١)

وكان الهدف المنشود هو تجميع اليهود في جيتو علمي ، لكن العودة لم تتم إلا بتخويف اليهود من التعرض لخطر أعداء السامية في البلدان الأجنبية .

الصهيونية والحروب العربية

لقد استغل زعماء الصهيونية جرائم القتل التي حدثت لليهود – والتي شاركوا في بعضها بالتعاون مع النازيين أو قاموا هم أنفسهم بها – من أجل تخويف اليهود وخاصة الأغنياء والعلماء والشباب وإجبارهم على الهجرة إلى فلسطين عندما لاحظوا إحجامهم عن ذلك ، كما استغلوها في ابتزاز من قاموا بهذه الجرائم ماديا وسياسيا .

ولكي يعمل زعماء دولة إسرائيل على التأليف بين هؤلاء المهاجرين أو المهجرين الذين ينتمون إلى حوالي ١٠٠ جنسية مختلفة فإنهم عمدوا إلى إثارة الحروب مع العرب من أجل هدفين :

---

(١) جريدة أديعوت أحرونوت الإسرائيلية في ٨ ١٩٧٧ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

١- توحيد هذه الجماعات المتباينة دينيا وثقافيا وجنسيا تحت شعار إما أن تتحدوا وإما أن يبيدكم العرب بقيادة عبد الناصر أو صدام حسين أو أحمدي نجاد أو أسامة بن لادن أو حسن نصر الله أو قادة حماس ...

٢- التوسع على حساب البلاد العربية وتحقيق أسطورة أرض إسرائيل من النيل للفرات .

وكما أن العرب يدفعون ثمن هذه السياسة النازية التي نهجها زعماء إسرائيل فإن اليهود يدفعون الثمن كذلك ، فكثيرة هي دماء اليهود الإسرائيليين التي تراق دون سبب إلا طموحات زعماء إسرائيل العدوانية التوسعية .

فخمسة حروب من الحروب الستة التي جرت بين دولة إسرائيل والدول العربية كانت حروبا عدوانية شنها زعماء إسرائيل النازيين ضد العرب المسالمين ، فقادة العرب بعد حرب ٤٨ لم يفكر أحد منهم في الاعتداء على إسرائيل ، وعبد الناصر (الذي كان يدعوه الصهاينة النازي الجديد) لم يكن عدوا حقيقيا لإسرائيل فلقد اعترف في وقت مبكر جدا (في مؤتمر باندونج ١٩٥٥) بقرارات الأمم المتحدة عامي : ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ بشأن تقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ويهودية ، و لم يقم بأي إجراء عسكري ضد إسرائيل رغم الاستفزازات الإسرائيلية المتكررة ، وبعد جلاء العدوان الثلاثي وتوقيع اتفاقيته تأكد اعتراف عبد الناصر – الرسمي – بإسرائيل وبحقها في الوجود ، وبحرية الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة ، وبعد هزيمة ٦٧ أعلن قبوله لقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، ولمشروع روجرز وزير الخارجية الأمريكية ، اللذان يعدان أساساً لمعاهدة السلام التي وقعها السادات مع الإسرائيليين عام ١٩٧٩، وتاريخ عبد الناصر يؤكد مهادنته لإسرائيل .(١)

الصهيونية العالمية ودعم المتطرفين

تلجأ الصهيونية العالمية الآن إلى حيلة ذكية ، وهي دعم – خفي – للنُظُم والجماعات المعروفة بتطرفها تجاه أمريكا وإسرائيل والتي تتبنى الخيار العسكري كحل وحيد – رغم قلة عددها وضعف قوتها – للصراع العربي الصهيوني

---

(١) لمزيد من التفصيل حول علاقة عبد الناصر بإسرائيل انظر كتابنا " دروس من التجربة الناصرية " .

(كالنظام السوري ، وحركة حماس ، وحزب الله ..) ومحاولة إظهار أصوات القادة العرب المعتدلة بمظهر الجبن والخيانة للقضايا العربية(كمصر ، والمملكة السعودية ، والأردن ، ومنظمة فتح الفلسطينية ، وكتلة ١٤ آزار اللبنانية ..) وهذا الدعم الخفي للجماعات والنُظُم المتطرفة تجاه أمريكا وإسرائيل له هدفان :

١-تمزيق الوحدة الوطنية ، وإشعال الحروب الأهلية بضرب المتطرفين بالمعتدلين كما حدث مع حماس وفتح ، وحزب الله وكتلة ١٤ آزار ، والشيعة والسنة في العراق ،...

٢-اتخاذ مواقف المتطرفين ذريعة للعدوان العسكري ، أو الحصار الاقتصادي ، أو العزل السياسي ، أو الدعم اللا محدود للسياسة الصهيونية في المنطقة كما حدث هذا في الحرب الأمريكية / العراقية ، الإسرائيلية / اللبنانية ، والحصار الاقتصادي المضروب على الفلسطينيين ، والعزلة الدولية المضروبة على سوريا وإيران .

والمدهش حقا أن تقوم بهذا الدعم نيابة عن أمريكا وإسرائيل قناة فضائية كبرى تُبَث من الدولة العربية التي بها أكبر قاعدة أمريكية توجه منها أمريكا ضرباتها ضد أعدائها من العرب !!

***

الفصل الثامن

كيف تأسست دولة إسرائيل

تحدثنا في الفصل السابق عن الصهيونية كمشروع استيطاني ، ومخطط استعماري ، وفي هذا الفصل نبين كيف تم تنفيذ هذا المشروع ، وكيف تمت الإجراءات التي تأسست عليها الدولة إسرائيل .

لقد اختلف الصهاينة فيما بينهم حول أسلوب إنشاء الدولة اليهودية ففي البداية كانت هناك الصهيونية التسللية التي وقعت أسيرة وهم كبير ، إذ تصوَّر المتسللون أن بإمكانهم الاستيطان دون مساعدة الإمبريالية الغربية وقد اختفى هذا التيار مع تأسيس المنظمة الصهيونية .

هرتزل مؤسس دولة إسرائيل

الحقيقة أن المشروع الصهيوني ظل متعثراً قبل ظهور هرتزل وظلت الصهيونية فكرة غير قادرة على التحقق لأسباب عديدة من أهمها أن دعاة الفكر الصهيوني كانوا من الصهاينة غير اليهود أو من أعداء اليهود، الأمر الذي جعل أعضاء المادة البشرية المستهدفة (أي اليهود) يرفضون الدعوة إلى استيطان فلسطين. كما أنه لم تكن هناك أية أطر تنظيمية تضم كل الجماعات اليهودية. وعلاوة على هذا كان هناك يهود الغرب المندمجين الذين كانوا يرون أن المشروع الصهيوني يهدد وجودهم ومكانتهم وكل ما حققوه من مكاسب .

وقد حل هرتزل كل هذه الإشكاليات، فقام بوضع العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية استناداً للصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة التي نبعت من صميم هذه الحضارة ومن تاريخها الفكري والاقتصادي والسياسي. ولم يكتف هرتزل بوضع العقد وإنما قام بتأسيس المنظمة الصهيونية التي طرحت نفسها

كإطار تنظيمي يمكن من خلاله توقيع العقد مع الحضارة الغربية وفرض الصيغة الصهيونية الشاملة على الجماهير اليهودية بحيث تتحول هذه الجماهير إلى مادة استيطانية ويدخل المشروع الصهيوني إلى حيز التنفيذ. كما طوَّر هرتزل الخطاب المراوغ الذي جعل بالإمكان إرضاء مختلف قطاعات يهود العالم الغربي (في غرب أوربا وشرقها)، بل استيعاب كل ما قد يَجِدُّ من مشاكل في المستقبل، الأمر الذي فتح الباب أمام تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة . (١)

لقد أدرك هرتزل بدهائه أطماع الغرب في بلاد الشرق ولا عجب فهو ابن الحضارة الغربية العلمانية الإمبريالية فسعى للتحالف مع المسئولين الغربيين لتنفيذ هذا المشروع وهو القضاء على الإمبراطورية العثمانية وأكل تراثها أكلا لمًّا . وحل مشكلة يهود أوربا بتهجيرهم إلى فلسطين .

كان تيودور هرتزل، مناورًا داهية في الدبلوماسية بين هذه الأهواء المتصارعة، فمنذ يوليو عام ١٨٩٧م وقبيل مؤتمر بازل وجدناه يناقش في صحيفته (Die Welt) مقالاً لمجلة Ouarterly Review كان يطالب بتقسيم تركيا، وفي هذه القسمة يجب أن تئول مصر وسوريا (بما فيها فلسطين) إلى إنجلترا، التي كانت بحاجة ماسة إلى هذا الطريق المختصرة إلى الهند، قال: " إن البحث عن طريق الهند قادنا إلى كثير من الكشوف السعيدة المفيدة للإنسانية، فقد ارتَدْنَا شواطئ إفريقية، وتم كشف أمريكا، وشُقَّ برزخ السويس، وربما كان حل المشكلة اليهودية أيضًا موجودًا على طول الطريق البالغ القصر إلى الهند . " (٢)

ثم أعلن هرتزل صراحة أهداف المشروع الصهيوني ،ووسائله ،وفوائده لكل من الغرب واليهود ،والأساطير المؤسسة له كل ذلك في كاتبه "الدولة اليهودية" الذي صدر عام ١٨٩٦م .

حدد هرتزل في مقدمة كِتَابه (الدولة اليهودية) عام ١٨٩٦م بكل وضوح على أية قوة سوف يَعْتَمِد في تَحْقِيق مشروعه للكفاح ضِدّ (دمج) اليهودية في بِلادهم الخاصة وللهجرة إلى فلسطين.

((١) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٦ ج١ الباب الثالث: العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية .مرجع سابق .

(٢) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الثاني " من اليهودية إلى القومية الصهيونية " .مرجع سابق .

وكتب يقول: (هذا المشروع ينطوي على إستِخدام قوة مُحَرِّكة موجودة في الواقع، كل شيء يجري على القوة المحركة، فما هذهِ القوة ؟ إنها محنة اليهود) (١)

وفي مؤتمر بازل الأول للصهاينة الذي عقد في سنة ١٨٩٧ أسست المنظمة الصهيونية العالمية وصُدِّق على البرنامج الذي يحتفظ بروح القومية اليهودية مناديا بإنشاء مأوى آمن في فلسطين للشعب اليهودي عن طريق تعميرها بالمزارعين والحرفيين ، وتوحيد الشعب اليهودي عن طريق الاتحادات المحلية والعامة طبقا لقوانين البلاد المختلفة ، وعن طريق تعزيز الشعور القومي والوعي الذاتي لدى اليهود .

وبجانب ذلك اقترح الحصول على تصريح من السلطان التركي لتوطين اليهود في فلسطين .

ولتحقيق الشعار القائل بأنه : يجب على كل اليهود أن يتحدوا حول العَلَم الصهيوني اقترح هرتزل ما يلي :

على البرجوازية اليهودية أن تأتي برأسمالها ، وعلى المثقفين أن يقدموا القوة الروحية لهذه الحركة . أما جماهير الكادحين اليهود فعليها أن تبذل كل جهودها لهذه الحركة . كان معنى هذا بالنسبة للفقراء اليهود الهجرة الفورية إلى فلسطين والعمل الجسماني الشاق ووفقا لخطة هرتزل يذهب إلى فلسطين الفقراء أولا كي يُهَذِّبوا المكان استعدادا لاستقبال الآخرين الميسورين الذين يدركون أن المجالات الجديدة والعظيمة ستفتح أمام رجال الأعمال وتحصَّل لصالح القضية العامة ضريبة صهيونية خاصة تصل إلى فرنك واحد ذهبا ، ولا يعتبر صهيونيا سوى كل يهودي يعترف ببرنامج بازل ويدفع الضريبة . (٢)

كانت الأغلبية الساحقة بين المشاركين في مؤتمر بازل، قد قدمت من أوربا الشرقية من "يهود الجيتو" المنبوذين، على ما قال هرتزل، وقد زاد في إغرائهم تطلُّعهم إلى أن يحصلوا على حي مغلق "جيتو"، أكثر اتساعًا، حيث يكونون بمأمن

---

(١) تيودور هرتزل : الدولة اليهودية مرجع سابق ص ١١

(٢) انظر كتاب " دولة إسرائيل خصائص التطور السياسي والاقتصادي " للكاتبة السوفيتية جالينا نيكيتينا مرجع سابق ص ١٩ ، ٢٠ .

من المذابح في حين أن اليهود الغربيين، المهتمين بأن يُتِمُّوا "اندماجهم" في بلادهم الخاصة، وهم لم يكونوا مُهَدَّدين بشيء فقد ظلوا على خصومة للصهيونية .

فلما راقت فكرة المشروع الصهيوني لكثير من مسئولي الغرب بدأ هرتزل في تسويقه فعرض المشروع أولا على انجلترا ، ثم ألمانيا .

لقد قابل أولاً في ١٦ من سبتمبر ١٨٩٩م سفير ألمانيا في فيينا أو لنبرج، ومسَّ مباشرةً الوترَ الحساس وهو المنافسة مع إنجلترا قائلاً: " إن قوة أخرى بوسعها أن تساعد هذه الحركة، ولقد فكرت أولاً أنها ربما تكون إنجلترا، وهذا طبيعي، ولكني سوف أكون سعيدًا أن تكون ألمانيا " (١)

وفي ١٩ من أكتوبر ١٨٩٨م حصل على مقابلة مع قيصر ألمانيا وفي ذلك يقول هرتزل يقول : " وعندما اقترحت عليه قضيتيْ شركة الامتياز والحماية الألمانية، أمَّن على ما قلت مؤيِّدًا " (٢)

وفي هذه المقابلة حدد هرتزل المطلوب من الإمبراطور أن يفعله فعندما قال له الإمبراطور وهو مَزهُوٌّ بكونه وحده موضعَ ثقة السلطان التركي عبد الحميد : " قل لي في كلمة واحدة ما ينبغي أن أطلبه من السلطان " وأجاب هرتزل: " شركة الامتياز التي أنشأتها تحت الألمانية " (٣)

وبذلك صار الطريق إلى فلسطين أمام هرتزل يمر بالقسطنطينية، فهو يريد أن يقابل السلطان بتوصية من إمبراطور ألمانيا، لهدف واضح، هو أن يشتري فلسطين، لكن هذا يحتاج إلى المال ولم يكن قد جمع المال بعد لذا يقول في يومياته ولو كان السلطان أراد أن يبيعني فلسطين فورًا لتحيَّرت حقًّا؛ إذ كان يجب أن أجد المال أولاً " (٤)

وعلى الرغم من مقاومة روتشيلد الرأسمالي الإنجليزي اليهودي الذي كان في البداية خصمًا للصهيونية فإن هرتزل استطاع أن يقنعه بأن أمر فلسطين ما هو إلا

---

(١) يوميات هرتزل ص ٢٣٦ مرجع سابق
(٢) نفسه ص ٢٦٧
(٣) نفسه ص ٢٧٢
(٤) نفسه ص ٣٣٤

مشروع اقتصادي ضخم سيعود على من يساهم فيه بالخير العميم وهنا يغير روتشيلد موقفه ويؤمن بل يساهم في المشروع الصهيوني .

وقد نجح هرتزل في تجميع المال اللازم الذي سيعرضه على الدولة التركية في مقابل تنازلها عن فلسطين فقد " ظَفِر في المؤتمر الصهيوني الثاني في بازل أغسطس عام ١٨٩٨ بإنشاء البنك الذي كان يحلُم به (البنك الترست الاستعماري اليهودي وعن طريقه سوف يحصل في فبراير عام ١٩٠٢ على ثلاثة خطابات ائتمان (قرض): أولها من بنك الكريدي ليونيه في باريس، والثاني من بنك دريسدر في برلين، والثالث من بنك لويدز في لندن، وهي كلها مبالغ أُودِعَت في البنوك التركية .

وهكذا استطاع هرتزل أن يكلم السلطان عبد الحميد، الذي كان يختنق من الإفلاس، فأصبح هرتزل في مركز القوة

كان حديثه إلى السلطان واضحًا : " بيعوا لي فلسطين، ولسوف أُنهِضُ ماليَّتكم وأدفع ديونكم. " (١)

ويحاول هرتزل غواية السلطان العثماني بالمال الذي هو في أشد الحاجة إليه ، وكذا بتأييد يهود العالم للإمبراطورية التركية قائلا : " فإن العملية سوف تصل إلى خير بفضل أصدقائي في كل أسواق المال ــ البورصات ــ في أوربا بشرط أن أنال تأييد صاحب الجلالة .. ولسوف أجتذب مودة يهود العالم أجمع تجاه الإمبراطورية التركية " (٢)

وهكذا أصبح هرتزل وكيلا عن الغرب الاستعماري لشراء فلسطين من صاحبها المَدِيْن السلطان عبد الحميد ، لكن هناك نقطة مهمة لابد أن تحدد قبل إتمام الصفقة هي موقف هرتزل ممثل اليهود الصهاينة من المقدسات المسيحية الفلسطينية ، فهناك تاريخ كبير من الصراع المسيحي اليهودي ، فالمسيحيون يتهمون اليهود بقتلهم الرب يسوع ومحاربة أتباعه ، وعلى الرغم من أن المشروع الصهيوني مشروع علماني إلا أنه ينبغي ألا يصدم الشعور الديني المسيحي .

---

(١) نفسه ص ٣٥٢- ٣٥٣

(٢) نفسه ص ٣٤٠

لذا نجد أن البابا بي العاشر لا يمانع من سيطرة اليهود على فلسطين باسم الإمبريالية الغربية بدلا من المسلمين الأتراك إلا أنه يريد أن يطمئن على موقف اليهود من المقدسات المسيحية في فلسطين

وعندما قال البابا بي Pie العاشر لهرتزل: " إنه لمن غير المناسب أن نرى الترك يسيطرون على أماكننا المقدسة، ولكن إذا كان البديل المقابل هو رغبة اليهود أن يحتلوها فإننا لا نستطيع أن نفعل هذا " (١) وهنا يَعِد هرتزل البابا بأنه يضمن " حصانة الأرض المقدسة " (٢)

لكن السلطان العثماني عبد الحميد رفض أن يبيع فلسطين وقال لهرتزل: " إنني لا أريد أن أبيع حتى ولا بوصة من هذه الأرض، لأنها ليست أرضي بل أرض شعبي، وقد بنَى هذه الإمبراطورية ورواها بدمه، إن اليهود يستطيعون أن يحتفظوا بملايينهم إلى أن تتمزق إمبراطوريتي، فربما يحصلون على فلسطين دون مقابل، أما أنا فها هو ذا جسدي يمكن أن يمزقوه، ولكني لا أستطيع أن أوافق على اقتطاع فلسطين) (٣)

ولم ييأس هرتزل وكرر اللقاء بالسلطان عبد الحميد مرة أخرى بعد عام من لقائه الأول عام ١٩٠١ وبرغم إظهار السلطان عبد الحميد عطفه على اليهودِ حيث وافق على أن يترك اليهود يدخلون فلسطين ويشترون أراضيَها، مع تحفظٍ هو " أنهم يجب أن يصيروا رعايا مسلمين " إلا أنه لم يسمح بهجرة اليهود إلى فلسطين على نطاق واسع فقد كان يعلم تماما حقيقة أهداف الصهيونية التي كانت قد أعلنتها في مؤتمرها الأول قبل سنوات قلائل ، وكان عبد الحميد يفرق بين الصهيونيين واليهود كرعايا عثمانيين ، وكان في أثناء محادثاته مع هرتزل يرى أن المستعمرات الصهيونية في فلسطين سوف تخلق أقلية جديدة تسعى إلى الاستقلال بالاستعانة بالدول الأجنبية ، إلى جانب ذلك فقد كان عبد الحميد يخشى غضب الرأي العام الإسلامي . (٤)

---

(١) نفسه ص ٤٢٨

(٢) نفسه ص ٤١٩ و٤٢١

(٣) نفسه ص ١٥٢

(٤) د. محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٨٦ .

وبعد رفض السلطان عبد الحميد القاطع أن يبيع فلسطين ، بدأ هرتزل يفكر في وسائل أخرى لتنفيذ المشروع الصهيوني فاستدار مرة أخرى إلى من يقتطع له ما يريد (إنجلترا) ففي خطابه لافتتاح المؤتمر الرابع بلندن في ١٣ من أغسطس عام ١٩٠٠م استخدم نبرات غنائية في عباراته وهو يقول: " إنجلترا العظمى، إنجلترا الحرة، التي تمسك تحت رقابتها بالسبعة البحور، تفهمنا وتفهم أهدافنا؛ قطعة من هناك، ولسوف تبلغ الفكرة الصهيونية أَوْجَ تحليقها، إلى أعلى وإلى بعيد، ولسوف نكون في تحليقنا مطمئنين "

وعلى عكس ما قاله هرتزل للسلطان عبد الحميد بدأ يوضح " الفوائد التي تحققها الدولة اليهودية لمصالح أوربا أجمع " (١)

وهو ما فعله أمام دوق دى باد، وقال: إنها ستكون حصنًا متقدمًا للحضارة الغربية في وجه البربرية الشرقية . (٢)

وكانت قصته من وجهة النظر هذه مُوحِيَة، فهي تمجد روح الحروب الصليبية وتنعي على أوربا أنها خسرتها؛ إذ يقول: " كان جود فروي دي بويون وفرسانه الشجعان يَرَوْنَ جريمةً أن تبقى فلسطين بأيدي المسلمين، فأين تجدون شعورًا كهذا بين فرسان وأمراء نهاية القرن التاسع عشر ولدى الحكومات ؟ مَن منهم يخاطر بنفسه ليقدم إلى برلمانه عرضًا بقرض استثنائي لتحرير الأرض المقدسة " (٣)

وإلى جانب استثارته للعاطفة الدينية المسيحية تجاه الأماكن المقدسة راح هرتزل يعدد الفوائد الاقتصادية التي ستجنيها إنجلترا من وراء دعمها للمشروع الصهيوني فيقول هرتزل مغريا انجلترا بمستقبل المشروع : " المدن الكبيرة تدوِّي، والتقدم الصناعي يفرض نفسه، وسكك الحديد تجوب في هذا المكان، مكان النمو العالمي، كهربة عامة مستمَدَّة من مساقط الماء، من حرمون ولبنان، ومستمَدَّة أيضًا من الفرق في المستوى بين البحر الأبيض والبحر الميت، وقناة تربطهما ".

ويحدد في صحيفته: " وعندما سنكون في العريش تحت العلم البريطاني، هنالك سوف تقع فلسطين أيضًا في مجال النفوذ البريطاني " . (٤)

---

(١) يوميات هرتزل مرجع سابق ص ١٢٢
(٢) هرتزل " الدولة اليهودية " مرجع سابق ص ٣٢
(٣) نفسه ص ١٤٦ .
(٤) يوميات هرتزل مرجع سابق ص ٣٨٤

ولم يكتف هرتزل بعرض مشروعه على كل من ألمانيا وانجلترا بل عرضه أيضا على روسيا القيصرية عدوة اليهود الكبرى آنذاك إنه على استعداد أن يتحالف مع الشيطان في سبيل تحقيق مشروعة الصهيوني .

وقد توصَّل هرتزل إلى اتفاق مع المسئولين الروس مفاده : أنْ تبذل الحكومة الروسية مساعيها الحميدة لدى تركيا لتسهيل دخول اليهود إلى فلسطين .وستقدم مساعدات مالية للمهاجرين تُجمَع من مصادر يهودية، وستسهّل تنظيم الجمعيات الصهيونية الملتزمة ببرنامج بازل. وقد سُمح أيضاً لبنك الاستيطان اليهودي ببيع أسهمه في روسيا شريطة أن يفتح فرعاً له في البلد لكي تستطيع السلطات مراقبة عمليات البيع.

كذلك قام بليفيه (فون بليفيه، وزير الداخلية الروسي المعادي لليهود) بتزويد هرتزل برسالة موقعة منه، وبعد أن بحث محتوياتها مع القيصر، أعلن فيها أن الحكومة الروسية تنظر بعين العطف إلى الصهيونية ما دام هدفها إقامة دولة مستقلة في فلسطين، وأنها على استعداد لمساعدتها. وهذه المساعدة قد تتخذ شكل حماية الممثلين الصهاينة أمام الحكومة العثمانية، وتسهيل نشاط جمعيات الهجرة ومساعدتها مالياً من الضرائب التي تُجبى من اليهود. وقد استغل هرتزل هذه الرسالة، في أكثر من مناسبة، فيما بعد .

ويُلاحَظ أنه لا توجد أية ديباجات رومانسية في هذا الوعد، فهو مسألة تعاقدية جافة يتحدث فيها كل طرف عن الفائدة المرجوة وعلى العائد من الصفقة. ولذا، فقد أكد فون بليفيه دون مواربة أو حياء أن الهدف هو التخلص من اليهود عامة باستثناء الأثرياء منهم، وجاء هذا واضحاً في قوله :" إن نجاح اليهود في إقامة دولة مستقلة لهم تستوعب عدة ملايين منهم لهو أمر نقبله وندعمه... إننا لا نريد التخلص من جميع اليهود الروس... إننا نريد فقط التخلص من المعدمين والمضطربين". وحذر فون بليفيه من أن التأييد الروسي القيصري سيتم سحبه إن كان هدف الصهيونية، غير المعلن، هو تحقيق تركيز قومي لليهود في روسيا، فالدعم الروسي مشروط بالتخلص من اليهود . (١)

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية م٦ ج١ الباب الثالث: العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية . مرجع سابق .

كانت روسيا راغبة بشدة في التخلص من اليهود فلقد كان اليهود وراء كل ثورة ضدها وكانوا سبب زعزعة الاستقرار والأمن فيها لذا كان إمبراطور روسيا شديد الكره لهم " وقد كان هرتزل يعرف مع ذلك معرفة كاملة المشاعر المعادية للسامية لصاحب الجلالة إمبراطور روسيا وروى في الواقع في صحيفته المحادثات التي تمت في سان بطرسبرج مع وزير المالية الكونت وت Witte في ٩ من أغسطس عام ١٩٠٣م لقد قال لهرتزل منذ البداية : أتريد خروج اليهود من البلاد ؟ أأنت عبراني؟ باختصار إلى مَن أتكلم الآن؟

ـ أنا عبراني ورئيس للحركة الصهيونية.

ـ إذن ماذا علينا أن نقول أنت وأنا ؟ (١)

وأخذ وتّ يعدد مطاعن القيصر ضد اليهود، وهي المطاعن ذات الطابع الديني والاقتصادي والسياسي فيقول : " إذا كان في روسيا سبعة ملايين فقط من اليهود وسط الشعب الروسي الذي يبلغ تعداده مائة وستة وثلاثون مليون، فإن اليهود يشكلون ٥٠ % من القوة المؤثرة في الأحزاب الثورية . (٢) ثم أكمل قائلا : " أظن أن هذه غلطة حكومتنا ، ولقد كنت دائمًا أقول للإمبراطور الراحل ألكسندر الثالث:

لو كان من الممكن يا صاحب الجلالة أن نُغرِقَ ستة ملايين أو سبعة من اليهود في البحر الأسود، فربما أكون راضيًا رضًا كاملاً، ولكن إذا لم يكن هذا ممكنًا فيجب أن نتركهم يعيشون. وأنا لم أغير رأيي " (٣)

ويحاول هرتزل استثارة العاطفة الدينية لدى وزير المالية الروسي " وت " ويخفف من ثورته ضد اليهود فيوجه له هذا السؤال : " إن جنودًا من الترك يحرسون قبر المسيح، ما رأيكم ؟

فيرد عليه " وت " بإجابة سريعة وقاطعة : " ربما يكون أعظم سوءًا لو كان اليهود هم حراسه . " (٤)

---

(١) نشرة شيفر S.ahiffer في مجموعة وثائق عن إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين ص ٣٩٤.
(٢) نفسه ص ٣٩٥.
(٣) نفسه ص ١٩٧.
(٤) نفسه .

وكتب هرتزل يقول: وأخيرًا سألني عما أريد من حكومته، فقلت له: بعض التشجيع.

ـ ولكنا نشجع اليهود على الهجرة، مثلاً بركلات الأقدام أو (الشلاليت).

ـ لست أتحدث عن هذا النوع من التشجيع، فقد عُرف.

ثم قدَّمتُ إليه النقاط الثلاثة التي ذكرتُها في مذكرتي إلى بلف. (١)

ولنذكر هذه النقاط الثالث:

أ ـ التدخل لدى السلطان العثماني ليوافق على الامتياز.

ب ـ المساعدة الروسية للهجرة بوساطة فرض ضرائبَ مُسبَّقة على اليهود.

ج ـ التسهيلات الممنوحة للنظام الصهيوني الروسي . (٢)

أرأيتم إلى أي حد كان الروس يكرهون اليهود ويحلمون بالتخلص منهم لذا كانوا يؤيدون إنشاء وطن لليهود في أي مكان عدا روسا .

الخطاب الصهيوني المراوغ

كان تيودور هرتزل قد قَبِل في مؤتمر بازل، بنوع من المُواءمة، صيغة "وطن" في فلسطين، لا "دولة يهودية"، بحسب عنوان كتابه كما قَبِل صيغة، "القانون العام" بدلاً من "القانون الدولي" حتى لا يُشْعِر تركيًا بأنه يعتدي على سيادتها في فلسطين.

وقد كتب ماكس نوردو عام ١٩٢٠م عن مؤتمر بازل فقال :

"لقد بذلتُ جهدي لإقناع أولئك الذين كانوا يُطالبون "بدولة يهودية" في فلسطين أننا يجب أن نلجأ إلى التعمية للتعبير عنها، في صيغة تتحاشى أن تثير قادة الأتراك في الأرض التي نطمع فيها، واقترحت أن تكون عبارة "وطن قومي" مرادفًا لكلمة "دولة".

فهذه هي قصة هذا التعبير الذي كان مثار جدل كثير؛ فقد كان غامضًا، ولكننا كنا نفهم ما يريد أن يقوله، أما بالنسبة إلينا، فقد كان يعني آنئذ "دولة يهودية " وله نفس المعني اليوم، ولكن لم يَعُد هناك سبب الآن لإخفاء هدفنا الحقيقي".

---

(١) نفسه ص ٣٩٦
(٢) نفسه ص ٣٨١

فهذه الصيغة الغامضة "وطن " تعني لدى هرتزل ونوردو واقعًا محددًا . (١)

وقد كتب هرتزل في صحفيته، في ٣ من سبتمبر ١٨٩٧م، يقول : "إذا كان واجبًا أن ألخص المؤتمر في كلمة واحدة، كنتُ أمسكت عن نُطقها علناً، فهذه الكلمة هي أنني في بازل أسست "الدولة اليهودية " . (٢)

إن صـــياغة برنامج بازل تعـــبير بليغ عن الخطاب الصهيوني المراوغ، فلم يُذكَر فيه ما هو مفهوم من الجميع ويمكن أن يسبب الحرج وتركت في بنوده فراغات كثيرة ليملأها كل صهيوني على طريقته، ولم يذكر الدولة ولا حدودها، وتم تغييب العرب تماماً من خلال التزام الصمت الكامل تجاههم، ويُضاف إلى ذلك عدم تحديد أعضاء الشعب اليهودي، ولم يتم الإفصاح عن أيٍّ من المفاهيم الأساسية الكامنة إلا بعد نصف قرن تقريباً في برنامج بلتيمور (الذي أصدره مؤتمر استثنائي عقده الصهاينة الأمريكيون والأوربيون في نيويورك مع ممثلي المستوطنين في فلسطين في مايو ١٩٤٢) (٣)

وعندما استخدم وعد بلفور عام ١٩١٧ تعبير "وطن قومي يهودي في فلسطين" فإن المسئولين البريطانيين استخدموا من جانبهم ازدواجية هرتزل ودهاءه، فهم يقولون "وطن قومي"، ويقصدون "دولة يهودية"، وقد شرح وايزمان بكل وضوح للحكومة البريطانية أن هدف الصهيونية كان إنشاء "دولة يهودية"، "بأربعة ملايين أو خمسة، من اليهود" فقدم له لويد جورج وبلفور الطمأنينة بأنهما وهما يستعملان مصطلح "وطن قومي" في إعلان بلفور فإنما يقصدان فعلاً به "دولة يهودية" (٤) .

ثم أضاف: "بيد أن هذا شيء لا يُقال بصوت عالٍ ".

وعند موت هرتزل كانت قد ارتسمت ملامح مستقبل الصهيونية وسر نجاحها، وهو ما سبق أن تخيله هرتزل حين قال: إن برنامج الصهيونية هو بشكل ما

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني الفصل الثالث " أسباب نجاح الصهيونية السياسية " .مرجع سابق .

(٢) يوميات هرتزل : مرجع سابق ص ٢٢٤

(٣) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٦ ج١ البـــاب الثالـــث: العقـــد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية . مرجع سابق .

(٤) دورين إنجرام " ورقات فلسطينية ، بذور الصراع " نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(مرسوم محفور) في الأهداف الاستعمارية للقوى الكبرى، وبفضل معاداة السامية لم يَعُدْ أمامه إلا أن يصب في هذا النهر .

الحرب العالمية الأولى ووعد بلفور

كان هرتزل قد لاحظ ــ بعد مباحثات مع ألمانيا وروسيا حول المشروع الصهيوني ــ أن أفضل كارت لِلعِبِ بين القوي الاستعمارية هو كارت إنجلترا، فبدأ بِهِ وختم بِهِ .

وهكذا نالت الصهيونية الدعم على ثباتٍ من السياسية الإنجليزية.

ويجب أن نعترف - على ما يؤكده أوسكار ك.رابينوفتش في كِتابه (هرتزل، معماري إعلان بلفور)- بأن خلفاء هرتزل لم يضيفوا شيئا جديدا حتى كان تشكيل دولة إسرائيل. وأما مشروع برنامج عام ١٩١٦م الذي أعده الدكتور وايزمان والذي يصور مقدما خطة (الوصاية البريطانية) على فلسطين التي سوف تحكم ما بين الحربين ــ فهي تجسيد لأفكار هرتزل .

وحين مات هرتزل، يبدو أن خليفته وايزمان قد إبتعد عنه مسافة، فبعد موته مباشرة أخذ يتكلم عن " منهج الخِداع والأبهة، وعن أنه يجب أن ينتهي مع هواء فيينا، وأن نبدأ جادين خطوات عملية " (١)

والحق أن وايزمان ومشاركيه قد ركزوا منذئذٍ جهودهم حول مشكلتين محسوستين:

١ــ تطوير البنك الاستعماري اليهودي .

٢ــ تطوير المستعمرات اليهودية في فلسطين .

بيد أن الإنسان الذي أعطى الدفعة الأولى كان تيودور هرتزل، فلقد أنشأ في المؤتمر الخامس الصهيوني عام ١٩٠١ الأداة الأساسية لوضع اليد على أراضي فلسطين، وهي المؤسسة القومية اليهودية المكلفة بتركيز شراء الأرض في فلسطين،

---

(١) حاييم وايزمان" التجربة والخطأ " ص ١٢٥ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

وقد حدد في الفقرة (د) من المادة (٣) من إنشاء لائحة الوكالة أن (الأراضي تملك على أنها ملكية يهودية، وأن الأراضي المشتراة تسجل باسم Keren Kayemet Israel وتظل مسجلة باسمها حتى تصير ملكية للشعب اليهودي لا يمكن التصرف فيها .

ولقد تنامى البنك والاستعمار، وكان الأول أسرع في تناميه من الثاني، بيد أن الفضل يرجع فقط إلى الحرب العالمية الأولى؛ إذ هي التي جعلت المشروع الصهيوني لاحتلال فلسطين يدخل مرحلة جديدة وحاسمة في طريق التحقيق، فلم يعد الاحتلال الصهيوني لفلسطين مركزا متقدما للاستعمار الأوربي بل صار رهانا على تنافس الأعداء في الحرب ما بين عامي ١٩١٤ ــ ١٩١٨م.

إن مشكلة الاستعمار الصهيوني لفلسطين إنما تطرح بنفس المصطلحات التي تعرفها مشكلات المستعمرين الآخرين جميعا، فالاستعمار يري أن أية أرض تعتبر (خالية) ما دامت غير مسكونة من البيض الغربيين، وقد عبر عن هذا المعنى ببراءة وقحة أحد الصهيونيين الأمريكيين فقال :

" أنا أعلم أن الأمريكي كان دائما موضع نقد لأنه إستغل واحتل تكساس وكاليفورنيا إبان حرب المكسيك، التي توصف بأنها عمل عدواني، ولكني أسأل نفسي: ما قيمة نقد كهذا حين يكون البديل أن يحرم مجموع الجنوب الغربي من طيبات الحضارة الأمريكية ؟ عندما توجد أرض "خالية" بالقوة إفتراضا فإن العالم يدعو إلى خلاصها، وفلسطين المقفرة كانت بالضبط تكساس مصغرة، ومنطق التاريخ يتطلب أن تملأ هذه (المساحات الخاوية) لأن الطبيعة يرعبها الخواء " (١)

ولقد كان هذا من قبل هو الشعار الذي رفعه زنجويل عام ١٩٠٤م (أن تعطي أرضا بلا شعب لشعب بلا أرض) (وقد كان تعداد سكان فلسطين آنذاك أكثر من ستمائة ألف من السكان العرب، مع كثافة سكانية مماثلة لكثافة الشقق الفرنسية المتوسطة).

---

(١) برنارد روزنبلات " الجسر الأمريكي إلى الكومنولث الإسرائيلي " ص ١٢٣ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

هذا هو موقف الأمريكيين تجاه الهنود، وموقف البيض في أفريقيا الجنوبية تجاه السود، وموقف الصهيونيين تجاه العرب، وكلهم يرون أن فلسطين أرضا (خالية).

وقد كتبت السيدة جولدا مائير في أول سطر من رسالتها ذات المغزى في ٢٤ من أغسطس ١٩٢١م تقول: " إن الإنجليز لم يختاروا العرب لاستعمار فلسطين، بل إختارونا نحن " (١)

ولقد حسمت الحرب ما بين ١٩١٤-١٩١٨م هذا الاختيار. لقد كان خيارا صعبا في الواقع بالنسبة إلى الحكومة الألمانية المتحالفة مع الأتراك، أن تعد بجزء من الإمبراطورية العثمانية للصهيونيين أو للعرب (المستعدين للثورة ضد إستبداد المحتل التركي).

أما إنجلترا، فعلى العكس، كانت تسعى للإفادة من الطرفين، وقد كان إصدار (وعد بلفور) في نوفمبر ١٩١٧ عملا ذا مغزى في هذا الشأن .

ففي أثناء الحرب العالمية الأولى نظرا لارتباط مصالح بريطانيا بمصالح الحركة الصهيونية ، فإن بريطانيا قررت أن ترعى المشروع الصهيوني الرامي إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين يعمل في خدمة الأهداف الاستعمارية للدولة التي تساعد في إنشائه ، ومن هنا صدر الأمر البريطاني المعروف بتصريح بلفور في صورة خطاب موجه إلى اللورد روتشيلد رئيس الطائفة اليهودية في بريطانيا في ٢ نوفمبر ١٩١٧ كما يلي :

" عزيزي اللورد روتشيلد .. أعبر لكم عن بالغ سروري إذ أنقل إليكم باسم حكومة صاحب الجلالة التصريح التالي بالعطف على الأماني اليهودية الصهيونية ، وهو التصريح الذي عُرض على مجلس الوزراء ونال موافقته .

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وستبذل أقصى مساعيها لتيسير تحقيق هذا الهدف ، على أن يكون مفهوما أن شيئا لن يُعمل قد يكون من شأنه المساس بالحقوق المدنية والدينية التي

(١) مارِيّ سركين " جولدا مائير" ص ٦٣. نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق

تتمتع بها الطوائف الحالية غير اليهودية في فلسطين ، ولا بالحقوق ولا بالوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد أخر .

أكون ممتناً إذا أحطتم المنظمات الصهيونية علماً بهذا التصريح " .

المخلص .. آرثر
جيمس بلفور

ومن الطريف أن نص وعد بلفور كتبه " وايزمان " رئيس المنظمة الصهيونية بخط يده ولم يضف بلفور شيئا على النص إلا توقيعه فقط كما جاء في مذكرات وايزمان .

ويجدر بنا أن نحلل ذلك التصريح الذي يعتبر من الأمور الرئيسة التي أدت إلى قيام إسرائيل في عام ١٩٤٨ .

١- نَصَّ التصريح على تأسيس الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، ومن ثَّم ليس كل فلسطين يصبح وطناً قوميًا للصهيونيين .

٢- لم يُشر نص التصريح إلى عرب فلسطين بل صراحة يكاد يغفل وجودهم اللهم إلا عندما تحدث النص عن (طوائف غير يهودية) ومن ثَّم كان الإنجليز يُضمْرون منذ البداية استبعاد حقيقة قائمة حينذاك وهي (عرب فلسطين)و(عروبتها) . مع أن تعداد فلسطين في عام ١٩١٨ كان على النحو التالي : ٦٤٤ ألف نسمة من العرب ، ٥٦ ألف نسمة من اليهود (أغلبهم من العرب) أي حوالي ٨ % من تعداد السكان .

٣- أن بريطانيا منحت إقليما لا تملكه إلى طائفة لا تملكه دون استشارة أهل وأصحاب البلاد الذين كانوا يشكلون الأغلبية المطلقة لسكانه ، بل وعاملت بريطانيا العرب – بمقتضى النص – على اعتبار أنهم مجرد طائفة ما . (١)

٤- تشترط اتفاقية لاهاي الرابعة في مقدمتها عن حق الحرب " أن يظل سكان الأراضي المحتلة تحت حماية قواعد القانون الدولي " ولما كان الخطاب مرسل إلى

---

(١) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٢٢٢

شخصية خاصة هي اللورد روتشيلد، وهو مواطن بريطاني، كيما يبلغه إلى منظمة دولية لم تكن في ذلك الوقت شخصا من أشخاص القانون الدولي فإن الوعد من ناحية القانون الدولي لا قيمة له .

٥- إن إعلان بلفور متعارض أساسًا مع ميثاق (عصبة الأمم) الذي ينص في المادة (٢٠) : " على أن أعضاء العصبة يعترفون، كل فيما يخصه، بأن الميثاق الحالي يلغي أي إلتزامات أو اتفاقات لا تتفق مع نصوصه، وهم يتعهدون علنًا ألا يتعاقدوا على مثلها في المستقبل، وإذا كان عضو ما قبل انضمامه إلى العصبة قد تحمل إلتزامات لا تتوافق مع نصوص الميثاق فيجب أن يتخذ الإجراءات العاجلة للتخلص من هذه الالتزامات " .

وقد قدم الكاتب آرثر كوستلر دون شك أفضل تعريف بهذا الخطاب حين قال: " إنه وثيقة تَعِد فيها قوميةٌ قوميةً أخرى رسميا بأرض قوميةٍ ثالثة، مع أن القومية التي بُذل لها الوعد لم تكن قومية حقا بل كانت جماعة دينية، والأرض عندما وُعد بها كانت تابعة لقومية رابعة، هي تركيا " (١)

وقد كان المقصود بإعلان بلفور أن يستبق ألمانيا والنمسا في التأثير على يهود الإمبراطوريات الوسطى وروسيا؛ لأن الحلفاء كانوا بحاجة إلى روسيا وإلى اليهود في وقت واحد .

ثم إن الزعماء الإنجليز لم يدعوا أدنى شك حول المغزى الحقيقي لإعلان بلفور، كتب ونستون تشرشل يقول: " إن إعلان بلفور لا ينبغي أن يعتبر وعدا مبذولا لأسباب عاطفية، لقد كان إجراءً عمليا اتخذ لمصلحة القضية المشتركة، حينما كانت خدمة هذه القضية لا يمكن أن تتجاهل أي عامل لدعمها ماديا ومعنويا " (٢)

أهداف وعد بلفور

١- إيجاد بديل (أرض فلسطين) يمكن أن يجذب الصهيونيين .

---

(١) آرثر كوستلر: تحليل معجزة . نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .
(٢) ستيفن دايز وجاكوب دى هاز " المخادع الكبير " ص ٢٨٨ نقلا عن " فلسطين أرض الرســالات الإلهية " مرجع سابق .

٢- منع اليهود من الانضمام إلى الثورة الروسية فقد كانت بريطانيا تعتقد أن قرارها بتأييد الصهيونية يمكن أن ينزع اليهود الروس من الحزب البلشفى، كيما تبقي على روسيا في معسكر الحلفاء .

٣- ضغط يهود أمريكا على الولايات المتحدة لمساعدة بريطانيا في المجهود الحربي. ودخول الحرب إلى جانب الحلفاء وقد صرح لويد جورج أمام مجلس العموم عام ١٩٣٧م بأن الصهيونيين : " قد ساعدونا في أمريكا وفي روسيا اللتين كانتا حتى تلك اللحظة تتهربان وتتركانا وحدنا " . (١)

ومن المؤكد أن يهود أمريكا كانوا عاملا مهما ولكن غير حاسم في قرار الولايات المتحدة بالاشتراك في الحرب .

٤- الاهتمامات التقليدية الاستعمارية التي إتصفت بها إنجلترا، وهي أن تُؤَمِّن لنفسها ممرا مائيا لحماية قناة السويس . (٢)

٥- تحقيق توازنا للحماية الفرنسية الحتمية على سوريا ولبنان .

ويمكننا أن نقول إن وعد بلفور هو أهم حدث في تاريخ الصهيونية وتاريخ الجماعات اليهودية في العالم، كما أن أهميته بالنسبة لفلسطين والفلسطينيين لا تخفى على أحد. (٣)

ولم يتوقف دور بلفور في دعم الصهيونية على تصريحه الشهير بل استمر في دعم الصهيونية عدة سنوات ففي يونيه عام ١٩٢٢، ألقى خطاباً في مجلس اللوردات البريطاني يحث فيه بريطانيا على قبول فرض الانتداب على فلسطين، وتقدَّم بمسودة قرار الانتداب لعصبة الأمم، كما شارك في افتتاح الجامعة العبرية عام ١٩٢٥ وقد بيَّن بلفور تصوُّره لمستقبل فلسطين في إحدى المذكرات حيث قال: إن الصهيونية،

---

(١) اللجنة الملكية لفلسطين تقرير C.M.D ٥٤٩٧ ورقات برلمانية عن بريطانيا العظمى ص ٢٣ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية ".

(٢) وليام كونجو " أصول إعلان بلفور " جـ ٢٨ ص ـ ٥٩٧ . نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٣) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية م٦ ج١ الباب الثالث: الوعود البلفورية . مرجع سابق .

سواء أكانت على حق أم كانت على باطل، خيّرة كانت أم شريرة، فإنها ذات جذور متأصلة في "تعاليم قديمة وحاجات حالية وآمال مستقبلية" (غربية). ولذا، فإن أهميتها "تفوق رغبات وميول السبعمائة ألف عربي "قاطني هذه الأرض. وقد أكد بلفور في مذكرة أخرى أن الحلفاء لم يكن في نيتهم قط استشارة سكان فلسطين العرب .

وانطلاقاً من إدراك الأهمية الجغرافية/السياسية لفلسطين، طلب بلفور أن تكون فلسطين متاحة لأكبر عدد من المهاجرين (الذين رفض بلفور من قبل دخولهم إنجلترا) وأن تُوسَّع حدودها لتشمل الأراضي الواقعة شرقي نهر الأردن . (١)

وبعد إنهاء الحرب توالت المذكرات العربية والصهيونية على المسئولين من دول الحلفاء ، وعلى مؤتمر الصلح ، فقد طالب الشريف حسين بن علي (شريف مكة) - الذي ساعد إنجلترا في هزيمة العثمانيين وإجلائهم عن المشرق العربي نظير وعد من انجلترا باستقلال العرب إذا انتصرت في الحرب - إنجلترا بأن تنجز وعدها معه . بينما طالبت الحركة الصهيونية بالاعتراف بالحق التاريخي لليهود في فلسطين ، وحقهم في إقامة وطن قومي لهم هناك على النحو التالي :

١- وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني .

٢- العمل على تطبيق تصريح بلفور .

٣- إقامة مجلس تمثيلي ليهود فلسطين .

فاتفقت فرنسا وانجلترا على أن تكون فلسطين تحت الانتداب الإنجليزي ، وأن تلتزم الحكومة البريطانية بتنفيذ تصريح بلفور دون إشارة إلى العرب صراحة مع أنهم يشكلون أغلبية سكان فلسطين ، وبذلك تكون عصبة الأمم المتحدة التي أقرت نظام الانتداب قد تخلت عن واحد من أهم أهدافها ألا وهو مساعدة الشعوب على أن تحكم نفسها بنفسها ، وسارت في طريق إبادة عرب فلسطين وتهويدها . (٢)

---

(١) نفسه .

(٢)د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٢٢٣

تُعَرِّف الموسوعة البريطانية فلسطين بأنها: "الأراضي التي وُضِعت تحت الانتداب البريطاني من عام ١٩٢٣ إلى ١٩٤٨م"، وتُوافقها في هذا الموسوعة العالمية، ويُمَثِّل هذا التعريف درجة من ربع في سُلَّم حضارة من أقدم حضارات التاريخ، كما يُمَثِّل حدودًا تُعَبِّر عن علاقات القوة بين القُوى الاستعمارية، التي سجَّلَتْها عُصْبة الأمم عَقِب الحرب العالمية الأولى .

والمُدهش أن هذه الموسوعة ما كانت لتَجِد تعريفًا جغرافيًّا آخر لفلسطين، سوى هذا الذي نقلته عن الاستعمار كما هو؛ لأن الاستعماريين عندما مزَّقوا الأمة العربية الإسلامية طِبْقًا لمَا بينهم من علاقات القوة، "شبيه بما فعلوه بإفريقية السوداء في مؤتمر برلين عام ١٨٧٥"، كان قدر فلسطين مُرْتَبطًا بالحلِّ الذي ارتأوه "للمسألة الشرقية"، أعني: للمشكلات الناجمة عن انهيار الإمبراطورية العثمانية .

إن "الانتداب البريطاني" مهما كانت الأعراض الطارئة التي أحدثها تَلَهُّف الصهيونيين للتعجيل بمجرى الأحداث ـــ يتصف باتجاه يَسُوده، حدَّده منذ عام ١٩٢١ السير هيوبرت يانج أحد مديري وزارة المستعمرات بقوله: "إن المشكلة التي يتعيَّن علينا أن نَحُلَّها هي أننا نستَهْدِف إيجاد تكتيك، وليس إستراتيجية، والفكرة الإستراتيجية العامة التي أتخيَّلُها هي التهجير التدريجي لليهود إلى فلسطين، إلى أن نُؤَمِّن لهم أغلبية ساحقة في البلاد... بيد أنه من المشكوك فيه أن نكون بحيث نعترف للعرب بما تَعْنيه سياستنا في الواقع " (١)

عندما اجتمعت عصبة الأمم عام ١٩٢٢ قررت يوم ٢٤ / ٧ / ١٩٢٢ وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني وتضمن صك الانتداب تصريح بلفور وقد صدر في ٢٨ مادة منها :

المادة الأولى : للدولة المنتدبة السلطة في التشريع والإدارة .

المادة الثانية : الدولة المنتدبة مسئولة عن جعل البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي ، وترقية أنظمة الحكم الذاتي وضمان الحقوق المدنية والدنية لجميع سكان فلسطين بغض النظر عن الأجناس والأديان .

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " . مدخل . فلسطين ما هي ؟ .مرجع سابق .

المادة الرابعة : يعترف بهيئة دولية تكون صالحة كهيئة عمومية تعاون في لإدارة فلسطين في الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر في إنشاء الوطن وترقية البلاد تحت سيطرة حكومتها دائما ، ويعترف بأن الجمعية الصهيونية هي هذه الهيئة ، وعلى الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة حكومة بريطانيا للحصول على معونة جميع اليهود الذين ينشدون إنشاء الوطن القومي اليهودي .

المادة السادسة : على الحكومة المنتدبة مع كفالة عدم إلحاق الضرر بحقوق ومركز جميع طوائف الأهالي ، وأن تسهل هجرة اليهود إلى فلسطين في أحوال مناسبة .

المادة السابعة : على الدولة المنتدبة أن تسن قانونا للجنسية يتضمن نصوصا لتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين مكانا دائما لهم على الجنسية الفلسطينية .

المادة الحادية عشرة : على الدولة المنتدبة أن توجد نظاما للأراضي يلائم حاجات البلاد مع مراعاة أمور أخرى فيها المنافع التي تنجم عن تشجيع الهجرة واستغلال أعظم ما تستطيع من الأراضي .

وُضعَ صك الانتداب موضع التنفيذ يوم ٢٩ /٩ / ١٩٢٢ ، وكلفت بريطانيا رسميا من قِبل عصبة الأمم بمهمة الانتداب على فلسطين دون إذن أو حتى استشارة الشعب الفلسطيني مخالفا بذلك المادة ٢٢ من عهد عصبة الأمم التي تنص على أنه " يجب أن يكون لرغبات هذه الشعوب المقام الأول في اختيار الدولة المنتدبة " ، كما تقضي المادة ٢٢ أيضا " وضع رفاهية الشعب الفلسطيني ومصالحه نصب عين الدولة التي يتم اختيارها بواسطة ذلك الشعب لتقوم بأمانة الانتداب " وهذا ما لم تقم به بريطانيا بل عمدت بعد الانتداب على الاعتراف بالوكالة اليهودية (عام ١٩٢٩) ووافقت على نقل مقرها إلى القدس ثم ألفت إدارة مدنية حلت محل الإدارة العسكرية وعينت يهوديا كأول مندوب سامي لها في فلسطين ، وشجعت بريطانيا الهجرة الصهيونية بصورة شرعية وغير شرعية فارتفعت نسبة السكان اليهود في فلسطين من (٨ %) عام ١٩١٨ إلى حوالي (١٧ %) عام ١٩٣١ ،

وعندما عارض الجنرال السير لويس بلوس – المندوب السامي البريطاني في فلسطين – السياسة الصهيونية في فلسطين عُزل في يوليو ١٩٢٠ واستبدل بهِ السير هربرت صمويل، الصهيوني الدولي، الذي كتب عنه زعيم التنظيم الصهيوني العالمي حاييم وايزمان عام ١٩٢١ قائلا : " كنت المسئول الأول عن تَعْيين السير صمويل في فلسطين، فهو صديقنا، وقد قَبِلَ هذِهِ المهمَّة الصَّعبة بناءً على طلبنا، فهو صمويلنا " (١)

شكل هربت صمويل إدارة عليا ذات طابع صهيوني وصدرت القوانين التي تنقل الأراضي المملوكة للدولة إلى اليهود،والقوانين التي تسَهِّل انتقال الأراضي بالشراء أو بالتنازل من أيدي العرب إلى اليهود،وكانت رءوس الأموال الصهيونية مستعدة لتغطية طلبات أي بائع حتى ولو كانت الأسعار مرتفعة ، فالمهم الاستحواذ على الأرض . (٢)

ومنذ ذلك الحين تسارع نمو الاستيطان اليهودي الصهيوني في فلسطين بشِدة بوساطة الحِماية البريطانية، لقد كانت فلسطين عام ١٩١٨ بلدًا عربًا شبيهًا بكل البلاد العربية الأخرى، وكانت نسبة اليهود فيه لا تتعدى ٨ % ارتفعت هذه النسبة في إحْصَاء نوفمبر عام ١٩٣١م لتصل إلى ١٧% ثم إلى (٣١ %) عام ١٩٤٨

أما فِيما يخصّ الأرض، ففِي عام ١٩١٨ كان السكان اليهود يملكون ٢% من الأرض، وفِي نِهاية الحِماية البريطانية تضاعفت هذِهِ المِساحة إلى ثلاثة أضعاف، فكانت المِلكيَّة غير القابلة للتَّصَرُّفِ للشعب اليهودي قد وصلت إلى ٦% وتقع فِي أجود الأراضي وأفضلها رَيًّا.

وكانت ميزانية الحِماية البريطانية من حظ الصهيونية، فخِلال الحِماية إنتقل الوطن مِن ٨٠,٠٠٠ ألفًا من السكان عام ١٩٢٢ إلى ٦٤٠,٠٠٠ ألفًا عام ١٩٤٨ وكانت الحركة الصهيونية مالِكةً لمدنها وأراضيها وصِناعتها وجيشها. (٣)

---

(١) ذكره ج. ب. ألم في كِتابه: يهود وعرب ص ١٢٦ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٢)د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتـاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٢٢٣

(٣) لمزيد من التفاصيل حول الإحصاءات الخاصة بتلك الفترة راجع " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الفصل الثالث .

ونظرا للسياسة البريطانية الظالمة الداعمة للصهيونية والمُفَرِّطة في حقوق الفلسطينيين العرب فإن العرب قاموا بثورات ضِدّ الاحتِلال المزدوج، الصهيوني والإنجليزي، في إبريل عام ١٩٢٠ وفي مايو ١٩٢٠ وفي أغسطس ١٩٢٩ ثم كانت ثورتي : ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ م.

وكانت ثورة ١٩٢٩ في مبدأها (حرب فلاحين) فلاحين بِلا أرض طردتهم الوكالة الصهيونية حين اشترت الأرض من الملاك الكبار أصحاب المِلكية العقارية، وهم في أغلَب الأحيان يقيمون بِالخارِج. فبين عامي : ١٩٢٢ و١٩٢٩ مثلاً كان أكثر من ٩٨% من الأرض المَبيعة لجماعات من كبار الملاك، منهم ٩٦% غير مقيمين بفلسطين.

ويعترف المؤرخون الأكاديميون اليهود أنه لم يكن هناك أي عداء بين العرب واليهود قبل افتضاح المخطط الصهيوني الرامي إلى طرد الفلسطينيين من أرضهم وتوطين يهود العالم مكانهم بل على العكس تماما فقد نَعِمَ اليهود بالعيش في ظل الحكم الإسلامي نعيما لم يروا مثله على مدى تاريخهم كله . يقول المؤرخون الأكاديميون اليهود : " ومن المثير أن الصهاينة الأوائل كانوا ينظرون بعين الرضى إلى الثقافة العربية، وإلى المعاملة الحيادية بعامة التي تلقاها اليهود تحت الحكم الإسلامي. ولقد اتجهت أنظار الصهاينة نحو الثقافة العربية والدينِ الإسلامي كحضارة مثالية يمكن أن تتسامح في وجود وطن أو دولة يهودية داخلها، وذلك جزئيا، كرد على العنف الفظيع الذي كان يهود أوروبا الشرقية يعانون منه على يد جيرانهم المسيحيين. لكن الصراع، والعنف الذي وقع في النهاية بين اليهود والعرب في فلسطين تحت الانتداب البريطاني وضع حدا لهذه النظرة. ولقد ساهم هذا الصراع العسير الذي أنزل الكارثة على اليهود والعرب في الشرق الأوسط منذ ذلك الوقت في المواقف السلبية في كلا الجانبين (١)

والمؤرخون الأكاديميون اليهود يتجاهل الأسباب الحقيقية التي ولّدَت الصراع والعنف بين الفلسطينيين والصهيونيين وهي اغتصاب الصهيونيين للأراضي الفلسطينية وطرد أهلها منها .

---

(١)الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٦٩

يحلل كرستوفر سايكس كيف نشأت المشكلة فيقول : " إن مشكلة الأرض في فلسطين إنما تنشأ أساسًا من بيع مساحات شاسعة من الأرض بوساطة ملاك مُتغيّبين مُوكلين إلى أفراد وإلى نقابات صهيونية، وهناك شرْط مُعْتاد في هذهِ البيوع هو طرد شاغليها. أما التعساء الذين عاشوا غالبا على هذهِ الأرض خلال أجيال عديدة فإنهم يرون أنفسهم مطرودين من أرضهم ومحرومين دون تعْويض عن وسيلتهم الوحيدة للبقاء. إن المستأجرين المطرودين وهم الضحايا الحقيقيون للهجرة اليهودية هم جَوْهَر المشكلة الفلسطينية " (١)

هؤلاء الفلاحون العرب ، بلا أرض، ولم يتح لهم العمل لدى المُلاك الجدد الصهيونيين، لأن ميثاق المؤسسة القومية اليهودية كان يحرم تشغيل العرب في أملاك الصهيونيين .

فميثاق الوكالة اليهودية الذي صُودِقَ عليهِ في ١٤ من أغسطس عام ١٩٢٩ في زيورخ يقرر أنه " في جميع الأعمال والمشروعات التي تنفذها الوكالة اليهودية يجب الالتزام بالمبدأ الأساسيّ، وهو إستخدام عمال يهود " .

بل إن منطق هذهِ السياسة الصهيونية ذاته، والمُتَمَثّل في إبْعَاد العرب عن فلسطين هو الذي أدى إلى ثوْرَات جديدة للفلسطينيين خلال الأعوام من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩

وهكذا كان موقف المحتل الإنجليزي واضحًا إلى جانب إنْتِشَار الصهيونية .

ويعترف مؤرخو الدولة الصهيونية بالدور الإنجليزي الفاعل لإقامة دولة يهودية في فلسطين " خلال العقود الثلاثة للانتداب البريطاني، اتسع نطاق الزراعة، وأنشئت مصانع صغيرة، وتم شق طرق جديدة في مختلف أنحاء البلاد. واستغلت مياه نهر الأردن لإنتاج الطاقة الكهربائية، كما استغلت الطاقات المعدنية الكامنة في البحر الميت. " (٢)

ويمكن رصد العديد من الوقائع التي تجعل بريطانيا مسئولة دوليا عــن تطــور الأوضاع في فلسطين ، والدفع بها في اتجاه إقامة وطن قومي لليهود في فلــسطين وأهم هذه الوقائع :

---

(١) (كريستوفر سايكس (Order wingate) لندن ١٩٥٩ ص ١٠٦). نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٢) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

١- صدور وعد بلفور من وزير خارجية بريطانيا عام ١٩١٧ .

٢- استيلاء القوات البريطانية بقيادة " ألنبي " على فلسطين عام ١٩١٨ .

٣- أعطاء مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ لبريطانيا حق الانتداب على فلسطين .

٤- أصدار عصبة الأمم قرارا في ٢٤ يوليو ١٩٢٢ بوضع فلسطين تحت انتداب بريطانيا . وقد أصدرت الحكومة الإنجليزية الكتاب الأبيض الأول في ١٩٢٢م محددة سياستها التي ستنتهجها في فلسطين وكانت على النحو التالي :

- إن حكومة جلالة الملك لا تتصور أن فلسطين كلها ستصبح يهودية .

- إن تصريح بلفور غير قابل للتغيير .

- من الضروري زيادة عدد الطائفة اليهودية بالمهاجرة .

- العمل على الارتقاء بفلسطين حتى تصبح مؤهلة كمركز للشعب اليهودي .

٥- تنفيذ حكومة الانتداب في تنفيذ ما ورد في الكتاب الأبيض من حيث فتح باب الهجرة أمام اليهود ، وانتقال الأراضي إلى أيدي اليهود حتى ولو كان ذلك باستصدار قوانين نزع الملكية ، والتركيز على التحاق الشباب بالأراضي الزراعية والأعمال الحقلية وتحميل العربي بأعباء ضريبية ثقيلة تجعله يبيع أرضه .

٦- تغاضي الانتداب البريطاني عن شراء الوكالة اليهودية للأراضي العربية مع ما في ذلك من إخلال بأوضاع العرب .

٧- إصدار الحكومة البريطانية كتابها الأبيض الثاني عام ١٩٣٠وتضمن :

- التأكيد على تنفيذ وتطبيق تصريح بلفور .

- رفض إقامة حكومة دستورية ديمقراطية ، واقترحت تشكيل مجلس تشريعي من العرب واليهود .

- التوصية بفرض قيود على الهجرة اليهودية .

- رفض تسلل اليهود إلى فلسطين بطرق غير مشروعة .

ومع أن الكتاب الأبيض الثاني كان يعوزه الحسم في القضايا التي أثارها ، ومع أنه كان من المتعذر تنفيذ ما جاء فيه إلا بقرارات أخرى من الحكومة البريطانية ،

فقد اعتبره الصهيونيون تخليا من جانب بريطانيا عن القيام بما التزمت به نحو إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وظلوا وراء الحكومة البريطانية حتى أصـدرت بيانات سحبت فيها كل ما وجد فيه الصهيونيون مساساً بمخططهم نحو فلسطين .

وكان نتيجة ذلك إسراع الصهيونيون في عمليات الاستيطان وفي إقامة نقاط قوية في المناطق التي لم يسكن بها المستوطنون الصهاينة في السابق، وذلك بهدف خلق خريطة سكانية يهودية تشمل أوسع مساحة جغرافية ممكنة للاستعداد لاحتمال طرح تقسيم فلسطين .

وعندما بدأ هتلر ونظام حكمه النازي في اضطهاد اليهود ، أخذت جموع اليهود تتدفق على فلسطين الجهة المفضلة لدى اليهود الألمان ، خاصة أن الحكومة الإنجليزية والوكالة اليهودية كانت تمد يد المساعدة بكل كثافة إلى المهاجرين لكي يستقروا في فلسطين .

وإليك ثبتا بهجرات اليهود إلى فلسطين من عام (١٨٨٢- ١٩٩٧)

١ - الهجرة الأولى ، استمرت خلال الفترة من عام (١٨٨٢ - ١٩٠٣) وضمت عدداً يصل من ٢٠ ــ ٣٠ ألف مهاجر يهودي .

٢ - الهجرة الثانية امتدت من عام (١٩٠٤ - ١٩١٤) تقريباً وضمت عدداً يتراوح بين (٣٥ - ٤٠) ألفاً من اليهود .

٣-الهجرة الثالثة التي امتدت من عام (١٩١٩ - ١٩٢٣) وضمت حوالي ٣٥ ألف يهودي .

٤- الهجرة الرابعة امتدت من عام (١٩٢٤ - ١٩٣١) وضمت حوالي ٨٢ ألف يهودي .

٥- الهجرة الخامسة : واستغرقت السنوات من (١٩٣٢- ١٩٤٤) وضمت حوالي ٢٦٥ ألف يهود ، وهو أعلى رقم بلغته أفواج المهاجرين إبان الانتداب.

وقد استمرت الهجرة بعد ذلك، ووصل إلى فلسطين ١٩٢ ألف مهاجر، وجاء بعد الحرب العالمية مجموعة من ١٦١ ألفاً معظمهم «مهاجرون غير شرعيين».

ويمكن القول بأن عدد اليهود في فلسطين عام ١٩٤٨ قد بلغ ٦٤٩,٦٢٣ يهودياً. وبلغ عدد اليهود الذين هاجروا بعد إنشاء الدولة حتى عام ١٩٥١ حوالي ٦٨٧ ألف. ومنذ عام ١٩٦٩ بدأ تدفق جديد للمهاجرين اليهود . (١)

أدت تلك التطورات إلى تشكيل اللجنة العربية العليا في عام ١٩٣٥م للدفاع عن حقوق عرب فلسطين ، وقدمت الزعامات العربية في ٢٥ نوفمبر ١٩٣٥ مذكرة طالبت فيها بما يلي :

١- تشكيل حكومة نيابية .

٢- إيقاف الهجرة اليهودية الشرعية منها وغير الشرعية .

٣- إصدار بطاقة شخصية لمواطني فلسطين حتى لا يدعيها من لا حق له فيها .

٤- منع انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود ، وسن قانون الأفدنة الخمسة على نسق قانون مماثل صدر في مصر يبقيها بعيدة عن النزاع أو المصادرة في كل الأحوال . (٢)

الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦م

تمسكت الحكومة البريطانية بموقفها ، ولم تأبه للمطالب العربية مما أشعل الثورة العربية في فلسطين في عام ١٩٣٦ ، واستمرت حتى عام ١٩٣٩ وقد استخدمت حكومة الانتداب أشد أنواع البطش مع الثوار العرب من قصف بالطائرات ، وهدم البيوت ، وتطبيق العقاب الجماعي على القرى .

يقول جارودي عن هذه الثورة : " وهي حركة شعبية لفلاحين بلا أرض. ثم إضْرَاب دَامَ ١٧٤ يَومًا يتطور إلى ثَوْرَة حَقِيقِيَّة. لقد سُحقت هذِهِ الثورة فِي الدم، فَقُتِلَ فِيها أكثر من ثلاث آلاف عربِيّ، وجرح الآلاف، وأودع أكثر من ستة آلاف داخِل السجون، و معسكرات التجميع البريطانية . " (٣)

---

(١) راجع " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " د. عبد الوهاب المسيري م ٧ ج٢ الباب الثالث " التهجير " .

(٢) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٣) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني الفصل الثالث " أسباب نجاح الصهيونية السياسية " .مرجع سابق .

ومع ذلك استمرت الثورة واقتربت نذر الحرب العالمية الثانية ؛ فلجأت الحكومة البريطانية إلى ملوك العراق والسعودية والأردن لكي ينصحوا الثوار بالتوقف عن الثورة والتباحث مع لجنة " بيل " الإنجليزية التي أرسلتها الحكومة الإنجليزية إلى فلسطين .

توقف القتال وتباحث زعماء عرب فلسطين مع اللجنة ، ولكن تحيزت اللجنة إلى جانب اليهود ، وأصدرت أول مشروع لتقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية ، وقد وافق اليهود على التقسيم على اعتبار أنه سيعطيهم فرصة العمل بكل حرية على أرض تابعة لهم تبعية مباشرة لتكون نواة إسرائيل .

أما العرب فقد رفضوه على اعتبار أن أي اقتطاع لأية بقعة من فلسطين يعتبر عدوانا لا مثيل له على حقوق شعب يعيش على أرضه ، خاصة أن ما خُصِّص لليهود كان أحسن ما في فلسطين من أرض ، وتساءلوا أهكذا يتحول اللاجئ اليهودي إلى مالك ، وصاحب الأرض العربي مطرودا من أرضه ؟!

لذا عاد عرب فلسطين إلى الثورة المسلحة .

وجدت إنجلترا نفسها قد انساقت وراء الحركة الصهيونية التي غرَّها النجاح الذي حققته – بمساعدة إنجلترا – فراحت تطمع في تهويد فلسطين كلها ، والقضاء التام على سكانها العرب بل إن العصابات الصهيونية بدأت تخطط للتخلص من إنجلترا راعية المشروع لذا بعد إيدَاع نتائج لجنة التحقيق الإنجليزية عن الثورة الأولى، والتِي أوضحت أن الاضطرابات نشأت عن أعمال الاغتصاب المُتَزَايِدَة التِي يقوم بِها الصهيونيون، أصدر الوزير الإنجليزي لِلمستعمراتِ ونستون تشرشل إعلانًا يقول فِيهِ: " لقد استُخدِمَت عبارات مثل: يجب أن تصبح فلسطين يهودية بقدر ما تكون إنجلترا إنجليزية. إن حكومة صاحِب الجلالة ترى أن هذِهِ التوقعات يتعذر تنفِيذها، وهِي لا تسير وراء هذِهِ الغاية، كما أنها لا تتصور إختِفَاء السكان العرب أو اللغة أو الثقافة العربِية أو تبعيتها فِي فلسطين، وهِي تلفت الانتِباه إِلى أن عبارات إعلان بلفور التِي تستند إِليها لا تتجِه إِلى تغيير فلسطين بأجمعها إِلى وطن قومي يهودي، ولكِنها تتجِه إِلى القول بأن وطنًا يجب أن يُنشأ فِي فلسطين " (١)

---

(١) مُذَكِّرَة تشرشل فِي ٣ يونيو ١٩٢٢. نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

لقد أفزعت الحكومة الإنجليزية الثورة العربية فلجأت إلى محاولة جمع الطرفين العربي والصهيوني للتوصل إلى حد مقبول ، وكانت بريطانيا في هذه المرة تريد التوصل إلى حل حيث أن غيوم الحرب العالمية الثانية كانت قد تلبدت ، ولكن عَجَزَ المجتمعون حول المائدة المستديرة عن التوصل إلى اتفاق ، فأصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩م وقد جاء فيه :

١- التمسك بنص تصريح بلفور .

٢- تحديد عدد المهاجرين .

٣- قمع الهجرة غير المشروعة .

٥- حكم ذاتي يشارك فيه العرب واليهود تمهيدا لقيام دولة فلسطينية .

٦- إسناد الوظائف الرئيسية إلى العرب واليهود على أساس نسبة عدد السكان من الطرفين .

٧- وضع قيود على انتقال الأراضي من أيدي العرب لليهود . (١)

وحين نشرت الحكومة الإنجليزية هذا الكتاب في ١٧ من مايو ١٩٣٩م هَاجَ الصهيونيون ولم تتوقف منظماتهم العسكرية وشبه العسكرية ــ الهاجاناه بقيادة بن جوريون، والأرجون بقيادة بيجن، ومجموعة شتيرن بقيادة شامير ــ ولم يوضع الكتاب موضع التنفيذ بسبب كمعارضة العصابات الصهيونية له ، ونشوب الحرب العالمية الثانية .

ولإخماد الثورة الفلسطينية استخدمت إنجلترا القوة العسكرية الفائقة .

تحول المشروع الصهيوني نحو الولايات المتحدة الأمريكية

أثبتت شركات البترول الأمريكية العاملة فيه أن منطقة الخليج العربي تعوم على بحيرة من البترول ، وأن من يسيطر على الشرق الأوسط يستطيع أن يسيطر على العالم لذا قررت أن تنزع المشروع الصهيوني من إنجلترا وأن تتولى الإشراف

---

(١) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٢٢٥

عليه مزايدة على إنجلترا في مساعدة الصهيونية فطالبت بفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود إليها دون قيد ، تمهيدا لإنشاء دولة يهودية لا وطنا لليهود كما نص تصريح بلفور .

مؤتمر بلتيمور

هكذا التقت المصالح الأمريكية مع مطامع الصهيونية ، وفي مايو عام ١٩٤٢ عُقِدَ اجتماع في فندق بلتيمور، في نيويورك ضم الصهاينة الأمريكيون والأوربيون في نيويورك مع ممثلي المستوطنين في فلسطين كما حضره " هاري ترومان " نائب الرئيس الأمريكي حينئذ ، والرئيس الأمريكي ابتداءً من عام ١٩٤٥م إلى ١٩٥٣ وتمخض الاجتماع عن برنامج سُمي برنامج بلتيمور جاء فيه ما يلي :

١- إنشاء قوة دولة يهودية .

٢- تشكيل قوة عسكرية تحارب تحت علمها الخاص تأكيدا بأن الشعب اليهودي له قوميته ، وله علمه ، وله الحق في الالتحاق بهيئة الأمم المزمع إقامتها بعد إنتهاء الحرب .

٣- فتح أبواب فلسطين للهجرة المطلقة إليها بلا قيد .

٤- منح الوكالة اليهودية حقوقا إدارية وتنظيمية داخل فلسطين تمهيدا لاستلام اليهود أمور الحكم والإدارة في فلسطين .

٥- إلغاء الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩ . (١)

وبهذا المؤتمر تخلت الصهيونية عن خطابها المراوغ وكشفت عن حقيقة مخططها في صراحة وجرأة بعدما اطمأنت أن الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة العالم الجديد لا تدعم المشروع الصهيوني فحسب بل إنها أصبحت الراعي الرسمي له .

وكما يقول " ألان تايلور " أحد مؤرخي الحركة الصهيونية: "وهكذا ظهر على السطح الآن وضوح الهدف الخفي الذي رافق الصهيونية دوماً". ولم يجانب هذا المؤرخ الصواب ولا حاول أن يفرض تفسيراً متعسفاً على الأحداث أو الكلمات. فقد

---

(١) نفسه ص ٢٢٧ .

وصف المجتمعون في فندق بلتيمور في مدينة نيويورك برنامج بلفور بأنه "تطبيق كامل لبرنامج بازل". وكل ما حدث هو أن بعض الفراغات قد مُلئت، وبعض العبارات الصامتة قد استنطقت، وبعض العبارات الهلامية قد تحدّدت (ومع هذا استمر التزام الصمت تجاه مصير السكان الأصليين). وقد ظل برنامج بازل ساري المفعول (مع تفسير بلتيمور) إلى أن تم تعديله بعد إنشاء الدولة . (١)

وقد صُودِقَ على (برنامج بلتيمور) في ٢٢ من مايو ١٩٤٥ من الوكالة اليهودية، ثم قدم إلى إنجلترا على أنهُ كلِمة نهائية تحدد للمرة الأولى صراحة الأهداف التالية

ـ لا (وطن قومي) في فلسطين، بل دولة يهودية في كل فلسطين، بجيشها الخاص بها .

ـ هجرة غير محدودة تهيمن عليها الوكالة اليهودية وحدها.

ـ سوف تخصص التعويضات الألمانية لبناء الدولة الصهيونية.

إن هذا تحول حقيقي في الصهيونية، يمكن إدراكه على النحو التالي :

أولاً : فمنذ مؤتمر بال عام ١٨٩٧ م وإعلان بلفور عام ١٩١٧م لم يكن معلنا سوي مسألة (وطن قومي يهودي) في فلسطين، أما مسألة (دولة مسيطرة على كل فلسطين) فقد كان الزعماء الصهاينة يفكرون فيها دائما، ولكنهم لم يتحدثوا عنها أبدا (على الأقل رسميا).

والهجرة اللا محدودة تحت هيمنة الوكالة اليهودية وحدها ـ كانت تعني إجازة عطلة لإنجلترا، لقد حاولت حقا أن تفي بوعودها في إعلان بلفور، ومن خلال الحماية، وهي ترتب في ظروف معينة حقوق (السكان غير اليهود) لقد صدَر الكتاب الأبيض لمكدونالد عام ١٩٣٩ باطلا، وصارت إنجلترا في الغرب أثقل التضحيات، وخرجت منها مستنزفة الدم، مدنها رماد وإمبراطوريتها مقوَّضة، ومن ثم إختار الزعماء الصهاينة في بلتيمور حاميا لهم، أكثر قوة (الولايات المتحدة) التي كانت لها منذ ذلك الحين الهيمنة على العالم الغربي كله.

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٦ ج١ الباب السادس الخطاب الصهيوني المراوغ . مرجع سابق .

وأخيرا، فإن طلبهم ألا تُدفَعَ التعويضَات الألمانية للضحايا اليهود، حيث ينبغي أن تكون، بل إلى دولة إسرائيل، يعني أن الصهيونية هي الممثل الوحيد لليهود في العالم، في حين أنهم لم يكونوا حتى ذلك الحين سوى أقلية ضعيفة.

لقد أثار مُنْعَطِف بلتيمور الذي سجل إنطلاق سيطرة الصهيونية السياسية، الأكثر قومية، على جميع التنظيمات اليهودية الأخرى في العالم، بما في ذلك الصهيونية الدينية العالمية ـــ أثار هذا المنعطف بعض الاحتجاج . (١)

في عام ١٩٣٨م كان ألبرت أينشتين قد أدان هذا الاتجاه ، وكتب : " في رأيي ربما كان أكثر معقولية أن نصل إلى إتفاق مع العرب على أساس حياة مُشْتَرَكَة سليمة، من أن ننشئ دولة يهودية. إن شعوري بالطبيعةِ الجوهرية لليهودية يصطدم بفكرة دولة يهودية ذات حدود وجيش ومشروع سلطة زمنية، وإني لأخشى الخسائر الداخلية التي سوف تتعرض لها اليهودية بسبب من تطورها في طبقتنا إلى قومية ضيقة، فنحن لم نعد يهود مرحلة المكابيين ، ولئن عدنا قومية بالمعنى السياسي للكلمةِ ، فذلك يَعْدِل أن نَحيْد عن رَوحَنةِ مجتمعنا التي ندين بها لعبقرية أنبيائنا " (٢)

وصرح مارتن بوبر في نيويورك بأن " الرواد (اليهود) جاءوا إلى فلسطين لأنهم لم يجدوا في أي مكان سواها معنى لحياتهم أو كمالا، فلم يكن يعنيهم أن يقيموا دولة سياسية، بل كانوا يريدون أن يبنوا مجتمعا إنسانيا جماعيا، لم يكن شيء ما جاهزا في علاقاتنا مع العرب، ولكن كان هناك بصيفة عامة حسن جوار بين قرية يهودية وقرية عربية.

هذهِ المرحلة العضوية من الاستقرار في فلسطين استغرقت حتى عهد هتلر، وجاء هتلر فدفع بجموع من اليهود إلى فلسطين، لم يكونوا صفوة من الناس، جاءوا يقضون حياتهم ويعدون للمستقبل، وهكذا أعقبت النمو العضوي المنتقى هجرة جموعٍ دفعتها الضرورة إلى البحث عن قوة سياسية توفر لها الأمان. وقد فضلت أغلبية اليهود أن تتعلم من هتلر لا مِنا. وقد أوضح هتلر أن التاريخ لا يتبع طريق

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني الفصل الثالث " أسباب نجاح الصهيونية السياسية " . مرجع سابق .

(٢) موشى منوحم " انهيار اليهودية في عصرنا ص ٣٢٤ ". نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

الروح بل طريق السلطة، وأنه عندما يكون شعب ما قويا فإنه يستطيع أن يقتل دون أن يناله عقاب. وتلك هي الحال التي كان علينا أن نصارعها، فاقترحنا في جماعة " أحود " ألا يكتفي اليهود والعرب بأن يتعايشوا، بل لا بد أن يتعاونوا. فلعل هذا يجعل تنمية الشرق الأدنى الاقتصادية أمرا ممكنا، وبذلك يكون بوسع الشرق أن يقدم لمستقبل الإنسانية إسهَامًا كبيرا وجَوْهَريًّا " . (١)

ومن أجل تطبيق برنامج بلتيمور قامت الوكالة اليهودية بدعاية واسعة النطاق عما اقترفه هتلر النازي من جرائم بشعة ضد يهود ألمانيا وشرق أوروبا ، وزعمت أن عدد من قتلهم النازي أو احرقهم حوالي ستة ملايين ضحية ، وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية شحنت الوكالة اليهودية عشرات الألوف من ألمانيا إلى فلسطين بشكل أزعج سلطات الانتداب البريطاني حيث إن البلاد ما كانت لتستوعب هؤلاء إلا على حساب العرب هناك .

وعندما اعترضت حكومة الانتداب على فتح أبواب فلسطين هكذا أمام الهجرة اليهودية التي بلغت مائة ألف دفعة واحدة لجأت المنظمات إلى الولايات المتحدة الأمريكية فطلبت من انجلترا وبأسلوب شديد اللهجة أن تفتح أبواب فلسطين للمهاجرين الجدد ، وما كانت انجلترا حينئذ بقادرة على معارضة الولايات المتحدة الحليفة الأقوى التي لولاها لما نزلت الهزيمة بألمانيا . (٢)

وكانت انجلترا قد حاولت أن تسيطر على الأمور في فلسطين وأن تحد من إرهاب العصابات الصهيونية ، ومن هجرات اليهود ، ومن تهويد فلسطين ، وأن تراعي الحد الأدنى لحقوق الفلسطينيين لذا أعلن اللورد موين، وزير الدولة الإنجليزي، بالقاهرة في ٩ من يونيو ١٩٤٣ م في مجلس اللوردات أن اليهود لم يكونوا أحفاد العبرانيين القدماء، وليس لهم شرعا أن يستردوا الأرض المقدسة، وقد كان نصيرًا لتهدئة الهجرة إلى فلسطين، فاتُّهِمَ حينئذ بأنه عدو عَنيد للاستقلال العبراني. (٣)

---

(١) مارتن بوبر (جويش ينوزلتر عدد ٢ من يونيو ١٩٥٨) نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٢) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٢٢٧

(٣) إسحاق زار " إنقاذ وتحرير، نصيب أمريكا في ميلاد إسرائيل " . نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

وفي ٦ من نوفمبر١٩٤٤م اغتيل في القاهرة على يد عضوين في مجموعة شتيرن .

وما كان لانجلترا لتسكت على تحول المشروع الصهيوني الذي رعته وأشرفت على تنفيذه بهدف تحقيق مصالح مشتركة لليهود والإنجليز معا إلى مشروع نازي هتلري يشرف عليه عصابات إجرامية لا تعرف إلا القتل والإرهاب وسيلة لتحقيق أطماعها . لذا فإنه كان على الحكومة الإنجليزية أن تتحرك لتنقذ مشروعها من أيدي هؤلاء المجرمين .

ففي ١٧ من نوفمبر١٩٤٤م أعلن ونستون تشرشل رئيس الوزراء، في مجلس العموم تصريحه: " إذا كانت أحلامنا من أجل الصهيونية يجب أن تتلاشى في دخان مسدسات القتلة، وإذا كانت جهودنا من أجل مستقبلها قد أنتجت عصابة جديدة من قُطَّاع الطُّرُق الجديرين بالانتماء إلى ألمانيا النازية، فإن هناك كثيرين مثلي سوف يُعيدُونَ النظَر في موقفهم الذي كان دائمًا موقفنا، وإذا كان هناك أمل في مستقبل سلمي للصهيونية فإن هذه النشاطات الملعونة يجب أن تتوقف، كما يجب أن يُحَطِّمَ أولئك المسئولون عنها، أن يبادروا ويعدموا " .

وبدلا من تحسين العصابات الصهيونية علاقتها مع إنجلترا شريكتهم في المشروع أرادت العصابات الصهيونية سرقة المشروع لصالحها ، ولصالح الراعي الجديد (أمريكا) وحرمان انجلترا ليس من المشروع فحسب بل من البقاء في فلسطين . ففجرت فندق داود الذي كانت تقيم فيه القيادة العسكرية للحكومة الإنجليزية .

ففي ٢٢ من يوليو عام ١٩٤٦م وقع إنْفِجَار بجناح فندق الملك داود، بالقدس، حيث كانت تُقِيم القيادة العامة العسكرية للحكومة الإنجليزية وقد أودى الانفجار بحياة واحد وتسعين شخصا بينهم ٢٨ بريطانياً . وكان هذا عملا من أعمال مناجم بيجن قائد منظمة (الأرجون) ، الذي أعلن مسئوليته عنه. وكشف عن منهج العصابات الصهيونية في تلك المرحلة وهو : " بالدم والنار والدموع والدخان، وبنوع جديد من الإنسانية، نوع مجهول تماما للعالم، منذ أكثر من ألف وثمانمائة عام (اليهودي المحارب) قبل كل شيء، يجب أن نبدأ الهجوم، سوف نهاجم القتلة، فمن الدم والعرق سوف يولد جيل فخور كريم قويّ. " (١)

---

(١) مناحم بيجن " التمرد قصة الأرجون " . نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

وهكذا كان جزاءُ الإنجليز على مساعدتهم للصهيونية جزاءَ سنمار (١) فبعد أن مكّن الإنجليز للصهيونية في فلسطين لم يعد للصهيونيين حاجة إليهم ، إذ إنهم لم يعودوا بعد عملية السحق التي تَمّتْ يَخشَون غضب العرب، فلم يبق عليهم إلا أن يطردوا الإنجليز ليصبحوا سادة البلاد .

ولو استعرضنا الخدمات التي قدمتها انجلترا للصهيونية لأخَذَنا العجبُ من تصرف الصهيونيين تجاه انجلترا بتوجيه إرهابهم إليها لا لشيء إلا لأن انجلترا أحست أن سياستها الداعمة للصهيونية قد فجرت ثورات فلسطينية عديدة ، ومقاومة ضد اليهود والإنجليز شديدة ؛ وخلقت رغبة صهيونية في التخلص من الإنجليز أكيدة ، لذا حاولت إنجلترا التمسك بإقامة وطن قومي لليهود لا دولة يهودية ، والحد من الهجرة اليهودية لا إطلاق العنان لها ، والمحافظة على أبسط حقوق عرب فلسطين لا استئصالهم . كل هذا من أجل الحفاظ على حقها في هذا المشروع أولا ، وعلى الاستقرار داخل أرض فلسطين ثانيا ، وامتصاص غضب البلاد العربية ثالثا . فكان جزاء الإنجليز أن شملهم الإرهاب الصهيوني بسبب هذه السياسة .

الإرهاب الصهيوني ضد الإنجليز

لكن هذه السياسة الإنجليزية لم تكن لتروق للعصابات الصهيونية التي قررت طرد كل العرب من فلسطين ، وإلغاء الانتداب البريطاني لإقامة الدولة اليهودية التي يحلمون بها معتمدين على العنف من جهة ، وعلى تأييد أمريكا الراعي الجديد للمشروع الصهيوني من جهة أخرى لذا لم يكن العنف الصهيوني موجها للفلسطينيين فحسب بل امتد ليشمل البريطانيين والأوربيين بل أحياناً اليهود المعارضين لهذا المنحى الخطير في المشروع الصهيوني .

ففي عام ١٩٤٤ أعلنت منظمة " إتسل " وقف هدنتها مع البريطانيين بنسف منزل في يافا بحجة أنه مقر للشرطة البريطانية، وكررت نفس الأعمال في حيفا والقدس. وقد بلغ النشاط الإرهابي الصهيوني ضد البريطانيين ذروته بعد انتهاء الحرب

---

(١) " جزاء جزاء سنمار " هو مثل عربي شهير ، وسنمار هذا مهندس رومي، بنى قصرا عظيما بالكوفة للملك النعمان ، فلما فرغ منه ألقاه النعمان من أعلاه فخر ميتاً، و فعل ذلك لئلا يبني مثله لغيره. فضربت العرب به المثل لمن يجزي بالإحسان الإساءة. (مجمع الأمثال للميداني)

العالمية الثانية وتحديداً خلال عام ١٩٤٦، حيث اتفقت المنظمات على توجيه ضربات للبريطانيين كان أشهرها نسف فندق الملك داود في ٢٢ يوليه عام ١٩٤٦ والذي كان يضم مكاتب إدارة الانتداب البريطاني، وقد أسفر الانفجار عن مقتل ٩١ شخصاً بينهم ٤١ عربياً و٢٨ بريطانياً و١٧ يهودياً وخمسة من جنسيات أخرى بينهم أمريكيون .

إلا أن الطابع الذي غلب على العمليات التي استهدفت سلطات الانتداب البريطاني كان السعي لتدمير البنية الأساسية للبلاد مثل السكك الحديدية والجسور والمطارات والموارد الاقتصادية مثل خط البترول الواصل إلى حيفا. ويبدو أن الهدف من ذلك كان إظهار عجز السلطات البريطانية عن إدارة البلاد وحفظ الأمن.

ولقد أصدرت السلطات البريطانية في يوليه عام ١٩٤٦ كتاباً أبيض يكشف وقائع الإرهاب الصهيوني والتنسيق بين المنظمات الثلاث، وهو الكتاب الذي اعترف بيجين بمصداقية ما جاء فيه .

ويلفت النظر أن فترة ما بعد إعلان الحرب العالمية الثانية قد شهدت ما يمكن تسميته إعادة تصدير بؤر النشاط الإرهابي الصهيوني إلى المنطقة العربية وأوربا. ولا يقف الأمر عند حدود قيام إلياهو حكيم وإلياهو بيت زوري من عصابة " ليحي" بقتل الوزير البريطاني اللورد موين في القاهرة في ٦ نوفمبر عام ١٩٤٤. (اعترف بن جوريون لاحقاً أنه ساهم في التستر على القتلة رغم تظاهره بإدانة الحادث).

فقد نفَّذت العصابات الصهيونية العديد من الأعمال الإرهابية التي راح ضحيتها أبرياء في أوربا، فدبرت عصابة " ليحي " انفجاراً في فندق بفيينا ينزل به ضباط بريطانيون أسفر عن مصرع سيدة نمساوية.

وقد بلغ إجرام العصابات الصهيونية حد التخطيط في مطلع عام ١٩٤٨ لتسميم مصادر المياه في العاصمة البريطانية بجراثيم الكوليرا. وقد تولَّى إلياب، أحد قادة " ليحي " بنفسه، تدبير زجاجات الجراثيم عبر بعض الأطباء اليهود في معهد باستير في باريس. إلا أن صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين والإعلان عن إنهاء الانتداب البريطاني عليها جعل المنظمة تصرف النظر عن تنفيذ العملية التي كانت قد بلغت نهاية مرحلة الإعداد . وذلك كما ورد في مذكرات يعقوب إلياب

نفسه. (من المعروف أن وباء الكوليرا انتشر في مصر بعد عام ١٩٤٨، وقد انتشرت شائعات في ذلك الحين عن أن الأمر قد يكون له علاقة بالدولة الصهيونية).

ويُلاحَظ أن مثل هذا النشاط الذي جرى خارج فلسطين لم يقف وراءه فقط مبعوثو منظمات الإرهاب الصهيوني المتجولون في أنحاء العالم، بل إن العديد من الخلايا الإرهابية تم زرعها لتستقر في مدن وعواصم العالم والشرق الأوسط وبخاصة بغداد.

والجدير بالذكر أن عزرا وايزمان كان عضواً في خلية إرهابية زرعتها إتسل في بريطانيا. ولقد أدخل الإرهاب الصهيوني إلى المنظمات أساليب الطرود الملغومة والاختطاف واغتيال الشخصيات البارزة (مثل الوزير) البريطاني اللورد موين في معاهدة ١٩٤٦) على نطاق واسع منذ الأربعينيات .

إلا أن التعبير الأساسي والمتبلور عن الإرهاب الصهيوني في هذه الفترة هو سلسلة المذابح التي ارتكبت ضد العرب بهدف إبادة الأقلية وإرهاب الأغلبية حتى يترك الفلسطينيون أرضهم لتصبح أرضاً بلا شعب .

ولم يقتصر الإرهاب الصهيوني على العرب والإنجليز بل شمل أيضا اليهود أنفسهم ، ولعل أشهر الحوادث التي تعرَّض لها اليهود في المنطقة خلال عام ١٩٤٠ كان على أيدي العصابات الصهيونية نفسها حين فجَّر إرهابيو الهاجاناه السفينة باتريا في ميناء حيفا وسقط ضحية العمل ٢٥٠ يهودياً ثمناً للضغط على السلطات البريطانية كي تستجيب لطوفان الهجرة غير الشرعية بعد تحميلها وزر هؤلاء الضحايا .أما الأطفال اليهود في اليمن والعراق فقد اختطفهم الإرهاب الصهيوني عنوة بالعشرات من أسرهم إلى فلسطين . (١)

وبهذا العمليات الإرهابية وجدت الحكومة الإنجليزية نفسها واقعة بين المطرقة والسندان ، واقعة بين إرهاب العصابات الصهيونية ، وتأييد الولايات المتحدة

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري " اليهود واليهودية والصهيونية " م٧ ج٣ الباب الثاني : الإرهاب الصهيوني حتى عام ١٩٤٨.مرجع سابق .

الأمريكية لهذه العصابات . فبدأت قبضتها على فلسطين تتراخى ، كما بدأت تقترب من السياسة الأمريكية شيئا فشيئا، إلى أن خضعت لها في النهاية .

كيف ولِدَتْ دولة إسرائيل؟

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية رأت المنظمات الصهيونية أن دور انجلترا في التمهيد لقيام دولة يهودية قد انتهى ، وأن وجود إنجلترا في فلسطين أصبح عقبة في سبيل قيام الدولة اليهودية ، وأنه من الضروري انتقال رعاية المشروع الصهيوني من إنجلترا إلى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة بعد ضمان إيمان الرئيس الأمريكي ترومان بالمشروع الصهيوني فما كان نجاح ترومان - وحزبه الديمقراطي - في انتخابات الرئاسة الأمريكية سنة ١٩٤٥م ليتم إلا بالأموال الباهظة التي أنفقها اليهود .

وكان نتيجة ذلك أن شكلت الولايات المتحدة وانجلترا لجنة انجليزية أمريكية في نوفمبر ١٩٤٦م لإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية ، وكان الهدف من تشكيل هذه اللجنة العمل على تحقيق المصالح الصهيونية في فلسطين لذا جاءت قرارات هذه اللجنة على النحو التالي :

١- فلسطين ستكون دولة يهودية .

٢- فتح باب الهجرة اليهودية .

٣- حرية انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود .

وحاولت الحكومة البريطانية عن طريق عقد مؤتمر في لندن الوصول إلى حل ما إلا أن الصهيونيين رفضوا حضوره إلا إذا وافقت بريطانيا على قيام دولة يهودية في فلسطين ، وحضره العرب وكشفوا فقط عن مخطط إبادة اليهود لعرب فلسطين ، ولما انتهى المؤتمر على هذا النحو أعلنت انجلترا نفض يدها من المشكلة ووضعها بين يدي الأمم المتحدة (١)

دعت بريطانيا الجمعية العامة للأمم المتحدة للاجتماع في دورة غير عادية في مايو ١٩٤٧ حيث قررت الجمعية اختيار لجنة تحقيق لتحضير تقرير عن مسألة

---

(١) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٢٢٨

فلسطين . وقدمت اللجنة تقريرها الذي اقترحت فيه تقسيم فلسطين على دولتين مستقلتين مع اتحاد اقتصادي ، وتدويل مدينة القدس ، ووافقت الجمعية العامة على التقرير وأصدرت قرارها الشهير رقم ١٨١ بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ باعتماد ذلك المشروع وبتكليف مجلس الأمن باتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذه ، وصوتت الحكومات العربية بالرفض على قرار التقسيم ، ولكنه أجيز بأغلبية ٣٣ دولة ضد ١٣ ، وامتنعت ١١ دولة عن التصويت .

واجمع ممثلو الدول العربية في كلماتهم على أن الحل الوحيد لقضية فلسطين الذي يتفق مع العهود المقطوعة للعرب هو إنهاء الانتداب ، وإنجاز استقلال فلسطين في ظل دولة واحدة ديمقراطية تعترف بجميع حقوق مواطنيها وتمنح الضمانات للأقليات فيها .

أما الوكالة اليهودية فقد أعلن مندوبها في الجمعية العامة للأمم المتحدة عن موافقته على مشروع القرار وجاء في كلمته " إن الوكالة اليهودية تقبل جميع التوصيات التي أيدتها لجنة التحقيق بإجماع الآراء .

لقد اتبعت الصهيونية العالمية خلال الثلاثين عاما سياسة الخطوة خطوة " فكل ما يدعيه الإنجليز من تقديم عروض وحلول وما قاموا به من إرسال لجان التحقيق التي أتخمت بها فلسطين إنما هو خداع ونفاق وتخدير للأعصاب ، وصرف النظر عن حقيقة المؤامرة الاستعمارية اليهودية المبيتة ضد فلسطين " (١)

إن قرار التقسيم يؤكد هذه المؤامرة الحقيرة على فلسطين وشعبها لذا سنقف وقفة لنبين ما جرى في كواليس الأمم المتحدة لضمان صدر قرار التقسيم .

قرار التقسيم في الأمم المتحدة

إن حل تَقْسيم فلسطين صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، في ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٤٧م، وفي ذلك التاريخ كان اليهود يُكَوِّنونَ ٣٢ % من السكان، ويملكون ٥,٦% من الأراضي، وإذا بالدولةِ الصهيونية تتسلم ٥٦% من الأراضي، بما في ذلك أخصب المناطق الزراعية .

---

(١) السيد محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا " حقائق عن قضية فلسطين " المطبعة السلفية ص ٣٨

وعن كيفية الوصول إلى قرار التقسيم يقول جارودي : " ولقد أتاح التصويت على هذه الخطة مجالا لمؤامرات حقيرة؛ ففي ١٨ من ديسمبر عام ١٩٤٧م وقف عضو الكونجرس الأمريكي لورانس سميث، فذكر هذه المؤامرات أمام الكونجرس، وقال: "فلننظر ما جرى في جمعية الأمم المتحدة خلال الاجتماع السابق من تصويت على التقسيم، كان لابد أن يصوت ثلثا الأصوات إلى جانب القرار للموافقة عليه. لقد أعيد التصويت مرتين. وفي أثناء ذلك تعرض مندوبو ثلاث دول صغيرة لضغط قوي. لقد كانت الأصوات الحاسمة هي أصوات: هاييتي، وليبيريا، والفلبين، ولقد كفت هذه الأصوات لإحراز أغلبية الثلثين، وكانت هذه البلاد قبل ذلك معترضة على التقسيم. إن الضغوط التي مارسها مندوبونا، ورجالنا الرسميون، وبعض المواطنين الأمريكيين تعتبر عملا ذميمًا" (١)

وكتب دروبيرسون في صحيفة شكياغو ديلي، في ٩ من فبراير عام ١٩٤٨م مُحَدّدًا هذه النقاط: "لقد سعى هارفي فايرستون، مالك مزارع المطاط في ليبيريا لدى الحكومة الليبيرية..".

ومَارَسَ الرئيس ترومان ضغطًا لا مثيل له على رياسة الدولة، وكتب نائب رئيس الوزراء سمنرولز يقول: "إستِجَابَةً لأوامر مباشرة من البيت الأبيض مَارَسَ الموظفون الأمريكيون ضغوطًا مباشرة أو غير مباشرة. حتى يُؤَمِّنُوا الأغلبية الضرورية عند التصويت النهائي" (٢)

ويؤكد وزير الدفاع ــ آنذاك ــ جيمس فورستال أن "الطُرُق المستخدمة للضغط، ولإكراه الأمم الأخرى في نطاق الأمم المتحدة، كانت فضيحة " . (٣)

وأما عن أسلوب "الضغوط" التي مارسها "اللوبي" الصهيوني، وضغوط "التصويت اليهودي" فقد إعترف الرئيس ترومان نفسه أمام مجموعة من الدبلوماسيين، عام ١٩٤٦م فقال :

---

(١)مضبطة الكونجرس في ١٨ من فبراير عام ١٩٤٧م ص ١١٧٦. نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٢) سمنرولز " نحن لا نحتاج إلى السقوط "بوسطون، بوجتون ميفلين " ص ٦٣ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٣)مذكرات فورستال ص ٣٦٣ . نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

" إنّي آسف، أيها السادة، ولكن ينبغي أن أجيب مئات الألوف من الناس الذين ينتظرون نجاح الصهيونية، وليس عندي مئات الألوف من العرب بين ناخبيّ " . (١)

ويقرر رئيس الوزراء الإنجليزي القديم إيرل كليمنت أتلى في مذكراته هذه الشهادة: "إن سياسة الولايات المتحدة، في فلسطين كانت خاضعة للتصويت اليهودي، ولمساعدات الشركات اليهودية الكبرى" . (٢)

لقد اتُخِذَ قرار التقسيم بوساطة الجمعية العامة، لا بوساطة مجلس الأمن، فقد كان له – إذَنْ – قيمة التوصية، لا قيمة القرار واجب التنفيذ !!

لم يكن الفلسطينيون وحدهم يرفضون هذا التقسيم، فإن أرجون "مناحم بيجن" أعلنت آنذاك أن هذه التجزئة غير قانونية ولا يمكن الاعتراف بها، ودَعَت اليهود: "لا إلى طرد العرب فحسب، بل إلى الاستيلاء على كل فلسطين" (٣)

حرب فلسطين ١٩٤٨

بعد صدور قرار التقسيم أعلنت حكومة بريطانيا أنها ستنسحب من فلسطين في ميعاد غايته ١٥ مايو ١٩٤٨م ، وكانت كل التطورات لصالح اليهود حيث كان لديهم القوات المدربة ، والأموال الكثيرة ، والدعم الدولي وعلى رأسه القوتان العظميان : الولايات المتحدة ،والاتحاد السوفيتي . بينما كانت البلاد العربية التي تدعم الحق العربي في فلسطين مشغولة هي الأخرى في تحرير نفسها من الاحتلال الأجنبي .

وعندما كانت آخر القوات الإنجليزية تغادر فلسطين أُعلِن قيام دولة إسرائيل ، واعترفت بها كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ومعظم دول العالم .

---

(١)وليام إدي " فرانكلين روزفلت يقابل ابن سعود" نيويورك، الأصدقاء الأمريكيون للشرق الأوسط عام ١٩٥٤م ص ٣٧ . نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٢)كليمنت أتلي" رئيس الوزراء يتذكر" فرانس وبليام – ص ١٨١. نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٣) مناحم بيجن " التمرد: قصة الأرجون " ص ٣٣٥ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

أصدرت جامعة الدول العربية قرارها بدخول الجيوش العربية لإعادة السكينة والأمن إلى فلسطين التي تجري على أرضها دماء العرب .

وقد دخلت القوات المصرية والأردنية والعراقية والسورية ، ولكنها كانت غير مدربة وغير متحدة الفكر أو الخطة - على ما سنبينه في الفصل اللاحق -- فأدى ذلك إلى هزيمة القوات العربية ، واستيلاء القوات الإسرائيلية ليس فقط على الأجزاء التي خصصتها الأمم المتحدة بمقتضى قرار التقسيم لكن الاستيلاء على أجزاء أكثر منها بكثير ، واضطرت البلاد العربية المواجهة (مصر ، والأردن ، وسوريا ، ولبنان) إلى عقد اتفاقيات الهدنة (هدنة رودس) عام ١٩٤٩م ،وأعلنت الولايات المتحدة وفرنسا وانجلترا في عام ١٩٥٠م ضمان هذه الحدود الجديدة لإسرائيل . (١)

وقد كتب بن جوريون نفسه يقول: "إنه حتى رحيل البريطانيين لم تخترق أية مستعمرة يهودية، حتى ولو كانت مُتَطَرِّفَة بعيدة، أو يستول عليها العرب، في حين أن الهاجاناه بما وجهت من هجمات قوية وكثيرة ـ إستولت على كثير من المواقع العربية، وحررت طبرية، وحيفا، ويافا، وصفد " (٢)

واختصارا، يخطئ من يقول: إن دولة إسرائيل أُنْشِئَت بوساطة الأمم المتحدة، فلقد أنشئت بمجموعة من الأحداث شكلت "الأمر الواقع" .

رسم المؤرخون الإسرائيليون الجدد صورة أكثر واقعية تقترب إلى حد مـا مـن الرواية الفلسطينية لوقائع حرب ١٩٤٨، والتي تبين أن المطامع الصهيونية قد تـم تحقيقها على حساب السكان الفلسطينيين وأن العرب أبعدوا عن طريق الطرد، وقد أظهر المؤرخون الجدد أن العالم العربي لم يكن قوة عسكرية مخيفة، بل كان مفككا يتكون من دول متخلفة، بعض حكامها متواطئ مع الـصهاينة، وجيوشـها سـيئة التدريب وقدراتها القتالية شديدة التدني كل هذا يؤدي إلى نزع البطولة عن اليهـود

---

(١) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتـاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٢٣٠

(٢)دافيد بن جوريون "بعث وقدر إسرائيل " ص ٥٣٠ . نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

بل بين هؤلاء المؤرخون الجدد أن إسرائيل دولة متعنتة، ترفض السلام وقد اعتمد هؤلاء المؤرخون الجدد المادة الأرشيفية التي رفعت عنها السرية بعد مرور ثلاثين عاما. (١)

الإرهاب الصهيوني ضد الفلسطينيين

أن الدولة الصهيونية "إسرائيل" لم تولد من وعد، أو هِبَة مِن الرب، ولا حتى بِقرار مِن الأمم المتحدة، ولكِنها وُلِدَتْ مِن العنف المسلح، ومن "الأمر الوَاقِع". الذي صنعته العصابات الصهيونية : الهاجاناه، والأرجون، شتيرون .

فلم يكن الاستيطان الصهيوني ليتم إلا بالإرهاب والعنف ، وطالما ردد بن جوريون " أن الإمبراطورية الإسرائيلية سوف تمتد من النيل إلى الفرات وأن إسرائيل لا يمكن أن تعيش إلا بالقوة والسلاح " .

وقد جاء في كتاب " التمرد أو الثورة " لفيلسوف العنف الإسرائيلي مناحم بيجين " موضحا منهج وفلسفة العصابات الصهيونية : " قال ديكارت أنا أفكر إذن أنا موجود ، وأقول أنا أقتل إذن أنا موجود " .

وعن نتائج العنف يقول بيجين في كتابه " من مجموع ٨٠٠ ألف عربي كانوا يعيشون على بقعة إسرائيل الحالية عام ١٩٤٩ – حيث كتب كتابه بالعبرية – لم يبق غير ١٥٦ ألف عربي ، ولقد مهدت دير ياسين الطريق لانتصاراتنا الحاسمة في طبريا واحتلال يافا "

كما يقول " أوري أفنيري " في كتابه " إسرائيل بدون صهيونيين " ص ١٣٤ :

" نحن جيل من المستوطنين ودون الخوذة الفولاذية والمدفع لا نستطيع أن نزرع شجرة أو أن نبني بيتا "

ويقول " حاييم وايزمان " في مذكراته " التجربة والخطأ " :

" يستطيع الإنسان أن يلمس هنا وهناك تحللا للأخلاقية الصهيونية التقليدية ويلمس هنا وهناك مسحة من الروح العسكرية وارتماء في أحضانها بل وأكثر من ذلك

---

(١) " قاموس المصطلحات الصهيونية " موقع السلطة الوطنية الفلسطينية على الإنترنت .

اللجوء إلى العنف والإرهاب والاستعداد للتعاون مع الشر كقوة لها فوائدها في تحقيق الوطن القومي لليهود "

وقد سيطرت فكرة العنف على وجدان العصابات الصهيونية فلم يكن المستوطن اليهودي فلاحا وحسب بل كان أيضا " الشومير " أي الحارس الذي يدافع عن الأرض التي سرقها ، وحيث إن الإرهاب كان سلاحا أساسيا ومباشرا لإجلاء الأرض من السكان الأصليين كان من الضروري تأسيس منظمات لها طابع مزدوج زراعي / عسكري حتى تترجم الرواية الصهيونية نفسها إلى واقع (١)

ويكتب أحد اليهود في صحيفة " هاملتس " الألمانية معللا لجوء اليهود الصهاينة إلى العنف فيقول :

" ماذا يفعل إخواننا (الصهاينة) في فلسطين إنهم عبيد في الدياسبورا (المنفى) وفجأة وجدوا أنفسهم أحرارا بلا حدود ولا رادع ، إن هذا التحول قد خلق في نفوسهم حالة من الميل إلى الاستبداد كحالة العبد عندما يتحول إلى سيد فهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة ثم يفاخرون بما يفعلون .. ورغم ذلك فليس هناك بيننا من هو قادر على الوقوف في وجه هذا الميل الخطير "

ولقد اشتركت المؤسسات الصهيونية على اختلافها في الإعداد للعمل الإرهابي حيث كانت التدريبات تجرى أسبوعياً في المدارس العبرية والدينية والمصانع الصغيرة والحمامات ودور العبادة اليهودية. وهكذا لم يكن النشاط الإرهابي عملاً على هامش الحركة الصهيونية. بل كان عملاً يرتبط بالوجود الصهيوني وبطبيعة الاستيطان . (٢)

إن ميلاد الدولة الصهيونية (إسرائيل) كان بفضل حربين :

١- الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨م) حيث اضطرت ضرورة الحصول على أكبر دعم ممكن ضد ألمانيا، في العالم، وبخاصة في أمريكا ــ اضطرت إنجلترا إلى إعطاء وعود بلفور عام ١٩١٧م.

---

(١) حسين الطنطاوي " الصهيونية والعنف " دار الشعب ص ٣٦.
(٢) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود والصهونية " م٧ ج٣ الباب الثاني الإرهاب الصهيوني حتى عام ١٩٤٨. مرجع سابق .

٢- وفي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـــ ١٩٤٥م) نجح الزعماء الصهاينة في فرض أسطورة صهيون، التي تعني إنشاء دولة إسرائيل ، وذلك حين رفضت كل البلاد أن تستقبل اليهود المضطهدين على يد النازيين، فكانت إسرائيل نتيجة حتمية للهتلرية وللسياسة الأمريكية التي تبنت المشروع الصهيوني .

وإذا كان تاريخ الدولة الصهيونية "إسرائيل" يبين أنها وُلِدَتْ بفضل حربين، فقد امتدت حتى الآن بفضل ستة حروب، هي :

الحرب التي إنتهت عام ١٩٤٨م بالاستيلاء على أراضٍ تتجاوز الحدود التي رسمتها الأمم المتحدة فقد حصلت على ٧٧,٤ % من أرض فلسطين .

وحرب العدوان عام ١٩٥٦م، "بالتواطؤ مَعَ إنجلترا وفرنسا" وفيها استطاعت أن تستولي على سيناء ، ولم تنسحب منها إلا بعد أن أصبحت مسألة مرور السفن الإسرائيلية رافعةً العَلَم الإسرائيلي في خليج العقبة أمرا واقعا ، تحميه قوة الطوارئ الدولية التي ترابط في شرم الشيخ .

وحرب عام ١٩٦٧م . إن حرب ١٩٦٧ ـــ وما ترتَّب عليها من احتلال الأراضي العربية في سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة ـــ شكلت منعطفاً بارزاً في تاريخ التوسع الصهيوني باعتبار أن الكيان الصهيوني حقَّق أقصى اتساع له ووصل إلى الحدود الآمنة .

كما أن من أهم نتائج انتصار إسرائيل الساحق في ١٩٦٧ زوال الخلافات بين التيار الديني اليهودي المعادي للصهيونية وممارساتها الخارجة عن تعاليم التوراة واقترابه بل تطابقه مع التيار الصهيوني العلماني .

يقول د.عبد الوهاب المسيري " بعد احتلال ما تبقى من فلسطين في حرب يونيه ١٩٦٧، طرأ تحوُّل على مواقف معظم الأحزاب الدينية الصهيونية وغير الصهيونية من اعتبار هذه الحرب معجزة وإشارة ربانية إلى اعتبارها بداية الخلاص، وفي الأوساط الدينية غير الصهيونية انطلق الصوت الجديد من الولايات المتحدة، موطن زعيم حركة حبد، الحاخام شنيرسون. ويتلخص الموقف الجديد بالقول بأنه صحيح أن دولة إسرائيل بوصفها كياناً صهيونياً تعبير عن الكفر والتمرد على إرادة الله ، ولذلك فهي بالتأكيد ليست تعبيراً عن الخلاص، لكن، ومن ناحية أخرى، فإن أرض

إسرائيل بسيادة يهودية تنطوي على مغاز ذات أهمية. ولذلك تدعو هذه الحركة إلى عدم التنازل عن أيٍّ من الأراضي التي احتُلت عام ١٩٦٧م ، وذلك من منطلق أحكام الشريعة الدينية .

لقد تأثر هذا الموقف منذ البداية بما سمي «المعجزات والإشارات السماوية» التي تجلت بالانتصارات في الحروب المختلفة، وخصوصاً حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٦٧. وقد اعتمد قسم من هذا التيار، في تأكيده عدم قدسية إسرائيل، على الفارق بين دولة إسرائيل وأرض إسرائيل، وعلى ذلك الجزء بالذات الذي لا يمثّل مكاناً مهماً في التقاليد الدينية اليهودية. لكن، بعد احتلال عام ١٩٦٧، زال الفارق عملياً، وأصبح هناك تطابق بين أرض إسرائيل وهي مفهوم ديني وبين دولة إسرائيل وهي مفهوم سياسي علماني،وزاد اقتراب اتباع هذا التيار تدريجياً من الأوساط اليمينية في إسرائيل، أو لوبي أرض إسرائيل كما تُسمّي هذه الأوساط نفسها .ومع أن هذا التيار ما زال غير صهيوني بالمعنى التقليدي، إلا أن تحوُّل أرض إسرائيل إلى قيمة دينية في نظره، جعله يقترب كثيراً من مواقف جوش إيمونيم . التي تعتبر حرب ٦٧ بداية الخلاص "(١)

وحرب عام ١٩٧٣م التي أوصلت إسرائيل إلى توقيع معاهدة السلام مع مصر في مقابل تخليها عن سيناء فقط . وبهذا خرجت مصر زعيمة الوطن العربي من الصراع ، مفسحةً المجال لإسرائيل لتعربد في المنطقة .

وغزو لبنان عام ١٩٨٢م وحصار إسرائيل للعاصمة بيروت لمدة شهرين كاملين وإجلاء المقاومة الفلسطينية عن أرض لبنان .

وأخيرا غزو لبنان عام ٢٠٠٦ وتدمير إسرائيل للبنان تدميرا شاملا ، وإقصاء حزب الله عن الجنوب اللبناني الذي كان يحتله ويهدد منه شمال إسرائيل ، وإحلال قوات اليونيفيل بدلا منه وهي قوات مهمتها منع أي هجوم محتمل على إسرائيل (٢)

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود والصهيونية " م٧ ج ٥ الباب الأول أزمة الصهيونية .مرجع سابق .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول غزو إسرائيل للبنان عامي ١٩٨٢ ، ٢٠٠٦ راجع كتاب " إسرائيل وحزب الله ولبنان " للمؤلف دار الإبداع .

وهكذا نجح الصهاينة – بالنار والدماء – في إقامة المشروع الصهيوني على أرض فلسطين بل اتسع ليشمل أراض عربية أخرى ، كما نجحوا ليس فقط في كسب الرأي العام العالمي لصالح هذا المشروع بل نجحوا في كسب تأييد الدول العظمى ، والدول ذات التأثير في السياسة الدولية لهذا المشروع .

لقد كانت بريطانيا هي الراعي الرسمي للمشروع الصهيوني من وعد بلفور ١٩١٧ إلى مؤتمر بلتيمور ١٩٤٢ ، لتتحولت الرعاية إلى الولايات المتحدة بعد ذلك . والآن الولايات المتحدة الأمريكية هي الراعي الرئيسي نعم ، ولكنها ليست الراعي الوحيد فهناك شبه إجماع من الدول الغربية على أن إسرائيل هي ثابت من الثوابت. يجب حمايته والدفاع عنه بالحق والباطل .

في حين فشل العرب في إفشال المشروع الصهيوني عسكريا وسياسيا ، فلم ينجح العرب في شيء سوى في إزكاء نار الفرقة وإشعال الصراع العربي العربي طوال القرن العشرين ابتداء من صراع الشريف حسين مع عبد العزيز آل سعود ، حتى احتلال صدام حسين للكويت مرورا بصراع الملك فاروق مع الملك عبد الله ، والحرب العربية الباردة –الساخنة أحيانا كما حدث في حرب اليمن ، وأيلول الأسود – إبان الحقبة الناصرية . لم يتحد العرب إلا في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ثم سرعان ما نشأ الصراع ثانية بين السادات وجبهة الرفض .

[وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ ولَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ] (النحل : ٣٣ ، ٣٤)

[وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ] (الشورى : ٣٠)

***

الفصل التاسع

الموقف العربي من المشروع الصهيوني

عرفنا كيف خطط الغرب الإمبريالي من أول نابليون لتوطين اليهود في فلسطين ، وكيف استطاع هرتزل أن يتوصل إلى تأسيس المنظمة الصهيونية وإدخال المشروع الصهيوني إلى حيز التنفيذ . كما عرفنا كيف كان وعد بلفور هو التنفيذ العملي للمشروع الصهيوني . وعرفنا دور كل من انجلترا وأمريكا في رعاية المشروع حتى أعلنت الأمم المتحدة قرار التقسيم .

فماذا عن الدولة العثمانية التي كانت فلسطين تابعة لها ؟ وعن موقفها من المشروع الصهيوني ؟

الدولة العثمانية

قام العثمانيون، وهم مجموعة من القبائل التركية، بقيادة زعيمها عثمان الأول ، بتأسيس الدولة العثمانية. بدأ العثمانيون بتوحيد الإمارات التركية في آسيا الصغرى التي مدت سلطانها إلى جنوب أوربا والشرق الأدنى القديم. ومع حلول منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، كانت الدولة العثمانية الناشئة قد ضمت مناطق كبيرة من البلقان واليونان، وفتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣. وقد استولى العثمانيون على سوريا وفلسطين ومصر (١٥١٦ ــ ١٥١٧) ومعظم المجر (١٥٢٦) والعراق (١٥٣٠). ومع منتصف القرن السادس عشر الميلادي، حيث وصلت الإمبراطورية إلى أعلى قمة نفوذها، بسط العثمانيون نفوذهم على شبه الجزيرة العربية وضموا معظم شمال أفريقيا وكثيراً من الجزر في البحر الأبيض المتوسط. وكانت تحكم الإمبراطورية العثمانية نخبة عسكرية تركية مسلمة.

وقد بدأ مد العثمانيين في التوقف عام ١٦٨٣ حينما فشلوا للمرة الثانية في الاستيلاء على فيينا. وبعد ثلاثة أعوام فقدوا بودابست، ووقعوا أول معاهدة يقرون

فيها بهزيمتهم. وبالتدريج، أخذ النفوذ العثماني في الانحسار، إذ بدأت روسيا في الزحف من الشمال، وظهرت الدولة الصفوية (الشيعية) التي ناصبت الدولة العثمانية العداء، وظهرت دول أوربا البحرية ومن بينها إسبانيا والبرتغال، ثم إنجلترا وفرنسا اللتان قلصتا نفوذ الدولة العثمانية واستولتا على بعض أرضها وعلى أجزاء من العالم الإسلامي إلى أن سقطت الخلافة العثمانية على يد ثورة تركيا الفتاة. وتمزقت الإمبراطورية العثمانية تماماً مع الحرب العالمية الأولى، واستقلت كل الدول التي كانت تابعة لها. (١)

لقد تحققت في الدولة العثمانية سنة الله في ميراث الأرض .

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ }

(الحج : ١٠٥)

فالصالحون لعمارة الأرض هم ورثتها ، هذه هي سنة الله في خلقه التي لا استثناء فيها ولا محاباة .

إن الدولة العثمانية في بداية أمرها كانت تسير وفق هذه السنة آخذة بشروط التمكين وأسبابه أما في أواخر عهدها فقد انحرفت عن شروط التمكين ، وابتعدت عن أسبابه المادية والمعنوية .

فلقد انحرف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله فلم يقوموا بعبادة الله على الوجه الصحيح الذي يطهر القلب ويزكي النفس ويسمو بالأخلاق ، ولم يأخذوا في أسباب العلم النافع الذي يعمر الأرض ويصلحها ، ولم يسيروا في البلاد التي حكموها سير الخلفاء الراشدين بل ساروا فيها سير الحجاج بن يوسف الثقفي فكثرت الاعتداءات الداخلية بين الناس وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن ، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الروس والإنجليز والبلغار والصرب وغيرهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن السلاطين والأمة العثمانية، وحرموا

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤ ج٢ الباب الثالث : الدولة العثمانية وفارس بعد انتشار الإسلام. مرجع سابق .

التمكين ، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وتوالت المصائب ، وضاعت الديار، وتسلط الكفار.

وكان نتيجة ذلك أن حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية (المماليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، ومحمد علي في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، علي بك الكبير في مصر، القرامليون في ليبيا)(١) وهذا الصراع بين الحكام المحليين والدولة العثمانية ساهم في إضعافها ثم زوالها وسقوطها (٢)

الحقيقة أنه منذ أن وطئت قدم العثمانيين أرض العروبة والإسلام وحل بها الخراب والدمار " حيث صارت البلاد مسرحا للفوضى والاضطراب نتيجة تنازع الهيئات التي تقتسم الحكم فيها ، وسارت الدولة على سياستها التقليدية في تغيير الباشوات خوفا من جنوحهم إلى الاستقلال تحقيقا لأطماعهم الخاصة ، كما اتسم الحكم العثماني في بلاد المشرق العربي بالرجعية وشمل البلاد التأخر إذ كانت فكرة الحكم عند العثمانيين بسيطة اقتصرت وظيفة الدولة في نظرهم على الدفاع عن البلاد وحفظ الأمن وجمع الضرائب والفصل في الخصومات أما ما عدا ذلك من خدمات عامة فقد أهملت ولم تعتبرها الدولة من بين مسئولياتها وتركتها للأفراد والجماعات ، ولذلك ساءت أحوال الشعوب العربية اقتصاديا . " (٣)

الدولة العثمانية والحرب العالمية الأولى

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى اتجهت الدولة العثمانية إلى دخولها إلى جانب دولتي الوسط (ألمانيا والنمسا) على أمل استرداد ما اقتنصته منها دول الوفاق (انجلترا / فرنسا) . وإنقاذا لنفسها ولما تبقى تحت يدها من ولايات عربية من مخططات اقتسام دول الوفاق للدولة العثمانية فيما بينهم .

---

(١) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغي، ص٩٤.
(٢) لمزيد من التفصيل حول أسباب ضعف وسقوط الدولة العثمانية انظر " الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط " علي محمد محمد الصلابي المبحث الثامن (أسباب سقوط الدولة العثمانية) .
(٣) د. محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣١ .

وأعلنت الدولة العثمانية الجهاد المقدس متحالفة مع دولتي الوسط (ألمانيا / والنمسا) في نوفمبر ١٩١٤ ولقد كان لهذا النداء " الجهاد " صدى قوي بين المسلمين ، وكان مزعجا لانجلترا التي كانت تحكم الهند وجنوب شرق أسيا الذين يصل تعدادهم إلى حوالي ٥٠ مليونا من المسلمين على الأقل .

أما في البلاد العربية فقد أثار إعلان الجهاد حماسا ، ثم لم يلبث أن ساد الحذر بين زعماء العرب فقد كانت الأزمة بين المشرق العربي (١) والترك لا تزال قائمة ، ولم يؤد المؤتمر العربي الأول ولا التسوية العربية التركية التي أعقبته إلى نتائج مرضية ، ولذلك نما تيار فكري يدعو إلى التريث في تأييد فعلي للدولة العثمانية في الحرب والاتصال بكافة الأطراف المعنية لمعرفة موقفها من المطالب العربية على أن الدور الذي قام به الشريف الحسين بن علي شريف مكة كان هو أبرز الأدوار العربية خلال الحرب العالمية الأولى . (٢)

الشريف حسين والثورة العربية

كان الحسين بن علي يعمل على بناء دولة عربية تشمل المشرق العربي كله منذ أن أسندت إليه شرافة مكة في أعقاب انقلاب ١٩٠٨ ، وقام بأوجه نشاط سياسي واسع النطاق نسبيا سواء في شبه الجزيرة العربية أو خارجها ، وقام الأمير عبد الله بن الحسين بالاتصال بالسير رونالد ستورز السكرتير الشرقي في إدارة المندوب السامي البريطاني في القاهرة قُبَيْل نشوب الحرب ، وعمل الأمير عبد الله على استشفاف رأي السلطات البريطانية إزاء محاولة الأتراك العثمانيين إقصاء الشريف عن موقعه ، فكان طبيعيا أن أبدى الإنجليز تعاطفا مع الشريف بعد وقوع الحرب وأخذت تنشط قنوات الاتصال بين شرافة مكة وإدارة المندوب السامي بالقاهرة . (٣)

وعندما بدأت الحرب أعلنت انجلترا وفرنسا الحماية على العرب مُنْهِية علاقة الدولة العثمانية نهائيا بالعرب وطلبت من الزعماء العرب الوقوف معهما في أثناء الحرب في مقابل الوعد بمنحهم الحرية والاستقلال . وجد العرب أنفسهم وقد

(١) البلاد العربية الواقعة في آسيا والتي تشمل الجزيرة العربية والعراق والشام .
(٢) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ١٧١، ١٧٢ .
(٣) نفسه ص ١٧٢ .

حولتهم عصور التخلف والتبعية والاحتلال إلى عبيد لا يحسنون الكر والفر بل يحسنون الحَلْبَ والصَّر ، فاتجهوا إلى الشريف حسين لعله يكون حامي العروبة والإسلام من كيد الأعداء اللئام .

قام الشريف حسين (شيخ القبيلة العربية) بالتفاوض مع انجلترا (زعيمة الإمبريالية) فوعدته بتحرير العرب من المحتل التركي إذا عاونها العرب في الحرب وتحقق لها الانتصار فيها ، ولكن متى كان للمستعمر المستبد وعد ؟! ومتى كان للضعيف المتخلف حق في عالم لا يعترف إلا القوة ؟!

ولقد تُبُودِلَت مراسلات طويلة من ١٤ من يوليو ١٩١٥ حتى ٣٠ من يناير ١٩١٦م بين المندوب السامي البريطاني في القاهرة السير هنري مكماهون، وبين الشريف حسين في مكة، وكان هدف الحكومة الإنجليزية أن تستغل سخط العرب ضد المحتل التركي، واعدة الشعوب العربية بالاستقلال بعد انتصار انجلترا وحلفائها على الأتراك ومن يحالفهم .

وكان الشريف حسين في تلك المراسلات يعبر عن طموحاته ، وكذلك عن رأي وطموحات بعض الزعامات العربية الشامية ، وفي إحدى هذه الرسائل حدد الشريف حسين المطالب العربية بما يلي :

١- أن يتولى هو الخلافة الإسلامية بدلا من الخليفة العثماني .

٢- استقلال البلاد العربية من (مرسين) و(أطنة) شمالا إلى الحدود العراقية الفارسية والخليج العربي شرقا والشام والجزيرة العربية . أي إقامة دولة عربية تضم العراق والشام وشبه الجزيرة العربية تقريبا .

ولكن الإنجليز رفضوا مطلب الخلافة ، كما رفضوا طلب الشريف حين في أن يكون ملكا على العرب بحجة أن العديد من مشيخات الجزيرة العربية على علاقات تعاهدية مع بريطانيا ، وأن هذه المشيخات وبريطانيا لا توافق على أي تغيير في وضعهم ، وكان عبد العزيز بن سعود قد عقد اتفاقية " دارين " مع انجلترا في عام ١٩١٥ (١) ومن ثمَّ يكون الحجاز فقط هو المتبقي ليكون تحت سيادة الشريف حسين

(١) اتفاقية دارين أو اتفاقية القطيف هي تلك الاتفاقية التي وقعها عبد العزيز بن سعود مع الإنجليز بعد هزيمته من الدولة العثمانية وهي اتفاقية وضعت دولة عبد العزيز بن سعود التي تضم الرياض والقصيم

، أما الشام فقد أشار المندوب السامي إلى أن لفرنسا مصالح فيما غرب حماة وحلب وحمص ودمشق ،وبما أن الجزء الجنوبي من العراق قد سقط في يد القوات الإنجليزية حينذاك ، فقد استبعده المندوب السامي من المشروع الشريفي ، كما أخرج مرسين وأطنة من الدول العربية المستقلة على أساس أنهما ليستا عربيتين .

وجد الشريف في الموقف الإنجليزي صلابة في نفس الوقت الذي أسند فيه الأتراك الحكم في جدة إلى وهيب باشا الذي كان يخطط لإقصاء الشريف حسين لأنه كان يماطل في الاشتراك الفعلي بقواته إلى جانب القوات العثمانية التي كانت تقاتل بقيادة جمال باشا على الجبهة المصرية ، ولقد خسر جمال باشا المعركة وارتد حانقا على العرب ، وألقى القبض على زعماء الحركة العربية في الشام استنادا إلى وثائق عثر عليها في القنصلية الفرنسية تدينهم – من وجهة النظر العثمانية – بالتآمر مع أعداء الدولة ، وقُدّم هؤلاء الزعماء العرب إلى المحاكمة وصدرت ضدهم أحكام إعدام بالجملة .

وجد الشريف حسين أنه إن لم يُعلن الثورة فإن الأتراك سيقضون عليه فأعلن الثورة في يونيو ١٩١٦ ، دون أن يكون قد حصل من الإنجليز على اعتراف صريح بحق العرب في الاستقلال معتمدا على حسن تقييم الإنجليز والحلفاء لموقف العرب المناصر للحلفاء في الحرب ، وما كان الإنجليز أو الحلفاء ليقيموا وزنا إلا لمصالحهم هم أولا .

أعلن الشريف الجهاد ضد الأتراك ، ونجحت قواته في تصفية الوجود العسكري التركي في الحجاز باستثناء حامية المدينة ، وزحفت قواته شمالا واستولت على العقبة ، واتجه الفيلق العربي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين إلى القدس ، ودخل دمشق ثم حمص وحماة وحلب ومنع الأمير القوات العربية من دخول المنطقة المخصصة لفرنسا طبقا لاتفاقية سايكس – بيكو في الوقت الذي دفعت فيه القوات الإنجليزية القوات العثمانية في العراق أمامها حتى استولت القوات الإنجليزية على بغداد ، وأصبحت على مقربة من الموصل عندما أعلنت الدولة العثمانية رغبتها في

والإحساء في مصاف دويلات الخليج الخاضعة للتوجيه الإنجليزي ، ولكن عبد العزيز بن سعود استطاع خلال الحرب العالمية الأولى أن يحتفظ بدولته بعيدة عن التورط في الحرب .

وقف القتال ، فعقدت هدنة " مدروس " في نوفمبر ١٩١٨ ، وفي أعقابها استولت القوات الإنجليزية على الموصل . (١)

وبدلا من أن تساعد انجلترا الشريف حسين – كما كان يأمل – على تكوين خلافة عربية مستقلة مع إدخال فلسطين في هذه الخلافة بعد انتهاء الحرب ، تغيرت مخططات بريطانيا بخصوص فلسطين ارتباطا بسير العمليات الحربية ضد تركيا مما أوجب دخول الحكومة البريطانية في تآمر مع الصهيونية قبل الحرب . وبعد أن أصبحت بريطانيا إحدى الدول المنتصرة فسخت بسرعة فائقة الاتفاق مع فرنسا الخاصة بفلسطين ، وتبرأت من وعودها في تكوين دولة عربية مستقلة . (٢)

مشى الشريف حسين إلى جانب الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى طمعا في استقلال الحجاز والعرب وهو في ذلك يستند إلى اتفاق عقد بينه وبين انجلترا ، كان مصيره مصير كل اتفاق يُعقَد بين القوي والضعيف (٣)

لقد كان للثورة العربية بقيادة الشريف حسين وأولاده ضد الدولة العثمانية عظيم الأثر في انتصار انجلترا وحلفائها في الحرب العالمية الأولى وزوال الحكم العثماني عن البلاد العربية " فقد أحدثت ثورة العرب تحولات كبيرة في مجريات الحرب في الشرق العربي ، وتعطلت مواصلات الأتراك وحوصرت حاميتهم ، واعتمد " أللنبي " على الجيوش العربية تحت قيادة فيصل بن حسين ، وحين أصبحت جيوش فيصل على مقربة من دمشق في سبتمبر ١٩١٨ ، حيث دخلها مع " أللنبي " وصحبهم ضباط الاستخبارات البريطانية (لورانس) (٤) .

---

(١) د. عطية القوصي، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ١٧٣

(٢) انظر كتاب " دولة إسرائيل خصائص التطور السياسي والاقتصادي " للكاتبة السوفيتية جالينا نيكيتينا مرجع سابق ص ٢٥ .

(٣) محمد جميل بيهم " الحلقة المفقودة في تاريخ العرب " مطبعة مصطفى الحلبي ص ٧٩ .

(٤) لورانس ضابط الاستخبارات البريطانية الذي عايش أحداث ثورة الشريف حسين يوما بيوم فقد عمل مستشارا للشريف حسين وأولاده ، ورافق فيصل الأول بن الشريف حسين في دخوله دمشق .د. مصطفى الفقي " تجديد الفكر القومي " الهيئة العامة للكتاب ص ٢٢ .

يقول " لورانس " في كتابه عن الثورة العربية : " فتح أهل دمشق أبوابهم في وجه الجيش العربي ، وقابلوه بالتهليل والتكبير والترحاب العظيم " (١)

لقد استغلت انجلترا حينئذ مكانة الشريف حسين الدينية وطموحاته العائلية لكي تحقق أكبر قدر من الاستفادة لموقع الحلفاء ، ولتحقيق انتصاراتهم على الجبهة العربية في الحرب العالمية الأولى . ولم يكن ذلك يتحقق للشريف وأولاده ، ولا لبريطانيا وحلفائها ، لو لم تكن صورة الأتراك مقيتة في أعين العرب الذين قاسوا طويلا من قسوة الحكم العثماني ، وظلم الجنرالات الذين توفدهم عاصمة الخلافة للتحكم في الأقاليم التي تخضع لسيطرتهم . (٢)

لقد قام الشريف حسين بدوره في صفقته مع انجلترا وانتظر أن تفي انجلترا بوعدها وإذا بانجلترا بدلا من أن تصدر وعدا باستقلال الدول العربية وحقها تصدر وعدا لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين بدلا من .

أما الوعود التي أعطيت للعربِ خلال الحرب من ١٩١٤ ــ ١٩١٨ لاستدراجهم إلى جانب الحلفاء ضد الترك فقد انتهكت دائما، وكان نفاق الاستعمار الإنجليز فاضحًا.

وعندما صار الشريف حسين بمكة ملكًا على الحجاز منذ عام ١٩١٦ طلب إيضاحات لإعلان بلفور، فوجّه إليهِ المقيم العام بمصر رسالة (يطلق عليها رسالة هوجارث، وهو إسم الضابط الذي نقلها) يؤكد له فيها أن : الاستقرار اليهودي في فلسطين لن يسمح بهِ إلا إذا كان متوافقا مع الحرية السياسية والاقتصادية للسكان العرب " .

وفي أثناء اللقاء بين الشريف حسين والقومندان هوجارث في يناير ١٩١٨ أكد هوجارث أن فلسطين كانت داخل حدود الدولة العربية التي تقرها إنجلترا، وأضاف هوجارث أن " الملك لن يقبل دولة يهودية في فلسطين " .

---

(١) لورانس العرب " الثورة العربية " ص ٢١٣ نقلا عن د. مصطفى الفقي " تجديد الفكر القومي " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٦ .
(٢) د. مصطفى الفقي " تجديد الفكر القومي " مرجع سابق ص ٢٦ .

وفي ١٦ من يونيو عام ١٩١٨ ألقى هوجارث هذا محاضرة عن إجابة الحكومة البريطانية على رسالة (حزب سوريا المتحدة) أمام رجالات سوريا المجتمعين في القاهرة، فقال : " إن حكومة صاحب الجلالة تريد أن تكون جميع الأمم الناطقة بالعربيةِ متحررة من النيرِ العثماني، وأن تعيش في ظل حكومة تختارها بنفسها " (١)

وقد كتب الملك فيصل (هو فيصل بن الشريف حسين) ملك الحجاز، وكان يعتقد حينئذ بحسن نية الاستعماريين ــ كتب في مارس ١٩١٩ إلى الزعيم الصهيوني فيلكس فنكفورتر :

" إننا نشعر بأن العرب واليهود ينتمون إلى نفس الجنس، وأنهم عانوا نفس الاضطهاد من جانب القوي الأقوى، ونحن العرب ننظر بتعاطف عميق إلى الحركة الصهيونية، ونعمل معًا على تجديد الشرق الأدنى ونهضته. إن حركتينا متكاملتان، وفي سورية متسع لنا ولكم (ولنذكر أن فلسطين كانت جزءًا من سورية آنذاك) بل إني أعتقد أن أحدا منا لا يستطيع أن ينجح بدون الآخر، وإني لأؤمل في مستقبل تساعدوننا فيهِ ونساعدكم، حتى تستطيع البلاد التي لنا فيها مصالح مشتركة أن تأخذ مكانها من جديد في مجتمعات الشعوب المتحضرة في العالم " (٢)

فقد إستقبل الملك فيصل الصهيونيين إذن ضيوفًا كرامًا، وهو لم يكن يتصور بمفهومه عن الضيافة أن الضيف يمكن أن يطرد مُضيفه الذي تلقاه بالأحضان.

ولقد عاضدت القوي الإمبريالية الصهيونيين وتصرفت على هذا النحو بأسلوب النفاق المتعمَّد، فأعلن مكماهون في رسالة وجهها إلى صحيفة التيمس في ٢٣ من يوليو ١٩٣٧ قوله: " إن من واجبي أن أعلن للملأ، وبكل صراحة ووضوح، أني لم أكن أنوي أن أدخل فلسطين في منطقة الاستقلال العربي عندما أعطيت ضمانات للملك حسين " .

وفي ٩ من نوفمبر ١٩١٨ نشرت فرنسا وإنجلترا إعلانًا مشتركًا، بالمنطوق التالي: " إن الهدف الذي تتوخاه فرنسا وبريطانيا العظمي هو التحرير الكامل

---

(١) د. كنعان " صراع في أرض السلام " .

(٢) حايم وايزمان " التجربة والخطأ. ص ٢٤٥ –٢٤٦ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهيـــة " مرجع سابق .

والنهائي للشعوب التي طال اضطهادها على يد الأتراك، وإقامة حكومات وإدارات قومية تستمد سلطتها من الاختيار الحر للشعوب المدجنة " (١)

وقد كتب اللورد بلفور في مذكرة بتاريخ ١١ من أغسطس ١٩١٩ ما نصه : " إن القوي العظمي الأربع ــ إنجلترا والولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا ــ قد انحازت إلى الصهيونية، وسواء أكانت الصهيونية صوابًا أم خطأ، خيرًا أم شرًا، فإن جذورها تمتد في تقاليد عريقة، وفي حاجات قائمة، وفي آمال مستقبلة ذات أهمية أعمق بكثير من الرغبات وألوان الحرمان التي يشعر بها سبعمائة ألف عربي يسكنون اليوم هذه الأرض القديمة، وفي رأيي أن هذا حق، ولكن ما لم أفهمه مطلقًا ولا قدرت على فهمه هو كيف يمكن أن يكون هذا متفقًا مع الإعلان (الإعلان الفرنسي الإنجليزي) والتعهد (الاتفاقات بين حسين ومكماهون) وبيانات لجنة التحقيق) (٢)

وأمام هذا الازدواج المنافق قال بلفور نفسه للقاضي برانديز في يونيو ١٩١٩: " كان من العسير عليّ أن أتصور كيف سيتمكن الرئيس ولسون من التوفيق بين اتصاله بالصهيونية وبين نظرية حق تقرير المصير" .

وبعد قليل كتب في مذكرته في ١١ من أغسطس عن مستقبل فلسطين قائلا: " أما عن فلسطين، فإن القوي الكبرى لم تقم بأي تقييم يتسم بالنزاهة، ولم يكن لها أي إعلان لا تنوي انتهاكه، حرفيا على الأقل " .

والواقع أن النفاق قد بلغ أوجه؛ لأن فلسطين كانت في الوقت نفسه موعودة للصهيونيين، ولنفس الأسباب التي تزعم أن اليهود في بلادهم المتفرقة ولاسيما في الولايات المتحدة قد مارسوا الضغط لصالح انضمامها إلى الحلفاء. وعلى هذا الغموض الأساسي فرضت (الوصاية) على فلسطين، واختيرت لها إنجلترا ٢٤ يوليو ١٩٢٢

---

(١) هوروفتز " الدبلوماسية في الشرقين الأدنى والأوسط " ج ٢ ص ٣٠ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

(٢) وثائق عن السياسة الخارجية البريطانية نشريات وود وارد أنربتر ص ٣٤٥. نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

اتفاقية سايكس – بيكو

وبينما كانت القوات العربية تحرز انتصاراتها في الشام تكشفت مؤامرة واسعة النطاق على العرب فقد سربت روسيا البلشفية – بعد خروجها من الحرب مهزومة – نصوص اتفاقية ثلاثية عقدتها روسيا القيصرية مع انجلترا وفرنسا لاقتسام الدولة العثمانية وأعلنت روسيا البلشفية رفضها لهذه المؤامرة فاقتصرت المؤامرة على اتفاقية انجلترا وفرنسا ، وعرفت باسم اتفاق سايكس – بيكو وبمقتضاها قُسِّم الهلال الخصيب (الشام والعراق) على النحو التالي :

(أ) تحصل فرنسا على :

١- جنوب الأناضول بما في ذلك أطنة والإسكندرونة .

٢- سوريا ولبنان حتى شمال العراق .

(ب) تحصل إنجلترا على :

١- العراق (ولاية البصرة وبغداد)

٢- أجزاء من جنوب سوريا حتى حدود شبه جزيرة سيناء الشرقية .

٣- حيفا وعكا .

(ج) إقامة نظام دولي في فلسطين .

(د) تقسيم المنطقة العربية الصحراوية بين العراق والشام إلى منطقتي نفوذ : واحدة بريطانية ، والثانية في فرنسية .

وتنفيذا لاتفاقية سايكس – بيكو مُنِعت القوات العربية من دخول بيروت ، وسمحت انجلترا لفرنسا بإنزال قواتها هناك ، وأنزلت العلم العربي المرفوع ، وبرغم ما بذله الشريف حسين لكسب أعضاء مؤتمر الصلح إلى جانب قضية استقلال العرب واجه مواقف أشد تعنتا هو وابناه : فيصل ، وعبد الله .

عقَد الحلفاء مؤتمرا في سان ريمو في ١٩٢٠ وفيه تقرر إعادة النظر في اتفاقية سايكس – بيكو بحيث يصبح العراق كله وفلسطين تحت الانتداب الإنجليزي ، وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي . (١)

---

(١) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ١٧٤

أما الشريف حسين الذي نجحت قواته في إسقاط الحكم العثماني في سوريا لإعلان الدولة العربية الكبرى واجه ضغطا عسكريا كبيرا عليه من جانب عبد العزيز بن سعود الذي أباد قوات الشريف في أول صدام معه في ١٩١٩ م ، عند " تربة " وتابع عبد العزيز توسعاته فأنزل ضربة نهائية بآل الرشيد ، وضم إليه الحائل في ١٩٢١م ، وسيطر على عسير وضغط بشدة على الحجاز في ١٩٢٤ وأنزل هزيمة كبيرة بقوات الشريف حسين الذي لم يلبث أن تنازل عن العرش لابنه " علي " ولكنه لم يصمد إذ استولى عبد العزيز على الحجاز كله ونودي به سلطان نجد وملك الحجاز (٨/١/ ١٩٢٦) ثم عرفت بالمملكة العربية السعودية فيما بعد .

ثم تطلع عبد العزيز إلى حسم النزاع حول عسير التي كانت تحت حكم الأدارسة ويعمل الإمام يحيى حميد الدين على السيطرة عليها دون آل سعود الذين كانوا يعتبرونها جزءا من الدولة السعودية ، وفشلت محاولات تسوية النزاع بين الطرفين السعودي واليمني حتى وقعت الحرب بينهما وفيها انتصر عبد العزيز بن سعود ، وأصبحت عسير جزءا من المملكة العربية السعودية بمقتضى معاهدة الطائف السعودية – اليمنية في ١٩٣٤ . (١)

لكن أين مصر من هذه الأحداث ؟ وأين الدور المصري ؟

موقف مصر من المشروع الصهيوني

كان محمد علي وخلفاؤه يعملون على الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، وقد حققوا في هذا المجال قدرا كبيرا من النجاح فاكتسبت مصر شخصية مستقلة عن بقية أجزاء الدولة العثمانية مما أدى إلى انعزالها عن بقية أجزاء الدولة في الشرق العربي الذي كان خاضعا للحكم العثمانيين المباشر ، خصوصا وأنه بعد ذلك اتجهت مصر نحو أفريقيا وظلت الوحدة السياسية بين مصر والسودان مركز الثقل في سياسة ونشاط الخديويين بل ونشاط الحركة الوطنية المصرية ، فساعد هذا بدوره على انصراف مصر عن الشرق العربي بقضاياه ومشاكله .

ثم حدث الاحتلال البريطاني لمصر فزاد من عزلتها عن الشرق العربي إذ أن هذا الاحتلال جعل قضية مصر تختلف موضوعيا عن قضية الشرق العربي ، فبينما

---

(١) نفسه ص ١٧٥ .

كانت الحركة الوطنية في مصر تكافح ضد السيطرة الأوربية وتتطلع إلى تأييد ومساعدة الدولة العثمانية كانت الشعوب العربية في الشرق العربي تكافح في سبيل تحررها من السيطرة العثمانية وتتطلع إلى تأييد الدول الأوربية ، فأعداء مصر كانوا حلفاء الحركة القومية في الشرق العربي وأعداء هذه حلفاء لمصر . (١)

لقد كانت مصر – أكبر الدول العربية – بعيدة عن روح الثورة العربية التي قادها الشريف حسين حيث نظر إليها المصريون بكثير من التحفظ والحذر ، لأنهم كانوا منغمسين في مواجهة حادة مع الاحتلال البريطاني لمصر في ذلك الوقت إلى جانب شعورهم بأن الأتراك ليسوا هم العدو الأصلي ، فقد كانوا ينحدرون نحو النهاية بحكم ضعف الدولة وتدهورها ، إنما الخطر الحقيقي ، يأتي من أطماع أوربا الاستعمارية التي قسمت العالم العربي إلى مراكز نفوذ ومواقع احتلال (٢)

ولكن هذا الوضع أخذ يتغير عندما قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) ودخلت الدولة العثمانية في حرب ضد انجلترا ، فقد انتهزت انجلترا هذه الفرصة لإنهاء السيادة العثمانية على مصر وفرض الحماية البريطانية عليها عام ١٩١٤م ، وفي أثناء الحرب استبدت بالشعب المصري ، فقد قامت بتجنيد المصريين قسرا للعمل في الخطوط الخلفية ، وصادرت مواشي الفلاحين وحبوبهم بأبخس الأثمان ، وفرضت الأحكام العرفية على البلاد وكممت الصحافة ، ومنعت انعقاد الجمعية التشريعية التي تضم ممثلي الشعب ، وشعر المصري بأنه في سجن كبير .

فلما انتهت الحرب وهزمت فيها الدولة العثمانية أدرك الشعب المصري أنه لم يعد ملتزما بقبول السيادة العثمانية حتى وإن كانت سيادة أسمية ، خاصة بعد أن استولت " جمعية الاتحاد والترقي " على الحكم في اسطنبول سنة ١٩٠٨ وخلعت السلطان عبد الحميد ، وأعلنت الدستور ، وأخذت فكرة الخلافة في العالم الإسلامي تضعف رويدا رويدا . (٣)

---

(١) د. محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٨١
(٢) د. مصطفى الفقي " تجديد الفكر القومي " مرجع سابق ص ٢٦ .
(٣) د. علي حسني الخربوطلي " غروب الخلافة الإسلامية " مؤسسة المطبوعات الحديثة ص ١٩٥

وتطلعت مصر إلى الاستقلال التام لأول مرة عن دولة الخلافة ، وبرزت فكـرة القومية المصرية إذ شعر المصريون أنهم أمة واحدة مستقلة عن أي كيان سياسـي آخر ، وبالتالي يجب أن يكونوا دولة مستقلة تدين بالولاء لحاكم مصري بعد أن كان ولاؤها للحاكم العثماني .

وهكذا تبلورت الحركة الوطنية حول فكرتين أساسيتين :

الأولى : إنهاء الاحتلال البريطاني لمصر .

الثانية : إعلان مصر دولة مستقلة ذات سيادة . (١)

وفي سبيل تحقيق هاتين الفكرتين قامت ثورة ١٩١٩م وفيها هبت الـبلاد تقـاوم الجيوش الإنجليزية المحتلة بعنف ، مستعملة ما كان عندها في ذلك الوقـت مـن وسائل بسيطة ، وقابلت إنجلترا هذه الثورة بالشدة وضربت المواطنين بالرصاص ، واعتقلت الزعماء ونفتهم خارج البلاد ، ولجأ المصريون بجانب الرد على وسـائل العنف بمثلها إلى المقاطعة السلبية ، فرفضوا مفاوضة بريطانيا ، وقاطعوا " لجنـة ملنر " التي قدمت إلى البلاد لتدرس مطلب الشعب عام ١٩٢٠ .

ولم يعد مفر أمام انجلترا وقد التف الشعب المصري كله حول الوفـد المـصري وقائده سعد زغلول من التفاوض مع سعد زغلول لحل القضية الوطنية ، وكان هذا بداية مرحلة المفاوضات المصرية البريطانية التي استمرت من يونيو ١٩٢٠ إلـى أغسطس ١٩٣٦ ، وقد انتهت بتوقيع معاهدة الـصداقة والتحـالف بـين مـصر وبريطانيا سنة ١٩٣٦. (٢)

كان هذا حال العرب إبان تنفيذ المشروع الصهيوني ، زعماء عرب في الجزيرة والشام متصارعون على الحكم وتوسيع ممالكهم ، وهم في سبيل ذلك لا يمـانعون من التحالف مع أعداء الأمة وحرب إخوانهم . وزعماء وطنيين في مصر لا هم لهم إلا استقلال بلادهم غير عابئين بما يجري خارجها من مؤامرات .

---

(١) د. عطية القوصي، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ١٨٧

(٢) نفسه ص ١٩٠ .

الدول العربية وقرار الجمعية العامة بتقسيم فلسطين

يقول السيد محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا :

أن الإنجليز " جردوا أهل فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية مـن أسـلحتهم ، وشردوا قادتهم وسجنوا الألوف من مجاهديهم ، وأرهقوهم ظلما وعـدوانا .. فـي الوقت الذي كانوا يسلحون فيه اليهود ويدربونهم وينظمونهم ويساعدونهم بواسـطة هيئة عسكرية إنجليزية .. ظن الإنجليز أن كفة اليهود الحربية أصبحت راجحـة ، وأن في استطاعتهم أن يتسلموا فلسطين حسب وعد بريطانيا القديم لهـم فأعلنـت بريطانيا أنها ستنسحب من فلسطين " (١)

كما أن اليهود الصهاينة – والحق يقال – بذلوا مجهودات جبـارة علـى كافـة الأصعدة في سبيل تحقيق غايتهم هذه المجهودات لم تؤثر في الغـرب الإمبريـالي حلفاء إسرائيل فحسب بل أثرت في العرب أيضا فها هو السياسي المصري الكبيـر الدكتور محمد حسين هيكل يصرح بعد أن هاله ما رأى بنفسه الدعاية الـصهيونية في أمريكا يقول " بدأ الصهيونيون ينظمون دعايتهم في صحف أمريكا وفي الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولم يكن تنظيم هذه الدعاية عسيرا عليهم . فاليهود في أمريكا يملكون كل أسباب الدعاية . هم أصحاب الصحف الكبرى ، وأصـحاب محطـات الإذاعة الأمريكية المختلفة ، وأصحاب دور السينما ، وهم المتحكمون فـي سـوق المال الأمريكية أكثر من تحكمهم في سوق المال البريطانية . وهم إلى ذلـك ذوو نفوذ ضخم في الانتخابات الرئاسة الجمهورية الأمريكية . فهم الثلث مـن سـكان ولاية نيويورك . ولهذه الولاية الكبيرة من عدد الأصوات في الانتخابات الرئاسـية ما يحسب كل مرشح حسابه . ولهذا قيل أن انحياز الرئيس ترومان إلى اليهود في تقسيم فلسطين قد كان مرجعه إلى أن انتخابات الرئاسة كانت ستقع في سنة ١٩٤٨ أي بعد عام أو أقل من نظر الجمعية العامة تقرير التقسيم ، وانه أراد لذلك أن يكفل أصوات اليهود في نيويورك بانحيازه إليهم في مسالة فلسطين " (٢)

أريتم مدى نجاح الدعاية الصهيونية في أمريكا لقد نجحت لدرجة أنهـا أوحـت للدكتور هيكل رئيس الوفد الذي يمثل مصر في اجتماع الجمعية العموميـة العامـة

---

(١) محمد أمين الحسيني " حقائق عن قضية فلسطين " مرجع سابق ص ١٨

(٢) د. محمد حسين هيكل " مذكرات في السياسة المصرية " دار المعارف ج٣ / ص ٢٨

للأمم المتحدة أوحت هذه الدعاية الجبارة له بأن اليهود الصهاينة هم المتحكمون في السياسة الأمريكية . رغم أن عدد اليهود في أمريكا يقدر بـ (٦,٠٦٢,٠٠٠) نسمة طبقا لإحصاء سنة (٢٠٠٠) بينما يقدر عدد العرب في أمريكا بتسعة ملايين !!

لكن مع الأسف إن ما يبذله العرب الأمريكان لنصرة حقوقهم لا يساوي شيئا إذا قيس بما يقوم به اليهود الأمريكان لنصرة باطلهم !!!

ولقد حاولت الوفود العربية – آنذاك – كسب تأييد العرب الأمريكيين لصالح حقوق شعب فلسطين وإسقاط قرار التقسيم عند التصويت عليه في الجمعية العامة للأمم المتحدة ولكنهم فوجئوا أن " أن هؤلاء العرب الأمريكيين لم يبق منهم من يعرف اللغة العربية ، بل اندمجوا في الكتلة الأمريكية اندماجا تاما "(١)

وذهبت كل الخطب التي قيلت باللغة العربية أدراج الرياح " على أن الخطب الكثيرة التي ألقاها العرب باللغة الإنجليزية قد أقنعت هؤلاء الأمريكان من أصل عربي بأن الاتجاه إلى تقسيم فلسطين اتجاه ظالم ، وفتحت أعينهم على ما نبَّه إليه الخطباء العرب من اتجاه السياسة الصهيونية إلى التوسع حتى تمتد دولتهم من الفرات إلى النيل ، لكنهم لم يكونوا يملكون أن يصنعوا شيئا من مثل ما يصنعه اليهود الأمريكيون . فلم تكن للعرب سياسة كالسياسة الصهيونية تقررت منذ عشرات السنين ، فالعرب يعملون لتنفيذها بصبر ومثابرة كصبر اليهود ومثابرتهم . ولم تؤيد دولة قوية واحدة سياسة العرب كما أيدت الولايات المتحدة وأيدت روسيا سياسة الصهيونيين . لهذا لم يكن لهذه الحفلة الأمريكية العربية من الصدى ما تخطى حدود فندق بنسلفانيا إلا قليلا "(٢)

إن العرب فشلوا في إقناع الرأي العام العالمي بعدم تقسيم فلسطين في حين نجحت الصهيونية في كسب تأييد أمريكا القوى العظمى فالرئيس الأمريكي ترومان أعلن في افتتاح الجمعية العامة في الجلسة الأولى لبحث مسألة فلسطين " أعلن فيه أن الحكومة الأمريكية تنظر إلى مقترحات اللجنة التي أشارت بتقسيم فلسطين بعين التقدير والاعتبار " (٣)

(١) نفسه ص ٣٧
(٢) نفسه ص ٣٨
(٣) نفسه ص ٢٨

وكان العرب يتخيلون أن السوفيت قد يعاونهم جريا على سياستهم في معارضة أمريكا معارضة مطردة في كل موقف قد تتخذه ، وجاء قرار روسيا مخيبا لآمال العرب إذ أعلنت موافقتها على تقرير لجنة التقسيم .

وكان من الطبيعي أن يأتي تصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة لصالح تقسيم فلسطين ، وليت العرب عرفوا قدرهم ، وأقروا بعجزهم ، وقدَّروا قوة عدوهم واعترفوا بقرار الأمم المتحدة لهان الأمر ولجنبوا أنفسهم ويلات حروب لا نصيب لهم فيها إلا الهزائم النكراء .

ولكن الذي حدث على النقيض من هذا فالحكام العرب أرادوا أن يضيفوا إلى هزيمتهم السياسية هزيمة عسكرية أيضا تأتي على الأراضي الفلسطينية الباقية !!

فبدلا من دعم الدول العربية للفلسطينيين وقوات المتطوعين لمنع التقسيم ، أو الإقرار بالأمر الواقع الذي فرضه ضعفهم وقوة عدوهم وتواطؤ القوى العظمى ضدهم بقبولهم لقرار التقسيم بعدما فشلت كل الجهود الدبلوماسية في التوصل لأفضل منه بدلا من هذا وذاك ، راح العرب - كما هي عادتهم - يلجئون إلى الخطب الرنانة وإثارة الحماسة الدينية والإقدام على المغامرات غير المحسوبة بغية تصفية حسابات مع بعضهم البعض ، والتنافس على توسيع حدود ممالكهم على حساب دولة فلسطين مستترين وراء الدفاع عن المقدسات الدينية والأرض العربية مزايدين في القومية على أعدائهم من القوى السياسية الذين يرون أن الجهاد الحقيقي إنما يكون من أجل جلاء الاحتلال الأجنبي وإقامة الدستور وتطبيق الديمقراطية ، وتوجهوا إلى الجماهير العربية التي سبق أن ساموهم الخسف والعذاب ، والفقر والجهل والمرض راح هؤلاء الحكام المستبدون يمالئون الجماهير العربية التي كانت تضج بالحماسة للقضية الفلسطينية وتجعلها في مقدمة اهتمامها وقرروا - دون انتظار موافقة حكوماتهم - تحريك الجيوش إلى فلسطين للقضاء على اليهود في غضون أيام قلائل هكذا أوحى حكام العرب لشعوبهم !

وليت أنهم أعدوا للحرب عدتها بل أرادوها مظاهرة عسكرية ليس إلا فالجيوش العربية " كان تكوينها أصلا معدا على أساس القيام بالعمليات البوليسية وبغرض إظهار المظهرية فقط "(١) لذا فلا عجب أن يهملوا جمع المعلومات عن قوة العدو

(١) د. محمد نصر مهنا " صور من المشكلات السياسية في العالم المعاصر " ص ١٦ دار المعارف ط١

الصهيوني ، ليس ذلك فحسب بل إن أعداد القوات التي أرسلوها للقتال لا تتناسب فقط وعدد العرب آنذاك (الذي كان يصل إلى سبعين مليون نسمة ، بالإضافة إلى أربعمائة مليون مسلم في مقابل ستمائة ألف يهودي) بل لا يتناسب مع عدد اليهود المشاركين في المعركة !!

كما نسي هؤلاء الحكام إخطار القيادات العسكرية المشاركة في الحرب إلا في آخر لحظة ، أما عن مقدرة القيادات العسكرية على خوض المعارك ، والتخطيط لها والتنسيق بين الجيوش ، وتدريب الجيوش على القتال وعلى الخطط الحربية فحدث ولا حرج .

وكانت الجيوش العربية قليلة العدد ضعيفة القيادة عديمة الخبرة والتدريب الحديث ضئيل التسلح كان عليها أن تدخل " في مواجهة إسرائيل بصلابتها . كانت الدول العربية تقف في جبهة مفككة يعوزها التنظيم وتفتقر إلى الوحدة ، رجال السياسة فيها عاجزون وركبتهم الأوهام ومتأكدون من تفوقهم لدرجة أنهم اعتقدوا أنه يكفي جمع المعلومات عن العدو في اللحظات الأخيرة قبل القتال ، ويفسر الباحثون هذا الجهل بالتناقض الحاد في الحساسيات والتقديرات التي تميز مشكلة فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي ، وقد انعكس ذلك على العرب حيث لم يتخذوا الأهبة ولم يجروا استعدادا ولم يضعوا أي خطة جادة لمتطلبات الحرب ولم يكن همهم الأول إنزال الهزيمة بالعدو والانتصار عليه وإنما مراقبة بعضهم البعض تربصا وخيفة وحتى في أثناء العمليات العسكرية والاشتباكات المستمرة كان المصريون يخشون الملك عبد الله أكثر مما يخشون بن جوريون على حد ما يراه أحد الباحثين" (١) وفي الجلسة السرية التي عقدها النقراشي (رئيس الوزراء المصري آنذاك) للرد على استجواب من فؤاد سراج الدين حول الحرب قال " إن نوري السعيد قد عرض عليه تكوين قيادة مشتركة ، ولكنه رفض لأنه " لا يستطيع أن يتحمل متاعبهم ، ولا يود أن يضع رقبته في أيديهم " (٢)

---

(١) نفسه ص ١٦ مرجع سابق

(٢) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليو " الجزء الأول ص ١٣٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل : عن الدول العربية التي شاركت في حرب فلسطين : " إن هذه الدول العربية هي التي أضاعت ٧٨،٥% من أرض فلسطين، هل ممكن أن تتخيل أن هذه الدول العربية مجتمعة كلها وَضَعَت في ميادين القتال :

أولا : ما لا يزيد عن ثلاثين ألف جندي على كل الجبهات، في حين أن إسرائيل وضعت ١٠١ ألف جندي ومتطوع .

ثانيا : كان عند إسرائيل على أقل تقدير من ١٢٠: ١٣٥ جنرالا كانوا موجودين في الحرب العالمية الثانية يهود في الجيش السوفيتي في الجيش الأميركي في الجيش الفرنسي وقد استدعوا جميعا لكي يقودوا المعركة .

ثالثا : نحن – العرب – لم يكن لدينا فكرة عن الحرب ولم نكن داخلين لكي نحارب. نحن كنا داخلين بالاتفاق مع الدول المسيطرة، إنجلترا بالتحديد، أننا سوف نبقى في حدود قرار التقسيم .فدخلنا ملتزمين حدود التقسيم لم نتجاوزها، لم يتجاوزها منا أحد .

رابعا : لمَّا اكتشف اليهود ضعفنا بدءوا يتجاوزون الحدود لدرجة أنهم اخترقوا الحدود المصرية وكادوا يطوّقون الجيش المصري . (١)

فإذا كان حال الجيوش العربية بهذا الضعف ، والوحدة العربية بهذا التفكك ، والحكام العرب بهذا العداء و التخوين ، فلماذا أقدم حكام العرب على الحرب ؟

والجواب ببساطة أو بمرارة أن حكام العرب كان غرضهم من دخول الحرب ليس دحر العصابات اليهودية وإعادة حقوق الشعب الفلسطيني له أنما كان التحاسد والتباغض بين بعضهم البعض هو الغاية المنشودة من هذه الحرب فقد كان " الملك فاروق يضمر الحسد من الملك عبد الله " (٢) فلكل منهما أهداف من الحرب مخالفة للآخر ولقد سعى كل واحد منهما إلى تكوين تحالفات لإفشال خطة الآخر " فالأردن تؤيده العراق أراد التدخل عسكريا كي يؤمن أجزاء من فلسطين التي خُصِصَتْ

---

(١) محمد حسنين هيكل برنامج برنامج " مع هيكل " حلقة خاصة بمناسبة مرور ستين عاما على إنشاء دولة إسرائيل " فلسطين حق يأبى النسيان ج١ " مرجع سابق .

(٢) د. محمد نصر مهنا " صور من المشكلات السياسية في العالم المعاصر " ص ١٧ مرجع سابق

للدولة العربية حسب خطة التقسيم في حين أن مصر تؤيدها السعودية أرادت أن تعوق خطة الأردن / العراق بإلغاء التقسيم " (١) .

لذا جاء قرار الملك عبد الله " بإلغاء منظمة الجهاد المقدس الفلسطينية ، وجميع القوى والعصابات التابعة لها ، وإلغاء جيش الإنقاذ المؤلف من المتطوعين ، وطلب إلغاء الهيئة العربية العليا لفلسطين ، ووضعت خطة محكمة لإبعاد الفلسطينيين من ميدان الجهاد والسياسة ، وعن كل ما يتعلق ببلادهم ومستقبلهم وحياتهم " (٢) .

لقد جاءت هذه القرارات متسقة مع إستراتيجية الملك عبد الله التي " بدت وكأنها تسير في توافق مع بن جوريون فما كاد يستأنف القتال وتنهزم قواته في اللد والرملة – أو يسحبها عمدا – في مؤامرة بين جلوب والصهيونية ، حتى قرر الملك عبد الله إيقاف القتال بدون انتظار قرار مجلس الأمن "(٣) تاركا القوات المصرية تنهزم وتطرد مما استولت عليه من أراض (النقب) .

ويذكر لنا الأستاذ محمد حسنين هيكل حكاية عن الملك عبد الله قائد الجيوش العربية تظهر كيف كان الملك عبد الله يفكر ؟ وكيف كانت المعركة تُدار ؟

" ذهبت إلى عمان وجاءت عليها غارة، غارة من طائرة واحدة إسرائيلية ضربت قنبلة قرب قصر رغدان في نفس اليوم الذي جاء وزراء الخارجية العرب يقابلون الملك عبد الله لأنه كان قائد الجيوش العربية كلها المفروض القائد الأعلى، لكي يقرروا وقف إطلاق النار أم لا ، فأنا طلعت المقر لقيت الملك عبد الله يتمشى في القصر صباحا بعد ما جاءت الغارة امبارح بالليل وفرضوا إطفاء نور كامل في عمان، وأنا طالع على قصر رغدان، قصر رغدان منور، فأنا رحت لقيته يتمشى في الجنينة منتظرا وزراء الخارجية، قلت له : يا أفندم القصر منور عمان تحت مظلمة، قال لي : " أنت عايز يقولوا إن ملك هاشمي أطفأ أنواره خوفا من اليهود ؟ أنا امبارح لما جاءت الغارة أنا لم أسكت أنا خرجت بره القصر وأخذت رشاشا ومعي مناور وهو صار يرصد الطائرة وأنا أطخ !! "

---

(١) نفسه ص ٢٨ .
(٢) السيد محمد أمين الحسيني " حقائق عن قضية فلسطين " مرجع سابق ص ٢٤ ط ٢ .
(٣) د. محمد نصر مهنا " صور من المشكلات السياسية في العالم المعاصر " ص ١٨ مرجع سابق .

ما هذا ؟ هل هذه حرب ؟ الحرب تحتاج أولا إلى علم، تحتاج إلى ما هو أهـم ، تجنيد موارد، تحتاج ما هو أهم إلى تراكم تجارب (١)

ولم ينس حيدر باشا متواطئا مع الملك فاروق أن يخفي حقيقة ما يجري على أرض فلسطين فراح يصدر البيانات الكاذبة عن حقيقة الوضع في المعركة " كانت أنباء القتال كما تصفها البلاغات الرسمية مطمئنة إلى حد يشعر معه من يقرؤها أو يسمعها أن الدول العربية توشك أن تدخل تل أبيب . من أجل هذا لم يتحمس الرأي العام لفكرة وقف القتال أو إعلان الهدنة "(٢)

وجرت اتصالات بين الدول العربية أسفرت عن قبول الهدنة لمدة ثلاثة أسـابيع لأنهم يعرفون بواطن الأمور الخافية على الشعوب .

ولم تستغل الدول العربية الهدنة بتزويد جيشها بالعدة والعتاد ، كما أنها لم تعمل على تنظيم صفوفها وأحكام خططها وفقا لسير المعركة ومع ذلك رفضت مد الهدنة ثلاثة أسابيع أخرى واستمرت البلاغات الرسمية الكاذبة تمني الناس بقرب دخـول تل أبيب ! " وإنهم لكذلك إذ أذاعت هذه البلاغات الرسمية أن جناح الجيش الأردني المتصل بالجيش المصري ، والمرابط في بلدتي اللد والرملة ، قد تخلى عنهمـا ، فاستولى عليهما اليهود . ومن يومئذ بدأت حركات الجيوش العربيـة تبعـث إلـى النفوس شيئا من الريبة ، وإن أبى الناس أن يصدقوا أن قوة إسرائيل تـستطيع أن تتغلب على جيوش الدول العربية الست المشتركة في القتال . **وبدأ الناس يسمعون بعد ذلك عن تخلى بعض الجيوش العربية عن البعض الآخر ، وعن تجسس بعض العرب الفلسطينيين لحساب اليهود** . لذا بدأ التفاؤل الأول يذوي شيئا فشيئا "(٣)

واستمر القتال بين العرب واليهود ينتقل من السيئ للأسوأ بالنسبة للعرب . وبدأت القوات العربية تنسحب من مواقع احتلتها كبئر سبع الذي سبق أن اسـتولت عليـه

---

(١) محمد حسنين هيكل برنامج " مع هيكل " حلقة خاصة بمناسبة مرور ستين عاما على إنشاء دولة إسرائيل " فلسطين حق يأبى النسيان ج١ " مرجع سابق .
(٢) د. محمد حسين هيكل " مذكرات في السياسة المصرية " الجزء الثالث ص ٤٨ مرجع سابق
(٣) نفسه ص ٤٩ .

القوات المصرية بتضحيات وخسائر فادحة ، وازداد الأمر سوءا بحصار اليهود لقوات من الجيش المصري في الفالوجا .

وفي تلك الأثناء سعى الكونت فولك برنادوت وسيط الأمم المتحدة لوضع أساس للصلح بين إسرائيل والدول العربية فلما فشلت مساعيه الحميدة في التوصل لصلح " رأي أن يرفع إلى الأمم المتحدة تقريرا برأيه في الموقف وطريقة حله . وقد رفع هذا التقرير بالفعل واقترح فيه أن تعطى منطقة النقب للعرب ، وأن يعوض اليهود عن ذلك بأن يعطوا منطقة الجليل الغربي المجاورة للبنان . وكان هذا التقرير سيعرض في الجمعية العامة للأمم المتحدة حين ينعقد بباريس في شهر سبتمبر من سنة ١٩٤٨ .

ونظرا لأن هذا التقرير كان أفضل الحلول للقضية آنذاك فإن اليهود قاموا باغتيال الرجل النزيه برنادوت مبعوث الأمم المتحدة لأن تقريره يقضي على أحلامهم التوسعية ونظر الناس في كل الأمم إلى التقرير الذي وضعه على أنه وصية لرجل شريف ، وأن من واجب الأمم المتحدة أن تقر هذه الوصية وتنفذها . ما عسى أن يكون موقف الدول العربية من هذه الوصية ؟

لقد كانت تدرك أن لها مصلحة كبرى في قبولها . وكانت إنجلترا وأمريكا قد بعثت إليها تبلغها أنها إذا قبلتها وجدت تأييدا تاما من الدولتين الكبيرتين ومن مجموعة الدول الدائرة في فلكهما ، وهذه المجموعة تؤلف أغلبية عظمى في الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولم يكن ثمة ريب في أن إسرائيل ستقف كل جهدها في سبيل هذه المقترحات التي أدت إلى أن يقتل اليهود برنادوت ، فهي إن فعلت انقلبت الكفة في الأمم المتحدة وأصبح العرب موضع عطفها بعد أن كان اليهود موضع هذا العطف .

لكن الدول العربية نظرت إلى المسألة من ناحية أخرى فهي إن أقرت مقترحات برنادوت أقرت التقسيم الذي طلبته الأمم المتحدة ، والتي قامت الدول العربية في وجهه وحاربته بقواتها المسلحة (١) .

---

(١) نفسه ص ٥٢ .

وهنا تتجلى آفة من أعظم آفات كثير من العرب تغليب ما قد يراه كرامة شخصية أو مصلحة ذاتية على مصلحة الأمة ، أو بمعنى آخر أن الحاكم العربي على استعداد أن يضحي بمصلحة الأمة في سبيل محافظته على زعامته الجوفاء ، فسياسته للأمة مبنية على موروث جاهلي وهو أن العداوات دائمة والمصلحة غائبة ، وهذا مما أضر بالعرب أبلغ الضرر قديما وحديثا مع أن من حسن السياسة أن " المصالح هي التي تدعو إلى قيام الحرب واشتعال العداء ، والمصالح هي التي تدعو إلى عودة السلام ، وكما قال لوريان لمرستون . لا عداء دائم ولا صلح دائم وإنما مصلحة دائمة " (١)

ويُعرِّف الباحثون في العلوم السياسية " الدبلوماسية " بأنها " العقل الذي يمثل قوة الوطن في صلاته بالعالم الخارجي لأنها تجمع بين جنباتها العوامل المختلفة التي تمثل قوة الدولة ، وتحاول استغلال هذه العوامل بمهارة في دعم سلامة الدولة والمحافظة على كيانها ، وذلك بكسب الأصدقاء ، وشل إرادة الأعداء وتفتيتها . ويصل التوفيق الدبلوماسي إلى الذروة عندما ينجح في تحويل الأعداء إلى أصدقاء ، أو على أقل تقدير إلى محايدين " (٢) إلا أن ممثلي الدول العربية في الجمعية العامة للأمم المتحدة آنذاك اختلفوا ما بين دبلوماسيين يرون قبول مقترحات برنادوت لأنها أفضل ما يمكن الحصول عليه في ظل ضعف القوات العربية وتشتتها ، وما كان من صراع خفي بين الحكام العرب ، واختلاف سياساتهم وميل معظم القوى العظمى لقبول هذه الاقتراحات ، وبين من غلبت عليه طبيعته العربية فرأى أن مقترحات برنادوت تعد تراجعا عن السياسة التي انتهجتها الدول العربية ابتداءً من العداء المطلق لليهود وانتهاءً برفض التقسيم والاستمرار في الحرب حتى النهاية وإن كان ذلك يعني ضياع مزيدا من الأرض ، وخسران الدول العظمى لأن هذا ما وعدوا به الجماهير المتحمسة ولا يستطيعون أن يتراجعوا عنه حفاظا على ماء وجوههم ولتذهب فلسطين إلى الجحيم . وأخيرا انتصر رأي ثالث غريب لكنه

---

(١) السفير محمد التابعي " الدبلوماسية في الإسلام " ص ١٣٤دراسات قومية تصدر عن مركز النيل للإعلام .

(٢) د. محمد توفيق رمزي " علم السياسة أو مقدمة في أصول الحكم " ص١٧٢ مكتبة النهضة المصرية ط ٢

يتناسب مع طبيعة العرب وهو أنهم **لا يصوتون مع مقترحات برنادوت حتى لا يُعَدُّوا متراجعين عن قرار الحرب ، وموافقين على التقسيم ، وأن يُبَلِّغُوا انجلترا وأمريكا سرا أنهم يقبلون بهذه المقترحات إذا أقرتها الأمم المتحدة !!**

أرأيتم عقلية أغبى من هذه ؟! أرأيتم جبنا أشد من هذا ؟! ممثلو العرب يجبنون عن الموافقة صراحة على قرار هو الأصلح لهم في المقابل أن اليهود يبذلون غاية جهدهم لإفشال هذه المقترحات التي تحد من طموحاتهم التوسعية على حساب أرض العرب الذين لا يملكون جرأة اتخاذ قرار فيه صالحهم وهكذا اختار العرب المستحيل : أن يرفضوا المقترحات اختيارا ، ويقبلونها قسرا ! اختاروا أن يبلغوا إنجلترا وأمريكا أنهم لا يعارضون ما اقترحه برنادوت ولكنهم ، **لا يستطيعون أن يصوتوا صراحة معه . فإذا أقرته الأمم المتحدة قبلوه أساسا للصلح وتسوية الموقف في فلسطين** !!! " (١)

وفي مقابل هذا الموقف العربي الغبي الجبان بل الموقف الخائن لأن الساسة العرب ضحوا بمصلحة الأمة في سبيل محافظتهم على زعامتهم الجوفاء !! في مقابل ذلك " كان اليهود يبذلون غاية الجهد في هذه الأثناء لإقناع الدول كلها بأن موقف العرب ليس له من مظهر ما يسمح من بعد بالاعتماد عليهم وبأن اقتراح برنادوت لا يسمح لإسرائيل بالتوسع من غير أن تضطر إلى اتخاذ موقف غير ودي إزاء الدول العربية وبأنهم سينفقون في إصلاح منطقة النقب من الجهد والمال ما لم ينفق العرب منه شيئا أثناء القرون الطويلة المتعاقبة التي كان هذا النقب في أثنائها في حكمهم . واستطاع اليهود ببراعة أن يكسبوا إلى جانبهم عددا من الدول كفل لهم عدم نفاذ ما اقترحه برنادوت ، وكذلك انفضت دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة ولم يفد العرب منها شيئا مما كانوا يطمعون فيه " (٢)

والنتيجة أن رفضت المقترحات واستأنف القتال وضاعت فلسطين !!!

إن مواقف المسئولين العرب آنئذ كانت بدون شك لحماية كرامتهم وضرورة لبقائهم السياسي ، فبعد أن أثاروا شعوبهم إلى درجة كبيرة من الحماس من أجل

---

(١) د.محمد حسين هيكل " مذكرات في السياسة المصرية " ج ٣ / ص ٥٢ مرجع سابق .
(٢) نفسه ج ٣ / ص ٥٣ .

المشكلة الفلسطينية ولقنوهم بتصريحات متوقعة للانتصارات واخفوا عنهم التدهور في الموقف العسكري بقدر ما استطاعوا ، فإنهم لم يستطيعوا عقــد ســلام دون أن يضعوا أنفسهم في موقف حرج لأن السلام يعني – في هذه الحالة – إما تنازل عن معظم فلسطين لليهود بعد حرب " حوربت " لمنع هذا الظلم ، وإما أن السلام يعني اعتراف المسئولين العرب بالهزيمة وهو ما يمكن أن يعزى إلى سوء إدارة الحرب المزري من جانب الحكومات العربية (١)

وقد كتب جلوب قائد القوات الأردنية في حرب فلسطين حول هذا الموضوع يقول " لست أعرف على مدى التاريخ عملا في مثل هذا القدر من الحمق والتهور أتى به رجال تقع عليهم مسئولية الحكم .. لقد ضاع مستقبل شعب فلسطين ضحية لتعــدد السياسات العربية وعدم وضوح هدف نهائي للعمل بالإضافة إلى أنه لم يكن هنـــاك حد أدنى للتنسيق بين هذه السياسات " (٢)

وفي النهاية وطبقا لاتفاقيات الهدنة الدائمة حصلت إسرائيل على النصيب الأكبر وهو ما يصل إلى ٢٠,٩٣٢,٠٢٣ دونم في حين تبقى للعرب ما مساحته ٦,١٠٥,٠٠٠ دونم منها ٥,٧٥٥,٠٠٠ دونم هي مساحة الضفة الغربية ، و ٣٥٠,٠٠٠ دونم مساحة غزة ، وفي حين كان قرار التقسيم يعطي ٤٢,٨٨ % للعرب و ٥٦,٤٧ % لليهود ، أصبحت النسبة بعد الحرب واتفاق الهدنة ٢٢,٦ % للعرب ٧٧,٤ % لليهود .

ولقد قُسِّم الجزء المتبقي من أرض فلسطين بين الملك فاروق ملك مصر ، والملك عبد الله ملك شرق الأردن ، فقد قام الملك عبد الله بضم الضفة الغربية الفلسطينية ، وإعلان المملكة الأردنية الهاشمية ، وكذلك قامت مصر في العهد الملكي بوضع قطاع غزة تحت الإدارة المصرية .

كان ذلك خطأً تاريخيا قاتلا ، لم ينتبه إليه العرب ، ذلك لأنه كان الواجب العربي يحتم – إذا خلصت النوايا – أن تقام دولة فلسطين على ما تبقى من أراضي فلسطينية (الضفة الغربية ، وقطاع غزة) منذ إعلان الهدنة عام ١٩٤٩ ، ولا

---

(١) د. محمد نصر مهنا " صور من المشكلات السياسية في العالم المعاصر " ص ٢٩ مرجع سابق .
(٢) نفسه ص ١٧

ينتظرون حتى تضيع كل الأراضي الفلسطينية في يونيو ١٩٦٧ ثم ينادون بحكم ذاتي للشعب الفلسطيني على أراضيه المحتلة بعد الخامس من يونيو ١٩٦٧ .

تصور كم عاما أضاعها الحكام العرب على شعب فلسطين ؟! أربعة وأربعين عاما (منذ إعلان هدنة رودس ١٩٤٩ إلى اتفاقية أوسلو ١٩٩٣) تغيرت فيها الأمور : قويت إسرائيل وكثر عددها وعتادها واستوطنت الأراضي المحتلة ، وضعف العرب وكثر اللاجئون الفلسطينيون واستوطنوا البلاد العربية ، لقد كانت القوى العربية قادرة على إيصال الضفة الغربية مع قطاع غزة بشريط أرض يمكن قيام دولة فلسطينية على الأرض التي كانت تحت السيادة الأردنية والمصرية ، ولكن عامل الوصاية على الشعب الفلسطيني أخر القضية لهذه الأعوام الطويلة ، ولو أن الشعب الفلسطيني تمكن من إدارة شئونه بنفسه لتغير وجه التاريخ في هذه المنطقة على الإطلاق ولكان ما يسعى الفلسطينيون للحصول عليه الآن قد تحقق عام ١٩٤٩ . (١)

وترتب على هذه الحرب الفاشلة ، والوصاية الظالمة أن نزح أكثر من ٧٠٠ ألف فلسطيني إلى الأردن وقطاع غزة وسوريا ولبنان وانتهي بهم الوضع إلى العيش كلاجئين في البلاد التي نزحوا إليها . وهكذا انتهت حرب ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل أو على الأصح بين العرب والعرب ، والعرب والإسرائيليين على أرض فلسطين ! انتهت الحرب وأصبحت إسرائيل من الناحية العملية دولة قائمة على أرض فلسطين وقد عقدت بين إسرائيل وبين الدول العربية هدنة دائمة ، وقد أعلنت أمريكا وإنجلترا وفرنسا أنها تكفل بقاء الحالة في الشرق الأوسط بكل الوسائل المنصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة وفي غير ميثاق الأمم المتحدة (٢)

كما اتخذت إسرائيل تجاه الدول العربية منذ إبرام الهدنة سياسة صارمة تقوم على أساس الردع الحاسم والرد العسكري العنيف على أي حادث تافه من قبيل أعمال التسلل عبر خطوط الهدنة .

وكان بن جوريون ورئيس أركانه موشى ديان حريصين على إظهار القوة العسكرية لإسرائيل وتوتير الموقف، على خطوط الهدنة بقصد حمل الدول العربية

---

(١) د. عبد الفتاح مقلد الغنيمي " إسرائيل إلى زوال " دار الأمين للنشر والتوزيع ص ١٣٧

(٢) د. محمد حسين هيكل " مذكرات في السياسة المصرية " ج ٣ / ص ٤٤ مرجع سابق .

على قبول إسرائيل والاعتراف بها وبقوتها والتخلي عن أي تفكير في قتالها ففضلا عن الهجمات العسكرية على القرى العربية بما لا يتناسب مع ما يرتكب من حوادث (١) ، دأبت إسرائيل على القيام بمناورات قرب خطوط الهدنة . وقد صرح ديان بأن مثل هذه التصرفات ضرورية ليس من أجل حمل الدول العربية على فرض سيطرتها التامة على حدودها فحسب ، وإنما لوضع سكان إسرائيل وجيشها في حالة عالية من التوتر كذلك وإلا كف هؤلاء السكان عن أن يكونوا شعبا مقاتلا منظما .

ولقد أجبرت السياسة الإسرائيلية هذه الحكام العرب على مهادنة إسرائيل وعدم التفكير في شن أي هجوم على إسرائيل كما أجبرتهم على قمع القوى المنادية بتحرير الأراضي الفلسطينية من العدو الصهيوني أو حتى المطالبة بالإصلاح الداخلي ومقاومة الفساد أو المطالبة بالديمقراطية !!

وبهذا خرجت الجيوش العربية المنظمة من الصراع العربي / الإسرائيلي . فكل الحكام العرب انشغلوا بسياستهم الداخلية عن القضية الفلسطينية حتى الرئيس جمال عبد الناصر الذي يعده مريدوه العدو الأكبر لإسرائيل والمدافع الأول عن الحقوق الفلسطينية اعترف في وقت مبكر جدا (في مؤتمر باندونج ١٩٥٥) (٢) بقرارات الأمم المتحدة عامي : ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ بشأن تقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ويهودية ، كما أنه لم يسع لمواجهة إسرائيل عسكريا لذا لم يشن حربا هجومية وقائية واحدة ضد إسرائيل رغم علمه – يقينا – بعزم إسرائيل على شن حرب وشيكة على مصر (حدث هذا في ٥٦ ، ٦٧) ، وبعد جلاء العدوان الثلاثي وتوقيع اتفاقيته تأكد اعتراف عبد الناصر – الرسمي – بإسرائيل وبحقها في الوجود ، وعليه فإنه لم يطلق رصاصة واحدة نحوها لمدة إحدى عشرة سنة (من ٥٦ – ٦٧) رغم الاستفزازات الإسرائيلية المتكررة ، التي وصلت إلى حد قيامها باحتلال

---

(١) كما حدث في أكتوبر ١٩٥٣ عندما قامت قوة إسرائيلية بقيادة آريل شارون بالهجوم على قرية " قبية " الأردنية انتقاما لمقتل امرأة وطفليها وهدمت عدة منازل وقتلت أكثر من ٥٠ وأصابت ١٥ من سكان القرية .

(٢) تمكن عبد الناصر من إدراج الصراع العربي الإسرائيلي في جدول أعمال مؤتمر باندونج ، وجعل البيان الختامي يتناول نصا يدعو إلى تطبيق قرار الأمم المتحدة على فلسطين ، وتحقيق حل سلمي للقضية الفلسطينية ، وهو ما يعني الاعتراف الصريح بحق إسرائيل في الوجود على الأراضي الفلسطينية وفقا لقرارات الأمم المتحدة لسنة ١٩٤٧ ، ١٩٤٨

منطقة " العوجا " و" الكونتيلا " المصريتين ووصل عدد القتلى المصريين من جراء هذه الغارات إلى ١٤٧ جنديا مصريا (١) غير الجرحى .

فقد اتبع عبد الناصر منذ حرب السويس سياسة المحافظة على الحدود مع إسرائيل ، وصرح عبد الناصر لصحيفة الصاندي تايمز اللندنية بأن سياسته هي بناء القوة الاقتصادية للعالم العربي ورفع مستوى المعيشة فيه إلى أن يجيء الوقت الذي يكون قد وصل إلى التطور الذي يتيح له ممارسة ضغط كاف على الإسرائيليين يحملهم على تفهم عدالة الموقف العربي (٢)

وكان الفكر السائد لدى العناصر الفلسطينية الراديكالية هو دفع الدول العربية إلى الحرب وتصعيد أعمال المقاومة ضد إسرائيل بما يؤدي إلى تفجير الموقف .

وفي المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في مايو ١٩٦٥ اتهم السوريون عبد الناصر بالتستر خلف قوات الطوارئ الدولية لتجنب الحرب مع إسرائيل ، وردد الأردن نفس النغمة . (٣)

وعلى الرغم من مؤتمرات القمة العربية فإن وحدة الصف التي استهدفها عبد الناصر كانت لا تخفي الانقسامات العربية وتعارض سياسات الدول التقدمية والمحافظة . واستخدمت القضية الفلسطينية كقميص عثمان يلوح به المزايدون من السوريين والعراقيين والفلسطينيين ، وكان عبد الناصر واضحا في شرح الموقف تجاه إسرائيل ووضع الحكومات والمنظمات العربية أمام حقائق الموقف موضحا أن العرب غير مستعدين للمواجهة مع إسرائيل . بل عليهم أن يحشدوا طاقاتهم ويدعموا قواتهم بالتدريب المتواصل والأسلحة الحديثة خلال سنوات طويلة .(٤)

---

(١) في ٢٨ فبراير ١٩٥٥ اخترقت إسرائيل حدود الهدنة وشنت عدوانها على قطاع غزة ، وراح ضحيته ٣٨ قتيلا ، ٣١ جريحا ، وفي نهاية أغسطس شنت هجومها على قطاع غزة ، وأسفر الحادث عن مقتل ٣٩شخصا ، وفي الشهر التالي احتلت إسرائيل منطقة العوجة المنزوعة السلاح ، وفي أكتوبر ١٩٥٥ احتلت القوات الإسرائيلية الكونتلا ، وفي الشهر التالي شنت هجوما عنيفا من قاعدة العوجة أودى بحياة ٧٠ شخصا .انظر د. لطيفة محمد سالم " أزمة السويس " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٢٩ .

(٢) السفير طاهر شاش " المواجهة والسلام في الشرق الأوسط " دار الشروق ص ٦٠ .

(٣) نفسه ص ٦١ .

(٤) نفسه ص ٦١ .

لقد أجبر الجيشُ الإسرائيلي المسلح بأحدث الأسلحة الغربية وتأييد أمريكا ودول الغرب الحكامَ العرب على مهادنة إسرائيل وعدم التفكير في شن أي هجوم على إسرائيل وقد جاءت الحروب الكلامية التي شنها العرب على إسرائيل وأمريكا بديلا عن التفكير في حرب حقيقية وبهذا خرجت الجيوش العربية المنظمة من الصراع العربي / الإسرائيلي . وتفاديا للمواجهة المباشرة مع إسرائيل وحلفائها من الغرب أبدى الرئيس عبد الناصر استعداده لقبول المساعي التي تبذلها تلك الدول من أجل التوصل إلى سلام مع إسرائيل وحرص على أن تظل خطوط الهدنة المصرية الإسرائيلية هادئة (1)

وتنجح العنصر العربية الراديكالية ، والاستفزاز الإسرائيلي في جر عبد الناصر إلى إشعال الموقف فأنهي مهمة قوات الطوارئ ، وأغلق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية . وهكذا تلبد الموقف ونجحت إسرائيل في اصطياد الديك الرومي (هكذا كانت تسمي إسرائيل خطة حرب ٦٧) . فأنزلت بمصر هزيمة ساحقة فقدت مصر فيها سيناء وقطاع غزة كما خسرت الجانب الأكبر من قواتها المسلحة .

ولم تكتف إسرائيل بذلك بل دفعت قواتها إلى سوريا واستولت على هضبة الجولان المنيعة ، وفي نفس الوقت استولت القوات الإسرائيلية على مدينة القدس العربية ، وعلى الضفة الغربية لنهر الأردن .

وبذلك استولت إسرائيل على فلسطين كلها كما استولت على مناطق من الأراضي المصرية والسورية والأردنية .

سعى مجلس الأمن للتدخل وإيجاد حل للمشكلة ، وبعد مداولات طويلة أصدر قراره الشهير رقم ٢٤٢ في نوفمبر ١٩٦٧ الذي يقضي بانسحاب إسرائيل من أراضي عربية حسب التفسير الإسرائيلي ، ومن الأراضي العربية حسب التفسير العربي التي احتلت في حرب ١٩٦٧ ، وأن تنهي كل الدول حالة الحرب ، وأن تحترم السيادة والإقليمية والاستقلال السياسي لكل دول المنطقة وحقها في العيش بسلام في نطاق حدود مأمونة ومعترف بها .

---

(1) نفسه ص ٤٧ .

كما نص القرار على ضمان حرية الملاحة في الممرات الدولية وتسوية مشكلة اللاجئين ، وإنشاء مناطق منزوعة السلاح . (١)

وبقبول مصر/عبد الناصر لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ظلت القضية الفلسطينية تعامل كمشكلة لاجئين فقد كان الشاغل الأول للدول العربية التي احتلت أجزاء من أراضيها أن تزيل آثار العدوان ، ولم يكن الفلسطينيون ليقبلوا أن تتقلص قضيتهم لتصبح مشكلة لاجئين ، كما أن مصر عندما قبلت القرار رقم ٢٤٢ ، فإنما كان ذلك راجعا إلى ما حصلت عليه من " آثر جولدبرج " المندوب الأمريكي لدى مجلس الأمن وغيره من المندوبين من تأكيدات بأن القرار يتعلق بنزاع ١٩٦٧ وحده ، حيث إن القضية الفلسطينية لم تكن مطروحة على المجلس (٢)

ورغم موافقة مصر على قرار مجلس الأمن إلا أن إسرائيل عملت على إفشال جميع الجهود الدولية لتحقيق الانسحاب من الأراضي المحتلة بل إنها تمادت في إقامة المستوطنات اليهودية في الأراضي العربية المحتلة ، وحاولت تهويد الضفة الغربية ، وعلى هذا بدأت مصر حرب الاستنزاف للقوات الإسرائيلية إلى إن قامت حرب أكتوبر ١٩٧٣م (٣)

قضت حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ على غرور قادة إسرائيلي ودعتهم للتفكير جديا في تسوية سلمية بعد رفضهم الدائم لها اعتمادا على قوتهم وضعف العرب .

وأثناء حرب أكتوبر المجيدة وجه السادات من مجلس الشعب الدعوة لعقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط تشارك فيه الدول الخمس المتمتعة بعضوية مجلس الأمن الدائمة .

وفي ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ صدر قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ ليصبح هو والقرار رقم ٢٤٢ أساس التسوية الشاملة بين الأطراف العربية وإسرائيل . وينص القرار

---

(١) د. عطية القوصي، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٢٣٥

(٢) السفير طاهر شاش " المواجهة والسلام في الشرق الأوسط " مرجع سابق ص ١٣٤

(٣) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، و د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " ص ٢٣٥ .

على دعوة الأطراف إلى وقف كل أعمال القتال والنشاط الحربي فورا خلال ١٢ ساعة على الأكثر وذلك في المواقع التي احتلتها يوم ٢٢ أكتوبر وبدء تنفيذ القرار رقم ٢٤٢ بكل أجزائه فور وقف إطلاق النار على أن تبدأ فورا المفاوضات بين الأطراف المعنية تحت الرعاية المناسبة بهدف إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط . (١)

معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية

عقد مؤتمر كامب ديفيد في الفترة من ٥ إلى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ وتقدمت مصر بمشروعها القائم على أساس توقيع معاهدات سلام تشمل التنفيذ الكامل للقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ وانسحاب إسرائيل من كافة الأراضي العربية المحتلة مع ترتيبات أمنية وإقامة علاقات سلام ووضع جدول زمني لتنفيذ الالتزامات المتبادلة . ودعا المشروع المصري الأطراف العربية الأخرى للانضمام .

كما تضمن المشروع أحكاما عن تسوية المسألة الفلسطينية تتضمن فترة انتقالية وممارسة الشعب الفلسطيني حقه في تقرير المصير قبل انتهاء تلك الفترة ، كما تتضمن أحكاما بشان القدس على أساس انسحاب إسرائيل وتشكيل مجلس بلدي مشترك وضمان حرية العبادة والوصول لأماكنها ، وأحكاما بشأن تمكين اللاجئين من العودة أو التعويض . (٢)

نجحت خطة كيسنجر في التعامل مع النزاع العربي الإسرائيلي بسياسة الخطة خطوة وإقامة السلام على مراحل ، ولكن ظل نجاحها قاصرا على مصر وإسرائيل بسبب تبني سوريا والأردن ومنظمة التحرير لمبدأ لا تسوية سلمية مع إسرائيل قبل انسحابها الكامل دون شرط أو قيد من الأراضي العربية المحتلة ولقد شجع الاتحاد السوفيتي هذه السياسة – وربما هو الذي أملاها على حلفائه العرب – حتى يضمن تبعية هذه الدول له . إذ لو حُل الصراع العربي الإسرائيلي سلميا بمبادرة أمريكية لانعدمت حاجة هذه الدول للتحالف معه إذ أن لجوءها إليه كان لمعاونتها في الحصول على حقوقها المشروعة ونكاية في أمريكا حليفة إسرائيل .

---

(١) السفير طاهر شاش " المواجهة والسلام في الشرق الأوسط " مرجع سابق ص ٩٠
(٢) نفسه ص ٩٦

ولقد تمكنت مصر من توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية في ٢٦ مارس ١٩٧٩وقد نصت المعاهدة على ممارسة مصر لسيادتها الكاملة حتى حدودها الدولية (مع فلسطين تحت الانتداب) وانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء واستخدام مطارات رفح ورأس النقب وشرم الشيخ للأغراض المدنية وحدها وحرية الملاحة في قناة السويس وفقا لاتفاقية القسطنطينية وفي مضيق تيران وخليج العقبة كممرات مائية دولية وإقامة طريق سريع بين سيناء والأردن بالقرب من إيلات مع ضمانات لحرية المرور بين مصر والأردن ومرابطة قوات عسكرية وضع الاتفاق تفاصيلها ومواقعها . وبعد توقيع المعاهدة وتمام الانسحاب المرحلي تقام العلاقات الطبيعية بين مصر وإسرائيل .

أما بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة فقد تضمن اتفاق كامب ديفيد خطة للتسوية على مراحل : الأولى مرحلة انتقالية تمتد خمس سنوات تنقل فيها إلى سلطة فلسطينية منتخبة سلطات ومسئوليات حكم ذاتي كامل مع وضع ترتيبات أمنية وأخرى لعودة النازحين الفلسطينيين أثناء ١٩٦٧، وفي المرحلة الثانية تجرى مفاوضات بين ممثلي الفلسطينيين وإسرائيل ومصر للاتفاق على الوضع النهائي ، ومفاوضات أخرى لعقد معاهدة سلام إسرائيلية أردنية تشارك فيها نفس الأطراف عدا مصر وتجرى هذه المفاوضات – بنوعيها – في موعد لا يتعدى بداية السنة الثالثة من الفترة الانتقالية وعلى أساس القرار ٢٤٢ .(١)

جبهة الرفض العربية

إن منظمات الفلسطينية بدعم من الاتحاد السوفيتي والحكام العرب الراديكاليين رفضت الاشتراك في مباحثات السلام المصرية الإسرائيلية بالرعاية الأمريكية بل وشكلوا جبهة للصمود والتصدي من ليبيا والجزائر والعراق واليمن الديمقراطية وسوريا ومنظمة التحرير لمقاطعة نظام السادات سياسيا .

عُقِد مؤتمر قمة عربية في طرابلس في ديسمبر ١٩٧٧ بدعوة من العقيد معمر القذافي حضرته سوريا والجزائر والعراق واليمن الديمقراطية ومنظمة التحرير وليبيا وقام بدراسة الأوضاع العربية بعد زيارة القدس واعتبر هذه الزيارة خرقا

---

(١) نفسه ص ١٠٦ ، ١٠٧

خطيرا لمبادئ وأهداف النضال العربي ضد العدو الصهيوني وتبديدا لحقوق الشعب الفلسطيني وخروجا على الوحدة العربية ومخالفة خطيرة لميثاق الجامعة العربية وقرارات القمم العربية وانسحابا من جانب مصر من جبهة النضال ضد العدو الصهيوني . وقرر تجميد العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة المصرية وعدم التعامل معها على المستويين العربي والدولي ومقاطعة اجتماعات الجامعة العربية التي تعقد في مصر .(١)

تراجع جبهة الرفض عن مواقفها

لقد تضافرت مجموعة من العوامل أثرت على مجمل الأوضاع في المنطقة العربية وعلى مقومات مفهوم الأمن القومي الإسرائيلي، حيث شهد عقد التسعينيات تحولات وتطورات غيَّرت مفاهيم كثيرة كانت راسخة، وقلبت موازين كانت مستقرة، فقد اختفت الدولة السوفيتية من الخريطة السياسية العالمية، وأدَّى انتهاء الحرب الباردة إلى فقدان العديد من الدول العربية الفاعلة حليفها الإستراتيجي القديم، وإلى انعدام هامش المناورة أمامها، الأمر الذي قلَّص إلى حدٍّ بعيد قدرتها على شن حرب ضد إسرائيل، ولكنها أدَّت إلى تقوية الموقف الإسرائيلي في الميزان الإستراتيجي، فضلاً عن اتساع نطاق هجرة اليهود السوفييت وبخاصة من العلماء وذوي الكفاءات والخبرات، وتنامت العلاقات الروسية الإسرائيلية حتى تُوِّجت بتوقيع اتفاق للتعاون الدفاعي والأمني في ديسمبر ١٩٩٥.

وفي ظل انفراد الولايات المتحدة بالهيمنة في الساحة العالمية، تم توطيد التحالف الإستراتيجي الأمريكي / الإسرائيلي، وامتد إلى مجال أنظمة التسلح الكبرى التي تعتمد في الأساس على الثورة التكنولوجية، كما أبرزت تلك التطورات العالمية علو شأن الاقتصاد والاتجاه نحو التكتلات الاقتصادية.

أدى موقف منظمة التحرير المؤيد للرئيس العراقي صدام حسين ورفضها إدانة غزوه للكويت إلى الإضرار بصورتها العامة على الساحة الدولية فضلا عن تدهور علاقاتها مع السعودية والكويت وبقية دول الخليج وفتور علاقتها مع مصر وبقية الدول العربية التي وقفت في وجه العدوان العراقي . وأدى تدهور علاقاتها بدول

(١) نفسه ص ١٠٩

الخليج إلى فقدان الموارد المالية الضخمة التي كانت تحصل عليها سواء من حكوماتها أو من الجاليات الفلسطينية التي تعمل بها والتي اضطرت أعداد كبيرة منها إلى الرحيل منها في أعقاب الحرب . كما تأثر موقف الأردن لاتخاذه نفس الموقف المؤيد لصدام حسين .

وبعد انتهاء حرب الخليج كان هناك إجماع دولي يؤكد على ضرورة العمل من أجل تسوية القضية الفلسطينية دعماً للاستقرار في الشرق الأوسط .

ونتيجة لهذه الظروف تراجعت الدول التي رفضت اتفاقات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية / الإسرائيلية عن مواقفها ، وتبنت خيار السلام وعقدت منظمة التحرير اتفاقية إعلان مبادئ مع إسرائيل في أسلو ١٩٩٣ ، كما عقدت الأردن معاهدة سلام مع إسرائيل في عام ١٩٩٤ . ووافقت سوريا على اتفاقية سلام مع إسرائيل عام ٢٠٠٠ ولكن إسرائيل تراجعت عنها في اللحظة الأخيرة .

ويوم ٢١ مايو ٢٠٠٨ صرح مصدر مسئول فى وزارة الخارجية السورية أن سوريا وإسرائيل بدأتا محادثات سلام غير مباشرة تحت رعاية تركيا.

ونقلت وكالة الأنباء السورية عن المصدر قوله " أعرب كل منهما (سوريا وإسرائيل) عن رغبته في إجراء المحادثات بنية حسنة وقررا متابعة الحوار بينهما بجدية واستمرارية وذلك لتحقيق هدف السلام الشامل وفقا لمرجعية مؤتمر مدريد للسلام .

وفيما يشبه عرض لمطالب إسرائيل من سوريا مقابل التخلي عن الجولان قالت وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني إن سوريا يجب أن تنأى بنفسها عن إيران وتقطع العلاقات مع «حزب الله» اللبناني وحركة " حماس " إذا أرادت التوصل إلى سلام مع إسرائيل.

هذا عن دول المواجهة أما ليبيا فقد قد أعلنت في ديسمبر ٢٠٠٣ بشكل مفاجئ عن امتلاكها برنامجا نوويا سريا وأعربت عن استعدادها التخلي عن برامج أسلحة الدمار الشامل وقدمت تفاصيله للوكالة الدولية للطاقة الذرية .

كما أن معمر القذافي استقبل وفدا من اليهود الإيطاليين، الذين عاشوا في ليبيا سابقا، لإجراء محادثات بشأن إمكانية دفع تعويضات عن ممتلكات اليهود الليبيين الذين طردوا من البلاد في أعقاب حرب ٦٧ بالشرق الأوسط . وقد وصفت الخطوة بأنها تحول كبير آخر في سياسة ليبيا.

ونتيجة لهذه السياسة الليبية فقد أنهى الاتحاد الأوروبي العقوبات الاقتصادية التي كان قد فرضها على ليبيا واستمرت ١٢ عاما بسبب قضية لوكربي ، كما رفع الحظر الذي كان مفروضا على الأسلحة كرد فعل على تخلي ليبيا عن برنامجها لأسلحة الدمار الشامل وعدد من الخطوات الأخرى التي وصفت بالايجابية نحو الغرب والولايات المتحدة. (١)

مبادرة السلام العربية وحل مشكلة الصراع العربي / الإسرائيلي

وكانت البلاد العربية قد وافقت بالإجماع – بما فيهم سوريا – على مبادرة السلام السعودية التي تقدم بها الأمير عبد الله لمؤتمر القمة العربي المنعقد في بيروت في ٢٨-٣-٢٠٠٢ .

ولقد صادق المؤتمر بالإجماع على المبادرة السعودية، التي أصبحت بعد تلك المصادقة مبادرة السلام العربية وهي تلخصت في الشروط التالية :

١- الانسحاب الكامل من الأراضي العربية المحتلة بما في ذلك الجولان السوري، وحتى خط الرابع من يونيو ١٩٦٧، والأراضي التي مازالت محتلة في جنوب لبنان.

٢- التوصل إلى حل عادل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين، يتفق عليه وفقاً لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة.

٣- قبول قيام دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة على الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ ٤ يونيو ١٩٦٧ في الضفة الغربية وقطاع غزة تكون عاصمتها القدس الشرقية

٤- عندئذٍ تقوم الدول العربية بما يلي :

---

(١) نقلا عن وكالة الأنباء العالمية BBC بتاريخ ١٢ أكتوبر ٢٠٠٤

أ- اعتبار النزاع العربي -الإسرائيلي منتهياً، والدخول في اتفاقية سلام بينها وبين إسرائيل مع تحقيق الأمن لجميع دول المنطقة.

ب- إنشاء علاقات طبيعية مع إسرائيل في إطار هذا السلام الشامل .

ج- ضمان رفض كل أشكال التوطين الفلسطيني الذي يتنافى والوضع الخاص بالبلدان العربية.

د- يدعو المجلس المجتمع الدولي بكل دوله ومنظماته إلى دعم المبادرة.

هـ- يطلب المجلس من رئاسته تشكيل لجنة خاصة من عدد من الدول الأعضاء والأمين العام، لإجراء الاتصالات اللازمة لهذه المبادرة، والعمل على تأكيد دعمها على كافة المستويات في مقدمتها مجلس الأمن والأمم المتحدة .

وهكذا أصبح أمل الدول العربية هو اعتبار النزاع العربي - الإسرائيلي منتهيا لو قبلت إسرائيل قيام دولة فلسطينية على الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ ٤ يونيو ١٩٦٧ في الضفة الغربية وقطاع غزة تكون عاصمتها القدس الشرقية . وهذه المساحة لا تمثل سوى ٢٢,٦ % فقط من أرض فلسطين !!

والعجيب أن إسرائيل رفضت هذه المبادرة وتصر على احتلال الأراضي العربية

أما عن كيفية الخروج من هذا المأزق وكيفية استعادة أمجادنا العربية والإسلامية انظر كتابنا " هذه استراتيجيتهم فماذا نحن فاعلون ؟ " .

***

كتب للمؤلف

(أ) كتب مطبوعة

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي .

٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي . دار الإبداع للصحافة والنشر .

٣- اليهود والصليبيون الجدد (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) دار الإبداع للصحافة والنشر .

٤- هذه استراتيجيتهم ، فماذا نحن فاعلون ؟ دار الإبداع للصحافة والنشر .

٥- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن. دار الإبداع للصحافة والنشر

٦- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة.دار الإبداع للصحافة والنشر

٧- اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية . دار الإبداع للصحافة والنشر

٨- من أحلام الشباب (قصص قصيرة) دار الإبداع للصحافة والنشر .

٩- زمن الطغيان (قصص قصيرة) دار الإبداع للصحافة والنشر .

١٠- ابن السلطان يبحث عن سمير (قصص قصيرة) دار الإبداع للصحافة والنشر .

(ب) كتب تحت الطبع

* سلسلة نحو فهم صحيح لحقيقة الصراع العربي الصهيوني

١- الدين والسياسة والنبوءة .

٢- الطبيعة العربية والصهيونية ، الزعامات المزعومة والسياسات المدروسة

٣- دروس سياسية من التجربة الناصرية .

٤- معجزة إسرائيلية أم خيبة عربية .

٥- الخلاص الإلهي في آخر الزمان في اليهودية والمسيحية والإسلام .

* رؤية إسلامية للحضارة المصرية القديمة .

– يؤمن المؤلف بأنه لن يُجدِّد شباب الأمة العربية والإسلامية إلا الإيمان الصادق ، والفكر المستنير ، والعمل المخلص ، وفقه الواقع ، وأنه ليس أضر عليها من النفاق ، وجمود الفكر ، والتواكل ، والجهل بالواقع .

التليفون المحمول : ٠١٢٦٤٠٦٤٨٩

البريد الالكتروني : yuness١١٢@hotmail.com

***

الموضـــــــــــوع	الصفحة

الفصل الثاني : موقف المسيحية من اليهود

الفصل الثالث : بنو إسرائيل في القرآن الكريم

الفصل السادس : حياة اليهود في الجيتو

الفصل السابع : الصهيونية أهدافها ووسائلها

الفصل الثامن : كيف تأسست دولة إسرائيل

الفصل التاسع : الموقف العربي من المشروع الصهيوني